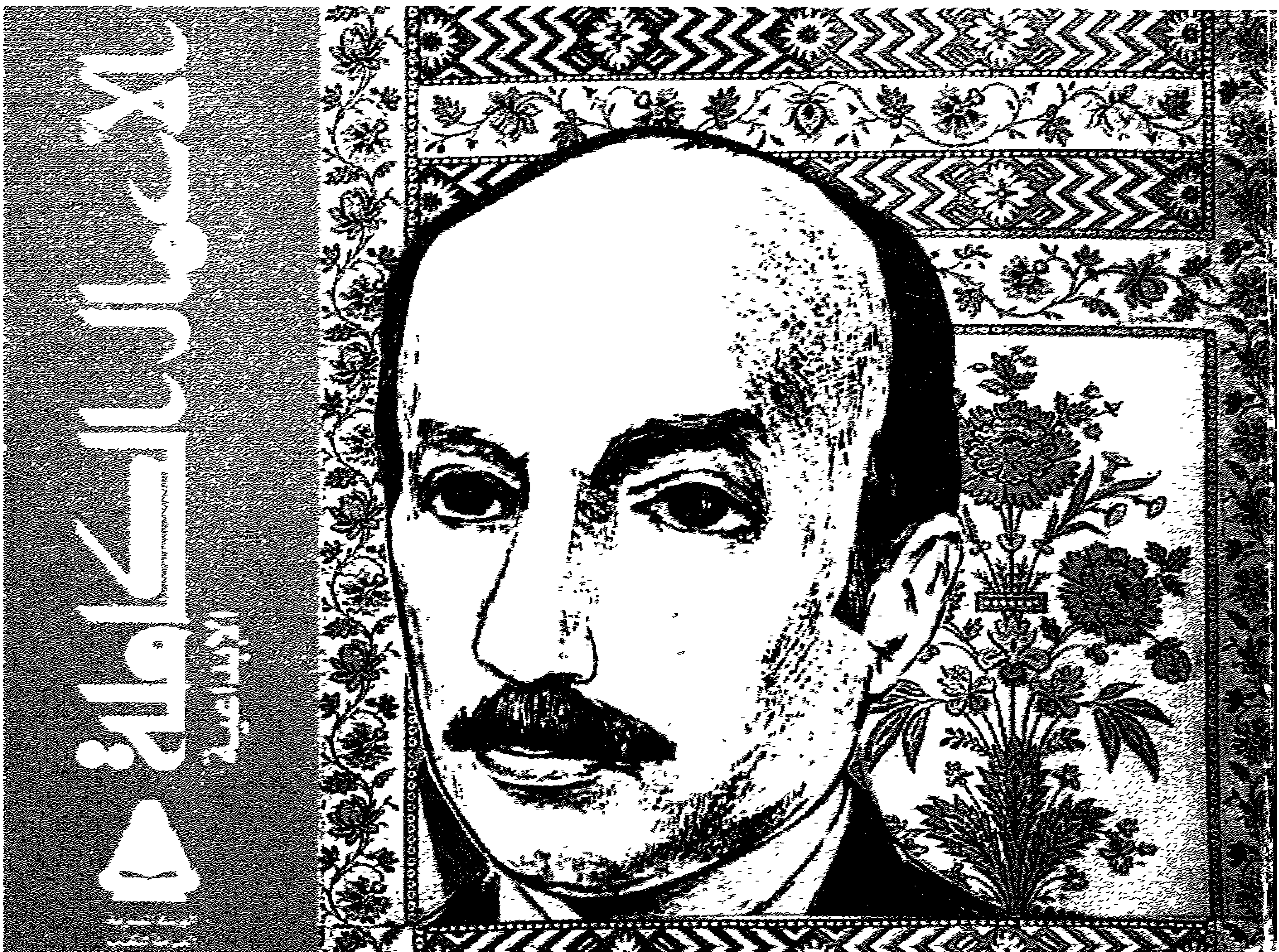


سعد مكاوى

الرقص على العشب الأخضر
أبــــواب الليــــل
الفجر يزور الحديقة



إهـــــــــداء٢٠٠٧

الدكتور / عاطف رمضان دياب

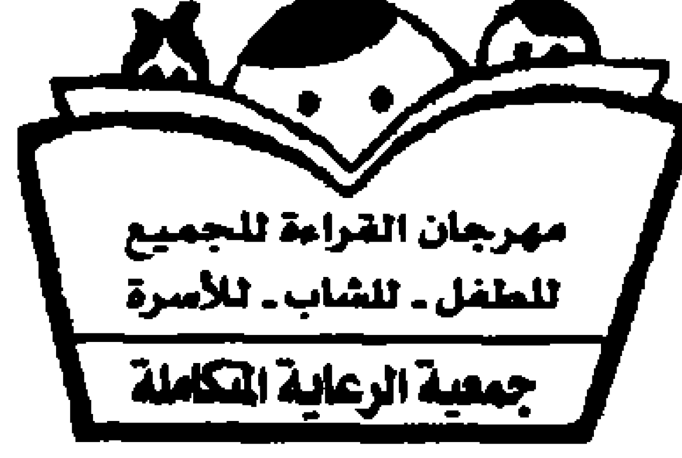
جمهورية مصر العربية

الرقص على العشب الأخضر

أبواب الليل

الفجر يزور الحديقة

سعد مكاوي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الكاملة)

الرقص على العشب الأخضر
أبواب الليل
الفجر يزور الحديقة
سعد مكاوى

الغلاف
والإشراف الفنى
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفني والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزار ة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

علي سـبيل التقـديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصدارتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

الرقص على العشب الأخضر

— ١ —

الرقص على العشب الأخضر متعة الليالى المقمرة ، فى خضرة سابغة لونها رائق وحواشيها مهذبة ، لا يخدش مساحتها الواسعة أمام البيت الصغير تمثال أو شجرة ، حتى أحواض الأزهار نائية هناك فى حضن السور ، ممتدة فى شريط رفيع حول بساط الخضرة العبق داخل السور العالى الذى يحرم على أى عين بشرية أن تختلس ولو لمحة من الجنة .

هى ترقص حول الفراش الأرضى المعد فى الوسط ، وضوء القمر يسكب على عريها الكامل انعكاسات باهرة ، وعلى خضرة العشب يتلألأ جسمها المبدع تكوينا وحركة ، أنثى فاخرة حينا وحينا آخر فراشة طاهرة .

وهو ينهل رقصها راقدا متجردا فى حمام من أشعة القمر ، فى تمام صحوه قبيل الفجر ، لا مخمورا ولا مخدورا بل سكران برقصها وحده ، دائرة حوله من بعيد أو دانية منه بكمالها الجسمانى وخفتها الروحانية .

وهما فى صومعة رفعا سورها عاليا فى قلب زراعة صغيرة ، مسورة هى الأخرى بأسلاك شائكة .. وبيضاء كالياسمينة ظلت تدنو بالحركات الأخيرة لرقصتها من طرف الفراش حتى جلست

تلتقط انفاسها وعلى وجهها طلاقة النشوة ، فمد لها يده بفوطة أخذت تدلك بها صدرها وبطنها وهى تومىء بوجهها المبتسم نحو الكوبة الزجاجية المقلوبة كالغطاء على حلق القلة الفخـــارية ، فملأها لها واعتدل فى رقدته ليرفع الماء الى شفتيها فتغيرت خطوط جسمه هو الآخر ولمعت على سمرته الأشعة ، ثم ابتسم كل منهما لوجه الآخر قبل أن تستلقى الى جانبه وتتمدد على ظهرها مثله فى حمام القمر .

وسألها لما بشر النور بمطلع النهار :

ـــ هل ندخل ؟

ـــ كما قدمت للنجوم التحية ، أريد أن أحيى مشرق الشمس !

وفى أشعة الشمس الرقيقة التى أخذت فى التدفق عبر جدار السور تفتحت الياسمينة الحية ونفحت الصباح الوليد بعطرها . وتمطى هو فى جلسته على طرف الفراش حتى لانت كل عضلة فى جسمه متابعا وثباتها الرشيقة هنا وهناك ، الى أن أحس فجأة بالجوع وهى تدنو منه متطاوسة .

وتمثل لخاطره فى الحال طبق كبير مفعم بالحمام المشوى على الفحم ، فخطف يدها واندمج معها فى حركاتها الراقصة وهو يطير بها نحو الباب الخلفى للبيت ، باب المطبخ ..

ـــ جائعة مثلى ؟

ـــ جوعى متوحش !

ـــ حمام مشوى ؟

ـــ مادام هذا هو مزاجك ، وليكن الى جانبه المش القديم !

وفى ركن المطبخ أكلا وجبة متوحشين عاريين وهما يضحكان كلما طرقعت العظام الهشة تحت ضروسه النشيطة ، وبين الحين والحين يغوص ابهامها فى طبق المش ثم يختفى فى فمها وهى تزوم مستطعمة مذاقه ..

— ٢ —

شبعا نوما كل فى حجرته ثم التقيا بعد العصر تحت الدش :

ـــ نمت نومة أهل الكهف !

ـــ وجائع مثلى ؟

ـــ أريد أن أغزو شجرة « منجة » وأتغدى من أطيب ثمارها !

ـــ أطيب الثمار فى أعالى الشجر .. أنا أطلع لها !

تصور عينا متطفلة تلمحها من وراء السلك الشائك وهى فى أعلى الشجرة فمنعها :

ـــ لا أحب أن يقول الناس من حولنا ان بعضهم رأى عندى امرأة متجردة !

ـــ هذا قيد على حريتى لم أكن أتوقعه هنا !

جاء هو بالثمار الناضجة وجلسا فى الشرفة العليا صامتين كما يحدث لهما كثيرا حتى غابت الشمس وراء أشجار التوت فى الغرب . وشاع فى نفسيهما من لحظة الغروب شىء من الشجن ، فنهضت وجلست فى حجره وحاولت أن تكسر حاجز الصمت :

ـــ هل غضبت من كلمتى ؟ .. هى فعلا سخيفة .. كيف اتكلم عن قيد وانا اعلم ما انفقت على هذا الركن لكى تحقق لى فيه كل حريتى كامرأة سعيدة ؟ !

ووثبت الى الداخل واختفت لحظات قبل أن تعود الى الظهور منطلقة الى البساط الواسع الذى أكسب الغروب خضرته بعض القتامة ، ناشرة طيرانها العفوى فى كل اتجاه داخل السور العالى .. وعما قريب تحتضن الأشعة لدونة جسمها وشفافية ارتجالاته ولطافة حركته .. لكن صوت خفير « المنجة » عند البوابة البعيدة تردد فى الحاح مناديا باسم من لا يفكر فى تلك اللحظة فى غير العثور على جلبابه ليدخل فيه ..

ـ ضبطته بشوال « المنجة ! »

فى شحوب ضوء القمر الطالع رأى شوالا صغيرا مليئا بثمار زراعته .. والى جوار الشوال وفى قبضة الخفير شاب مضطرب الوجه تحت طاقية مغزولة يطلب الرحمة بالدموع والانكسار ، فضاقت نفسه باللحظة كلها ونظر الى الخفير فى غيظ ونفور :

ـ أزعجتنى من غير داع !

ـ سارق « المنجة » .. انظر سيادتك !

تأمل الوجه الضارع قبل أن يكلمه :

ـ هذه أول مرة ؟

ـ ثانى مرة .

ـ هل كانت الأولى من عندي ؟

ـ نعم .

ـ اذا تركتك تذهب بالشوال مليئا ونسينا الموضوع ، فهل تعود الى سرقتى مرة أخرى ؟

ـ لا طبعا !

تقبل التوبة .. واشار الى الخفير ان يكف يده عنه :

ــ اتركه يذهب ..

ــ لو تركناه ، سيعود لنا فى المرة القادمة بعصابة !

ــ أنا أصدقه ..

ــ أنا لا أصدق لصا .

لمست يد صاحب المكان كتف الشـــــاب الذى ينتظر كلمته الأخيرة :

ــ أنا أصدقك .. اذهب بما حملت !

أما هى فحاذرت أن تلمحها عين اللص او الخفير وهى تتابع المشهد كله من خصاص النافذة فى الدور العلوى .. وعندما راق لها الجو تجردت فى الحال وقفزت هابطة فى السلم الداخلى الى أن احتوتها رقة النور عند مكان حبيبها الصامت :

ــ ضايقك ما حصل ؟

ــ انما هو وجه الفتى لا يريد أن يفارقنى !

ــ انك لن تدع ظهور لص يعكر عليك صفو الليل !

وهى تخلع عنه الجلباب ناقش معها وجهة نظر الخفير .. يرى ان ما فعلته خطأ .. تعتقد أن ذلك الانسان سيفترض أن سبب تسامحى معه هو الضعف لا الادراك السليم للموقف .. وانا أرى أن الشاب ليس لصا بالمعنى الحرفى وأنه سيلتزم بالاتفاق .. وقد يتحول الى صديق .. وجهه لا يبرح خيالى !

حاولت أن تحـــركه للمرح لكنه ظل على حاله من الانطـــواء فتمددت هى الأخرى وأباحت وجودها لنفحات النسـيم وملاطفات الأشعة .

- ٣ -

لم تكن طلعة القمر فى الليلة التالية أقل بهاء ولا أعف شوقا الى كمال جسد يرقص لاله الحب على سطح كوكب الأرض ... لكن الصفو لم يطل .. هربت الى البيت باشارة من اصبعه .. وأطلت من خصاص النافذة العليا على شوارب الخفير وقد قفش فى هذه المرة فتى وفتاة !

وابتسمت لأن حبيبها نهر الخفير قبل أن يضبط لبسة الجلباب :

ــ اسمع .. بعد هذه المرة لن تزعجنى فى الليـل أبدا ولو انقلبت أشجار « المنجة » عفاريت تقص شواربك ، هل أنت فاهم ؟

اهتزت الشوارب بغضبة عنيفة :

ــ لكن فصـل الليلة يقطع الخميرة من البيت ، وينجس الزراعة !

أسكته بحزم ليتأمل الوجه الوسـيم لشاب فى مثل سن زائر الأمس ، لكن فيه على الفقر شيئا من اللطافة ، يحاول بالنظرة الصامتة أن يسرى عن بنت مسكتها الرعشة واشـبعت وجهها لطما ..

هزت قلبه لمحة عينها النجلاء البليغة وهى ساقطة عند قدميه تناشده أن يستر عليها ..

ــ أين وجدتهما ؟

ــ فى الناحية القبلية .. تحت شجرة « منجة » ! ..

ــ سرقا شيئا ؟

ـ وهل كان عندهما وقت أو وعى ؟! .. السرقة كانت ستتم طبعا بعد الأنس والحظ !

الولد والبنت لا يمكن أن يزيد عمرهما عن خمس وثلاثين سنة ، وهما ينضحان عرقا وحبا .. اخترقا أسلاكه الشائكة تحت راية العشق .. والبنت أنثى وعينها متكلمة ..

ـ اذا تركتكما ومعكما ما تقدران على حمله فهل تعودان الى هنا مرة أخرى ؟

تبادل الولد والبنت نظرة قبل أن يقول فى ثبات :

ـ لم نجىء الى هنا الا بعد أن ضاق بنا الحال هناك !

ـ لماذا لا تتزوجان ؟

ـ اذا لم يعقل أهلنا ويزوجونا بطـــــريقتهم فلن نجد غير بستانك !

زمجرت الشوارب :

ـ قالوا لكم عن بستاننا انه ملتقى الكلاب الضالة ؟!

لم يعره الفتى التفاتا ، اذ هو مشغول بذلك المعنى المريح الناطق فى عينى صاحب المكان ، وتوجه اليه بالدعاء :

ـ اجعل لحبنا فى ظلالك القدرة على اختلاس قطرات من الهناء !

واذا بصوت من أعلى يتدفق منه الحزم برغم رقة نعومته :

ـ انتظر ياولد .. وأنت يابنت .. أنا نازلة لكما بالرأى والمشورة !

كانت قد فتحت النافذة على مصراعيها قبل أن تطلق نداءها الفجائى ، فارتفعت اليها عيون البنت والولد والخفير وتحجرت على اشراقة وجهها وتهافت شعرها على كتفيها من كل ناحية كأنه يشهر غيرته على حسنها .. وحانت اذن الفضيحة وستعرف الجاهلية المترامية وراء حدود أسواره أنه جاء معه بامرأة .

- ٤ -

اتسعت الفرشة فى قلب العشب الأخضر للأربعة .

وبعد أن طرد الخفير من الساحة المسورة حاملا معه انذارا بالفصل من الخدمة اذا عاد الى ازعاج الصفو مهما يكن السبب ، لم يبق فى حكاية البنت والولد قطرة تعتصر .. وراحت صدمة التلاقى فتفتحت الأنفس وتعانقت الحكايات واتحد الهوى ..

شعشعت نشوة الألفة فى حضن الأشعة المشحونة بكهرباء الفضاء البعيد ، وسألت البنت وهى مبهورة بالأنثى المصقولة التى تكلمها وتضاحكها :

— هل أنت زوجته ؟

— لا ..

— هل أنت زوجة أى رجل آخر ؟

— لا ..

— لماذا لا تتزوجان ؟

— سيحدث هذا يوما ما بكل بساطة .

— وما حكايتك أنت يا أحلى ما رأت عينى ؟

وضحكت قلوبهم وارتوت من الصفاء .

— علمينى كيف تحبين الرجل ؟

قرصتها من خدها الأسمر الزاهى :

— ولم لا تعلميننى انت ؟

— أنا ؟

— حالنا واحد .. كلتانا فى موقف الخالصة للحب .. انا جئت من المدينة مع حبيبى فى ستر الليل وأنت جئت من القرية فى ستر الليل مع الحبيب !

— أنا أعبر عن حبى بالطاعة وليكن ما يكون .

— وأنا أريك فى الحال كيف أعبر !

أدرك صاحبها ما تنوى أن تفعل ، ورجاها بنظرة أن لا تنضو عنها الرداء الخفيف الذى نزلت به وتتركه للعشب الأخضر ... فابتسمت فى الضوء الحنون ممتثلة لرجائه ، وبدأت رقصتها بصيحة مرحة .. وفى الحال اندمجت فصارت خفيفة كالجناح الرقيق .. وأمتع هو نفسه دون أن يلتفت الى محاسن رقصتها بدراسة مسلية لتأثير الغلالة الخفيفة على الضيفين ..

وانتهت الرقصة القصيرة هناك عند السور وعادت زاهرة كالنجمة فقال صاحب المكان لضيفه المبهور :

— ما رأيك فى هذا يا صاحبى ؟ .. نحن الآن أصدقاء .. ما قولك فى رجل يسمح « لحريمه » بالرقص أمام رجل غريب ؟ ..

لكن الفتى ظل جامدا مسحورا أمام السؤال ، فضاحكته « الحريم » ليسترد المقدرة على النطق :

— قبل أن ترد تصور أيضا العكس .. تصوره هو يرقص أمام محبوبتك !

والبنت قبل الولد استردت قدرتها على الكلام :

— لو حصل هذا لخنقنى .. ان لم أمت أنا قبلها من الخجل !

سألها صاحب المكان مستملحا نجل عينيها :

— طيب ما قولك فى أن نرقص معا نحن الأربعـــــة هذه الرقصة ؟

ومع سيادة الضحك وجد الغلام أيضا كلمته :

— لكأنك تطلب منا أن نسلخ جلدنا بأيدينا !

لكن بعد لحظات تبادلت النجوم ومضـــــات برقية تلاقت فى السماء كالبسمات المتقاطعة ، وكل ما فى السماء من سنا تعانق فى أشعة الضياء الليلى وانصب فى انعكاسات ســـماوية على ثلاثة يرقصون حول الياســمينة الحية فى ملابس خفيفة وكأنهم أطياف تعيش بالرقص على العشب الأخضر .

— ٥ —

عمق الصورة فقط هو الذى تغير عندما جاءت ليالى الظلام وأخذت حركات الرقص العفوية تبدو كالعمل السحرى ، وتكتسب صفة جديدة هى الاندماج بالمعنى المطلق لجلال الكون .. وظل تيار واحد يسرى بين الأجسام الأربعة الراقصة التى تشابكت أيديها فى حلقة مقفلة الى أن قطعه نداء الخفير من وراء السور :

— كلب الحراسة مات مسموما !

مادام الانذار لم ينفع فلابد من طرده وتثبيت الغلام فى وظيفته بعد استكمال الاجراء الادارى .. هكذا أعلن صاحب المكان قبل أن يشتبك مع الخفير بقذائف متبادلة من فوق السور :

ــ لعل الكلب نائم مجرد نوم ؟

ــ بل ميت وشبعان موتا !

ــ ومن قال لك انه مسموم ؟

ــ شكله ناطق !

ــ عندك شهادة فى انطب الشرعى حضرتك ؟

ــ بل الطبيب الشرعى هو الذى قرر ذلك بنفسه :

ــ متى ؟!

ــ بمجرد ما شاهد البقع التى على جلد بطن الكلب !

ــ وأين هو الطبيب الشرعى ؟

ــ عندنا فى الاستراحة .. أنا بلغت .. والطب وصل مع الادارة والنيابة والدنيا !

ــ كلهم جاءوا عندنا هنا ؟!

ــ والعمدة .. والكلب الميت .. الجميع فى الاســـــتراحة والقهوة حاضرة ..

وكل الواجب عملناه بدون ازعاج لكم حسب الأوامر فى آخر مرة ..

ــ من صباحة ربنا ان شاء الله مفصول من الخدمة !

ـــ أنا كتمت عنكم المسألة قدر ما استطعت ، الى أن أمرتنى النيابة باخطاركم للحضور أمام مجلس التحقيق ، وربنا لا يكلف العبد فوق طاقته !

ـــ مفصول من الخدمة !

- ٦ -

وجدهم الفجر فى كآبة تسلطت عليهم بعد اجراءات التحقيق الطويلة التى استلت من ليلتهم نخاع السرور وأماتت الرقص .

ومرت ساعة ثقيلة البطء لكن مع تباشير النور أخذوا يتكلمون فى شئون صغيرة من شواغل النهار .. ايقاد الفرن وترتيب البيت وجمع ساقط « المنجة » وتهذيب العشب .. ثم طلعت الشمس على زائر لم يتوقعه أحد ، فقد ارتفع نباح جرو لصق السور من الخارج ، قرب الباب الفاصل بين حدود الزراعة وحدود الصومعة .. !

قال صاحب المكان مستغربا :

ـــ لم يكن عندى غير كلب واحد عجوز هو الذى جاءنا فى ماتمه بشخصيات مهمة .. والأغلب أن يكون هذا الذى نسمعه عفريت الكلب !

لكن الباب الذى فتحته يد ناعمة مشفقة أظهر فعلا جروا صغيرا بدأ زيارته بتعبير جسمانى كامل عن التودد . وشاركت مؤخرته أذنيه وذيله فى رقصة تعارف ظريفة ..

وهتفت التى فتحت له :

ــ تأمله ! هو صورة مصغرة من الفقيد ! .. هذا ابن كلبك بلا جـــدال !

وهارشت الكلب الصغير بأصابعها حتى حركت فيه كل حوافز اللعب ، ونهضت تجرى على الخضرة فانطلق وراءها كمن يريد أن يأخذ بثأره .. وحميت المطاردة الضـــاحكة بين الجرو الظريف والياسمينة الطائرة على العشب الرطب بندى الصباح ..

وانتعشــــوا فى النهار بعد كآبتهم .. ورتبت المرأتان البيت وأوقدتا الفرن وخبزتا الفطير على حين تكفل الرجـــلان بجمـــع « المنجة » والاسترخاء والثرثرة ..

وانتهى اليوم بأحسن مما بدأ ، الى أن سترهم الظلام فغنوا وصفقوا ورقصوا حول كومة الثمار كالمجانين .. وفجأة نبح الكلب الصغير مرهفا أذنيه الدقيقتين نحو الغرب ، فالتفت صاحب المكان ليجد أمامه بندقيتين .

وتجمدت الرقصة حتى صاروا كالتماثيل ، وسكت الكلب أمام شبحين طويلين لا يدرى أحد كيف هبطا من ارتفاع السور .

وفى السكون العميق دوت رصاصة وسقطت البنت الحكيلة العينين ميتة عند قدمى حبيبها .. وجاء أول تفسير للموقف على لسان الشبح الآخر الذى أشار بيده الى زميله مطلق النار :

ــ أبوها !

هذا صوت خفير « المنجة » وهذه شواربه .. وأضـــاف مخاطبا حبيبها :

ــ ترقص فى مكانى يا عاهر وتظل حيا ؟

ودوت من بندقيته الرصاصة الثانية فسقط الولد فوق جثة حبيبته ، وكانت الرصاصة الثالثة من نصيب الياســمينة التى فى الحال تساقطت أوراقها البيضاء على العشب ذابلة هامدة ..

وظل صــــاحب المكان فى وقفته الجامدة أمام الفوهتين غير مصدق للكابوس الذى احتواه فى صـــدمة ، الى أن دوت الطلقة الأخيرة .

نهايــة رائــد



هذه قصة بيت من بيوت القاهرة فى آخر النصف الأول من القرن العشرين ، أهله من الطبقة الوسطى .. وأيسر ما يقال فى شخصية « رجل البيت » ــ عصام ــ انها ليست مما تقع عليه الملاحظة فى كل بيت مصرى . وما فى مجاهل نفسه من عقد نفسية يخلع على حياة البيت ومصائر أهله ــ الأم وبناتها الثلاث ــ لونا خاصا قد لا يوفق القصصى المولع بالواقع كل يوم الى مثله . ولعل هذا هو سر رغبتى الى الزميل ، غفر الله له ورحمه ، فى أن يأذن لى فى محاولة تسجيل هذه الصورة ، وقد بلغ من كرم الزميل الراحل انه لم يضع بين يدى ذكرياته وصراحته وحدهما ، بل أضاف الى حديثه الصادق الشائق كنزا آخر وجدت فيه أصدق العون ، هو دفتر يومياته ، ودفتر يوميات شقيقته الصغرى .

ـ ١ ـ

الضجة الفارغة ! كلها ماتت مع الصباح ولم يبق منها الا هذا الصداع الفظيع فى راســــه ، خلف عظام جبينه . وكان اول ما استرجعه ذهنه من ذكرى ليلته المضنية منظر أخته الوسطى وهى جالسة فى « الكوشة » الى جانب عريسها فى ثوب الزفاف الأبيض . وتمطى الأستاذ فى فراشه ، وحك بظاهر يده ذقنه غير الحليقة وهو

يعتدل جالساً على طرف الفراش وامتدت يده الى المنضدة الصغيرة الملتصقة بوسادته فتناول نظارته ذات الاطار الضخم ووسد ذراعيها أذنيه ، وجعل يحرك قدميه على السجادة الصغيرة باحثاً عن خفيه ، ثم أجال فى الغرفة نظرة كليلة ناعسة ، فطالعته الكتب فى رفوفها ، والأوراق المتناثرة على المكتب .. وعادت تحتل ذهنه صورة أخته هدى وقد عقدت يدها بذراع حجازى أفندى وجعلت تختال فى « الزفة » تحت رعدة من دقات الدفوف .. وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة تهكم شاحبة .. يالتلك الضجة المسرحية المضحكة التى تقترن دائما بالزواج ! .. ذلك الغناء الرخيص .. « اتمخطرى ياحلوة يا زينة » .. وقد لا تكون العروس من ربات الجمال ، ولا هى فى حديقة النساء بالوردة اليانعة .. «تتهنوا وتتمتعوا الليلة » .. والبنات يسمعن ، ويحلمن .. البنات من العذارى وأنصاف العذارى الهائجات المائجات من حول العروس ، وقد استروحن فى مراسم « الفرح » وأغانيه الخليعة .. شتى الخيالات الحسية .. والكلمات الوقحة التى تتردد على ألسنة بعض المدعوين والتى يجهر بها أصحابها المتظرفون دون حياء : « ان حجازى أفندى لن يجد الليلة وقتا للتفكير فى هندسة السيارات !! .. » وصوت العالمة المجلجل بالكلمات والرقص القبيح وهى تتغنى بمسرات الليلة التى تنتظر العروسين ، ثم وهى تتجنى على الحقيقة الماثلة للعيون : « عريس قمر نوره علينا ظاهر » .. والعريس حجازى أفندى ، ذلك المخلوق الأصلع الأكرش الذى تتعثر كهولته فى مطلع عقده الخامس ، وصاحب ورشة السيارات الهندسية ، هو آخر من يذكر محياه السمالوطى بالقمر ، والهوى ، والنور .. والعروس التى تصغره بنصف عمره ، لا تكاد الدنيا تسع فرحتها ، وأمها الست دولت ، وهى تخب فى ثوبها اللامع العجيب ، بقامتها المكتنزة المفرطحة ، ترتسم على

وجهها الملطخ بالأصباغ آيات من الرضـــا والغبطة ، كتلك التى ترتسم على محيا تاجر ازرق الناب اتم لساعته صفقة رابحة ..

واقبلت « مبروكة » الخادم السمراء القصيرة تعلن مقدم زائر من أصدقاء عصام :

ـ سى حامد يا أستاذ .

ولم يلبث ان دخل الزائر ، ومع انه كان فى مثل سن صديقه ، فى نحو الثالثة والعشرين ، الا أنه كان يبدو أنضج شخصية وأكبر سنا . ودار الحديث بعد قليل عن شعور عصام وقد خلا البيت من احدى شقيقاته المحبوبات ، فقال :

ـ ان غاية ما يخالجنى من احساس هو أن البيت قد استراح من ضجة الاستعداد للزفاف ، والحديث الذى لا يفرغ عن «الجهاز» والفساتين والمدعوين والفرح ، وزيارات الأسرتين : حجازى أفندى وأولاده من زيجته السابقة عند الست دولت .. والست دولت وهدى عند حجازى أفندى .. وبعد العشاء .. هدى وحجازى ، فى ركن الصالون ، وقد اشتبكت أيديهما وعيونهما فى مناجاة بلهاء .. لقد زال بحمد الله هذا الكابوس الثقيل ! ..

وتأمل عصام صـــديقه حامد وقد جلس الى المكتب وجعل يتصفح أصول آخر مقال خطه قلم صاحب البيت عن « الزواج مقبرة السعادة » . كان فى وجه حامد الأسمر الوسيم حزن عميق غامض . ولم يكن عصام يجهل أن ضيفه كان يضمر لهذى دائما ميلا خفيفا يعتمل فى نفسه على استحياء . أهو حزين لأنها أصبحت لرجل آخر ؟ .. وعجب عصام كيف أحس لهذه الفكرة فى نفسه مسرة شريرة ، كأنما لذ له أن يعلم أن هناك رجلا غيره يستشعر الأسى ، لأن هدى الرقيقة الحسناء قد سقطت بين ذراعى الجلف الخشن

حجازى أفندى ! .. ولم يلبث أن استبدت به رغبة جديدة ، شريرة هى ايضا ، تدفعه الى أن يقسو على ذلك الصديق الخجول المنطوى على جرحه :

ــ اننى ليحزننى ياحامد أن تكون هدى الطفلة المرحة الجميلة قد وقعت فى قبضة ذلك الرجل التافة البغيض ، فلقد كانت جديرة بخير منه ، لكنها لم تعرف كيف تنتظر فرصتها ..

كان يتكلم وهو يرمق صديقه ، ويجد مسرة نادرة فى دراسة وقع كل كلمة من كلماته فى نفس ذلك الشاب الصامت الذى يبذل اعنف الجهد فى السيطرة على انفعاله ..

وهمس حامد : قسمة ونصيب !

ولكن عصام كان ممن يلتذون بالقسوة ويجدون فى ممارستها متنفسا لشفائهم المكنون ، فعاد يقول وهو يقترب من ضيفه :

ــ انى لأتصورها الآن ، فى بيت ذلك المخلوق ، فى ظله ! .. انها لمهزلة ! ..

واشعل الضيف سيجارة من علبة صاحبه الملقاة على المكتب ، ثم مشى مطرقا الى النافذة فأطل منها على شارع ابن خلدون .. وتأمل عصام ظهر رفيق صباه وزميله فى العمل الصحفى ، ثم سدد اليه ذلك السؤال الذى طالما شغل فكره :

ــ أكنت تحبها يا حامد ؟

وخيل الى عصام ، فى لحظة الصمت التى أعقبت سؤاله ، أن بعض الظهور تستطيع التعبير عن مشاعر أصحابها كما يعبر الوجه ذاته ، فلقد قرأ فى ظهر صديقه الاجابة عن سؤاله قبل أن يبلغ سمعه صوته الخافت الأبيض :

ــ أجل . احببتها ، واحبها .

ومرت لحظة صمت قصيرة اخرى قبل ان يسأل عصام ضيفه من جديد :

ــ اذن تدرك حماقتك اذ تركتها تسقط فى ذراعى رجل آخر ؟

فلما التفت حامد ، كانت فى عينيه دموع لا تنطلق ، والم عميق مر مرارة الندم الثقيل الفادح .

ــ عصام .. بربك دعنا من حديث هدى !

– ٢ –

هذه احدى اخواته تذهب ! وقد ولى الزمان الذى كانت غرفته تشهد فيه اجتماع شقيقاته الثلاث ، كأنهن ثلاث أرواح رشيقة خفيفة ، فيجلسن حول مكتبه ، أو يتربعن فى قمصان النوم على فراشه ، ويهدمن العالم ويبنينه من جديد .. وكان يحلو لأمينة ، كبراهن ، أن تمشط شعرها الناعم الأسود الطويل أمام مرآته الضخمة ، ولم تكن أمينة ثرثارة بطبعها لكن شخصيتها اللامعة كانت تفرض وجودها ، ولو لم تفتح فمها بكلمة واحدة ، على كل مكان توجد فيه . انها الذكاء الرصين ، والقوام الرشيق ، والسر المغلق .. ولكن هدى ، على النقيض من أختها ، لم تكن تفهم من الحياة غير الحركة والضجة والكلام . وكانت تصغر أختها بخمس سنين ، فهى فى الحادية والعشرين ، شقراء ملفوفة . ناعسة العين . انها الحسن المرح ، والقلب الطيب ، والنفس القانعة .. أما صغراهن نادية ، فهى الصبا الغرير يحلم بحياة مفعمة بالعواطف ، والخفة المرحة ، تتحدث عيناها الماجنتان البراقتان بشوقها الى العالم الواسع الكبير .

وكن انس ايامه ولياليه .. وكن فى الأمسيات يحكين له ــ كلٌ بدورها وعلى طريقتها ــ ما وقع لهن فى يومهن : شارع فؤاد

و «فترينانه» البديعة ، وفيلم روبرت تايلور الجديد في سينما مترو ، و « بصبصة » الشبان لهن فى عرض الطريق .. كن ظريفات ، مسليات ، غامضات وكان هو صديقهن ، وحاميهن ، من أنفسهن ومن الناس ، فى ظل من حنانه وصراحته وتحرره الفكرى .. وكانت هدى ونادية تتبادلان ، فى بعض الأحيان ، أثوابهما .. فكان يسره أن يراهما تطلعان عليه وقد اتخذت كل منهما سمت الأخرى وزيها .. وانه ليذكر ولع هدى منذ طفولتها بالأصباغ وأحمر الشفاه ، وكيف كانت تقتحم عليه صومعته ، فى شىء من الزهو والنشوة والاستحياء ، لتسأله الرأى فيما اتخذت من زينة .. وعصرت قلبه يد ثلجية قاسية وقد ارتسمت لخاطره صورة مما يصنع الخيال الجامح ، صورة أخته هدى وهى تدخل فى تلك الزينة وذلك الاستحياء فراش عرسها فى الليلة الماضية ، مجلوة منمقة بأيدى الماشطات لكى تفتن الذكر البهيم الذى اشتراها لتكون حصة كهولته من متعة الحياة .

لقد حطم هذا الزواج المبتسر شطرا من حلم حياته الكبير ، كان دائما يحلم بزيجات مثالية لشقيقاته العزيزات . كان يريد لكل منهن زوجا جديرا بها ، وبرأيه هو فيها ، زوجا جليلا ومدهشا على نحو لم يكن خيال عصام يحسن على كل حال وضع حدوده ورسم ميزاته ، وهذا الزوج المنشود ، زوج الأحلام المثالية ، الرائع الغامض ، يتلاشى اليوم حتى يتقمص شخصية حجازى أفندى الجاهل ، التافه ، المترهل ، المتبلد ! أية هوة بين الرباط المقدس الرفيع الذى كان يتمناه لأخته وهذه الصفقة الحقيرة المخزية التى عقدتها أمه .. أنها سوق للرقيق ، تباع فيها المصالح والأجساد ! . ثم تأتى العشرة والعادة ، ومطالب الحياة والمجتمع والوسادة الواحدة ، فتوطد فى بطء مروع أركان هذه الشركة الوهمية .. وتصبح هدى وصاحبها زوجين كسائر الأزواج ، زوجين «محترمين»،

وربما خيل اليهما ، فى بعض الليالى ، وكما يخيل للناس ، أنهما ، حقا ، سعيدان ! ..

كذلك جعل الأستاذ عصام الصحفى الناشىء يحدث صديقا آخر من أصدقاء الدراسة القدماء . وكان محمود أمينا لخزانة احدى مدارس القاهرة الابتدائية : ووغدا من الطراز الأول . كانت حياته تدور حول محور واحد، هو المراة. وما من مرة وقع عليه فيها بصر عصام الا ذكر انه كان أول من قاده الى عالم المراة . وكانا يومئذ غلامين يجتازان مرحلة المراهقة الباطشة . ولقد اجتاز عصام تلك المرحلة الى آفاق المثل العليا والأفكار السامية بينما لبث صاحبه غارقا الى أذنيه فى وحل الشهوات .. وانه لحيوان .. ان الرجل السعيد هو رجل أوتى القدرة على السيطرة على غرائزه . ان هذا هو سر السعادة . وليست مشكلة الانسان الكبرى أن يختار بين اشباع كيانه الحسى أو اشباع كيانه الفكرى ، ولكن أن يوازن بين هذين المنزعين المتعارضين .. وما من مرة نظر فيها عصام الى صاحبه الا استشعر الرضا عن نفسه وزاده النظر فى أحوال صاحبه اعتزازا بدنياه الداخلية الرحبة التى تصب فيها أنهار المطالعة والتأمل والدرس ، وايمانا بما فى حياته على هامش العواطف والرغبات من سمو تنفث فيه العزلة ، مصدر كل قوة ، ومهد كل عمل عظيم وتاريخ مجيد .

— ٣ —

لم تعد أمينة التى عرفها أهلها ..

ولم يكن قد مر على زواج هدى اكثر من شهر عندما بدأت أمينة تحس كلما دار حديث الأسرة حول هدى أنهم يشيرون اليها ، هى ، من طرف خفى ..

فاذا اسهبت أمها فى تصوير سعادة ابنتها الوسطى فهى تلومها ، هى لأنها لم تدخل بعد « بيت العدل » .

واذا كان أخوها يهاجم الزواج فى أحاديثه ومقالاته ، فهو انما يسعى الى مجاملتها ، هى ، و « جبر خاطرها » .. ولم تكن تعلم ان أمها بدأت فى أحاديثها مع عصام تلمح الى توفيق أفندى ابن خالة الست دولت ، وهو موظف فى أرشيف وزارة المواصلات يناهز الثامنة والثلاثين من عمره ، وفى قدرة عينه اليمنى على الابصار شك كبير يكاد يبلغ مرتبة اليقين ، ولكنها لم تكد تردد ذلك الاسم مرتين حتى كان عصام قد أمسك بيدها وقادها الى غرفته ورد الباب ، ثم قال لها : أماه ! لقد سبق لهذا الحيوان أن تقدم الينا طالبا يد أمينة، فرفضته حرسها الله ، لأنى كنت قد فتحت عينيها على حقيقته ، فبالله دعى أختى المسكينتين لقدرهما وكفى ما أصاب أختهما ! ..

كانت شقية . أشقى فتاة فى شارع ابن خلدون — فى العالم .. لماذا وقف أخوها حائلا دون زواجها ؟ وما سر هذه البغضاء التى يكنها لتوفيق افندى ، بل للرجال جميعا ؟ ومتى يكف عن التدخل فى شئونها وتنظيم حياتها ؟ ان حياتها ملك لها وحدها ، ومن حقها أن تصنع بيديها مستقبلها وهناءها .. الم تختر هدى رجلها ؟ أليست اليوم أسعد النساء ؟ .. لقد كانت هدى الصغيرة أرشد منها . فلم تصغ الى كلمات ذلك الأخ المدمر المغرور ، ولم تلق بالا الى ذلك السم الذى ينفثه فى حياتهن بمحاضراته المريضة عن المثل العليا ، والحياة الرفيعة ، والزواج القائم على التكافؤ ، وعلى الحب .. الحب ؟! .. ومن يستطيع أن يزعم أن كل بيت سعيد فى مصر قام على الحب ؟ .. انها لا تحب توفيق افندى .. هذا حق .. ولكنها نادمة أشد ما تكون المرأة ندما لأنها أطاعت أخاها الأحمق ورفضت يد هذا الرجل .. هدى تزوجت قبلها .. هدى زوجة ،

وهى عانس ! سيفوتها الركب ، وتولى الأيام ، ويزحف الشـــــعر الأبيض كديدان الموت فى ليل شعرها الطويل .. ولسوف تقضى حياتها فى برد الوحـــدة ، لا لشىء الا ان الرجل الذى طلب يدها يكبرها باثنتى عشرة سنة ، ولم يدخل جامعة ، أو يقرأ كعصام كتب الفلسفة والأدب ! .. ان عينه الواحدة تكفى ! .. ولكم يحبها ولكم جرحه رفضها ! .. لقد قرأت فى عينيه الألم الصامت فى ليلة زفاف أختها ، وادركت انه لم ينسها ، ولم يفقد الأمل فى أن تكون يوما له .. انه ينتظر اشارة من يدها لكى يمنحها السعادة التى سبقتها أختها الى رحابها ..

ودفنت أمينة وجهها الباكى فى الوسادة ، وحنت عليها فى ســـــكون الليل غرفتها الحزينة الخالية من صوت الرجل ورائحته وسلطانه ..

لم لا يكون لها ، كأختها ، فردوسها الصغير ؟

انها ليست أقل من هدى جمالا وذكاء ، فأين نصـــيبها من الحياة ؟

انها تريد نصيبها وقسمتها .. تريد أن تخضـــــع ، وتلين وتستجدى .. تريد سيدها ..

واستوت جالســـة على طرف فراشـــها ، فطالعتها فى مرآة خزانة ثيابها صورة مائعة فى نور مصباح الليل الأزرق ، صورة فتاة طويلة مسترخية عند سريرها ، شعرها ثائر على جبينها وكتفيها ، وقميصها مرفوع فوق ركبتيها ، اللتين تضيئان فى النور القليل ، وعيناها ذابلتان وراء أهدابها ..

توفيق ! من لها بتوفيق الآن .. وأين قوته وحنانه ، وأين صوته ورائحته ! فلما استدارت لترقد ، وقع بصرها على سريرها الخالى ، أجهشت بالبكاء لأنها وجدته عريضا ، واسعا ، مهجورا .

ومرت أيام ثلاثة ، ثم همت أمينة ذات صباح أن تدخل المصعد الذى يرتفع بها كل يوم الى عيادة طبيب الأسنان فى شارع سليمان باشا ، واذا بها تجد نفسها أمام توفيق ، وكان خارجا من المصعد وقد وضع يده فوق قطعة كبيرة من القطن تغطى عينه اليمنى ..

وتبادلت كفاهما تحية فاترة حائرة ، ثم سألها وهو يخطو الى جانبها فى شىء من الارتباك والخجل نحو باب العمارة عن صحة أمها ، وعن أسنانها فسألته عن عينه ، فضحك وهو يقول لها انه يخشى أن يكون طبيب أسنانها أقدر على خدمة زبائنه من طبيب العيون الذى يعبث منذ شهرين بعينه وأعصابه !

قالت ومدت له يدها : أعود الى المصعد ، فان طبيبى ينتظرنى . لقد كانت فرصة طيبة ، وعسى أن نراك قريبا ..

قال ونظر فى عينيها بعينه المكشوفة : لست أدرى ، فلقد طلبت الى رئيسى أن ينقلنى الى دمنهور ، ولعل الرحيل قريب .

وخيل الى أمينة ان مدخل العمارة قد انقلب من حولها أرجوحة من أراجيح الملاهى ، وارتعدت أهدابها فوق بصرها الزائغ وسمعت نفسها تقول فى صوت غريب ، وكأنها فى حلم لا سيطرة عليه لارادتها :

ـ ولم الرحيل ؟ أهو بسببى ؟

وكان سكوته ونظرته أبلغ من كل بيان ..

وعاد صوتها الحالم المتمرد على ارادتها يقول :

ـ انك لن تفعل هذا !

فسألها : ولم لا يا أمينة ؟

قال صوتها : لأنى لا أريد أن تبتعد عنى . ولا تذكرنى بما كان منى فانى أريد أن تنساه وأنساه .

فانبثق من عين توفيق السليمة فرح مجنون ، ونسى الدنيا والناس فرفع يدها برغمها الى شفتيه وقبل أناملها الطويلة العصبية ومعصمها النحيل ، وأطاحت القبلة المحمومة بقطعة القطن من فوق عينه اليمنى ، فسقطت الى الأرض ، وطالعت أمينة من وراء أهداب العين الذابلة المبتلة نظرة مسيحة بيضاء لا حياة فيها .

– ٤ –

عندما دخلت أمه غرفته وجدته قائما فى انتظارها وسيجارته تتأرجح بين شفتيه :

ــ ردى الباب ، فان لى معك حديثا ..

فعلت وأقبلت فجلست أمامه ممتقعة الوجه مرتعدة اليدين فسألها :

ــ أتعرفين أن أمينة تخرج مع توفيق أفندى قريبك ؟

فأطرقت الست دولت برأسها ، وهمست :

ــ انها قالت لى أمس انه لقيها منذ يومين فى مصعد الدكتور ثم صحبها فى الترام الى باب بيتنا .

ــ عظيم ! .. وقد لقيته أمس أيضا ، وشهدهما بعض أصدقائى معا فى جزيرة الشاى .. وماذا قلت لها حضرتك ؟

ــ قلت .. قلت .. وماذا أقول لها يا بنى ؟

ــ امنحيها بركاتك ! أليست تصيد لنفسها برضاك عريسا ؟

ـ يا بنى لا ترفع صوتك ، فقد تسمعك « البنية » .

ـ انها تحلم به ، فلن تسمع ! .. هى لا تسمع ، وأنت لا ترين شيئا ! .. ان رسالتك الوحيدة فى رأيك هى أن تدفعى بيناتك الى أحضان الرجال ، وأى رجال ! .. ومنذ وفاة أبى وأنت تنسجين خيوط شقائهن ، وعلى شفتيك ابتسامة التاجرة الماهرة .

ـ عصـــــام !

ـ ألم تفهمى أن زواج هدى قبلها هو الذى يدفعها الى الجرى وراء رجل سبق لها أن رفضته ؟ انها فى نظرها مسألة كرامة . .

ـ وماذا أفعل يابنى وتلك رغبتها ؟ الا ترى أنها خسرت فى الأسابيع الأخيرة نصف وزنها ؟

ـ أنت أمها .. تحدثى اليها .. قولى لها ان الفرصة لم تفتها وان من الحماقة أن تضيع حياتها كلها فى لحظة طيش يمليها عليها كبرياؤها ..

ـ انها لن تستمع الى كلامى !

ـ لقد استمعت الى كلامى أنا مرة !

ـ فتحدث اليها اذن هذه المرة أيضا .

ـ أمينة تعتقـــد أنى أكره توفيق ، وتقف منى الآن مـــوقف التوجس والحذر ، وهى تحبك وتعلم أنك تودين لها الخير ..

فأطرقت الست دولت برأسها الذى شاع فيه الشيب وعقدت يديها البضتين السمينتين فوق صدرها ، وهمست فى صوت تستبد به الحيرة .

ـ ماذا أقول لها .. ؟

تكلم عصام ساعة طويلة وأمه تصغى اليه وتهز رأسها ، ثم أمرها أن تذهب فتقول لابنتها ما قال . وجلس وراء مكتبه وارهف أذنه يسترق السمع الى الحديث الذى يدور فى حجرة أمينة بينها وبين أمها . وكانت تبلغه من الحوار البعيد أصداء غامضة لا يتبين منها كلمة ..

ثم سمع باب حجرة أخته وهو يفتح فى حركة عنيفة وتبين خطوات أمينة فى الصالة ، ولم يلبث بابه أن فتح فارتطم بالجدار ، وعلى عتبته وقفت السمراء الثائرة ، ملتهبة النظرة ، مرفوعة الهامة :

ــ اسمع يا أخى ! انى عرفت من كلام أمى قسوتك التى فطرت عليها .. لقد لقنتها الحديث كلمة بكلمة ، وكأنى كنت أسمعك أنت وهى تتكلم .. وقد جئت لأقول لك انى لن أسمح لك بعد اليوم أن تتدخل فى خاصة شأنى .. لى من سنى وذكائى ما يبيح لى توجيه حياتى ويؤهلنى لذلك .. وأحب أن تعلم أن توفيق قد طلب يدى مرة أخرى ، وانى قبلت ، وسأتزوجه برغمك .. وكل كلام تقوله بعد هذا لن يبعدنى عنه ، بل عنك أنت ..

وكان عصام يعلم أن أخته هذه تهزها الاهانة الجارحة ولا تأخذ بعنانها اليد العنيفة الباطشة ، فجمع لها نفسه فى ابتسامة مرة ساخرة وصوت هادىء خبيث :

ــ انى لأعجب لم لم تنهشك هذه الحمى الا بعد زواج هدى ؟!

قالت وهى تخطو فى الغرفة نحوه :

ــ ذلك شأنى . وليس فيه على كل حال ما يمنحك الحق فى تحطيم سعادتى بأنانيتك ، وقد أنذرتك ولم يعد لى الا أن أغادر غرفتك .

ـ لم يعد لك الا أن تستمعى الى !

ولم يكد يلفظ آخر كلماته حتى كان قد خطا خطوتين واسعتين قطع بهما عليها الطريق الى الباب ..

ــ اسمعى يا أخت .. أنت فى هذه اللحظة تكرهيننى . وليس لك عندى الا كل خير ، ولست أعترض على زواجك الا لأن توفيق هذا غير جدير بك ..

ــ ان تقدير ذلك من حقى وحدى .

ــ ما أجملك غاضبة !

ــ دعنى أخرج يا عصام .

ــ أتخافين أن أزيح الغشاوة عن عينيك فأحطم أوهامك ؟

ــ أخاف أن تقول قولا تندم ذات يوم عليه !

ــ انها صورة أحب أن أرسمها لك فى كلمات قليلة : شابة عريقة وذكية ، جميلة ومثقفة ، موعودة بأسمى المتع الرفيقة .. وكهل جاهل غبى ، كأنه فأر الأرشيف .. فكرى ياميمى فى حياة بأسرها تقضينها مع هذا الفأر .. الافطار ، والغداء ، والعشاء .. والنوم ، واليقظة .. النظرة من عينيه .. المداعبة من يده .. يكفى أن تتخيلى منظره فى غرفة النوم بملابسه الداخلية !

وصرخت أمينة وقد تفجر الدمع من عينيها وارتعدت شفتاها الرفيعتان ، واندفعت نحو الباب ، لكن اخاها قبض على معصمها ، وزار فى وجهها :

ــ والقبلة من شفتيه ، والضمة ..

وكانت قد أفلحت فى انقاذ يدها اليمنى من أسر قبضته فرغعتها، وأهوت بها على وجهه .

ولم يتحرك عصام ، ولكنه نظر فى الوجه الذى زاده البغض حسنا على حسنه ، وبدا له كما لو أن شعاعا نورانيا قد رف على أرق شفتين فى الوجود ..

— ٥ —

مرة أخرى حم القضاء ودخلت أخته الثانية فى عصمة رجل لم يكن فيما يرى ، أهلا لها . أصبح بيت شارع ابن خلدون حزينا موحشا ، قد خلا من ضجة المرح وعطر الأنوثة . وطار عنه روحان خفيفان من أرواحه الثلاث الغامضـــــة الرشيقة ، وأصبح عصام عصفورا فريدا من عصافير الليل ، يرد على نفسه متى كان المساء باب صومعته ويسقط بجناحيه الكسيرين تحت نور مصباحه ، أمينا على حزنه ، حفيا بكتبه ، مطرقا فوق أوراقه .. كان قد خسر معركتين ، معركة هدى رمعركة أمينة وكانت الهزيمة الثانية فادحة . زفت أخته أمينة الى توفيق أفندى كما زفت هدى منذ شهور الى حجازى أفندى ، فى ليلة مبتذلة كثيرة الضوضاء . وكان ذلك عذابا مزق سكينة نفسه .. واستقرت كلمات المأذون المزركشة المتراقصة فى نفسه كالطعنات المسمومة . ومع ذلك أوتى الشجاعة بعد اتمام العقد على أن يتقدم الى أخته وزوجها بكلمات التهنئة التقليدية .. وكانت أمه تحوم حوله ببصرها وفى عينها الحائرة دعاء الى السماء أن تمر الليلة على خير . وبالقرب من (الكوشة) جلســـت هدى وصاحبها ، وفى بطنها انتفاخ تقذى له العين . انها تنتظر حادثا سعيدا . وكان أخوها يتأملها فتأخذه من مظهرها الجديد طمأنينتها الحيوانية التى تغرى بصفعها ، وغبطة الأنثى وقد اســـــتكن فى

احشائها الحمل ، واسترخاؤها السعيد لتلك البذرة الجديدة التى تباشر نموها الغامض فى أعماق كيانها الأنثوى .. وكان حامد أيضا حاضرا .. وتأمله عصام وساءلته نفسه : أهو باق على حب هدى ؟ الا ينفره اليوم منها منظر حملها ؟ ولم لا يقصد اليها فيحييها ؟ .. ولكن بصر هدى يقع على حامد فتستأذن زوجها وتقبل على الشاب الأسمر الوديع فتصافحه فى بشاشة ومودة وهى تقول قولا سمعه أخوها : « العقبى لك ولعصام » ! فال الله ولا فالك ! أيعدو عصام بدوره ضحية لهذا الخداع الفاشل ، مثله فى ذلك مثل سائر الناس؟ انه بينهم غريب .. حتى شقيقتاه أصبحت كل منهما « حرم » رجل ! ..

أى قبح زرى فى هذا الحشد السخيف من النساء والرجال والأطفال ! ويا لفظاعة هذه الرائحة المتصاعدة من هذا القطيع ، رائحة العرق ، عرق الأبدان ، وعرق الأفكار ..

كانت ليلة فظيعة ، ثم طلع النهار فسكنت الضجة الفارغة وماتت مع مشرق الشمس ..

ولم يكن عصام قد لمح صديقه محمود وهو ينسل من صخب الحفل الى حجرته — حجرة عصام — ويسأل الخادم السمراء اللعوب « مبروكة » أن تحمل اليه فنجانا من القهوة وهو يغمز لها بعينه ..

محمود لا ينسى المرأة أبدا ، فهو الى حيث يذهب ، يحمل على كتفه صليب شهوته .. فلما أحضرت اليه البنت القهوة لم ينس أن يداعبها بصفعه ودية رنت على ذراعها الرجراجة ، ولم يعبس لها وجهها البشوش المكتنز .. وخرجت مبروكة فجعل محمود يتأمل هذه الحجرة التى تفوح منها رائحة الورق ، والتى لم يكن يحبها .. انه يحب الحجرات التى تفوح منها رائحة المرأة ، ويسخر فى أعماق

كأنه الحيوانى النهم من هذا الصديق النحيل العليل ، دودة الكتب ذات المنظار ، الفخور بعلمه وبجهله على حد سواء ، والذى قرأ كل شيء ولم ير شيئا .. ان صـــديقه الفيلســـوف يحصى الأفكار ويسجلها ، بينما يحصى هو مصروفات التلاميذ ، ومفاتن النساء ، ويسجلها .. وأفكار عصام لا نساء فيها ، أما هو فان للمرأة فى حياته المكان الأسمى .. وذكر ، وهو يترشف قهوة مبروكة ، رفيقته التى تعايشه ـــ نصف خادم ، ونصف عشيقة ـــ وابتسم ، وتمطت عضلاته القوية وهو يجتر ذكريات الليل الذى ذاقه فى أحضانها .. وكذلك وجدته نادية ـــ صغرى شقيقات صديقه ـــ عندما دخلت حجرة أخيها لتعيد النظر فى زينتها .

وكانت نادية تخب فى ثوب للسهرة من التافتاه الزرقاء فوقفت مرتبكة أمام هذا الصديق من أصدقاء أخيها الذى طالما سمعت عن معاشقه .. وجعل محمود يتحدث اليها فى خفة لبقة حديث الرجل الناضج الى الطفلة الغريرة ، ويتأمل فى سرور لا يحاول اخفاءه ، هذا الشيء الطاهر الساذج الغريب الذى لم يعرف فى حياته مثله .. هذا الطهر كان يفتن حيوانا من طرازه .. وهى كانت تحس أمام رجولته الصريحة الدافقة رغبـــة طبيعيـــة فى أن تخفض له جناح الطاعة .. وانبثقت فى ذهن محمود مقارنة عجيبة بين ليلتيه : فى الليلة الماضية كان يضم امرأة هلوكا خبيرة بالهوى وكان يخنقها بقبلاته ، وكانت تنهكه بحبها ، والليلة يجد نفسه مع هذه الصبية الصـــغيرة «الخام » التى يدرك بغريزته أنها مولعة به مفتـــونة بسيرته ، ولعلها تفكر فيه قبل أن تنام ، وترتجف عندما يتحدث أخوها عنه ، ولعلها تخفى فى ركن خفى من خزانة ثيابها صورة قديمة له مع أخيها من ايام المدرسة الثانوية .. !

ومن يدرى لعل لها «دفتر يوميات » تسجل فيه ـــ كما تفعل بطلات الأفلام والقصص ـــ خواطرها وآمالها ..

وقال لها فجأة :

ــ لابد أنك ســـــجلت خواطرك عن زفاف اختيك في دفتر يومياتك ؟ ..

فانتفضت الدمية ذات الثوب الأزرق وحملقت في وجهه عيناها البراقتان العسليتان :

ــ من قال لك ان لي دفتر يوميات ؟

وكانت رمية من غير رام ، ولكنه لم يتراجع :

ــ عصام قال لي !

ــ وكيف عرف عصام وأنا حريصة على اخفائه عنه ؟

ــ يظهر أنه عثر عليه ذات يوم في حجرتك ..

ــ وقرأه ؟

ــ من الغلاف الى الغلاف !

تضرجت وجنتاها وارتعدت ظلال أهدابها فرق لها قلبه وسألها في رقة لم تخل من تكلف : أفي يومياتك يانادية ما يسوؤك أن يطلع عليه أخوك ؟

ــ ليس هذا من شأنك !

ورأى الدموع تلتمع في عينيها ، فأدرك أن كلمة عابثة أخرى منه تكفي لوقوع الأزمة العصبية المزعجة ، وبادر الى الجد يستر به ما صنع عبثه ، فاعترف لها بأن أحدا لم يحدثه عن يومياتها ، وأقسم أن الأمر لا يعدو فكرة طرأت على ذهنه فتلقفها لسانه ..

قالت وهي تبتسم من وراء دموعها :

ـــ اخفتني ! ..

قال : ان الشيء الوحيد الذى أستطيع أن اقطع به هو انك عندما تلحقين بأختيك فى عالم الزواج لن يكون لديك وقت لكتابة يومياتك ..

وابتسم وهو يستمع الى اجابتها الصبيانية التى كان يتوقعها :

ـــ محال ! انى لن أتزوج أبدا !

ـــ أيعنى هذا ان عصاما سيربح الجولة الأخيرة ؟

فارتسمت فى عينيها حيرة غريبة :

ـــ عصام .. عصام .. انى لا افهم عصام !!

– ٦ –

أيفهم عصام نفسه ؟

كان يبذل جهدا مضنيا فى البقاء طافيا على سطح ذاته ، لكى يظل محتفظا بطمأنينته وسكينة نفسه . ولكن قوة عاتية كانت تجذبه بكل عنفوانها نحو عالمه الباطن الرحب الذى تمور عتمته الغامضة وراء أسوار نفسه . وكانت هذه القوة تلقى عليه ، وكأن لها صوتا فى دمه ، سؤالا ضخما رهيبا : ما سر رغبته فى أن يصنع على هواه سعادة شقيقاته ؟ وما الذى يدفعه الى محاولة السيطرة على مصائر من حوله ؟ .. أيرجع ذلك الى ما تحس به نفسه المرهفة من حيوانية الحب التى يسترها البشر وراء غلالة من الشعر ؟ انه يكاد أن يكون جاهلا بالحب ، وليس فى شبابه غير تلك المغامرة القذرة الوحيدة التى قاده اليها منذ سنوات صديقه محمود ، والتى خرج منها ليميل الى أول جدار يلقاه فيقيء عنده اشمئزازه وتقززه ..

لقد وقفت حساسيته النادرة حائلا بينه وبين متاع الحواس ، وفى نور الفكر كان يحتقر جنون الغريزة .. ما السر اذن ؟ .. أهو ذلك الولع الغريب المركب فى طبيعته بلون آخر من ألوان الامتلاك : امتلاك الأرواح ؟

تلك حقا لذة حياته الكبرى : أن يكون رائد أرواح ، وصانع نفوس وخالق أفكار .. وبينما ينكب أصدقاؤه الشبان على ترف المخادع الرخيص كان هو يحلق فى آفاق الروح الطليقة . وكان ينظر فى الرجال من أقرانه ويقول انه يكفى — كى يعرف المرء قيمة رجل من الرجال — أن ندفع به فى مخدع .. انه يخلع مبادئه ومثله قبل أن يخلع ثيابه .. ويكشف عن سوءات روحه قبل أن يكشف سوءته .. ولقد كان أكبر همه أن يجنب عزيزاته الفريرات زواجا يقوم على اتفاق الأبدان والمصالح وحدها . كان يحبهن وينشد عند كل واحدة منهن حبا مقصورا عليه موقوفا على رسالته ، ويتمنى لكل منهن رجلا من طرازه .. من طرازه هو نفسه .. أما أن تميل احداهن الى رجل من سواد الرجال بالنظرة أو الكلمة ، فتلك هى الخيانة التى ما بعدها خيانة ، والجرح الذى يغور فى صميم روحه الى أعماق الروح ..

وهو يذكر من صور طفولته أنه كان يمقت كل صبى يقترب من شقيقاته ويفلح فى اضحاكهن أو الاستئثار باهتمامهن .. ولقد كبرت الصبايا ، وتمردت اثنتان منهن على قانونه ، فنالتا حياة باهتة تائهة فى غمار الملايين ، ولم يبق الا نادية هى أمله الباقى .. المؤمنة الوحيدة فى معبده .

ونادية لغز . عيناها العسليتان سر عليه حجاب . لقد واعدت محمود فى ليلة زفاف أمينة وهى تلقاه من يوم الى يوم ، وتصحبه

الى السينما ، وتمنحه قبلاتها وتحلم به كل ليلة وهى تخطر فى الظلام فى حجرتها ، وكلما مرت أمام المرآة ألقت على خيالها نظرة فاحصة ، نظرة الحمى والخيلاء والحنان .. طليعة تلك العاطفة المعقدة المقنعة التى يستر البشر حقيقتها وراء غلائل الشعر ..

وعصام يجهل هذا ..

يجهل ان المعركة الثالثة والأخيرة على الأبواب .

موقفه القديم من أختيه هدى وامينة لم يكن عن رغبة أصيلة فى الدفاع عن هنائهما .. لقد كان يدافع عن سعادته الذاتية وكان فى حاجة الى وجود شقيقاته .. وبغيرهن لم يكن يرى الوجود وجودا .. والآن لم تبق له غير نادية . انها آخر رباط يصله بطفولته الحبيبة ، يوم كانت تحف به الأثواب النسوية وترق له الأصوات الرخيمة وتحنو عليه الأيدى الرشيقة . ولو ضاعت هى ايضا لما بقى من دنياه شىء ، بل تلقفته الوحشة ويفقد ذلك الاحساس العميق الأصيل الذى يقوم عليه كيانه النفسى ، احساسه بأن هناك قلبا — واحدا على الأقل — تحتل صورته فيه المكان الأعلى ، ويعلو سلطانه فيه على كل سلطان ..

هى تلميذته .. أليست تحترم آراءه ، وتردد كلماته مفتونة بها ؟ انه لا يبغى أكثر من هذا .



وعندما تدخل صومعته ويراها وهى تلمس ملابسه وكتبه وأوراقه ، فان مسرة لطيفة نقية تشيع فى نفسه وتنشر فى عتمتها أقباسا من النور ، كأنما تخلع يد الأخت الصغيرة على أشيائه حنانا كريما ، تلك اليد البيضاء الرقيقة التى لم تمسها دناءات البشر .

وحدث ذات يوم أن تأخرت نادية فى عودتها من المعهد العالى لمعلمات الفنون عن موعدها المألوف ، فلما تأملها أخوها خيل اليه انه يقرأ فى عينيها ويلمح فى مظهرها اشعاع غبطة داخلية غامضة المصدر .

من أى نبع خفى ينهل وجود هذه الطفلة الحسناء ؟

وما الذى يدور فى هذا العالم المغلق من اللحم والفكر ؟

العلها — هى ايضا — تخدعه ؟ ..

أتراها تلقى رجلا ؟ ..

وقال لها وقد جلسا الى العشاء وحدهما (فقد كانت أمهما الست دولت معتكفة لمرضها) انه لثقته بها يدع لها حرية التصرف فى وقتها ولقاء صديقاتها والتسرية عن نفسها ، فهو يعرف أنها فتاة عاقلة ، ولن تكتم عنه من أمورها شيئا ، فهو صديقها ، ولسوف يركن الى العزلة التامة يوم تغادره بدورها لتتبع الرجل الذى يختاره قلبها ..

وتضرجت وجنتا نادية وقد ذكرت محمود ، ثم سألت أخاها دون أن ترفع عينيها عن طبقها : ماذا تعنى ياعصام ؟

فارتسمت فى وجهه ابتسامة تقطر مرارة ، ولكن صوته كان هادئا ، دافئا بالمودة والاستسلام :

— أعنى أنى رجل كتبت عليه الوحدة ..

وتريثت نادية قليلا ، ثم رفعت اليه عينين براقتين غامضتين وقالت له فى مثل مودته :

ــ انى لا افكر فى الزواج !

ــ الى متى ؟

ــ أحلم بوظيفة مدرسة فى روضة اطفال .

ــ واذا تزوجت ؟

ــ ولو انى تزوجت فانك ستكون لى دائما نعم الصديق ، وان كنت لا أفهم لماذا تتحدث عن نفسك هكذا .. انك تستطيع أن تتزوج ، وتفتح بيتا ، وتصنع لنفسك حياة مستقلة كاملة .

حياة مستقلة وكاملة ؟ .. وارتسم لخاطره وجه فظيع .. وجه « العالمة » التى زفت أختيه تحت رعد من دقات الدفوف ، وأوشك أن يبكى وهو يسترجع صوتها القبيح : « عريس قمر نوره علينا ظاهر ! .. »

ومن وجه مغنية الدف السمجة انتقل فكره بلا مناسبة ظاهرة الى وجه محمود الواشى بحيوانيته .

وفى الوقت نفسه كانت نادية وهى تداعب حبات العنب المثلجة فى الطبق تفكر فى محمود وتطالعها صورة وجهه الواشى برقته ..

الف محمود أن ينتظرها على باب المعهد فى موعد انصرافها ، يوم الأحد ويوم الخميس من كل أسبوع ، فكان يتلقى ابتساماتها الرقيقة ، ويحمل عنها كراساتها وأدوات « التريكو » فى حقيبتها الخفيفة الرشيقة ، ثم يتخيران شارعا هادئا يتسكعان على رصيفه ..

وقد توفق نادية الى يوم كامل « تزوغ » فيه من المعهد فيقصدان احدى دور السينما فى حفلة الصباح .. وكان يقول لها وهو يضحك انه لا يحب فى الأفلام مشاهدة الهواء الطلق ومناظر

الصفحات الأولى من الصحف والرسائل الخطية ، لأن الاضاءة فى تلك المشاهد تكون من القوة بحيث تحول دون متاع العشاق .. وكانت نادية فى يومى السينما ، تعود الى البيت فى حالة غريبة من الاعياء والكآبة وما أن يقع بصرها على عصام حتى تجيش نفسها ندما ، وكم من مرة أوشكت طبيعتها الصريحة أن تدفعها الى الاعتراف لأخيها بسرها ، لعله خيل اليها أن حبها يشع حولها كالهالة ، وأنه سيفضحها ..

ما الذى كان يفتن صاحب نساء كمحمود فى طفلة غريرة كنادية ؟ أنه لم يعرف قبلها امرأة استطاعت أن تمنحه ذلك الاحساس بالاستسلام الواثق والخضوع الكامل .. كانت ظلا وفتونا وطاعة .. وكان خضوعها لقبلاته النهمة ومداعبات يديه .. لا يفتأ يغريه بمتاع أوفى . وبدأ فى مقابلاتهما السريعة فى الشوارع ودور السينما يضيق بالقبلات العنيفة العميقة ، ويحلم بغرفة مقفلة تملؤها نادية بطاعتها ونضرتها وأضواء بشرتها الشمعية المشربة بشباب الدم ، ثم يطرد هذا الخاطر الملح اذ يذكر ثقتها به وايمانها بحبه أو يذكر أخاها الصديق .. ربما خطر له أن يتزوجها ، ثم تقضى على الخاطر صورة الحياة الزوجية الساخرة التى طالما رسمها عصام نفسه فى أحاديثه ومقالاته ..

وجاء من الايام يوم انتهى فيه هذا الصراع النفسى بصاحبه الى ترجيح كفة الزواج فقرر ان يطلب يدها ، وأن يكون ذلك فى بيته ، وبعد أن يطرد عشيقته ..

وصحبته نادية دون اعتراض الى مسكنه .. وكان قد أعد صيغة معينة لمفاجأتها بطلب يدها ، فلما وجد نفسه معها لأول مرة فى غرفة واحدة ، وهى طائعة ساذجة ، نسى الكلمات المعدة وأسكت ضميره بكلمتين : سأتزوجها فيما بعد ! ..

- ٨ -

كان عصام قد تماثل للشفاء من مرضه الطويل عندما زارته أخته امينة وزوجها توفيق افندى وطفلتها الصغيرة « نينى » . ومن امينة عرف أن أمه التى كانت تقيم عندئذ فى ســــمالوط حيث تقع « أملاك » حجازى افندى زوج ابنتها هدى ، يسرها — كما يسر ابنتها وطفلهما « عادل » الذى أتم شهره الخامس عشر — أن يقضى عصام ونادية أياما فى ضيافتهم .. وكان عصام فى تلك الفترة فى حيرة شديدة من أمر نادية وصديقة جديدة لها لم تقع عليها عينه ، تدعى « خيرية » أو كذلك قالت له أخته . كانت نادية تدخل عليه غرفة مرضه ، فى تمام زينتها ، فتسأله فى عجلة عن صحته ، وقد تسقيه بيدها جرعة من دواء حان موعد تناوله ، ثم تقول له وهى تحول بصرها عنه متشاغلة بالنظر فى المرآة :

— عصام « خيرية » تنتظرنى أمام سينما ريفولى .. فيلم هائل .. فهل تستطيع أن تعنى بشأنك حتى أعود ؟ .. وربما أحضرت « خيرية » معى ..

وكان يشعر أنها تكذب ، ولكنه يبتسم قائلا لها :

— نعم جيئينى بها .. كم أود أن أرى هذه الصديقة الجديدة التى تكاد تشغل وقتك كله ..

وتخرج نادية منطلقة الى محمود الذى ينتظرها فى مســكنه الصغير بشارع النزهة وتاركة أخاها يتقلب فى فراشه .. كيف يسعه أن يضع حدا لاندفاعة نادية الصغيرة الساذجة ؟ ان العنف لا يغنى .. وفتاة فى سنها لا تخرج للقاء واحدة من بنات جنسها منمقة معطرة كما تفعل ، ومشتعلة مضيئة كما يراها .. انه الحب ! .. ما أجمل هذا النور الذى يضفيه الحب على البنات الصغيرات !

.. الحب هو القوت الغامض الذى يمد الوجه النسوى بهذا البهاء .. ولكن أى لون من الحب ؟ .. العاطفة البريئة ، نشوة التعارف والتفاهم النفسى ، أم حضيض اللذات الوضعية ؟ .. ولأول مرة فى حياة عصام النفسية فكر فى أن يتبع أخته يوما دون أن تشعر ليرى وجه « خيرية » هذه .. من تكون ، أو من يكون ؟ .. لعل فى حجرة نادية دليلا يهتدى به الى حقيقة تلك الشخصية الغامضة .. رسالة ، أو صورة ..

وفى حجرة نادية تصفح الكراسات المبعثرة على المكتب الصغير .. وعثر على تذكرتين قديمتين لاحدى حفلات الصباح فى سينما ستديو مصر لابد أن « خيرية » كانت معها .. وامتدت يده الى احد الأدراج ، وكان مليئا بالأوراق والمفكرات و « الأساتيك » وأقلام الرصاص والصور القديمة .. كنز طفلة .. ثم وقعت يده على كراسة ضخمة فى آخر الدرج فأخرجها ، وتأمل غلافها الفستقى، ثم فتحها ، وقرأ فى صفحتها الأولى ، بخط نادية الدقيق كلمة كبيرة « يومياتى » .. آه انها تكتب يومياتها ! وجلس على طرف الفراش الصغير الذى يضوع من وسائده المزركشة عطر نادية ، واشعل سيجارة ، ودخل ذلك العالم الغريب من الشعر المنثور .. ان لها لأسلوبا ! .. ولكن : من يكون « م » هذا الذى يظهر ويختفى بين السطور ؟ أتراه يعرف أن نادية تحرق فى محبته كل ليلة ، قبل أن تنام ، كل هذا البخور ؟ .. أى الرجال واحد يستحق هذه الصلوات :

« ان قبلته لم تلهب شفتى وحدهما .. لقد أشعلت النار فى شبابى كله ، انطلقت من شفتى مخترقة كيانى ، واستقرت فى روحى ذبذباتها الدائنة التى ستصحبنى يوم أموت الى قبرى .. لو لم يكن فى حياتى كلها غير هذه القبلة لكان من حقى مع ذلك أن اقول انى عرفت ما الهوى ، وما الصبابة وما الفناء فى المعبود .. » .

أخته تحب .. أخته شاعرة !

واذا جرس الباب الخارجى يدوى فى الشقة كلها فينتفض عصام واقفا ويقذف بالكراسة فى أعماق الدرج وهو يرتجف كالصبى الهلوع ، ثم يهرع الى الباب وهو لا يدرى أن صوته المرتعد يردد فى همهمة غريبة :

« الفناء فى المعبود .. الفناء فى المعبود .. » .

وفتح الباب ، فوجد أمامه آخر انســـان كان يتوقع فى تلك اللحظة وذلك المكان أن يراه ..

كانت الطارقة « روحية » التى تعيش فى بيت صديقه محمود خادما وعشيقة . ولم تكن الأصباغ التى لطخت بها وجهها الأسمر الوسيم تخفى ما وراء نظرتها الكسيرة من حزن عميق وكأن فى عينيها أثر البكاء الطويل ، وظل السهاد .. وهى تريده هو بالذات ، وقد طال ترددها قبل أن تحزم أمرها على الحضور .. انها شقية ، أشقى امرأة .. لقد هجرها محمود هجرا غير جميل .. طردها طردا ، كما تطرد الكلاب .. وليس فى حقيبتها غير ريال ، وخاتم ذهبى ، وصورة الحبيب الغادر .. ماذا تصنع ؟ ألا يستطيع الأستاذ أن يعيد اليها عطف صديقه ورضاه وكرمه المأثور ؟ .. جنيهات قليلة ، على الأقل ، تبدأ بها حياة جديدة ؟ ..

وكانت قد اتخذت مجلسها على أحد مقاعد حجرته ، وجعلت تجفف دموعها الغزيرة وهى تصـــــور له فى كلمات متقطعة متعثرة شقاءها وحيرتها ، وكان هو يعدها أن يبذل كل ما فى وســـعه ، فرفعت اليه عينيها الرطبتين وقد نثرت شعرها المصقول على جبينها وارتسمت على شفتيها الغليظتين المصبوغتين ابتسامة شكر ورجاء .. أنه طيب ، ولطيف ، فليت صاحبه مثله ! .. فلما رأى النظرة

وسمع الثناء قال لنفسه : « انها ما جاءت الا لترمى شباكها على صيد جديد .. وهى لا تنتظر ولا تطلب غير أن آخذها الآن بين ذراعى ، وأحتفظ بها لنفسى .. كلهن هكذا .. دود يلعق بأقفية الرجال .. » ..

ورأته باقيا على جموده فكانت هى التى دنت منه وأسندت راسها على كتفه ، ثم ضمته ، ومكنته من شفتيها .. أغمض عصام عينيه وقد جاشت نفسه وشفتاها فى فمه باحساس من يأكل طعاما تتقزز له نفسه وملأت رائحتها أنفه .. وأحس بها تدفعه فى رفق خبير نحو الفراش وتسقط فوقه .. فشعر كأنما يسقط فى الفضاء من حالق وذكر المرأة الأخرى فى ذلك البيت المريب الذى قاده اليه قديما محمود صاحب هذه المرأة ، واذا به يطلق صرخة رهيبة ويدفع عنه هذا اللحم الساخن القذر المباح :

ــ دعينى .. دعينى ..

فاعتدلت المرأة وقد استبد بها الذعر وعقلت لسانها الدهشة :

ــ ماذا ؟ .. ما بالك ؟! ..

ــ اخرجى .. دعينى ..

ــ أتطردنى ؟ .. طبعا ! .. الوفاء لصاحبك ! .. كلكم أوغاد ! .. وأنت تريد أن يهجرنى لكى يتزوج أختك ! . الآن أفهم ! .. ألا تعرف ؟! .. ولكنه لن يتزوجها أبدا .. سينال منها ما يشاء ثم يلفظها بدورها ، كما لفظنى .

ومادت الأرض من تحته ودار السقف فوق راسه ، وامتدت قبضتاه المتشنجتان الى كتفى المرأة التى صعقته اشارتها الى أخته، وجذبها الى الأرض ، وصرخ فى وجهها :

ـ انك تكذبين ! تكذبين !

فى راسه دوى رهيب « م .. م .. م .. محمود ! »

وقالت المرأة وهى تخلص نفسها وتضحك فى شماتة :

ـ أحسبت انك تعجب امرأة ؟ .. انك هزيل طرى خوار ! وأختك الشريفة العفيفة بنت الطيبين ، اذهب فابحث عنها ! ..

واختطفت حقيبة يدها ، وانطلقت خارجة وهى تسوى شعرها ..

فلما عادت نادية بعد ساعة ، كان أول ما قال لها أخوها :

ـ غدا نسافر الى سمالوط لزيارة الأسرة ..

ـ ٩ ـ

سمالوط . الست دولت وهدى وحجازى أفندى وعصام ونادية حول مهد « عادل » الصغير .. صفقت نادية بكفيها أمام تلك الكرة العجيبة من اللحم الحى الباكى ، وجعلت تضاحكها ، وتلمسها ، وتناغيها .. ووقف عصام يتأمل هذا الوحش الصغير الأصلع ونادية وهى تقبل قدميه العاريتين .. وتقززت نفسه وقد شم رائحة اللبن والبودرة والبول . أهذا هو مصير نادية ايضا ؟ .

أهذا هو ما تحلم به ، وما تنشده بغريزتها عند محمود ؟

أليس من واجبه هو أن يحطم هذا الحلم البشع ؟ .. نعم يترك نادية فى هذا المنفى مع أمها وأختها ، ويعود فى اليوم التالى الى القاهرة فيقصد الى مدرسة محمود ويغلظ له فى القول وينهاه أن يلقى أخته ويتركه على جفوة وقطيعة ..

كانت الثقة والقوة ملء نفسه وهو يجتاز فناء المدرسة نحو حجرة أمين الخزانة . ولكنه لم يكد يدخلها حتى كان محمود قد قفز من وراء مكتبه واندفع اليه فضمه فى مرح الى صدره وجعل يرقص به أمام المكتب الصغير المثقل بدفاتر الايصالات والأختام وعلب الدبابيس وهو يقبله ويصرخ فى أذنه :

ـ أهلا بحبيبى .. أهلا بصهرى العزيز .. خلاص يا عصام .. تبت على أيديكم .. ولسوف أنتقل الى جوار زوجتى العزيزة وأمحو من حياتى ذلك الماضى العابث كله ، فلا تقل لى انك لا ترانى لها أهلا .. لا تقل لى انك لن تمنحنى يد نادية .. نادية ياحبيبى ، والا خنقتك بيدى هاتين ، هنا أمام الخزانة ، وليكن ما يكون .. وتطالع صحف المساء قراءها بعنوان كبير على خمسة أعمدة : « أمين خزانة مدرسة يقتل صحفيا فى مكتبه » ! لا يا عصام ، خير من هذا أن تختار أهون الشرين ، فتقبلنى على عيبى ، زوجا لأختك ! ..

كل ثقة بنفسه زالت أمام هذا الحيوان المرح المطمئن السعيد .

الزواج الأخير !

آخر لبنة فى الجدار الضخم العالى القائم بينه وبين شقيقاته !

لم لا يقاوم ؟ وأين الحديث الذى أعده كلمة كلمة ؟ وما هذه الابتسامة الخانعة الصفراء على شفتيه ؟ ..

لقد ضاع كل شىء .. الآن هو وحيد .. وحيد الى الأبد .. ولسوف يعود بعد قليل الى ذلك البيت الكبير الخالى ، فيستقبله رفيق حياته السكون العميق .. ثم يقبل ذلك الرفيق الآخر المرهوب ، الليل الأسود ، الطاغية .. وعندما تزحف ظلماته ، سيطوف هو بالبيت كالشبح الذليل فى الأطلال ، ويشعل أنوار البيت

كلها ، لكى يوهم نفسه أن البيت مازال آهلا بسكانه .. لا ، لقد ذهبت الى الابد تلك الأرواح الرشيقة الخفيفة التى طالما عمرت البيت بضحكاتها واصواتها ، وخلفته شبحا فى طلل ..

كانت أسوأ ليلة فى عمره ..

اشعل الأنوار فى كل غرفة ، ثم ضاق بالنور فنشر فى البيت جو الحداد ..

وغاص فى هوة من الحزن المظلم . ثم اضاء مصباحه وحاول ان يكتب ولكن ذهولا مستغرقا عجيبا ، سيطر على قواه ، فاستسلم لخدره ، وترك السيجارة تحترق فى المنفضة ، كأنها بقايا حياة ..

وبغتة ، دوت فى ذهنه الهامد جلجلة فكرة جديدة !

أجل ! .. لسوف يعدن ، كلهن ! ..

لســـــــوف يعدن فيجتمعن عند سريره ، نادمات ، تائبات ، خائفات مشفقات .. ان فى صيدلية البيت الصغير أنبوبة كاملة من الكينين ، وقد قرأ أن أقراصها تكفى للقضاء على حياة الانسان ، فليأخذ اذن نصف ما فى الأنبوبة من أقراص ، وبذلك يفزعهن ، ثم لا يموت ! .. وستعرف نادية أن ذلك كان بسببها ، فتركع عند فراشه باكية مروعة وتقسم له أنها لن تتزوج محمود .. ستصبح فى يده كالعجينة يصوغها كيف يشاء ..

وتولته خفة نزقة . وتصورهن معولات راكعات حول سريره ، وخيل اليه أنه يسمع صوته المتحشرج اذ ينادى الموت ليزيد فى فزعهن ، فنهض الى الورق واشرع قلمه وكتب ثلاث برقيات الأولى الى سمالوط ، والثانية الى توفيق أفندى فى شبرا ، أما البرقية الأخيرة فانى لا ازال أحتفظ بها الى اليوم ..

طفل . طفل ممدود فى فراشه ، وفى معدته نصف ما كان فى انبوبة الكينين من اقراص ، وفى نظرته الى ساعة معصمه — بين كل دقيقة واخرى — لهفة الانتظار .

لقد أعد المشهد بدقة شيطانية ، وبعث ببرقياته الثلاث فى مواعيد متفرقة ضمن بها أن يجتمع شمل الأسرة كلها حول سريره فى ساعة واحدة ..

ولم يكن ينتظر النافرات البعيدات وحدهن ، ولا ذلك الكاتب الصديق وحده ، وانما كان ينتظر ايضا تلك الآلام التى قرأ عنها ..

وبدا رأسه يثقل على الوسادة ، وكأن فى حلقه حريقا ، وكأن فى رأسه دوى مصنع كبير ..

وتشنجات عنيفة كان قد قرأ وصفها المروع بدأت تعض فى بطنه ، وغشيت نفسه فى نوبات الفواق ، فأطلق صرخة الرعب فى فضاء البيت الساكن ..

وانتصب واقفا وهو يترنح ثم يسقط مرة أخرى فوق الفراش وقد سالت على وجهه خيوط لزجة باردة من العرق وتثلجت أصابعه ونادى فى صوت مختنق كأنما تخرج نبراته السقيمة من بطنه :

— نادية ! هدى ! امينة !

لم تأخرن ؟ ومن يضمن له أن القدر الذى أصابه من ذلك العقار لن يكون فيه القضاء عليه ؟ .. واذا لم يحضر احد ؟! .. انسان واحد .. أى آدمى .. وجه بشرى .. يد رحيمة تمتد اليه .

ولقد أوشك ان يصرخ فرحا عندما سمع الخطى السريعة والأصوات العالية فى مدخل البيت ..

ورأى أمه وهدى ونادية يقتحمن بابه ، وسمع صرخاتهن ورن اسمه فى اذنه فادرك أن نادية تناديه وقد انحنت عليه وأحاطته بذراعيها وغمرت وجهه بقبلاتها :

ـــ عصام ! ماذا اخذت ؟ ومتى ؟ لم فعلت هذا يا حبيبى .. ؟

وجعلت تنهداتهن وأسئلتهن تتلاقى وتشتبك فوق رأســـه ، فأغمض عينيه وقد سرت فى كيانه مع الآلام الشديدة نشوة الاستمتاع بهذا الرعب كله ، وهذا الحنان الدافق الموفور .. وخيل اليه أن هدى تغسل له وجهه بمنشفة مبتلة ، وأن نادية تحاول أن تقيس نبضه .. وأمه المسكينة كان صوتها ينصب فى اذنه كالموسيقى :

ـــ تكلم يا عصام ! قل شيئا ياحبيبى ! لقد ذهب حجازى افندى ليحضر طبيبا .. كيف حالك الآن ياولدى .. انا أمك .

لم يكن واثقا أن هذا الرجل الذى دخل الآن هو حجازى أفندى فقد كان بصره زائغا ، ولكنه خمن ذلك عندما رأى الرجل الآخر الذى أقبل من خلفه وعرف فيه سمت الأطباء .. ثم سمع عويل هدى ، وصوت توفيق ، وبكاء طفل صغير فى الغرفة المجاورة لغرفته ..

لقد امتلأ المكان بالناس ودفء الاهتمام . .

وشقيقاته . .كن كما شاء وتمنى ..

وهذا الطبيب البليد ، ماذا يصنع ؟ .. انه يلتقط أنبوبة الكينين من فوق النضد الصغير المجاور للفراش ، ويسأل ـــ كم قرصا اخذت ؟ ..

ولم يجب عصام ، ولكنه أدار وجهه نحو الجدار وهو يقول لنفسه انه اذا اعترف بعدد الأقراص التى تناولها فان الطبيب

سيدرك الخدعة ويكشفها لشقيقاته فيسكن عنهن الروع ، وهو لا يريدهن مطمئنات فان ذعرهن هو الشيء الذى يعينه على تحمل آلامه ..

— عصام . كلمنى ، أنا نادية ..

— بسببك .. بسببك كل هذا ..

ولم تجب نادية على هذه الهمسة الذليلة ، ولكن يد الطبيب امتدت الى ذراعه بابرة غاصت فى لحمه ..

ثم جرعته يد أخرى — لعلها يد أمه — فنجانا من القهوة ، فلم يكد السائل الدافىء المر يمس حلقه حتى انبثق القىء من فمه . وقد هزت بدنه المنتفض بالحمى تشنجات فظيعة ..

وبدا كأن ذلك البدن المعذب قد استكان بعد نوبة القىء القاسية الى شىء من الاسترخاء ، فخرج الطبيب الى صالة البيت وتبعته الأم وبناتها الثلاث ، فلما عدن معه بعد دقائق كان فى وجوههن من الروع واليأس ما أفزع فتى الأسرة التعس فى محنته ..

— لماذا تبكين ؟ .. ماذا قال لكن ؟ .. أريد أن أعرف .. أترانى سأموت .. أماه !

فأجهش من حوله بالبكاء ..

— أموت ؟ . أنا أموت ؟ .. أما من سبيل الى انقاذى ؟ .. انى ما أردت هذا ، وما كان الموت بغيتى .. ألا تصنع لى شيئا ياسيدى .. شيئا يرد على الحياة ..

وتعلق بسترة الطبيب ، وقبل يدى الرجل الغريب وبللها بدموعه ..

ــ انها غلطتهن .. هجرننى وآثرن على قربى الحياة مع حيوانات من هذا الطراز .. حجازى .. توفيق .. محمود .. لماذا يقف هؤلاء الأوغاد حول سرير موتى ؟ .. ماذا يفعل السفلة فى هذه الغرفة ؟ .. ماذا يصنعون فى بيتى ؟ .. لقد اقبلوا ليشهدوا انى اموت .. فليخرجوا .. ليخرجوا فى الحال .. أريد أن أظل وحدى مع شقيقاتى .. انهن لى وحدى ، ولن أنزل عنهن لأى رجل ..

واشار الدكتور بيده الى حجازى وتوفيق فانسلا من المكان وخرجت على اثرهما الست دولت وراء الطبيب وهى تشهق بالبكاء .. وخلت الغرفة الا من الأرواح الثلاثة الرقيقة ، فالتفت بسلطان الأرواح المحتضر ..

ــ آه .. الآن انتن لى .. عدتن الى .. ياحبيباتى ..

وفى هذه المرة قاء دما ، تلقته نادية فى راحتيها ..

ولكنه ظل يتأملهن من خلال دموعه ويناجيهن :

ــ لم رحلتن ، وخنتن عهدى؟ أما كنتن سعيدات معى ؟ أما كنت سعيدة معى يا نادية ؟

فأعولت نادية بالبكاء ، وسقطت أمينة فوق قدميه ، ومرت هدى على شعره وجبينه بيدها المرتعدة ..

وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلمات لاذت بالفرار خارج نطاق ذهنه كسحابات من الدخان .. ومزقت احشاءه آلام فظيعة ، ونزح الظمأ لعابه .. ثم دخل فى منطقة حلم غريب .. وكان فى الحلم جسد امرأة ضخم عار ثقيل ، قد انطرح فوقه ، كأنما يشرب أنفاسه ..

وثمة يد تنثر التراب فى وجهه .. انهم يدفنونه حيا .. وتقلص جسده نصار كالوتر المشدود ، وهبطت حرارته ولهث بانفاسـه وتسكع نبضه . على عتبات الأبدية ، ثم دخل الغرفة الزائر الرهيب حاصد الأرواح .

* * *

وقد كان هذا الحداد سببا فى تأجيل زواج محمود ونادية واحدا واربعين يوما ..

الرقصة الجديدة

- ١ -

كانت هذه أول مرة يهبط فيها من الشجرة الى الأرض بعد غروب الشمس .

وكان الأفق كله سابحا فى ضوء القمر ، بسمائه وارضه وصخره وشجره وأحيائه ، عندما عصف بذلك الحيوان الفريد القابع كعادته عند ملتقى غصنين قويين فى ذروة الشجرة ، شوق غامض عارم الى الهبوط فى الليل الى الأرض ، وكان ذلك فى يوم قديم ، منذ بضع عشرات قليلة من ملايين السنين ..

هبط الأرض متوجسا يتلفت ، ومشى غير بعيد من الشجرة التى يسكنها كما سكنها قبله أجداده قرونا من الأزمان ، وتأمل نبات الأرض الزكى فى المساء ، والأحياء العجيبة الضخمة التى تمشى على أربع أو تزحف على بطونها أو تتلوى وهى تفح وتنفث الشر .. ووجد رزقا وقوتا ، فاستخفه الطرب ، وراح ينادى وحشا ضاريا رآه الى شيء من العبث ، ثم تصدى له واستفزه فى خبث وجراة ومناورة ، وزار الوحش وهجم فوثب حيوان الشجر الفريد المرح فى خفته القردية الى الشجرة وجعل يرسل من فوقها عواءه الضاحك ، مستمتعا بما ينفثه السبع الهائج من أنفاس الخيبة .

الى تلك اللحظة كانت هذه الشجرة هى دنياه كلها ..

كانت له فوقها حياة مفعمة خائفة ، وكان مستوحدا ونفسه كلها وحشة ، ولم يكن له اسم ولا جنس ولا عقل ولا ذاكرة ، ولكن أحلام الزمان غضة فى قلبه المتوجس الخفاق .

لم يكن دبا ولا سنجابا ولا قردا ، ولكنه ابن عم لها ، يعيش مثلها على الاشجار ويجهل أن له أبا وأما وجنسا ، واذا وقف اعتدل فى وقفته واستخدم يديه .

وقد عاش طويلا فى القمم الخضراء قبل أن تدفعه فتنة الأرض الغامضة الى احضانها .. كانت طبيعة الأرض تجذبه وتخلق له — من خلال فضوله — عقله البشرى .. وقد بدأ المغامرة بوثبات خفيفة الى الأرض كان يعود منها الى الشجرة وقلبه ينتفض من الرعب .. ولم يكن فى البداية ينزل الى الأرض ذات الأسرار والروع الا عند شروق كوكب النهار الساطع الكبير ، فى ذلك العيد اليومى الذى كان يهلل له فى كل مرة فرحا بالنور وعبادة له .. ثم وجد من نفسه الشجاعة ذات مرة فقضى فى الأرض الواســـــعة المحيطة بشجرته نهارا كاملا كله تجربة ومتاع حتى طردته وحشة الغروب الى عالمه الأخضر الآمن ، حيث يفهم لغة الطير التى تبنى أعشاشها معه على الشجر وترتل له الأنغام بالقرب من النجوم .

ولكنه ، فى ذلك المساء ، هبط فى الليل ومشى فى الأرض يعابث وحوشها ويستطلع سحرها .

وكان قد قطع مسافة فى الوادى عندما حدثت له تجربة جديدة رائعة ، فى لقاء فريد اهتزت له نفسه بضرام من عواطف الرعب والأنس والرهبة .

رأى واحدا آخر ، مثله .. واحدا يشبهه ويمشى هو الآخر على قدميه منتصب القامة فى توجس وفضول وحيرة .

ورآه الآخر ، وصرخ ، ووقف ..

وقفا أحدهما أمام الآخر ، مصعوقين من الدهشة ، والتقت عيونهما .

والتقى فى الأرض أول مخلوقين بشريين من سكان الشجر ، أبناء عم القرد والدب والسنجاب ، فى الليل ، فى الكون ، فى التاريخ .

وكان كلاهما عملاقا .

وفى قلبيهما طفولة الزمن ، وحلم قريب بتلك « الجنة » الخضراء التى هبطا منها .

دهر من الشعور فى نظرة طويلة عميقة كأنها يقظة موجعة من سبات طويل .. واذا به يتبين أن هناك فارقا عجيبا بين تكوينه وتكوين شبيهه .

كان شعر المخلوق الآخر أطول من شعره ، وكان ينقصه شىء ما ، فى وقفته اللينة وشهقاته الناعمة ، وكان فى صدره ثمرتان عجيبتان ، لهما شكل ما أبدعه !

وومض فى عينى الآخر أيضا ادراك لهذا الفارق العجيب !

والمخلوقات البشعة تزحف وتقفز وتطير وتتلوى غير بعيد منهما ، وفى سمعهما فحيح صادر من شق فى صخرة ..

ودمدمت شجرة معمرة وهى تحترق من ضربة صاعقة شق وميضها السماء متعرجا .. والأفعى فى الشق تفح فى اصرار .. وكان « هو » مخلوقا بشريا كأنه مسودة انسان ، خاضعا لسلطان

الطبيعة ومتضرعا الى المجهول الهائل الذى يحتويه ، ولكن فيه يقظة فى النفس والتذاذا بالحلم .. وكانت « هى » مثله ، لولا شبهة شاحبة من ضعف .. ولم يكن « هو » يعرف أنها « هى » ولا كانت تعرف أنه « هو » !

لم يكن احدهما يعرفَ شيئا فى تضرعه الخائفَ الأبكم الى قوى الكون ، لم يكن لهما شعائر وطقوس ، ولا صروح وتوابيت ولا لغة ولا شعر . .ولكنهما قضيا الليلة لأول مرة فى الأرض ، وباركاها بالحب ..

وعندما أيقظهما أولَ شعاع من أشعة الشمس ، نهضا يهللان فى نشوة لوجه كوكب النور ، واذا بهما يريان فى مكان الشجرة التى دكتها الصاعقة خشبا أسود متفحما وقبسا متوقدا يتوهج لهبه فى سحر أخاذ .

نظر اليها ونظرت إليه وانطلقا فىَ همهمة مضطربة تريد أن تتوضح حقيقة الاحساس المشتركَ .. ثم مد « هو » يده الكبيرة المكسوة بالشعر فأمسك يدها ، وعجب لصغرها وهو يجذبها معه نحو ذلكَ اللهب الساحر وبوحى الفطرة المتفتحة عن برعم العقل ، تعهد أول زوج من الناس وقدة النار حتى لا تخبو ، وصار الليل يأتى ويذهب دون أن يجذبهما الشوق الى القمم الخضراء ، وقد كانا قبل النار يحبان الغزال الجميل العابر فى سلام القرون الأولى ، فصارا صيادين يستطعمان اللحم فىَ سعار .

ومرت حياة فاذا معهما مخلوقَ ثالث صــــغير يحبو ويلهو ويضحكَ ويتعلق فمه الصغير بثدى أمه ، ثم ثان ، وثالث ، ورابع ، وجماعة انسانية حقيقية فى الأرض .

كانت البداية الحقيقية لنشر ظلَ الإنسان علي الأرض واخضاع طبيعتها لمقتضيات عيشه ..

وجاءت ليلة اخرى ، بعد حياة مرت ، وسبح الكون فى ضوء القمر وسبح رب هذه الأسرة فى ذكريات تيقظت فى عقله ، وذكر الشوق الغامض العارم الذى دفعه فى تلك الليلة القديمة الى الأرض .. الى لقاء قرينته .. وفاضت نفسه وجاشت .. وتناول عودا وأدناه من شفتيه وراح يقلد صـــوت الهواء وهو يغنى فى أعواد اللوتس والغاب المجوفة ، وصوت الطيور ، وكل موسيقى الكون التى تعيش فى أعماقه .

وعصف به الطرب وراح يصور نفسه الساذجة ويشرح بلا وعى أعمـــــاقها وخلجاتها ، واذا بقرينته وابنيه وابنتيه يترنحون ويتمايلون ، فكان الرقص .. وولدت الانسانية .



— ٢ —

ومرت بضع عشرات قليلة من ملايين السنين ، وجاءت ليلة فى حانة من آلاف الحانات ، فى مدينة من آلاف المدن .

— قل لى . .ماذا جئت تصنع فى هذا البار ؟

— أشرب وأنتظر امرأة .. هل جلست فى حياتك مرة فى بار تشرب وتنتظر واحدة منهن ؟

— أهى فنانة ؟

— راقصـــــة .

— الرقص شىء جميل ..

— لعن الله الرقص!!

— أتلعن التعبير الانسانى الكامل عن نشوة الحياة ؟

ـ الرقص لعنة .. لعن الله أول انسان دق الطبل لامرأة فرقصت !!

ـ دعنا اذن من الرقص .. أنت اذن تنتظر راقصة هنا كل ليلة .. أهو الحب ؟

ـ ستحضر « هى » بعد قليل فتراها بعينيك .. أو على وجه التحديد ترى آخر لحظات حياتها !

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أنا الليلة قاتلها !

ـ ستقتلها الآن ؟

ـ أمام عينيك ..

ـ انت سكران !

ـ أبدا .. فقط هى بنت حواء .. لعنة .. صيادة .. أما أنا فان فى جيبى الخلفى مسدسا .. وفى المسدس ست طلقات .. اثنتان لصدرها واثنتان لبطنها ، أما الرصاصتان الأخيرتان فلرأسها الجميل ان شاء الله ..

ـ انك تفزعنى ياسيدى فى أول لقاء لنا !

ـ المرأة أصلها قرد .. قرد من قرود الشجر .. تراها ساعية دائما وراء أى رجل غنى الجيب ميت الضمير .. كانت حبيبتى وكانت وديعة ، وفجأة انقلبت قردا كأصل أمها .. الليلة أحطمها وأحطم سعادة غيرى بها .. يا أستاذ هذه لا تصلح الا قردة فى قفص حديقة القرود .. خائنات .. هات ياجرسون كمان واحد كونياك ، وبلاش الأنشوجة الناشفة دى .. ترقص عارية وتتلوى كالأفعى الخارجة من تحت صخرة سأقتلها .. سأضرب فى الصدر

والراس والبطن .. وستشهد بعينيك المشهد الأخير من هذه القصة .. ستدخل « هى » مختالة فى معطفها الفاخر الذى أهداه اليها الرجل الآخر ، وانتظرها فى هدوء ويدى فى جيبى الخلفى ، وعندما تصير على خطوة واحدة منى ، وتفتر شفتاها الكاذبتان عن ابتسامة اللؤم وتحية الغدر ، تخرج يدى من جيبى بالمسدس وأسدد فوهته الى مواطن جمـــالها وفتنتها فأنثرها على الأرض .. ســـأقتل الأنثى طويلة الشعر بديعة الصدر ، الناعمة .. هاهى ذى تدخل .. نعم هى هذه .. حواء .. اليســـت حلوة فى معطف الفراء الأسود ؟ .. هذه يدى تمتد فى هدوء الى جيبى الخلفى ، وعلى شفتيها « هى » ابتسامتها العذبة ، سم الأفعى ..

ـ انتظر يارجل حتى أنجو بنفسى ..

ـ لا .. انتظر انت .. انتظر .. اهلا حبيبتى .. تأخرت على يا حبيبتى .. أعرفك بالأســـتاذ . .كنت أكلمه عنك قبل حضورك .. حضرتها الفنانة المعروفة .. كونياك ياروحى ؟

وجلست « هى » ووضعت ساقا على ساق بعظمة ، ودعك « هو » كفيه ولم يعد فى وجهه من الملامح غير ابتسامة عريضة ، وانحنى نحوها يسألها فى اهتمام وتحبب :

ـ كونياك ياروحى ؟

ـ والحساب على .. !!

ـ ماشى كلامك .. شنطتك مفتوحة دائما يابنت يا شاطرة .. هذا الزمن يا محترم هو زمن النساء .. اين تذهب ياسيدى ؟ الا تأخذ معنا كأسا أخرى ؟ .. اذن مع السلامة .. لا .. لا تحاول دفع الحساب .. الحساب دائما على الست ..

فى السـيرك (١)

صانع الموت

دعنى أيها الصديق أعود مرة أخرى الى هذه الذكرى الغريبة من ذكريات حداثتى ، فأقص عليك ذلك الحادث القديم الذى وقع لى يوم كنت طفلا فى العام التاسع من عمرى ، وقد أعاده الى ذاكرتى فى هذه اللحظة منظر ابنتك الصغيرة عندما دخلت علينا منذ قليل وعلى كتفيها عباءتها المنزلية الخضراء .

كان عمى يصحبنى كل ليلة الى ذلك « السيرك » الكبير الذى شغل القاهرة فى ذلك العهد موسما كاملا ، اذ كان يضم مجموعة عجيبة مثيرة من أمهر اللاعبين وأبرع الحيوانات المدربة ، وكان عمى يعرف من افراد الفرقة بهلوانا مغربيا ذائع الصيت يدعى « ابن عمار » فكنا نزوره فى بعض الليالى فى غرفته التى يحرسها زئير الأسود وفحيح الأفاعى .

وقد نشأت بينى وبين ذلك اللاعب المشهور مودة عظيمة ، وكان رجلا ضخم البنيان موفور الصحة مهيب الطلعة ، فى طبعه سذاجة ، واذا تحدث بلهجته المغربية كأن حديثه الموسيقى .. وقد ألف أن يتحفنى بين الحين والحين بهداياه النفيسة ، ومازال عندى منها صورته تلك التى تحمل عبارة الاهداء الرقيقة وتوقيع صاحبها .

وكان « ابن عمار » دائم الرضا عن نفسه ، جم الدعابة والمرح ، وكان — فيما يبدو لى — يزاول عمله الخطير بنفس الاطمئنان والبساطة والثقة التى يحلق بها ذقنه أو يشعل سيجارته، فكان عجبا أن ندخل عليه ذات مساء فنجده عابسا مضطرب السخط وبدا حتى لى أنا الصغير انه يعانى قلقلة عصبية غريبة ، فأقبل عليه عمى يسأله عن أمره ، وأجاب صديقى الضخم :

— لقد ظهر مرة أخرى . انه الليلة هنا ! ..

وسقطت من بين يديه المنتفضتين علبة الأصباغ التى كان يصبغ من الوانها وجهه حين دخلنا عليه ، فركلها بقدمه فحطمها وهو يسب ويلعن فى لغة هى خليط من المغربية والفرنسية ..

قال عمى : عمن تتحدث ؟ ومن هو هذا البطل الذى استطاع أن يثيرك الى هذا الحد ويفقدك ما الفناه من اتزانك ووقارك ؟

قال ويده ، التى أمام المرآة ، ترتجف بالفرشاة الصغيرة :

— الكابوس الثقيل .. مصيبة المصائب .. الحاج زيتون المغربى !

— زيتون المغربى ؟!

قال ابن عمار : انه سر من أسرار الطبيعة .. وعندما يغيب ليلة عن السيرك يتنفس المروضون واللاعبون الصعداء ، لأنهم يعلمون أنه قدر مكتوب .. وهو متفرج مزمن ، قد تبعنا فى كل بلد ذهبنا اليه .. وكنا نظن فى بعض الأحيان أننا أفلتنا منه ، ولكنه لا يلبث أن يظهر بغتة فى مقعده المختار ، ملتفا بعباءته السوداء ، ومحدقا فى اللاعب بعينيه الثاقبتين الثابتتى النظرة تشعان فى وجهه الأغبر الصارم .. ان له نظرة مروعة ، كأنها قبلة الموت .. هى

شعاع ينطلق من فوق ثغره الدقيق الذى يبدو فى سكونه وصمته كأنه يلقى ما يشاء من الرغبات الغامضة فى جو الملعب ..

فتساءل عمى وهو يشعل سيجارة :

ـ لم أفهم .. أى ضير فى وجود هذا السيد بين المتفرجين ؟ أهو شؤم ؟ وبالله من يكون ؟

ـ وهل أدرى أنا ؟ .. ان اسمه الحقيقى مجهول كصاحبه ، وهو لا يتكلم حتى نعرف جنسيته وهويته . .وأغلب الظن أنه هندى من أهل الفراغ والمس الروحى ، عاش فى مراكش ، وله ثراء ، وبين جنبيه ايمان بقوى الروح التى لا حدود لها . ونحن الذين أطلقنا عليه اسم «زيتون المغربى » ، وهو أسم جدير بوجه صاحبه الذى لم يكتف من الزيتونة بلونها فاستعار أيضا شكلها .. وقد كنا خلفناه وراءنا فى « رباط » وفى زعمنا أنه باق هناك ، فاذا به الليلة يظهر فى مقصورته .. قيل لى هذا الآن ، فكان علمى به سر حالى الذى ترانى عليه أيها الصديق .. اننى .. اننى .. خائف ..

ـ خائف ؟!

ـ الى حد فقدان الثقة بنفسى !

قال عمى وهو يمشى الى صاحبه :

ـ وأى أذى يمكن ان يلحقه بك أو بغيرك حضور هذا الرجل الغريب الى الملعب ؟ ان هو الا وهم يا أخى !

فصاح اللاعب المشهور :

ـ الأذى كل الأذى فى حضوره ! .. اسمع يا صاحبى .. أنت على طول عهدك بنا ومعرفتك لنا لا تستطيع أن تعرف أى أسرار نفسية تحرك البهلوان ـ اذ هو معلق فى الفضاء على ذلك

الارتفاع العظيم — من يده أو قدمه أو أسنانه القابضة على حبل أو حلقة حديدية .. فى كل ثانية من الدقائق الخطيرة التى تستغرقها « النمرة » يكون البهلوان منا تحت رحمة أعصابه وسيطرته على ارادته .. انه عرضة للافلات والسقوط والموت تحت أنظار الجمهور الجشعة المروعة .. وسره كما قلت لك فى السيطرة الكاملة على ارادته .. فلو أن ارادة خارجية .. ارادة غير ارادته .. تدخلت فى عمله بشكل حاسم لكان فى ذلك ضياعه .. وهذه المشيئة الخارجية الجبارة لا يمكن أن تأتى من مصدر عادى ، وهنا سر زيتون ..

— يا أخى قل لى ما حكاية زيتون هذا !

— ان هذا المخلوق ، كسائر مخلوقات الله ، صاحب شهوة يعيش عليها .. ولكن أى شهوة شهوة زيتون .. انه انسان درب ارادته وقواه النفسية الخارقة وروضها حتى صارت فى يده كالسيف الصارم .. ان لذته الكبرى هى هذه المشاهد العنيفة التى تبعث فى النفس البشرية — على درجات متفاوتة — شعورا من القسوة الوحشية يصحب الرجة التى يحدثها فى الأعصاب توقع الخطر ، والتى تتطور فى بعض النفوس الشاذة الى رغبة آثمة فى وقوع الشر .. وزيتون — عليه الف لعنة — صاحب نفس شاذة باطشة ، وقد أوتى حساسية لا حد لها ، وارادته سوط فى يده يخط به .. تقريبا .. مصائر الناس .. صدقنى يا أخى انه فلتة .. انه يكتب أقدار اللاعب على الحبل أو المروض أمام الوحش ، وكلاهما كما بينت لك يكيف انفعاله ويسيطر على حركاته بقوة عضلاته الخاضعة خضوعا مطلقا لقوته النفسية .. لطاقة الروح الارادية فى كيانه .. أما القوت الذى يتغذى به هذا المخلوق البشع .. أما أمنيته السارة وفرحته الكبرى ، فذلك أن يشهد أحد أولئك

اللاعبين مع الموت وهو يذهب فريسة حركة طائشة من يده لاختلال طارىء على سيطرته على نفسه .. انه ينتظر ، من مكمنه ، متحفزا كالثعبان ، متوثبا كالنمر ، مترصدا كالقضاء ، ذلك الدوار المفاجىء أو تلك الحركة الخاطئة التى تقذف بانسان حى الى موت فظيع يجعل منه فى غمضـــــة عين حطام جثة غارقة فى الدم .. وهذه اللحظة الخاطفة التى تتم فيها الكارثة المفجعة هى من صنع بشر ..

ـــ من صنع زيتون ؟!

ـــ من صنع زيتون .. من صنع من حقت عليه ألف لعنة ! .. هذه هى لذته ! .. فهو يعرف متى يرسل من ارادته ذلك الشعاع الباهر أو ذلك السيال الآمر فيحدث به فى ارادة ضحيته خللا حاسما يكون فيه حتفه ..

وفى ركنى كنت أرتعد فرقا ، وكان العرق يسيل على وجهى وظهرى ، حتى أوشكت أن أصرخ بالبكاء سائلا عمى أن يخرج لى فى الحال من ذلك المكان .. ولكن عمى ضحك ووضع يده على كتف صديقه :

ـــ ما هذا الذى تقول يا ابن عمار ؟!

ـــ انك لا تريد أن تصدق ، ولكن هذا الرجل الخارق الرهيب قد أضاع من زملائنا وزميلاتنا سبعة أو ثمانية فى السنوات الأخيرة لا لشىء الا لينال لذته ورعدته الشنيعة ويروى عطشه الى ذلك المشهد البشع الرائع .. مشهد انسان حى يموت أمامه أشنع ميتة .. أتذكر « عائشة » بطلة ملعبنا التى قضت نحبها العام الماضى فى أنقرة تحت أنظار عشرين ألف مشاهد ؟ انه يا أخى هو قاتلها ! .. ظلت أمدا طويلا صيد زيتون وقيد نظرته الشيطانية .. كنا نعرف وكانت هى أيضا تعرف .. ولكنه لم يفقد الرجاء .. وظل بها يعالجها ، وقيل انه دفع فى طريقها شابا بديع الشباب فأحبته ،

وأن حبيبها قضى فى مخدعها عشية الحادثة ساعات ، أحالها خلالها كومة من اللحم والعظم واهنة العزم مضعضة الارادة ، وبهذا وحده استطاع فى الملعب أن يسلط أمره الغامض ، فهوت من ذلك الارتفاع الشاهق وسط صيحة من عشرين الف حنجرة ، وعلت الثغر الدقيق الساخر ابتسامة غامضة ، وطوى الشيطان عباءته السوداء على كتفيهو غادر الملعب بعد مصرع عائشة وابتلعه الظلام .. وما كان ليصدقنا أى مجنون لو أننا جعلنا نصيح : اليكم القاتل فخذوه !

وسمعنا فى تلك اللحظة دقا على الباب وصوت غلام من خدم السيرك ينادى :

— دورك ياسيد !

فانبعث ابن عمار — وقد سمعها — واقفا يكرر فى همسات متصلة :

— دورك ياسيد .. دورى .. دورى ..

ولمعت حدقتاه فى وجهه النحاسى الوسيم ، وعاد يهمس كأنما يخاطب نفسه :

— ها هو ذا الليلة هنا .. ولعله ، بنداء من عينيه ، أو بحركة من شفتيه ، أو باشارة من يده ، قادر على أن يجعل من هذه الليلة آخر عهدى باللعب وبالحياة .. آخر دور ..

رأيت عمى وقد امتقع لونه يجاهد ليسخر من خوف صديقه .. ودفعه الى البـــــاب دفعا ، ثم تناولنى من يدى وهرع بى الى مقصورتنا ، وما أن جلسنا حتى دوى الملعب بتصفيق حاد ، فقد ظهر البطل المحبوب بين الحبال فى أعلى قمة الملعب ..

كان عمى عن يمينى يلهث بأنفاسه والعرق يغطى صــدغيه وجبينه ، وكان صديقه ابن عمار هناك عاليا فى القبة يقفز بمهارته

المذهلة بين تلك المجموعة المعقدة من الحبال والحلقات فى سرعة تخطف البصر ..

وهمست وقلبى يدق فى صدرى :

— عمى .. أين زيتون !

فارتعدتْ يده المستندة الى ذراع المقعد :

— أجئت لتتفرج على ابن عمار العظيم أم على .. زيتون ؟

ولم يكد يرفع بصره مرة أخرى الى قبة الملعب حتى كان الجمهور قد زار وهو ينبعث واقفا فى رعب جماعى مروع وقد شهد بطله الكبير يهوى فجأة كالحجر الى حافة الشبكة ومنها الى الأرض بعد أن أفلتت قبضته الحلقة التى وجهتها اليه زميلته ..

وقد أنسى كل ما مر بى ، ولكنى لا أنسى لحظة الرعب التى سمرتنى فى مكانى عندما شهدت ، فى المقصورة المجاورة ، عباءة سوداء تهرول خارجة من المكان ، منطوية على ذلك السر الغامض الماثل فى هيكل انسان من أبناء الفناء ..

فى السـيرك (٢)

صلاة الوحوش المؤمنة

همس صوتها اللين كضوء الشمعة : متى تكتب قصتى ؟

فنظر فى بريق عينها الوحشى تحت قوسى حاجبيها المشرعين وأجابها : « سوف أكتبها يوما ، وفى ذهنى منذ الآن عنوانها . ولكنى فى حاجة الى فترة من الزمن تسكن فيها نفسى الى فكرة كتابة قصة كهذه .. قصة نفس بشرية أوتيت كل هذا القدر من الوحشية » .

ـ وما العنوان ؟

ـ « الوحش خارج القفص » ..

قالت : « أتحتقرنى وترهبنى بعدما مزقت بين يديك قناعى ؟ ان هذا العنوان وحده يقول ذلك » !

ووقع بينهما صمت عميق ..

كل شىء ساكن الى اقصى مدى السمع ، وظلال الأشـجار الضخمة مبسوطة على الطريق ، بين الحركة والسـكون .. والسيارة تطوى الظلال فتمحوها فيما ترى العين ، كأنها تهتك أستارا .. ووراء عجلة القيادة ذلك الوجه الأسمر الجميل الذى

تنطلق القسوة الفطرية فى قوسى حاجبيه .. وعن يمينها ذلك الرجل الذى يكتب قصصا عن الوحوش والبشر ..

منذ ساعات قليلة لم يكن يعرف عنها شيئا ، أما الآن فقد رفعت له النقاب عن روحها ومزقت بين يديه حياءها وأباحته نفسها يرتاد مجاهلها ، وفى يدها المرفوعة مصباح ينير له سبيله فى أدغالها الرهيبة .. قالت له : « سأجعل منك كاهنا ، وعلى ركبتى أركع ، وبين يديك أعترف بخيرى وشرى ، ومجدى وعارى » .

وعادت تسائله : « أتراني وحشا ؟ » .. قال : « لست وحدك الوحش ! .. » . قالت : « تقول هذا لترضينى .. » .

قال وبصره الى الطريق الذى تلقى عليه الاشجار الضخمة ظلالها وتنشر فيه غيابات السكون : اقص عليك بدورى قصة صغيرة ، قصة وحوش لا عدد لها ، وحوش فى غابة كبيرة .. ذلك انى أوتيت منذ أعوام حظا لم يؤته أحد من الناس ، اذ شهدت بعينى أسدا يفترس مروضه .. والأسد وحش كما تعلمين ، والمروض ان كنت لا تعلمين انسان ، أخ من البشر ..

— وأين كان ذلك ؟

— فى السيرك ..

— والأسد أكل الرجل أكلا ، أمامكم ؟

— تعلمى الصبر واسمعى .. كان مقعدى فى الملعب بحيث لو مددت ذراعى للمست الأسد داخل قفصه ، وكان اسم الأسد «سلطان» .. وكان وحشا صعب المراس تلتمع عيناه تحت لبدته السمراء كما تلتمع عيون بعض النساء تحت قوسين من حاجبين ينمان عن قسوة دفينة باغية .. وكان المروض منتصبا وجها لوجه ازاء الوحش ، ومعتمدا باحدى يديه على حربة ضخمة ذات حدين ، ويده الأخرى تحرك السوط فى وجه الأسد .. وكان فى ساحة الملعب

حشد من الناس .. ينظرون .. وكلهم بشر فما فينا ليلتئذ وحش الا الأسد ولم ألبث ان لحظت أن احدى قدمى المروض مهيضة ملفوفة وأن الأسد فى حالة غير مألوفة من الهياج والتمرد ، فهو يرفض اطاعة الاوامر التى يصدرها اليه مروضه ، وقد كشر عن أنيابه وجعل يرسل زئيرا عاليا يهز أركان الملعب وينفس به عن غيظه الساخط وكبريائه الجريحة .. ولكن المروض لم يعبأ بغضب الوحش ، بل جعل يسوطه ويزجره .. ولعل هذا كله لم يكن فيه شىء جديد ، فتلك هى على كل حال المبارزة المألوفة بين ارادتين ، على احداهما آخر الأمر أن تخضع للأخرى .. واقبلت لحظة خيل الينا ان المروض قد اكتشف فيها عند تلميذه العاصى علامات العودة الى الرضوخ والطاعة ، فقد كف عنه سوطه ، واراد أن يرجع الى الوراء خطوة واحدة ليترك للأسد المسافة الكافية للقفز فوق الحاجز ، ولكن قدمه العاجزة عثرت بحربته ، فترنح بقامته المديدة ، واطلقت الجموع المحتشدة فى الملعب صرخة عامة قصيرة . .

وفى أثناء جزء من ألف من الثانية ، استطعنا أن نعتقد أن الرجل سيستعيد توازنه .. وكنت أشهد نظرة الرعب فى عينيه ، وكان أول من يعلم أنه قد اضطهد الأسد فى ليلته وانه هالك ان سقط ..

ولقد سقط الرجل على أرض القفص كتلة لا حراك بها .. وعجبنا فى غمرة الفزع أكان سكونه عن قصد منه ، أم كان رعبا وهلعا .. والحق انه لم يحاول أن ينهض من كبوته ، وأظنه كان لديه الفرصة الكافية لو شاء أن يفعل ..

أراك تلعقين شفتيك بطرف لسانك الأحمر الدقيق ، كأنما خيل اليك أنك فى مكان « سلطان ! » .

* * *

والآن فانظرى ماذا كان .. كان الصمت العميق يخيم على ساحة السيرك، وقد نهض « سلطان » ازاء الانسان الملقى امامه بحيث لم يكن الجمهور يرى شيئا من ملامحه .. فأى لغز خفى كان ساعتئذ فى عينى الوحش ؟

قالت : أحسبه كان يلعق فمه بطرف لسانه ! .. » .

ـ أما الناس .. ماذا كان فى أعماق نفوسهم من الانسان وماذا كان فيها من الوحش ؟ .. ان المرء لتساوره فى مثل تلك المواقف الرهيبة احساسات غير متوقعة ، ومذهلة .. بينما كان الصمت المروع سائدا والأسد والمروض ثابتين فى وضعيهما كأنهما شخوص لوحة بارزة ، غزت نفسى عاطفة غير معقولة لا ادرى ماتاها : أهى من الانفعال الحقيقى ؟ أم من الفضول الوحشى الكامن فى الواعية الخفية لنا نحن البشر ؟ .. لا أدرى .. والذى أدريه هو انى كنت فى تلك اللحظة أخشى أن يطول انتظار « سلطان » ! .. كان فى أعماقى صوت وحشى يقول لى ان هذا الوحش احمق اذ يكتفى بهذا التحديق فى جسم الرجل الملقى تحت رحمته ! .. ولم اكن الوحيد الذى ساورته تلك الرغبة الفظيعة الغامضة ، بل كانت كل الوجوه من حولى تكاد تفصح عنها ، ولكن لم يكن يسع أحدنا أن يجهر بما كان يتمنى فى سريرته : أن يتذوق الوحش ، تحت أعيننا ، لحم فريسته ..

فى تلك اللحظة كنا كلنا وحوشا ..

مزق المشهد أقنعتنا ، وكشف خبيئتنا ..

وكان انتظارنا قد طال ـ ثوانى كالدهر ـ والوحش الذى تركزت فيه وحشيتنا منتصب كأنه القدر ، مدرك أن عليه هو ـ وقد تغيرت ظروف الصراع ـ أن يتقدم وينعم بوليمتنا وقرباننا .. فيفعل

كأنما تدفعه ارادتنا ، ووضع فوق كتف الفريسة ـــ فريستنا كلنا ـــ أحد مخالبه الثقيلة .. وحدث هنالك انفجار صاخب رهيب ، فقد دفعت المقاعد الى الوراء ، وارتفعت من مئات الحناجر صيحات تتكلف الاشفاق والروع ، وهرع نحو جدران القفص الحديدية من استطاع ، وتدافع الناس وداس بعضهم بعضا ، وشبت النساء على أطراف اقدامهن .. ولكن هذا الهرج العنيف لم يصرف الوحش عن فريسته ، وانما التفت نحو الحشود المتفنة بلفتة ملكية وفحصها باحتقار هادىء ، ثم عكف على صاحبه يهزه ، ويعضه .. وما لبث فمه أن امتلأ بما لا ندرى .. ربما بلحم آدمى ! ..

ولو لبثت تلك الأمنية تجيش فى النفوس المحيطة بالقفص دقيقة واحدة أخرى لكان قد التهم فريسته وقضى الأمر .. ولكن النفوس كانت قد استردت طابعها الكريم ، أولئك الذين كانوا فى مبدأ الأمر قد شاركونى رغبتى الوحشية فى التفرج على مذبحة ، قد عادوا كما عدت يستفظعون هذا المشهد البغيض عندما تحققت أمنيتهم تحت أعينهم أو كادت .. وكأنما كان « سلطان » يقرأ أفكار الناس من حوله ، فقد ترك ضـــــحيته على غير انتظار وكف عن تمزيقها ونهشها كأنما هو قد خضع آخر الأمر لمشيئة تلك النفوس التى تعاونت على املاء ارادتها عليه ..

قالت صاحبة الصوت اللين كضوء الشمعة وهى تلعق شفتها الحمراء بلسانها العصبى :

ـــ ما أسرع ما ارتددتم من نشـــــوة الافتراس الى الطابع « الانسانى » الكريم .. وانى ، أنا ، لأعجب للأسد كيف نزل عند ارادتكم ، وباع بذلة الخضوع نشوة الدم !

ــ لم يكن وحشا كاملا ! .. انى أعترف أن ذلك الوحش المروض كان اقل منك فى وحشيته درجة ! .. وقد أجبره سلطاننا نحن على أن يتراجع وجلا ، وما لبث أن فتح باب القفص عن رجلين قد شرعا حربتين ما كان السبع الضارى يراهما حتى تقهقر الى باب آخر وراءه يوصل الى قفص خلفى .. وأقفل الباب عليه .. وهرع الرجلان الى الجسد الذى لم نكن نعلم بعد ما حل به ، ولكن الرجل لم يلبث أن نهض بعون زميليه قائما .. وكان عنقه ينزف دما وقد سلخ جلده ، ومن جبينه ــ بين عينيه ــ كانت تتدلى كتلة قرمزية من اللحم الحى ، كأنها شاهد على مخلب « سلطان »(١) ! ..

وانحنى الرجل للجمهور الذى أوشكت ردته الى الوحشية أن تضيعه ، وانسحب يجر ساقه المهيضة ..

ولم يكد يختفى حتى اتجه اهتمام الرجال والنساء الى أخيهم الوحش وقد صار فى القفص الخلفى مع زميله المنتظر وهو يذرع القفص فى انفعال بالغ ، وكلما مر أمام زميله الجاثم فى الركن لحس له هذا بلسانه بقعة قرمزية من الدم على ساقه ..

وأقبل من ورائى سيد جليل فأدخل عصاه من خلال القضبان وجعل يضــرب بها سلطان كلما مر من أمامه ، وســلطان ينظر فى استخفاف الى هذا البشرى الذى لم يطق أن يكون وحشا أكثر من دقيقة واحدة !

وهمس متفرج آخر فى أذنى ملخصا شعور الجميع :

---

(١) نشرت هذه القصة أول مرة فى جريدة « المصرى » منذ أكثر من عشرين سنة ، وقبل أن يفترس أسد اسمه « سلطان » ـ أيضا ـ مروضه فى سيرك القاهرة فى نهاية سنة ١٩٧٢ .

ــ لماذا يضربه ؟ اننى كنت فى صف الأسد !

نعم كانت صلاة صاحب العصا نفاقا بغير ايمان !

والتفت الى صاحبته التى كانت تقود السيارة فما راعه الا ان راى قبضتيها على عجلة القيادة ترتعدان .. وكان كل شىء ساكنا الى اقصى مدى السمع ، لولا ذلك اللهاث المحموم من صدرها .. وكان كل شىء ينطق بالجمال فى تلك الليلة الصائفة ، فمن راى السيارة تطوى الظلال حسبها تضم عاشقين ، لولا أن سائقتها كانت تلعق شفتيها بطرف لسانها الدقيق العصبى كما كان يفعل ــ على دم الرجل ــ لسان « سلطان » فى القفص !

كانت تصلى .. صلاة الوحوش المؤمنة !

فى السـيرك (٣)

الأجراس الصغيرة

لا يا صديقى . هذا الذى اخذنا اليه عثمان تحت تلك القبة المضروبة فأنفقنا فيه ليلتنا ، ليس ملهاة أطفال ! انها الدنيا ! انه عالم كامل ، وعجيب .. انه السيرك ، أكبر مسرح فى العالم ، ذلك الذى يتآخى فوقه الانسان والحيوان .

اخرج بنا الى شارع الهرم ، وقد سيارتك على مهل ، واصغ الى أحدثك عن صورة من عالم السيرك غير هذه التى شهدناها الليلة .. صورة تعيش منذ عهود سحيقة فى نفسى ، وقد تتضاءل معالمها تحت الرحى التى تطحن أيامنا وتذرها مع الريح ، لكنها لا تلبث أن تبعث حية أمام مشهد كهذه الكف التى رأيناها الليلة ، كف مروض الضوارى التى قضمها الوحش ذات مرة ..

قال صديقى وهو يتثاءب فوق عجلة القيادة :

ــ أحسبنى أعرف القصة ! اليست قصة البهلوان الذى ..

كلا يا حسن ! بل هى صورة أخرى لست أدرى لم كان يتردد القلم دائما فى يدى كلما هممت أن أكتب عنها ، ولم يكن بطلها بهلوانا يغازل المصير على حبل ، ولا راقصا بارعا فوق ظهر حصان أو

فيل ، ولا مروضا يسيطر على ضوار تزأر فى قفص .. لم يكن حتى أحد أولئك الفلاسفة الذين يصبغون وجوههم ويزركشون أزياءهم ويفلحون فى جعل الناس يستلقون من الضحك على ظهورهم ..

كان انسانا عاديا مثلى ومثلك ، يرتدى — اذا تصدى للموت على طريقته — طرطورا تدندن فيه الاجراس ، وقميصا سابغا من الحرير الأحمر اللامع ، ويركب « بسكليت » .. نعم ، «بسكليت» يا أخى .. ! وكان يدور ويدور وهو متجمع فوق آلته كحشرة عجيبة حمراء ، ظهره قوس ، وأنفه بين ركبتيه ، وساقاه تعملان فى البدال فى سرعة متزايدة ، و « البسكليت » يتطوح به حتى ليخيل اليك فى بعض دوراته السريعة الخاطفة أن رأسه يكاد يمس أرض القرص المعدنى المستدير الذى يدور فوقه ، والذى ، هو أيضا ، يدور .. يدور حول محور تسيطر على حركته وسرعته قوة موتور كهربائى .. لكنه يدور فى الاتجاه المضاد لاتجاه « البسكليت » .. وكلما زادت سرعته الآلية رأيت الحشرة الحمراء المنكبة على «البسكليت» تجاهد بكل قوى عضلاتها وارادتها كى تصارع قوة الدوران المضادة القاذفة ، كما لو كان يكافح ريحا غاضبة عاتية ..

أترانى استطعت بهذه العبارات المضطربة أن أرسم لك صورة كاملة لأداة العيش التى كان ذلك الانسان ينتزع بها ، كل ليلة ، وجبة عشاء له ولزوجته العرجاء ؟

ربما كان من واجبى أيضا أن أبين لك أن القرص الذى كان يدور فوقه لم تكن له حافة ، وأن قطـره لم يكن يتجاوز الأمتـار الأربعة ، على حين كان ارتفاعه عن سطح الأرض نحو عشرة أمتار ، وأنه كان فى الحقيقة شيئا جهنميا يبدأ دورانه فى بطء ثم تزداد سرعته ، أسرع فأسرع ، حتى لا تعود العين ترى منه غير أسطوانة

براقة جن جنونها ، وكأن سطحها بخطوطه الدائرية التى حفرتها فيه العجلات على مدى الأعوام بركة ماء صقيلة ألقيت فيها حصاة فانداحت دوائر دوائر ..

وقد ذكرت لك أن الرجل كانت له زوجة .. وأنا لا أنسى تلك السيدة الشقراء التى كانت من جنس زوجها ، من بنات الشمال .. وكانت هى الأخرى ، ترسا صغيرا فى عجلة السيرك الهادرة ، ثم سقطت ذات ليلة من القبة العالية فتهشمت ساقها اليسرى ، فهى اليوم عرجاء تمشى متوكئة على عصا من الأبنوس الأسود ، وادارة السيرك تمنحها معاشا أسبوعيا هزيلا ، زاعمة لها فى حياء الكرم أنها تؤدى عملا له قيمته ، لعله امساك الدفتر وحساب نسبة الضرائب ، أو شىء من هذا النحو لم أفهمه تماما ..

كنت أراها دائما واقفة الى جوار أحد الأعمدة الضخمة التى ترفع القبة فوق الساحة ، فى ثوب بسيط ، وروحها تطل من عينيها فى لهفة عميقة على رجلها الذى يدور ويدور فينتزع ضحكات السرور وشهقات الفزع ..

رجلها ذو الطرطور ، الذى تحبه ، ومن خشيتها عليه ، كل مرة ، تتسمر كالتمثال أمام الطابع المروع للعبته ووسيلة رزقه ..

وفى المرحلة الأخيرة الخطيرة من « اللعبة » عندما كان يبدو أنه يوشك فى مزاج من الجد والهزل أن تقذف به الى الفضاء قوة الدفع المنبعثة من مركز الاســــطوانة ، كانت كل واحدة من تلك الترنحات القاسية الخطيرة تنتزع من الجمهور ، ومن بعض زملاء اللاعب ، نفس الشهقة المختنقة التى تهز كيان المرأة شريكة حياته .. أبدا لن تبرح ذاكرتى يا أخى صورتها وهى مستندة فى اعياء

الى العمود الخشبى الشامخ ، بينما الاسطوانة البراقة تخطف خطف البرق مرسلة زمجرتها الصماء وقد طقت فى حافتها القاتلة شرارات كهربائية وامضة ، خضراء وحمراء ، وذلك الصغير الجهنمى يصحب المأساة كلها ، حادا قاسيا ، كأنه عواء مستمر كالنذير ..

وفى كل مرة كنت أقرأ فى عينيها سؤالا اليما ، هو خبزها اليومى : أتراه اليوم موعده مع الموت ؟

وكنت أتأملها طويلا بعد أن ينتهى « الشغل » فترق لهما نفسى وهما يخران فى كل مرة جالسين جنبا الى جنب .. ولكم ترأت نفسيهما .. لقد انتهت « اللعبة » هذه المرة أيضا بسلام .. كفت الصفارة العصبية عن شكواها المتصلة ، وهدأت الاسطوانة الغالية من سرعتها قليلا قليلا حتى توقفت .. وهاهى ذى الحشرة الحمراء التى كانت تجنى القوت وتصارع قوى الوجود قد قفزت الى الأرض الثابتة ، وانحنت فترنمت فى الطرطور أجراسها ، وابتسمت للأكف الهاتفة .. هاهو ذلك الكائن البشرى يخطو فى اعياء الى الركن الذى يعلم أن صاحبته تنتظره فيه .. انها تتلقاه بابتسامة تقطر فرحا مرا .. لقد نجا من الموت .. ربما كان ذلك غدا .. فى حفلة النهار .. أو فى حفلة الليل .. لكن الآن ، فى هذه اللحظة ، أمامها ليلة .. ليلة كاملة يعيشانها معا ..

فى تلك اللحظات التى كان يطيب لى فيها أن أسرى بروحى فى روح هذا الزوج من الناس ، كنت أحس أن عالمهما يفصلهما عن كل عالم اخوتهما الذين يضطربون حولهما .. وانظر اليهما فأراهما — من مكانى البعيد — يفرشان على الأرض ورقة من صحيفة ويضعان فوقها وجبة العشاء ، تؤاكله أليفته .. ربما كان ذلك هو عشاؤهما الأخير معا ، لكنهما يضحكان ..

ترى ماذا يقول لها وتقول له ؟ أن حبهما ضخم يسع الكون كله .. ولعلهما يحلمان بمكان جميل يأويان اليه بعد السنين العجاف وينثران عليه الزهر والنغم ورغد العيش ، وكل جمال ..

يا صديقى قد أنسى كل ما رايت وعرفت فى السيرك ، ولكننى لن أنسى أنه ما من أحد منهم ، لا المروض الجبار فى قفص السباع ، ولا البهلوان المارد على حبله ، ولا المهرج العالمى الذى يبصق على الحياة فوق نشارة الخشب التى تكسو أرض الساحة ، مامن أحد فى ذلك العالم العجيب قرأت فى وجهه ما كنت أقرؤه فى وجه ذلك الانسان الذى ترن فى طرطوره الاجراس ، اذ يتصدى للموت فى سبيل القوت فيفرض على نفسه ، مرة أو مرتين كل ليلة ، تلك المحنة التى يبلغ من فظاعتها فى بعض اللحظات أن يرفض وجهه الاذعان لارادته ، فترتسم عليه كل الحقيقة الرهيبة المفجعة ، ويغدو .. حقا . وجه محكوم عليه بالموت ..

عد بنا الآن يا أخى من الهرم الى المدينة ، فما أحسبك تذوقت من حكايتى الساذجة شيئا يعوضك عن ساعة نوم أضعتها ! ..

فى المجتمع

ــ يابيه .. يابيه .. اشترى منى ورقة والنبى ..

توقف الرجل ، ونظر الى البنت الصغيرة التى طلعت له من وراء كشك المترو ، ونهرها :

ــ ياشيخة غورى انت كمان ..

كان يبحث عن تاكسى ، وكان شارع عماد الدين هامد الحياة فى الفجر الشاحب ، والبرد اللاذع ..

ــ خدلك ورقة .. مين عارف يابيه ، يمكن تكسب ..

امتدت يد الرجل الأنيق فى شىء من الضيق والعجلة الى جيب معطفه وخرجت مليئة بالنقود ، وامتدت بقطعة صغيرة من ذات القرشين الى البنت الصغيرة ..

ــ خدى .. وغورى بقى من وشى ..

التقطت البنت الصغيرة قطعة النقود من فوق جلد القفاز البارد ، وسألت السيد وهى تضع أوراقها الملونة تحت أنفه :

ــ اسعاف ؟ اقباط ؟ مواساة ؟

ــ لا .. دا علشانك .. بس حلى عنى بقى ..

وخث الرجل الخطى الى ناحية شارع فؤاد وهو يتطلع الى مرور تاكسى خال يسرع به الى بيته الدافىء الوثير فى الزمالك ، لكن البنت الصغيرة تبعته من بعيد تتسكع بقدميها القذرتين الحافيتين .

كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، نحيلة سمراء تتراءى فى هزال الجوع ، ولها شعر أســود طويل ، وقذر ، وكان جبينها معصوبا بمنديل أخضر ، وثوبها البالى الأسود القصير يعلو ركبتيها ، وركبتاها أيضا قذرتان .. وكانت تقترب منه وهى تخشى بأسه .. كان الرجل واقفا الآن تحت مصباح النور القائم أمام صـــيدلية الناصية ، فجاءته البنت الصغيرة مرة أخرى من أمامه وقالت له فى انكسار :

ــ يابيه .. أصل الساعا دى ماتلقاش فيها تاكسى كتير ..

ــ أنا بعدين رايح ألهفك كف ماتخديش غيره ..

ــ ما تخلى بالك طويل امال ياسعادة البيه .. يمكن أفيدك .

سكت الرجل لحظة وهو يتأمل الصبية فى عجب ، فابتسمت له ، ابتسامة قاسية حزينة .

ــ تفيدينى بايه يابنت الكلاب انتى ؟

رفعت اليه عينيها العسليتين المريضتين وهمست :

ــ الدنيا برد وأنا سقعانة قوى .. وجعانة ان كنت تصدق .. جعانة قوى .. والليل طويل يابيه .. ونادر لما أفندية ولا بهوات ياخدونى ..

ــ ياخدوكى ؟!

قالها وهو واقف أمام مواطنته الصغيرة كالمصعوق ..

ـ أنتى بتقولى ايه يابنت ؟

ــ فى خرجة السينما السواريه .. ساعات يعنى .. وأحد من بتوع آخر الليل .. ولا شلة أفندية .. أتمسكن لهم عشان ياخدوا منى ياناصيب يكلمونى ويضحكوا معايا .. وساعات يخافوا منى بعدما يكلمونى وأجاوبهم .. ويسيبونى ..

وابتسمت مرة أخرى ابتسامتها الناضجة القاسية ، وقالت :

ــ السن يابيه .. علشان قاصر .. لكن سعادتك لو جيت معايا دلوقت بولاق ، فى البيت ، أختى حسنية أكبر منى ..

وكالملسوع صرخ الرجل وراء تاكسى فارغ كان سائقه قد مر به كالسهم : تاكسى .. تاكسى !!

لكن صوت البنية الصغيرة كان لايزال يتوسل فى اذن الرجل : حسنية أكبر منى .. وأحلى يابيه والله العظيم ..

عندها جرى الرجل بأقصى سرعته نحو التاكسى الذى كان يتراجع اليه ، فلو رأيته حسبته ينجو بعمره من جب الأفاعى .

الأقنعـــــة

أنت ساخط أشد السخط لأن العالم المنهوم بالتجرد والعلانية قد خلا من روعة الغموض وسحر المجهول ، وأنا لا أقرك على زعمك ولا أرى معك أن النزعة العصرية قد قضت على عهد « الجنيات » وكل ما يسيطر على قلوبنا ويهز أعصابنا ويشبع نهمنا الغريزى الى روائع المجهول ، فأنا أعتقد أن فى صميم حياتنا العصرية أشباحا وأطيافا ذات رؤوس آدمية تسير بيننا وتحتك بها كل يوم وكل ليلة دون أن ندرى ، وأن العالم لايزال عامرا بالغيـــــلان والوحوش والســــــحرة ، حتى بين من نلقاهم كل يوم ، وبين أقرب الناس الينا !

اليك هذا القطيع من النساء والرجال ، قد أقبلوا ليعتصروا اللذات كلها فى هذا البيت الجميل الحافل بالأضواء والموسيقى والخمر والعطر ، فتخير من تشاء من الرواد ثم دعنى أحسر لك القناع عن كل وجه يقع عليه اختيارك ، لأكشف لك الهول الكامن وراء كل محيا صبيح أو مظهر خادع أو ابتسامة مشرقة ..

ان هذا البيت صورة مصغرة من الحياة نفسها .. بهو واسع عامر بالأقنعة ، لكل من رواده قناع يستتر به الغول القابع فى كيانه فدعنى اذن آخذ بيدك فى هذا البهو ، وتخير منه نماذجك ..

اليك هؤلاء النسوة الرشيقات الانيقات العطرات ، قد برزن كالعرائس الخشبية التى تعيش دون أرواح ، بعيونهن الجوفاء الغارقة فى كحل صناعى ، وشحوبهن الطباشيرى المروع ، وتلك الجروح الغائرة الحية المفتوحة فى وجوههن .. السن جئنا لها كل مظاهر الحياة ، هاربة من محلات الموتى لتغوى الأحياء وتضلهم وتضيعهم ؟ أى سحر شيطانى يشع منهن خاويات النفس خربات الروح ، باردات كالدمى العاجية ، مفزعات ببشرتهن الشاحبة التى أضناها سهر الليل ، بابتسامتهن الدموية التى يرسمنها على ثغورهن ، برعوسهن الفارغة الا من كل لغو باطل ..

نعم استطيع أن أحدثك فأطيل الحديث عن « ساحرات » العصر الحديث .. لكن لنكتف الليلة بهذه الهيفاء التى اذهلك عن نفسك حسنها .. هذا بيتها وأولئك ضيوفها .. بأى مستور من أسرار الشهوة الفظيعة تقود ذلك الثرى المعروف من أنفه وتمسكه من وسطه كما يمسك القرد وتنسيه زوجته الشابة وأطفاله الحسان ؟ بهذه الابتسامة العجوز المنداة بالدم ؟ بحدقتها البلورية ولونها الخزفى وأسنانها الصدفية ؟

انها الآن فى تجربتها الرابعة الكبيرة ، فعلى يديها وبفضلها انتقل الى دار السلام ثلاثة أزواج كانوا ملء الدنيا صحة وعافية ، فأفرغت نخاع عظامهم واستلت موفور شبابهم ، ولبثت هى نضرة متوردة ، قد ورثت مع ثرواتهم صحتهم بعد أن أذابتهم كالشمع فى مخدعها الوردى .. وهى الآن تعالج الرجل الرابع ، ولعله لايزال يقاوم ، ولكن صدقنى انه رجل هالك !

سيدة كل حفل وربة كل جمع ، عطرها يضوع فى كل مسرح من مسارح الخلاعة ، وقدماها ترقصان فى كل ليلة رقصة الخطيئة

.. حذار ان نادتك عيناها .. حذار ان همست اليك شفتاها .. حذار أن امتدت اليك يداها .. ضع كفيك على عينيك لا تشهد ، ضعهما على أذنيك لا تسمع ، ضعهما على قلبك لا يضل ولا يغوى !

سيقول لك الذين يعرفونها انها فى الأربعين، وتزعم هى أنها فى الخامسة والعشرين ، فلنقل امرأة فى الثلاثين من عمرها الذى بدأ فى المجهول ويعلم الشيطان وحده اين ينتهى .. كان اسمها يوم ولدت « زهرة عبد الذكور » أما اليوم فهى الغانية الشهيرة المتألقة « سهير نبيل » .. وليست هى بالمرأة البارعة الجمال ولا هى بالألمعية الذكاء ، لكن الحلاق و « الماكيير » والخياطة — أولئك الذين يعدون أعظم فنانى العصر الحديث — يعرفون كيف يظهرونها فى أروع مظهر تطمع فيه غانية ..

هى للجماهير ربة من الأرباب ، وهى فى صميمها طبل أجوف ، خاوية خربة ، ميتة العقل والقلب ، تتكشف سوءاتها ونقائصها عندما تنضو عن كتفها رداء المجد وينحسر عن محياها قناع الشهرة المتألق البراق ..

الرجال عندها ليسوا رجالا ، بل مراحل الطريق الى المجد !

كان أولهم فتى ريفيا من ذوى قرابتها فى البلدة التى نشأت فى دروبها على قسوة الحرمان .. وكان الثانى مفتش القطار الذى ركبته الى القاهرة يوم هربت من القرية ساعية وراء حلم غامض بالمال والنجاح .. وثالثهم صاحب أول بيت سكنته فى العاصمة .. ورابعهم أستاذها الذى دربها للمدينة وأعدها للأنوار والظلمات ، وهو صحفى تألق فترة من الزمان ثم خبا نجمه على يديها ، كأنما كان الشمعة التى احترقت لتضىء لها السبيل .. ثم انطلقت وحدها تفترس الرجال الواحد بعد الآخر كأنهم تلك الأحجار المرقومة التى توضع على جانبى الطرق الزراعية لتدل الناس على طول الطريق !

انها تعرف كيف تختارهم من بين مشاهير رجال الصحافة والسينما والأدب .. ومع النجاح المطرد فى عالم السينما العجيب تغيرت معالم حياتها ، فهى اليوم تربح الآلاف من الجنيهات وتطالع صورها الناس ويتردد اسمها على كل لسان .. وسهرات بيتها هذا حديث المدينة .. وانظر ! .. ان ملعب التنس عندها مساحته أكبر من قطعة الأرض التى يمتلكها أبوها عبد الذكور فى كفر أبو عساف .. وضيوفها الآن كما ترى هذا القطيع من أرباب العبقرية والمال والمخرجين والمنتجين والنقاد والأدباء ، وأزواجها السابقون ، واللاحقون باذن الله .. يحرقون من حولها البخور ويتمتعون بها شاربة وضاحكة وراقصة ومبذولة .. وستنتهى ايها الصديق هذه السهرة وينصرف حملة الأقنعة الى عالمهم ثم يطلع الفجر على أطلال ليلة ، فيشهد الغانية وحدها ، قد جمدت كالتمثال وطال جمودها ، ثم تنفجر فجأة فى بكاء عصبى تتخلله التشنجات والرعشات ، والدنيا بكل ما فيها خالية من حولها خاوية على عروشها .. وتفزعها فى الوحدة صورة حياتها الشوهاء ، وتتبدى لها حقيقة نفسها ، مخلوقة صناعية كأهدابها وشعرها .

تمثال بارد لا حياة فيه ، أعرفه أنا كما أعرف بطانة قناعها .. عروس خشبية لها كل مظاهر الحياة .. دمية عاجية يعتصر قلبها البليد وسط صحرائها المخيفة الجرداء ، حزن لا تغسله أنهار الأرض كلها ، وكبرياء مرة ، وأنانية بشعة موحشة كصحراء من جليد .. وقلق على المستقبل .. الخوف من الغد هو قوتها اليومى .. ورداء المجد الفضفاض ثقيل على كتفيها الضعيفتين .. ان مجدها ومضة عابرة .. لقد شهدت كثيرات من زميلاتها يهبطن بعد ارتفاع ، فان الكواكب تسقط كالشهب المحترقة فى السماء الى ليل العدم الأبدى .. وكن مثلها آلهة تعبد ، وتؤخذ لهن مئات الصور ، ويلهج الناس بأسمائهن ، ثم سحب الزمان عليهن ذيول النسيان .

وتجلس وحدها ، متعبة مضناة ، منهكة البدن والأعصاب ، تفكر فى رقم تليفون رجل .. اى رجل !

لا مرح ولا غزل ولا هتاف ، معبودة ممزقة الأوصال ، الهة ذات قلب ميت !

هيا بنا يا صديقى ، لقد أوشك أن يبزغ الفجر وآن لنا أن نودع ربة البيت ، ولا تنس قبل أن تمثل بين يديها قبل الرحيل أن تضع على وجهك قناعك ، فانك والله أنت الآخر وان كنت لا تدرى قناع بديع !!

فى ســوق الزلــط

تركت صديقى المحامى غارقا فى حديثه التليفونى الخافت مع فتاته ووقفت بعيدا عنه فى نافذة مكتبه المطلة على ميدان العتبة ، أتأمل فى شىء من الشرود منظر الميدان فى مطلع المساء ، وقد ضجت فيه الحياة بصخب همجى مذهل ، من صياح الآلة والبشر ، وتعرت بلا حياء فى رقصة مضحكة عجيبة من حركة دائبة تبدو فى بلاهتها كأن لا هدف لها . كأن الميدان كله ، من فوق ، دست هائل يمور فى قاعه هلام حى كثيف ، بلا عقل ولا ارادة ولا جمال .. أى مسرح مخبول غاب عنه المخرج وجن فوقه الممثلون .. لنهرب من اللوحة العامة المثيرة ، ولنأخذ فى مسقط العدسة عينات على حدة ..

هذا الرجل المندفع فى قلب الهلام الحى والذى يبدو أن وراءه الزمن الأبله الذى صدئت عقاربه ..

أو هذا المتأنق كالبرعم المتحجر . يتسكع وراء ظهور النساء .

أو هذه التى يبدو أنها توجه لتربية عجيزتها عناية خاصة ..

أو تلك التى تنادى على ورق اليانصيب ، وفى صوتها آية الكد المضنى ، ولكأنى أرى الاشواك ناتئة فى قفاها .. كل وحدة من هذه الوحدات البشرية دنيا وحياة وقصة .. وهذا الذى يصيح ملء حنجرته ونافوخه وهو يعدو منأول رصيف محطة الترام الى

آخره ، ومن آخره الى أوله ، هو صديقى عبد العاطى سنبل عبد العاطى ، بائع الصحف المتنور .. ابن البلد الذى ألقى على مرة سؤالا لا أنساه : أى معنى تجلى لوالده غفر الله له يوم دعاه باسم جده ؟ وكأنه يسعده أن تتكرر دائما فى التسلسل الوراثى للأسرة هذه النسخة التقليدية من صعلوك القاهرة الضائع .. لقد تنكر عبد العاطى من زمن بعيد لاسمه وصار يدعى فى هذه الدنيا « زلطة » ..

وأنا رجل يعيش فى عالم خلقه لنفسه بنفسه ، لكن للدست المقعر الهائل نداء لا ريب فى قوته وهو يهز أحيانا أعماق النفس فيثير منها مكمن المشاركة الأصيلة ، وعندها تنساب الذات المستفردة كالبخار المنتشر فى ذلك المحيط المتلاطم من المشكلات والرؤوس البشرية .. وصديقى لايزال يداعب صاحبته فى التليفون ، أما أنا فقد هبطت الى الصراط الذى يعدو عليه « زلطة » مخترقا بصوته قاع الدست .. ان عالمى الخاص الذى أعيش فيه مستقلا بفكرى وروحى عن عالم الآخرين لا يفصل حياتى ومشاعرى ورسالتى عن عالم الناس الزاخر بألوان الجهاد فى سبيل حياة أفضل ، ولا عن المعركة التى يخوضون غمارها .. وأنا الآن أسعى مع فرع من فروع التيار فى اتجاه شارع فؤاد ، بين ألف قناع وألف مشكلة وألف لغز .. لكن المرء يسعه أحيانا ، حتى فى خلال الوهلة القصيرة الأمد التى تلتقى فيها عينه فى الطريق بوجه أو نظرة ، أن يقرأ قصة أعوام من حياة انسان .. وأمام الفترينات المضيئة تحس فجأة بكل روح العصر الذى نعيش فيه ، وربما ذكرت رقم المبلغ من المال الذى يقبع فى جيبك ، وذكرت جيوبا أخرى لا تنطوى على مال . وتسمع « بنية » سمراء حلوة تقول لأمها أمام فستان غال جميل « هاتيه لى وبلاش رأس البر السنة دى ياماما .. » وأنت لم تكن فى حاجة الى هذه الهمسة المؤثرة لتدرك فى الزحام المتسكع أمام واجهات

المتاجر الكبيرة أن النساء قد غلبن فى هذه الدنيا على أمر الرجال . ما أكثرهن .. ان الثوب الذى غطت قيمته فى اعتبار احداهن على رحلة الصيف هو حقا ثوب بديع ، قلت أمامه لنفسى ، أنا أيضا ، انه كان يسرنى أن أهديه الى زوجتى لو أن لى زوجة ..

واستدرت لأتابع تسكعى وفى سمعى توسلات « البنية » الى أمها وشىء من العطف على رغبتها ، فلمحت عينى ، ولما أكد أخطو ، صفحة وجه يمر بى .. ان الذاكرة مخزن عجيب .. شىء فى هذه اللحظة الخاطفة من وجه عابر يرسل فى الوعى سيالا غامضا منبها يريد أن ينقض على أعماق المخزن المظلمة فينفض الظلمة عن ماض بعيد .. من تكون هذه المرأة النحيلة التى مرت بى منذ هنية ، فى الاتجاه الآخر .. أترانى عرفت يوما ما ، من لم يكن لها من هذا الوجه الهضيم ولا هذا الضمور الشاحب الحزين الا خطوطه الاولى النضرة ؟ .. وأين فى المكان والزمان عرفتها ؟ .. من تكون ؟ .. ربما كنت ضحية احساس خاطىء ، ولعل لمحة العين السريعة التى هزت ذكرى غامضة قابعة فى أغوارى هى التى خدعتنى .. وتلفت ورائى فلم أر الا الخضم البشرى لأتبين فيه شبهة لذلك الثوب الرمادى السابغ الذى خيل الى أن المرأة ترتديه ولا تلك الورقة البيضاء التى خيل الى أنها تمسكها فى يدها .. لقد تاهت مرة أخرى فى الزحام وابتلعها الهلام المتحرك ، تلك الذرة الضائعة فى البيداء التى تسفو عليها رياح القرون ..

زحام أمام فترينة كريستال ونجف رشيقة .. وهذه الأباجورة تصلح لغرفة النوم فى شقتى الجديدة التى لم يتم فرشها .. لكن الثمن ٢٢ جنيها . هؤلاء القوم لا يعبأون بأعصاب فقير يحب الأشياء الجميلة .. تلك المرأة .. من كانت ؟ .. اننى أعرفها .. انها هنا فى أعماقى ولو تاهت من الوجود كله .. لكنها لا تريد أن تصحو من

همودها فتتوضح معالمها وتكتسى وجودا وتحمل اسما وتعيش فى نفسى كما عاشت مرة اولى .. إنها فى ذاتى وحدها ، تستطيع ان تعيش مرتين .. ولكنها لا تريد .. هوذا اسمها يتفزز على طرف لسانى .. اسمها .. ياسيدى مساء الخير وأهلا وسهلا واذهب الآن فى حال سبيلك .. كلا .. هذا المغفل الذى كان يوما ما جارا لأسرتى يصر على أن يكون السلام باليد ، وأن يسألنى عن اخوتى واحدا واحدا .. أوف .. أخيرا زالت الغمة ، وانصرف ثقيل الظل بعد ان انبانى فى زهو انه رزق بنتا ثالثة اسماها بكل كثافة روحه « فتكات » .. لكن ماذا كان اسم التى مرت بى فى لحظة فنادتنى أن ابعثها فى نفسى ؟

وفجاة توهج شعاع .. وتوضح فى ذاكرتى ، أول كل شىء ما لم أكن أتوقع .. لا اسمها ، ولا كيف كان عبورها فى حياتى وانما هو صوت .. نعم صوت .. صوت أنثى تغنى .. صوتها هى سمعته بكل خصائصه ونبراته .. بل ان كلمات « الموال » الذى كانت تترنم به ارتسمت فى احساسى المتجمع مضيئة بارزة ، فى وضوح أوشك أن يكون – لفرط قوة تدفقه من الأغوار السحيقة اليما ..

يا بايع الدر فى ســـــوق الزلط مســكين

تطلع عليك الكلاب تنبح شــــــمال ويمين

يلقى الزلط مشـــترى . والدر ياخده مين

نعم هى مديحة .. وارتد باب المخزن مفتوحا فى ضربة واحدة ، ومن وراء الصوت تدفقت كل اجزاء الصورة هادرة متشابكة .. طوفان يرغى ويزبد منقضا على الحواس كلها ، وعلى مناطق فى النفس لا اسم لها فى اية لغة .. الصالة ومسرحها .. الجمهور

والليل .. ألتخت كله .. عوض « الرقاق » ودنجل صاحب الدربكة، وسائر الموتى يبعثون .. ورفع اذن عن حياة بأسرها ستار ، وقامت ترقص الظلال ، واكتست الخطوط المنسية كيانا ماديا جديدا .. مديحة .. ولم أعرفها .. أيها الزمن الأبله كيف لا تعى ولا تنطق ، كم غيرتها الدنيا ، فى سنوات .. كم سنة ؟ .. ثلاث عشرة سنة نعم ، هو هذا .. يوم كنت أقف وراء منظر ساذج فى الكواليس وأرقب الراقصات وهن يندفعن الى المسرح فى موكب زاعق الالوان والعرى والعطور الرخيصة .. نعم ، نعم ، اسمك يا هذه مديحة ، لكنك كنت راقصة صغيرة ، وكنت تغنين أحيانا وأنت ترقصين مع المجموعة فتردد النسوة غناءك .. كنت دون عامك الثامن عشر ، وهأنذا أراك الآن وقد بعثتك حية كما رأيتك ليلة أمسكت بطنك بين يديك وأنت تدخلين لاهثة شاحبة من المسرح الى الكواليس ، وسط تهليل السكارى وصيحاتهم ، وقلت لى : « أصلى حبلى » .

أراك يا مديحة وهذا صوتك فى أذنى وأرى العرق يسيل تحت شفوف ثوب الرقص على فخذيك اللتين كانتا منذ هنية تثيران سعار الجنس فى قطيع المخمورين .. كنت نضرة وكنت جديدة على الوسط ، وكان لك شعر طويل يسترخى على ظهرك أو يثور على محياك فتبرق من خلاله عيناك البريئتان المذعورتان ، وأسمع صوت مدير المسرح وهو يتلقاك — فى تلك اللحظة التى أوجعك فيها الجنين — مؤنبا لك على ما خالفت به ساقاك فى الاستعراض سيقان زميلاتك ، كأن لهذا التزمت الفنى فى حيث كنت تعملين قيمة .. وأسمع ردك وانه ليحز الآن فى قلبى كما حز فيه يوم قلته أول مرة : معلهش يا استاذ شفيق ، دانا حبلى فى الشهر الرابع » .

كان لك فى ذلك العهد اله وكان الهك مدير المسرح الذى ينقدك اجرك ويملك فصلك ويتحكم فى يومك وغدك ، وكان

فى أحشائك ذلك الثقل الحى الذى أودعه فيها أول رجل غشك وذهب عنك الى حيث اختفى فى المجهول .. تلك الداهية التى احتملتها وأبيت الا الصمود لها بكل ما فى ربيعك الغض من حيوية وطاقة مكافحة .. كم غنيت للقرش وكم تأود خصرك الموجع للعيون وعلى شفتيك ابتسامة ، ثم تهاويت متخذة من راحتيك المتشنجتين حزاما لبطنك الموجوع بحمله ، وكم سمعتك عندها تسبين وأنت تضحكين ذلك الجنين التعس : « آه يا ابن الهرينجى الغشاش ، ياما أنت راخر حاتورينى » .

أنت أنت يامديحة صرت شبحا يمر بى فى الشارع فلا أعرفه . أنت هذا الشبح المنطفىء الواهن الذى عبر منذ قليل فى طريقى .. لم تعودى اذن تلك العملاقة من عمالقة الوجود الدائبة على عملها فى يأس مرح ، يوم كنت راقصة بلا أم ولا حبيب .. البروفة فى الظهر ، والسهرة فى الليل . والكأس والأرق والرجل .. لم يعد فى وسعك اذن أن تمكرى بمخمور شهوان تضاحكينه فى ملاينة ، وتفرشين لتوقحه جناح أنوثتك ، حتى اذا ما نلت كفايتك من وجبة عشاء وعمولة شراب زرعته فى مكانه وهربت بحملك المسكين الى السكن الصغير الذى هب بدوره الآن يعيش فى نفسى .. المسكن الضائع فى قلب شبرا ، حيث كانت تعايشك زميلتك السمراء ذات الأرداف الثقيلة .. ماذا كان اسمها .. لست أدرى ليس لها عندى اسم ، وكان فى نفسها هى ايضا جمال من ذلك الطراز الأصيل الذى يخلعه الكفاح على المرأة فى سوق الحياة .. وكانت تحبك ، وكل زميلاتك احببنك وعطفن على حالك ، وكن يحصين الاسابيع فى انتظار مولد الطفل ، ويفتحن الكتشينة عن البخت ليقرأن مصير ابن مديحة فى الدنيا ..

الآن أذكر اسمها ، زميلتك السمراء .. حورية .. وأذكر جلساتها فى الكواليس بين فترات الظهور على المسرح ، وقد وضعت

ساقا عارية على ساق عارية ، وعلى كتفيها شالها الأحمر ذو النجوم الصفراء الدقيقة ، كأنه سماء تحجرت نجومها على اديم من الدم ، وفى يديها ابرتا « التريكو » الطويلتان تعد بهما جهازا كاملا من ملابس الاطفال .. ثم ترفع رأسها وهى تتمايل طربا عندما يهز صوتك أعماقها ، ولا تبالى أن تصيح لتسمعك على المسرح : « الله ياروحى أنا .. كمان والنبى ياحبة عينى على بياعين الزلط .. » .

وجاء فتلقفته الأذرع العارية وحنت عليه النفوس التى بلت العين فأضافت تجاربه الى آفاقها المحدودة أعماقا من الحس وراء أعماق .. أذكر مهدك فى غرفة الراقصات يا ممدوح .. لقد نموت فى عالمك المكنون وأمك تزاول العيش على خشبة الرقص وبين موائد السكارى ، ثم جئت الى الدنيا فاذا مهدك هناك فى الركن حيث وضعت لك الأيدى الرقيقة تلك السلة من سلال الغسيل المجدولة فوق كرسى عتيق الى جوار مرآة الزينة .. كانت مديحة تحملك الى الصالة كل مساء ، ثم تعود بك قبيل الفجر الى المأوى الضئيل فى مجاهل حى شبرا الكالحة ، حانية عليك وهى تضمك تحت معطفها الى صدرها الدافىء الذى يتحلب لك من الحب ريا وزادا .. والأيدى الناعمة التى لم تعرف منذ هوت الى قاع الدست المخبول غير قرع الكئوس واشباع الشهوات صارت ترتجل لك الأغانى وتغدق عليك مكبوت الفطرة السخى وتصنع لك مع رحمة الحب لعبا لا تعيها وملابس من كل نوع ومن كل لون . وكنت تبتسم لى يا بن مديحة كلما دخلت عليك الركن وحنوت على مهدك ، فأقرأ فى ابتسامتك ثمار الخيبة ورنين الأصفاد وأرى النعش الذى ولدت تحمله على كتفيك وكل شقوة الحياة التى لا تدرى فى غفلتك من أمرها شيئا .. ثم يبلغنا — أنت وأنا — زئير الجمهور وهو يحيى أمك اذ تنهى على المسرح أغنية أو رقصة ، ولا نلبث أن نراها تقتحم علينا ركنك ، محلولة الشعر عارية الا من غلائلها وجداول العرق

تنساب على فخذيها وحول سرتها العارية كالثعابين الرطبة اللزجة .. وأسمعها تناجيك فى دفء الأزل الذى يرتعد له بدنى : « ياروحى يا دوحة ! ماما سابتك جعان .. يقطعنى ياحبيبى .. وتضغط بيديها معا أحد نهديها فتخلصه من سجنه الحريرى الشفاف ، وتنحنى فوقك بتلك الكرة البلورية الدافئة ذات العروق السخية والثغر الظمآن الى شفتيك ، فلا جلال فوق جلالها ، وهى تهدهدك وترضعك أمك العارية ..



حدود تسكعى الآن هى رصيفا شارع قصر النيل ، من عند مسجد الكخيا الى الميدان الذى يتوسطه تمثال رجل يخب فى سروال مضحك .. اننى أتمنى الآن أن ألقى مديحة فى هذا الزحام مرة أخرى وأتمنى ذلك بجماع ارادتى وقوة نفسى . وتزعجنى تحية سريعة من زميل صحفى يتسكع بدوره وعينه تصنع لكل امرأة جميلة تمر به مقايسه تغفرها له كهولته . ان فى حياة مديحة أيضا صحفيا هو الآن ميت فى الموتى ، ولم يلمع قط .. وكان « عامر » عندما عرفها صحفيا ناشئا فى أول الشباب ، وقد أحب تلك الأم — الصغيرة الراقصة ، وجدت أمومتها فى شخصه سكنا طيبا .. وأخذت مديحة يومها رأيى فيما عرضه عليها باسم العطف والحب ، وكنت الصديق الذى زارهما فى بيته بشارع جلال ليلة انتقلت اليه بابنها وبحياتها كلها ورجائها الباقى فى قوة مجهولة ترعاها وصار « عامر » يقضى نهاره فى كفاحه الصحفى أو ينفقه فى بعض الاحيان مترددا على المسارح الصغيرة والمغنيات الناشئات ليبيع أغنية من تأليفه ، فقد كان زجالا أيضا ، أو كان يحاول أن يكون كذلك .. ثم ينطلق مع الليل الى الصالة التى تعمل بها رفيقته ، فينتظرها فى صبر مهذب حتى ينفض السامر فيعود بها وبممدوح الصغير الى العش .. منحها نفسا طيبة فمنحته ودها ووفاءها وكل أنوثتها الصريحة

العاقلة .. وكان يحدثنى عنها وكان فى حديثه اعجاب ذكى بروح الكفاح والتعفف التى تكشف له عنها شخص مديحة .. واعتقد أن كثيرا من المعانى التى كانت تتردد فيما كتبه لها من مواويل واغنيات كانت من وحيها ..

كانت هذه مديحة التى عرفتها فى ماض يبدو لى الآن بعيدا كل البعد فى قاع بئر الزمن العميقة .. عرفتها ورأيتها حتى وهى تغسل ملابس ابنها الصغير فى بيتها عرفتها وكنت لها صديقا ثم غابت فى زحمة الدنيا ولم أعثر لها على أثر عند عودتى من رحلة طويلة فى الخارج ، فقد مات صاحبها فى حادث واختفت هى من « الوسط » وضاعت مع ابنها فى الدست الهائل الذى تغلى فيه حياة الاحياء قبل أن تتلقفهم مهزلة الموت المحتومة .. والليلة وبعد كل هذه السنين مرت بى الصديقة القديمة فلم تهش لها نفسى ولم تنبسط لها يدى .. والمرارة الموجعة التى انسابت فى نفسى كاد ينشق عنها حلقى فى صيحة ممزقة أو تنبثق من عينى دمعة خرساء .

واذا بها خارجة من صيدلية وفى يدها ربطة صغيرة ..

— مديحة ..

وقفت المراة المهزولة ذات الثوب الرمادى الرصين ونظرت الى هذا الرجل الذى يناديها باسمها وتجلى فى نظرتها أنها تنكره .. فندت عن نفسى ضحكة ترثى لنا ، وهمست فى وجهها والناس يمر بنا موكبهم فى كل اتجاه :

— « يلقى الزلط مشترى .. والدر ياخده مين .. » .

وان هى الا لحظات جاشت فيها نفسانا بانفعال اللقاء الغريب حتى كنت قد ملت بها الى ركن هادىء قريب أرى فيه الدنيا فى شخصها .. أمامى مخلوقة أخرى من هزال ورقة حال كأنما لم تعش فى هذا الهيكل الناحل الذى تقتحمه العين تلك التى رقصت فى

نضارة العمر على ذريكة دنجل وأشتهتها ، من وراء خصلات شعرها المنثور على وجهها وجسدها ، مواكب القطعان المخمورة ..

تحدثنا طويلا ، وعميقا ، وبكينا بلا دموع ..

ــ الربطة دى ؟ .. دوا لممدوح ياخويا .. دوحة عيان أوى ..

ــ سلامته يامديحة .. عنده ايه ؟ ..

ــ خاسس أوى .. وحرارته جامدة .. وبيكح ومسهرنى الليل .. بيكح أوى ..

وتكلمت مديحة .. سمعت الكثير عما بلته فى دوامة الحياة خلال كل تلك الأعوام التى انقطعت عنى فيها أخبارها .. عرفت كيف أبت أن تنقع أمومتها فى خضم الدنايا الذى يشبع فيه الزلط ، ويرخص الدر ، وكيف تهاوى عالمها وانحصر ، وكيف هانت وذلت فى بعض الاحيان كبرياؤها .. وحاولت أن أتخيل غلاما عليلا فى عامه الرابع عشر ، وأن أصعد معه الأعوام فى مراقى السن أو أنحدر معه الدركات فى مهاوى المصير ، منذ كان يرقد كالأمير فى سلة المهد وتلتف به حاشية من راقصات عاريات كالجوارى ، ينغمن له أعذب أصواتهن ، وينحنين على مهده فيغدقن عليه من أنوثتهن ، ويصحو وينام على أذرعتهن الشابة المعطرة وابتساماتهن المصبوغة الناطقة بالحب .. وصحت فى نفسى وأنا أسأل مديحة عن عنوانها الجديد بضعة أخرى من حياتنا الأولى : ليلة « السبوع » العجيبة التى أقمناها للمولود بعد انتهاء العمل فى الصالة ، على المسرح المضىء وحده فى صالة غارقة بمقاعدها وموائدها فى ظلمة أسيفة شاخصة .. على كل هذا الماضى مرت الحياة بعجلاتها الساحقة وعربدت دوامتها النزقة .. هى ذى شاحبة ومنبوذة ، ورجاؤها الباقى من كل ما عاشت هو أيضا عليل ، والموكب الأصم الأبكم قد تركها تهوى

ألى ألقاع ، وهى قد هوت دون أن تند عنها صرخة ، هى ألتى كانت الحياة عندها قبل أن تبلغ العشرين شيئا واحدا هو أن ترفع رأسها وترقص وتربى ابنها وتخلق منه رجلا نافعا ومحترما .

ان الليلة التى بدأت فى نافذة مكتب صديقى المحامى قد انتهت الى حجرة زرية تمرض فيها امرأة مستوحدة وحيدها الذى يأتمر به الموت ، وان الابتسامة المريضة التى تقبل بها الولد هداياى لتنسخ من الوجود كل ابتسامة رايتها فى الزمن القديم على وجه أمه .. فلما دق الباب دقة نكست لها الأم رأسها وقالت قولا أحسبها أجابت به عن تساؤلى الصامت عن مصدر النقود التى تعيش عليها وتحصل بها على الدواء : انها هى نفسها كما أرى لم تعد كأنثى تصلح للبيع ، لكن جماعة الرجال المحدودة التى تقبل على بيتها كل ليلة لتدخين الحشيش عندها قد أقبلت الساعة على عادتها بالعشاء ، والمزاج و .. بعض النساء ..

عندها رن فى وجودى كله صوت عبد العاطى بائع الصحف اذ يتقبل ببشاشته المعهودة تحيتى وسؤالى عن الحال قائلا لى فى مرح أسيف : « ياسيدى ! .. زلطة فى سوق الزلط .. وآهو ماشى الحال !! .. » .

الصعـــاليك

كان الجوع أهون ما يلقاه « عباس » من دنياه ، لكن ضحكته العالية المعدية كانت تشرق على الوسط الفنى كله ، وما كنت لتجد بين أهل الفن الذين يعج بهم عماد الدين وملحقاته من هو أجدر من عباس بصفة الفن الخالدة ..

وقد كنت ألقاه فى قهوة أهل الفن حيث كانت توافيه صاحبته « فتحية رومبا » بعد أن تفرغ من عملها فى « الصالة » .. شابة ذكية لطيفة كانت معروفة ببهاء طلعتها وخفة روحها ، ثم يدور حولهما حلقة غريبة من شـــباب أهل الفن فلا يلبث ذلك المشرب العجوز أن ينقلب الى مسرح من مسارح البوهيمية ، يتصدره دائما وجه عباس الشاحب وشعره المهوش وضحكته الفذة وصـــوته المسرحى العريض وسترته المهدلة العتيقة وربطة عنقه الضخمة السوداء .

وكانت القصائد السخيفة التى ينظمها أحد أفراد هذه العصبة العجيبة ــ الأستاذ « عبد السلام وهبى » ــ تكاد تدفعنى فى بعض الاحيان الى ضربه .. وحتى « زينات » ، الغانية التى كان ذلك الشاعر يعيش من « كدها » والتى كان هو يدعوها ربة الشعر وسيدة الوحى ، لم يكن يبدو عليها أنها تفهمه لكنها كانت تحبه وتنفق عليه وتقول :

ـــ لولا شعره لعبدته !

وهذه العصبة من حطام الحياة الفنية التى تحيا حياة مرحة راضية ، هى بعينها التى اقبلت عليها ذات ليلة فاذا هى شقية واجمة ساخطة .. وكانت « ربة الشعر » أول من لقينى على باب المشرب ، فما كادت ترانى حتى هتفت بى :

ـــ جئت فى وقتك .. ان صاحبك فى شر حالاته .

فبادرت بالدخول ، ووجدت صديقى عباس فى ركنه المشهور ، وحيدا وأمامه كأس «الزبيب » وأطباق سـلطة الطحينة والخس والفول النابت ، وعلى محياه فيض من الأسى والألم ينم عن حزن فادح يأكل قلبه .. فأدركت أن نكبة حلت بصـــاحبى ، فما يطير بابتسامته الخالدة ، التى لم يطر بها البؤس والصعلكة ، غير نكبة داهمة ..

وتوقعت أن تكون صاحبته قد هجرته ، فقد كانت فى العهد الأخير شديدة السخط على حياتها معه ..

وكان ذلك هو ما حدث فقد طارت صاحبته من عشه الى حيث لا يعلم ، وقد قص على قصة هذه القطيعة وهو يعب فى خمر قهوة أهل الفن المريبة ويدق المائدة فى انفعال عصبى مزعج بكفه البيضاء ذات الأنامل القذرة البديعة !

وواسيت صديقى ما استطعت ، ولكنه كان يهتف بى :

ـــ انها عشرة سنين ، أصبحت اكبر عاداتى .. والعيش بدونها ساعة واحدة يكاد يكون امرا مستحيلا .. ولست أدرى لم كرهت أخيرا العيش معى .. اقبلت ليلة الأمس تصرخ فى وجهى أنى افسدت عليها حياتها اذ زينت لها دائما هذه الحياة واحطتها بهالة كاذبة من نور المجد وقداسة الفن ، وأنها تعرف الآن انى

خدعتها عن نفسها ، وانها ذاهبة عنى الى رجل غنى كريم ينتظرها ليمنحها الأمن والخفض والدعة .. وقلت لها : انك انما نشأت بين أحضان البساطة والفاقة التى تطبع حياة أصحاب الخلق الطليق ورواد الفن الحر والحظ السيء ، والبوهيمية مختلطة بدمك وروحك ولا مفر لك منها ..

وسكت صديقى لحظة . ثم استطرد فى صوت يختلج بالألم المكبوت :

ـــ وجعلت أحدثها متلطفا مداعبا عن جلال هذه الحيـــاة وسحرها ، وعن « الرسالة » التى حملناها نحن معشر البوهيميين والأحرار من أبناء الفن فى هذه الأرض الملعونة الموبوءة بالذهب والفضة ، وسألتها مخلصا أن تفيء الى نفسها وتدع البطر فما أفسد شيء حياة أهل الفن افساده لها .. وسمعتنى صامتة ، ثم مضت الى الباب ، فتركتها تفعل ـــ فما كان ليربطها بى فى رأيى غير حبها لى ـــ ثم انها عادت أيها الصديق فأخذتنى بين ذراعيها وهى تنشج بالبكاء وروتنى من شفتيها قبل أن تخرج وحدها الى الدنيا .. الى حيث لا أدرى ..

* * *

ومر اسبوع شغلتنى فيه أعمالى عن مأساة عباس وعن قهوة أهل الفن ، ثم عدت الى القاهرة ذات مساء فكان أول ما سمعت فى عماد الدين أن عبد السلام الشاعر جن .. فهرعت الى قهوة أهل الفن ، واذا أول ما يلقانى منها صوت عباس يطلق ضحكاته العريضة المشهورة ، ولقينى بالعناق ، وجعل يدور بى بين الموائد راقصا ..

قلت انت الذى جن أم عبد السلام ؟

فقادنى من يدى الى الركن ونظرت فاذا « فتحية رومبا » تابعة حيث اعتادت أن تقبع من مائدة عباس ، ولقيتنى بكف صديقة وهى تشد على يدى هاتفة :

ـــ انظر لقد عدت اليه تائبة نادمة مستغفرة لذنبى .

وقلت لعباس : ولكن .. عبد السلام ؟

فصاح بى : دعك منه .. هات واحد ويسكى للأستاذ يا مانولى ..

قلت : لا يا عباس .. انما أريد قصة عبد السلام ..

قال : أكنت تنتظر له غير هذا المصير ؟

فدفعته الى المائدة هاتفا به :

ـــ اجلس يا صاحبى ، واهدأ ، وهات القصة بتمامها .

قال عباس بعد أن طلب لنفسه كأسا أخرى من « الزبيب » :

ـــ كانت « زينات » يوم عرفت « عبد السلام » ذارعة رصيف لم تشتغل بعد بالرقص فى الصالات .. وقد التقى بها فى ليلة لم يكن ذاق فيها طعاما ، فاشترت له رغيفا من الخبز وقطعة من الجبن ازدردهما الى جانبها على الرصيف ، تحت أحد مصابيح الشارع .. ثم غادرها دون أن يشكرها ، فقد شبع وجعل يفكر فى نظم قصيدة عصماء فى غرفته الحقيرة بفندقه بالحى الحسينى .. ولكن صاحب الفندق ـــ وكان قد ضاق بهذا النزيل المفلس ـــ طرده شر طردة ، فخرج ، قبيل الفجر ، يبحث عن مأوى .. وبينما كان يجول فى الشوارع هائما على وجهه لقى التى أطعمته من جوع تذرع الأرصفة فى انتظار الرزق .. فتفتحت فى قلبه المنحط رغبة سافلة فى أن يصاحبها الى بيتها .. وهناك قضى النهار كله نائما ، وعندما أقبل الليل خرج الى جولاته الليلية فى المقاهى والبارات بعد أن حمل

القليل من المال الذى كان معها .. وما لبث الشاعر العظيم أن اعتاد هذا اللون من العيش ، واعتادته معه ضحيته زينات ..

واتمت فتحية حديث صاحبها :

ــ لقد كان نذلا عظيما ، عليه اللعنة .. وكان ، فى العهد الأخير ، يضربها ويسىء اليها سرا وعلانية مع انها كانت مورد رزقه الوحيد ، وكان ينظم لها بنفسه الصـــيد ، وقد أعانها فى بعض الليالى ــ بمساعدة بعض العربجية الذين غدوا أصحابه ــ على سرقة نقود الزبائن السكارى من جنود الحلفاء .. وهذه المراة هى التى كان جزاؤها أن ضربها عبد السلام فى مسكنها بشارع جلال ضربا مبرحا قبل أن يغادرها الى غير رجعة ..

قلت : انى لا افهم : لماذا غادرها عبد السلام ؟

فصاحت فتحية :

ــ لأنه مجنون !!

قلت : وكيف عرفتم جنونه ؟

فارتفعت صيحة عالية مشتركة من أطراف قهوة أهل الفن :

ــ ان رجلا يهجر زينات الجميلة وما تدره من ذهب .. لهو مجنون لا ريب فى جنونه !!

وصاح ممثل خامل مهوش الشعر من وراء كوب النبيذ الأحمر الذى يهتز فى يده :

ــ كلنا عرفنا ، يوم هجر زينات ، أنه مجنون .. ولم يصدقنا هو فى مبدأ الأمر ، ولكنه أنتهى هو ايضا ــ أمام اجماع الوسط الفنى كله ــ الى الايمان بتلك الحقيقة التى لا يرقى اليها الشك !

ومالت فتحية على يد عباس فقبلت أطراف أنامله القـــذرة البديعة ومسحت فى راحته خدها ، وهمست :

ــ ما أعقلنا نحن ياحبيبى !

ليـلة الشـموع

يقول مثل ايطالى : « حيث يوجد النور ، توجد المسرة » .

وانا انوى الليلة يا اصدقائى أن أحدثكم عن قصة زينب ، وما أدرى لم ذكرت هذا المثل حين انتويت أن أقص عليكم هذا الحادث المشجى .

لقد دارت حياة زينب فى ظلمات حياة قصيرة ، ولكن فى هذه الظلمات شمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ، شمعة اضيئت ليلة دب الى زينب سيدها دبيب اللص الخسيس فعلمها القبلة والهوى ونعم بحسنها وشبابها ، وشمعة أوقدت ليلة ودعت الحياة والشباب .. كلتا الشمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ، كان سلطان الحياة والموت فى عمر زينب ، وهو اليوم يشغل منصبا خطيرا من مناصب الدولة ، ولندعه الليلة « أحمد عبد البارى » .

وفى تلك الأيام البعيدة التى أحدثكم عنها ، وحتى الآن والى ما شاء الله يمكن أن نعتبر أحمد عبد البارى نموذجا للرجل الذى تكون المرأة أساس حركاته وسكناته وهدف حياته وشغل ليله ونهاره وقد قضى فى المدارس ما يزيد على خمسة عشر عاما فانزلق كل ما تلقاه من علم وتهذيب وثقافة على طبيعته الحيوانية كما ينزلق الزئبق على صفحة من الورق ، فخرج من هذا العمر الطويل ولم يبق منه فى تكوينه العقلى والخلقى الا التافه القليل ..

وقد عرفته فى أسيوط ، منذ أكثر من عشرين عاما ، فعرفت فيه ذلك « الحيوان الكامل » المتمتع بخصائص الأنانية والبلادة والخمول الذهنى ، والمبادرة الى اللذة العاجلة فى اندفاع السمكة الحمقاء الى الطعم ..

وقد شكا الى لأول عهدى بمعرفته عمله المضنى ومله المرهق ونومه المضطرب ، وكان حديث العهد بالوظيفة وبأسيوط ، وكان أحب شيء أن تخوض بمسمع منه فى سيرة النساء ، وكثيرا ما سمعناه يسأل :

ــ عجبا لهذه المدينة هل خلت من النساء ؟!

كانت المراة غذاء يقظته وقوت أحـــــلامه ، يتمثلها فى حمى الحرمان كأنما هى طيف من العطر والنور والدفء يزور الناس ولا يزوره ، وربما سمع ضحكة ناعمة من وراء نافذته فأرقته فى مضجعه حتى مطلع الفجر ، وربما مرت على طريقه ملاءة سوداء ملفوفة على بدن ضامر مشدود فشدت وراءها أعصابه شدا يكاد يدفع به الى الجنون ..

ومضت بضعة شهور كان احمد عبد البارى خلالها موضـــع تسليتنا وتندرنا ، ثم فوجئنا بانقلاب غريب طرأ على شخصيته ، فقد شهدناه مرحا مشرقا لا يتحدث عن النساء ، وبدا عليه أنه قد أوتى سكينة النفس من حيث لا ندرى ، فأردت أن اقع على سره ، فوقعت على مأساة زينب .

* * *

وكان أحمد عبد البارى قد حدثنى ذات مرة عن الأيام التى سبقت سفره الينا من قريته البعيدة ، وذكر لى عرضا أنه جاء من

هناك بخادم صغير ، وانه يحس الكثير من الضيق والحرج لوجود هذه « الجاسوسة » معه فهى لن تتردد فى الوشاية به عند اهله اذا ما اطلعت على غرامياته المقبلة ، وكانت تتمثل له عقبة سخيفة فى سبيل تمتعه بالنساء الجميلات اللاتى كان يدبر فى خياله الخصب المهتاج قصص غرامهن المنتظر به وفى كل غرام جديد منتظر كان خياله يرسم له خطة بديعة لخداع خادمته زينب .

وقد علمت فيما بعد أن زينب كانت تمت اليه فى الحقيقة بقرابة بعيدة غامضة ، واحسبها كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، على حين كان هو يكبرها على الأقل بعشرة أعوام ..

عمل ممل رتيب ، وحرمان طاغ مستبد ، ورجل هدفه المراة ، وفتاة صغيرة ساذجة من أقصى الريف ، كأنها رسالة لم تفض !

والذين خبروا النفس البشرية منكم يعرفون ولا ريب تلك الطرق الملتوية التى تلجأ اليها النفس للانحراف من هدف الى هدف بقصد التكميل أو التعويض أو العزاء عما فات أو مالا سبيل اليه .

وقد كان أحمد عبد البارى صاحب نفس بدائية باطشة ، وعندما أعياه انتظار الاحلام ولم تفده الحيلة واستبد به طبعه الحيوانى ، وجد نفسه يكف من تلقاء ذاته عن اضطهاد خادمته الصغيرة ، ولم تعد تثيره بلادتها وبدانتها وجهلها وقذارتها ، ولم يعد يؤذى سمعه حديثها فالتفت اليها على غير وعى منه ، وعلى مدى شهور لا أيام ..

وجد نفسه يشترى لها ثيابا جديدة ، وحليا رخيصة براقة ، ويعلمها النظافة والتجميل ، ويدللها ويلاطفها ، وبعد أن كانت تنام فى المطبخ على حصيرة رق لها قلبه فأصبحت تنام فوق فرو جديد على أرض مخدعه أمام سريره ..

ثم اقبلت الليلة التى عاد فيها من المقهى فوجد مسكنه غارقا فى الظلمات ، وعلم من زينب وهى تفتح له الباب أن التيار الكهربائى قد قطع عن الحى كله منذ قليل فأعطاها قرشا لتشترى شمعة ، وعندما عادت بها وأوقدها وسقط نورها على محيا زينب وبدنها رقصت دماء أحمد فى عروقه ، فقد بدت له خادمته الصغيرة فى ذلك النور الخافت كأنها امرأة جديدة تولد من نور شـــمعة ، وتألقت بشرتها السمراء تحت ومضـــات النور كأنها النبيذ وراء البلور ، فتناولها بين يديه وقبلها ، وطمأنها لما بكت ومناها .. ومن ذلك اليوم أصبحت تنام معه فى فراشه ، وتأكل من طعامه ، وتشرب من شرابه ، وتشغل منه ليله ونهاره .

كان كأنما صنعها بيديه ، وبث فيها من روحه ، فكان سيدها وأستاذها ومولاها ..

وكشفت له زينب فى كل يوم عن حســن جديد ، كأنما كانت ، وحدها ، امرأة لكل يوم .. وشهدتها عينه التى لم تشهد امرأة مليحة سمراء ، وعندما البسها الحرير وعطرها وضـــمخها بفنه الشهوانى الأصيل ، تبدت له تحفة يهيم بها القلب ويعلق بها الخاطر ونسى نساء الاحلام ، فلم تعد أطيافهن تراوده فى يقظة أو فى منام ، ولم يعد يحدثنا عنهن متى لقينا ، وطالعنا منه فى مجالسنا رجل سعيد يتفجر من أعطافه المرح والرضا عن نفسه وعن الناس .

* * *

ويعلم الله وحده كيف كان عيشهما ، أما انا فأعلم انه لم يذق ــ خلال عامين ــ غير هذا الطعام .. اصبحت زينب كل النساء ، كفته خيرهن وشرهن .. كانت تحرم عليه النوافذ فلا يقربها وتسأله

عن وقته فى الخارج كيف يقضيه ، وكانت عيشتها ، مثل علاقتهما يخيم عليها الصمت والهدوء ..

ثم سمعت أن أحمد قد خطب لنفسه ابنة رئيسه ..

وتساءلت عما هو صانع بزينب وقد جعل منها امرأة ذات قلب ورغبات ، ولو لقيته فى ذلك العهد لنصحته أن يجعل منها زوجته ..

ولكنه لم يفعل ، بل أقبل عليها يوما فحدثها عن « عبد الستار أفندى » الباشكاتب ، وأبلغها أنه دعاه الى تناول العشاء على مائدته فى احدى الليالى ، وقال لها أنه ينتظر منها أن تعد للضيف الكريم خير ما جادت به مواهبها فى فن الطهى من ألوان الطعام .

وفى اليوم التالى قال لها ان الباشكاتب لن يحضر وحده ، اذ أن السيدة حرمه تعطفت وقبلت الدعوة ..

وبعد يوم آخر حدثها عن تواضع الباشكاتب ودماثة خلق حرمه وكيف قررا أن يحضرا معهما بناتهما الثلاث ليحضرن وليمة العشاء ..

* * *

وفى تلك الليلة كان الحديث حول مائدة أحمد عبد البارى يدور مرحا مشرقا ، حول كبرى بنات الباشكاتب ، وكانت جالسة عن يمين أحمد ، متوردة الوجنات مطرقة فى خجل مصنوع ، ووالدتها وشقيقتاها يحادثنها بنكاتهن وعبثهن .. ولكن أحمد كان بادى القلق متوتر الأعصاب وكان يحاول كلما أوشك الحديث أن يخرج من التلميح الى التصريح ، أن يغير مجراه ، وربما صرف زينب المشرفة على الخدمة ، وقلبه يدق بين ضلوعه ، فقد كان يحس أنه جالس على قمة بركان لا يدرى متى ينفث حممه !

وقد قيل ان التيار الكهربائى انقطع فجأة من مسكن أحمد عبد البارى قبل أن يفرغ ضيوفه من تناول العشاء ، فأسرع الى المطبخ ليجلب الشموع التى كانت هناك على الرف .

واشعل واحدة من تلك الشموع ونادى زينب فلم تجب نداءه، ومرت بخاطره ــ كلمحة البرق ــ ذكرى تلك الليلة القديمة التى اكتشف فيها أنوثة زينب فى ضوء شمعة ..

ونظر عرضا ليرى مكان زينب فصدمه منظر لم يفهمه عندما وقع عليه بصره .. ثم أطلق صرخة مروعة فهرع اليه ضـــــيوفه ليشهدوا زينب معلقة من عنقها فى حبل متدل من سلم خشبى وقد برزت عيناها وتدلى لسانها .. طويلا .. فظيعا .. صامتا كل الصمت ..

صافحت الموت

كانت المدينة أجمل مدائن البشر ، شادها أهلها بأشد أنواع المرمر بياضا وأقوى ألوان الرذائل رسوخا على الزمن ، ورفعوا بيوتها عند سفح الجبل على الترف الداعر وعلى عمد مرمرية ضخمة عالية مرصعة بالزمرد والياقوت ، وعليها قباب تتلألأ أنوارها وتنعكس على صفحة البحر القريب .. وكانت تصطخب فى بيوتها الأنيقة الدافئة اذا كان الشتاء ، الرطبة اذا كان الصيف ، حياة رفيعة مترفة يتردد صداها فى شوارعها الجميلة العريضة .. وكان لى فى المدينة ، وفى شارع من أكبر شوارعها ، بيت من أجمل بيوتها ، يقوم على بساط فردوسى من الجمال الأخضر .. وكنت عندما أزفت الأزفة جالسا عند النافورة المرمرية فى حديقتى أتسمع خرير مائها الفضى الضاحك . وكانت ليلة تسير فيها الحياة على الأرض فى سبيلها المألوف ناعمة البال ، وتتلألأ فى السماء ملايين الأكوان كأنها حبات الماس منثورة على المخمل الأسود ، ليلة ينفى جمالها ذكر الموت أن يخطر ببال ..

ولست أذكر تماما كيف وقعت الواقعة ، فان للأحلام منطقها الخاص ، وهو منطق علمتنى اليقظة أن اكن له من الاحترام أوفى نصيب ..

اقبلت من رحاب الفضاء أجرام مندفعة هادرة تنفث النار وقد

توسطها وقادها نجم كأنه وهو يقترب من الأرض ، هول متوهج فى السماء ، وفى سعيره المنطلق زرقة توشى حواشيها صفرة . وكأنما كان هذا النجم الثاقب يقصد هذه المدينة وحدها ، فهو موكل بأهلها ، فلم يلبث أن صار فى سمائنا يشق الظلماء نحو أرضنا وله هسيس تنخلع له القلوب .. واذا الاشجار من حولى تحصدها الحرارة التى تتقدم النجم فى مسراه ، واحالت الخضرة الفردوسية فى حديقتى وحدائق جيرانى رمادا أسود كريها ، ورفعت بصرى الى الجبل الذى طالما رد عن مدينتنا صروف الدهر فاذا صخوره المعمرة تذوب وتتدفق حصى وترابا فى مسارب الجبل نحو المدينة لا يصدها شيء .

وكانت تلك بداية النهاية ، فقد صدم النجم الأرض غير بعيد من قصر سيد المدينة — وبينه وبين بيتى مائة بيت وبيت .. وبدا لى انى لا محالة ميت ، وأنه يوم الساعة والدنيا تبيد ..

وانطلق فى الفضاء ، حيث سقط النجم ، عمود من النور كأنه سحابة قرمزية ، وبلغت الحرارة من الشدة مبلغا جعلنى أحس أن شراييني توشك أن تنفجر .. وتناوشتنى زوابع ضارية عاتية ، وفارت المياه تحت قدمى من شقوق الأرض ، وحملت الرياح الهوج سقف بيتى لتلهو به فوق أعالى الشجر ، وطارت فى الجو بيوت كم أنفق أهلها فى بنائها وزخرفتها واختفت بما فيها مصعدة فى سماء جن جنونها ، وعلا عزيف الرياح ودوى كالطبول .

رأيت الهول يتلو الهول ، واشفيت على الموت وشـــــارفت غمراته ، وســـــمعت صراخ الموتى فى كل مكان ، وتأذت الى تلك الجلجلة المكتومة المتصاعدة من باطن الأرض كأنها نذير ، وشهدت بعينى المدينة الجميلة وهى تحترق كأنهاكسرة خبز تفحمت على النار، ورفعت بصرى الى السماء فرأيت كسفا زاحفة من السحاب الراعد تتجمع لتنقض بالبرق الخافق ، وهبط بصرى الى الجبل الأشم فاذا هو قد صار غورا عميقا فى الرمال ..

وانطلقت أعدو فى شوارع المدينة وســـــط السنة متطاولة مندلعة من النار ، وعمد من الدخان تنشد السماء ..

وكان اهل مدينتى من حولى يتراكضون فى ظلمات الذعر ، ومن البيوت التى طالما نعمت بالقصف والسمر كان يرتفع عويل طويل كأنه ينعى الذين غابوا فى أكفان من رماد .. هو الموت اذن ، وهذه ساعته .. التقط انفاسى على هذه الصخرة الناتئة عند شاطىء البحر ، منتظرا أجلى ، وداعيا الموت أن يكون رحيما بى فيأخذ روحى اخذا رفيقا كما تأخذ المرء سنة النوم .. وغمرت نفسى فجأة سكينة لم ادر مأتاها ، تزين لى هذا الركون الى فكرة الموت .. واطبقت الظلمات على وكدت أرضى بها ، ولكن هاجسا من غريزة البقاء هجس فى نفسى يقول :

« لا تمت قبل أن تكتب قصة هذا الحلم !! .. » .

واذا بى أسعى الى استعادة شغفى بالحياة ، فلما وفقت الى سحب يدى التى كنت قد مددتها عن طواعية لمصافحة الموت ، عدت من تخوم الموت الى المدينة التى تعانى سكراته ..

فى ذلك الموقف الحاسم تخليت عن وهم صحبنى طيلة حياتى بأن جسمى هو ذاتى .. الآن أدركت أنى شىء اعظم وانبل واخلد من الجسد الفانى .. انى جوهر عظيم ، ولو أتيح لى أن اتخلص فى هذه المحنة من جسدى لغدوت أسنى وأعظم واقرب الى راحة نفسى وكمال ذاتى ..

عدت الى المدينة المزقة أمشى فى شـــوارعها الطويلة بين صفوف من المنازل الملتهبة ، واضرب فى ظلمات طامية تغشيها غلالات من اللهب ، وحول راسى عصف الرياح وتحت قدمى سيول خاتلة تعوى على جانبيها الذئاب وتفح الأفاعى وهى تتلوى فى رقصة الموت

وتلدغ من نجا من الهول الأكبر .. ورأيت فى الماء المتدفق فى شقوق الأرض جثثا تدورمع الدوامات قبل أن تمضى طافية مع التيار .. وعلى الأرض المثخنة قوم تنفجر من شدة الحرارة جماجمهم وبطونهم .. وكان الجرحى يصرخون .. وكان الموتى أيضا يصرخون .. ورائحة احتراق اللحم البشرى تمزق احساسى بانسانيتى .. وفى كل طريق وطئته قدماى لقينى مشهد مثير مجانين يصرخون ، وعمى يتعثرون ، ونساء معولات شائهات ، وقطط وكلاب وجياد تعدو ولها صراخ آدمى ، ووجوه يقطر منها الدم ، ودم تقطر منه أنفاس الحياة . وصبايا كن زينة ليل المدينة ونهارها قد سلخت جلودهن وبترت أيديهن واحترقت على عيونهن الأهداب فما عدن يصلحن زينة ..

وسمعت وراء ظهرى أنينا ، ثم أعولت امرأة واستنجدت بى :

ــ أنت أيها الميت العابر ! .. ألا تأخذنى معك ؟

فنظرت الى المسكينة وقد صار وجهها ، كوجه الأرض المرتعدة فى ليلتنا الليلاء ، مثخنا ملفوحا كريها ، وقلت لها :

ــ تعالى والقى معى نفس المصير .

قالت وهى تتعلق بذراعى بساعد يقطر طرفه دما حيث قطعت الكف :

ــ أى مصير ؟ ..

قلت : وهل أدرى أنا ؟ .. هذه فيما أحسب نهاية العالم .. لم يعد من حى الا قليل ، والا الرياح الخرقاء تعوى كأنها عفاريت مجنونة تعدو وتصرخ ، والسنة النار تتحسس أنقاض البيوت قبل أن تقتحمها .. هذا هو الانسان هشيم ورماد ، وهذه هى الأرض قفر مسود مدخن يمتد الى آخر مدى البصر تحت الوهج المتضرم ..

وهذه مدينتنا قد أمست جذوة مستعرة لها اجيج وصفير .. وهذا اللهب ينطلق كالوحش الجائع وقد شبع منها نحو البحر فيثب فوق مياهه وثب الخفاش المسعور كأنه جسر من مارج من نار .. أما عالمنا القديم كله فقد دفن تحت جبل من الرماد ..

قالت لا نجاة الا البحر .. وانى ألمح عند الشاطىء القريب قوما يتصارعون عند زورق صغير ..

كان البحر فى عنفوان ثورتة كأنه شلال أبيض هائل من ماء يغلى ، وكانت الصخور تقتلع من قاعه وتندفع فى الجو فتهوى على طلاب النجاة فى ذلك الزورق الوحيد .. وكانت الرياح تتقاذف ماء السماء وماء البحر فكأن رذاذه اذ يصفع الوجوه رصاص من فوهات البنادق .. وكان القوم عند الزورق تسعة رجال قتل منهم فى المعركة ثلاثة .. فهبطنا ثمانية من الاشباح فى زورق ، وأبعدنا عن الأرض الملعونة والسماء تمطرنا وابلا من كتل ملتهبة تتساقط علينا رمادا متوهجا ..

وكان الماء يفور ويغلى ، وكذلك كان شوقنا الى النجاة وجهدنا فى سبيل البقاء ..

وكان فى الثمانية الهاربين رجل مجنون افقده الهول رشده فلما اوشك أن يفتك بالمرأة الضعيفة قذفنا به دون رحمة الى الخضم المظلم المجهول فكان من نصيبه ذلك الكفن من الزبد الناصع البياض .

كنا قطيعا أعمى ينشد الفجر ..

كنا العمالقة العطاش الى الغد ..

فلما بزغت الشمس بعد دهر طويل وصراع مرير طلعت على عالم ميت بارد ليس فيه من آثار الحياة غير الزورق بركابه السبعة

وتلك الأرض البيضاء الغامضة التى تبدت لهم من بعيد . . أرض جديدة رسا عندها زورقنا ، باردة فى وحشتها ، لم نكد نهبط اليها حتى أطبق علينا زمهرير أشد من السعير عذابا ، وزغب الثلج الأشهب ينساب على الأرض فى سحابات رقيقة مسفة تسوقها رياح كأنها هى أيضا تحتضر .. وليس وراء ذلك سوى الثلج والجمد ، وصمت آلاف من السنين قد تجمع فى مكان واحد .. فمنا من صاروا بعد قليل تماثيل باردة لعل الأرواح التى فارقتها قد غدت هى أيضا بعض ذلك الثلج المندوف على أديم من الجمد ، ومنا من هرئت أطرافه من البرد فسقطت مبتورة ..

ولم تمض ساعة حتى كان الموت قد تخطف أرواح رفاقى ولم يدع لى رفيقا غير تلك المرأة التى كان معدنها من معدنى والتى غالبت معى النار والريح والماء والجليد ..

ومضينا ، هى وانا ، نضرب فى الأرض الباردة البيضاء المبسوطة ومن حولنا روح الهمود وخاطرة الفناء ..

قالت الأنثى الخالدة:

ـــ نحن عشنا بعد كل هذا ، فلن نموت أبدا !

وعندما كانت الجذوة الباقية من روحى تقول لى فى وهدة الضعف ان من الخير لى أن أموت . كان البرد يتسلل الى احشائى ويغرينى بالموت ، فحيثما سرت بعد اليوم فى الأرض لن أجد غير الصمت الرهيب المطبق ، وغير هذا النقاء المفزع المصمت الشامل .. وانا فى هذه الحياة ـــ وبعد أن قضى آخر رفاقى الرجال ـــ وحيد . .الأرض بالثلج بيضاء . والسماء فى مثل بياض الثلج .. والهواء فى مثل بياض اللبن .. ما كل هذا النقاء ! .. هذه الظلمة البيضاء ! .. اى عيش هنا لبشر ؟ كوكب طاهر قد انعدمت فيه

الحياة بخيرها وشرها .. هلكَ كلُ حى ، حتى الشمس بردت .. لن يقوى على الحياة فى كوكب الأرض بعد أن اصبح قبرا مجللا بالبياض يسبح مترنحا فى الفضاء السرمدى سوى اله .. وخير لى أن اموت لساعتى .. ولكن هذه المراة لا تريد أن تموت ! .. لها الحياة اذن وحدها .. لسوف تكون آخر حى يدب على سطح الكوكب الميت .. ولسوف تقضى ما قسم لها من حياة فى هذه الثلوج .. ومن يدرى ؟ .. ربما كانت ذبالة خابية من الحياة لاتزال ترقد مطمورة تحت هذه الثلوج ، تتحين الفرصة لتكون نواة خلق جديد .

بنــت الحـــلال

كانت قد نزلت من البيت الى الشارع راجية أن تراه وأن يكلمها ، فلما رأته على نور النيون الفاقع فى لافتة عم بشندى البقال، وهو يمشى على مهل وبين شفتيه ســيجارة ، ارتعدت وارتجفت الأرغفة الطرية فى يدها .

كانت عمتها « زكية » ضيفة عليهم فى تلك الليلة ، وكانت الأسرة تتأهب للعشاء عندما تنبهت أمها الست « بمبة » الى أن الخبز الموجود فى البيت لا يكفى ، فلم تكد تتكلم حتى كانت فاطمة قد خطفت ملاءتها قائلة انها ستسرع باحضار الأرغفة المطلوبة من عم بشندى ، قالتها وهى تنتفض بالرغبة فى أن ترى محمدا ، وأن يشاور عقله فى هذه المرة فيكلمها ..

واشترت من البقال العجوز وتلكأت ما استطاعت فى انتقاء الأرغفة الخمسة ، ثم عادت تتلكأ عائدة الى البيت فى الشـــــارع الصغير .. وعندما مرت أمام حارة داود ترددت لحظة عند مدخلها الذى غشيه الظلام .. ترى أى هذه البيوت بيت محمد ! .. كانت تسمع أنه يسكن حجرة بالطابق الأرضى من أحد بيوت هذه الحارة . ووقفت ونفثات الهواء الخفيفة التى تمس جبينهـــا تداعب طرف ملاءتها المحبوكة على خصرها ، ثم شعرت فجأة بوجوده ، فتلفتت

فى حركة مذعورة ، فرأته مقبلا من الدكان ، طويلا أسمر .. ليته فى هذه المرة يخرج من صمته ولا يمر بها بدون أن ينالها منه أكثر من تلك الابتسامة التى لا تعرف أن كانت للتحية أم للسخرية .. ليته يدفعها بخشونة الى الظلمة داخل الحارة ويقبلها بشـــفتيه الغليظتين .. ليته هو رجلها !

لكن محمدا ، مرة أخرى ، ابتسم عندما مر بها ومشى الى البيت الثانى على اليسار ففتح الباب ودخل ورد الباب فى هدوء فأغلقه .

اشتعل دم فاطمة فى رأسها ووراء اذنيها .. ولفاطمة نظرة ترشقها صريحة فاحصة فى العيون فتحيرها وتقلقها وتكلمها ، لكن النظرة المشهورة فى الحى كله خابت ايضا فى هذه المرة .

مر بها معرضا ، ورد الباب فى وجهها !

كانت بنتا فى عامها الثالث والعشرين ، سمرتها لطيفة وانوثتها وافرة ، وقبل وفاة والدها المعلم برعى الذى كان صاحب عربات حنطور فى بركة الفيل ، كادت « فاطمة » تحصل على شهادة كفاءة التعليم الاولى ، ثم حجزتها الست « بمبة » فى البيت حتى صارت لا تغادره الا فى ملاءتها ، مثل الكثيرات من بنات الحى اللاتى لم يذهبن الى مدرسة ولم يفتحن كتابا .. ثم جاءتها مصيبة حياتها يوم رضيت أمها وخالها الشيخ عويس أن تخطب برغم أنفها الى عبد اللطيف ابن المعلم منصور الجرىء صـــاحب ورشـــة النجارة الواقعة على ناصية الشارع .. واعترضت فاطمة لكنهم احتفلوا بالخطبة .. زوجوها من أول مغفل طلب يدها ، كما قالت لعمتها زكية وهى تبكى .. ان « رجلها » الذى طالما حلمت به وانتظرته من طراز آخر غير عبد اللطيف .. « رجلها » لا جميل ولا غنى بل رجل ! .. رجل ظاهر الرجولة ، تحبه هى فوق حبه لها ! ..

رجلٌ من نوع محمد رئيس عمال الصف فى مطبعة باب الخلق ، على أن يكون أغنى قليلا اذا أمكن .. محمد هو الذى يهز أوتارها الداخلية المكبوتة ، المشدودة .. عندما تراه فجأة فى الشارع تتسمر فى مكانها كالمأخوذة وترتجف بسخونة مسكرة لذيذة . .لكنه هو يبتسم ويمر فى هدوء ، كأنه يعرف سرها ولا يبالى .. وهى تشـــعر فى تلك اللحظات أن السور العالى الذى يحصر شـبابها لن يثبت طويلا ولو جعلت تسنده من الجانب الآخر السنة الحارة وكل ســلطة التقاليد والأسرة ..

كانت فاطمة وهى مخطوبة لعبد اللطيف تحب « محمدا » .. وكان عبد اللطيف يحضر لزيارتها فتفحصه من راســـه الى قدميه وانوثتها تفيض بالاحتقار والتمرد ، وبالرغبة فى اذلاله وتعذيبــه و « تطفيشـه » .. انها لن تكون أبدا زوجة لهذا الرجل ، هذا الوجه الهزيل الذى تغشاه صفرة ، هذا الاســـترخاء البليد فى عينى الحشـــاش المحتقنتين دائما بالدم ، وهذه النظرة المنكسرة .. مستحيل .. هذا النجار الطرى المدمن وارث ورشة المعلم منصور الجرىء لن يكون أبدا حلم العمر الذى كم أرقها فى فراشها ورفع درجة حرارتها ونشر فى بدنها رعدة هناء موعودة .. لا .. لا .. لتثر الدنيا كلها مع أمها وخالها ! انها تريد « محمدا » .. الحياة هى أن يكون لها محمد .. الكتفان العريضتان والرجولة الخشنة .

لكنه « ولا كأنه هنا » .. يبتسم ـ فقط ـ ويمر بها هادئا متعاليا !

ان يوميته خمسة وستون قرشا ، فلعله يبحث عن عروس من بنات الموظفين ! .. هى لا تعجبه .. لقد مر بها فى سخرية وكبر وصفق بابه فى وجهها .. كانت فاطمة تمشى فى ذهول والأرغفة

مدلاة من يدها وترنحت فى دوار فتلكأت فى خطواتها .. قاس خشن .. رجل أحلامها ! وفجأة عادت تنسل فى ظلال الجدران ، مندفعة نحو حارة داود .. وفى اندفاع مخبول وجدت نفسها تدق الباب وهى تتلفت حواليها فى الظلام . الباب الثانى على اليسار ..

وفتح الباب .. ظهر محمد ، فتلقت ببدنها المنتفض كله وقع نظرته الظافرة الفاهمة ، ونكست راسها ودخلت بدون كلمة .

وكانت ترتعد من قدميها الى راسها ..

* * *

بعد ساعة استقبلت الست « بمبة » ابنتها بثورة عارمة ، ولمحت الى أمور تجرى من وراء ظهرها .

ولم تتكلم فاطمة كثيرا بل القت الارغفة على المائدة فى فتور وقالت لعمتها زكية انها لن تتعشى ، ثم دخلت حجرة النوم فلبدت فى السرير ووجهها الى الحائط ، وتظاهرت بالنوم .

وسمعت أمها من الصالة تكلم عمتها وتهدد باطلاع ابنها الكبير سيد سائق التاكسى على لكاعة البنت فى الشوارع .. وبعد أن تعشت الست « بمبة » مع ضيفتها والاولاد الثلاثة الصغار ، وحجزت لسيد الكبير عشاءه حتى يجده مجهزا عند عودته كالعادة قرب الفجر ، دخلت بالست زكية على البنت كى تحاسبها على عملتها الجديدة .. الناس اكلوا وجه الست « بمبة » .. يقولون ان فاطمة لا تحب عبد اللطيف .. ان قلبها مشغول .. اهذا يليق ياست زكية ؟ .. كلميها .. ادخلى لها عقلها فى راسها ..

وتقدمت الست زكية فضربت بكفها ردف البنت المكورة فى السرير وقالت وهى تضحك :

« فزى يابنت وكلمينى .. بتحبى مين يا منيلة وانتى مخطوبة لزينة شباب الحتة ؟ » وقبل أن ترد فاطمة منفجرة فى أمها كانت قد طرقت باب الشقة يد تعرف فاطمة رنتها على الخشب وتعرف صاحبها .. وسمعت النسوة الثلاث من حجرة النوم صوت الباب وهو يفتح ، ثم صوت عبد اللطيف وهو يلاطف الاولاد ويحملهم تراطيس هداياه وهم يقودونه فى سرور الى حجرة الاستقبال .

بحثت الست « بمبة » عن طرحتها على الكنبة وهى « تزوم » فى ابنتها التى هبت جالسة فى غيظ :

ــ قومى يابنت لخطيبك ..

ــ « سم يلهفه » !

ــ بس شاطرة تتلكعى بالليل فى الشوارع .. خطيبك ، قومى له ..

قامت فاطمة وعمتها تربت ظهرها وتتملقها فأدخلت قدميها فى شبشب أختها العتيق ووضعت حول كتفيها شالا قديما تدارى به جلباب البيت البسيط ، ثم تمطت متثائبة وســــارت نحو حجرة الاستقبال وهى تتأفف بصوت غير خافت :

ــ داحنا بقينا نص الليل يا عالم ! .. دى مواعيد حشاشين! .. أوف ..

ودخلت عليه وهى تزفر وحاجباها مرفوعان فى اســـتفزاز صريح ومرت نظرتها قبل كل شىء على كتفيه المتقاربتين فى الجلباب البلدى الرمادى .. كل شىء فيه بغيض .. جزمته الصفراء وجوربه المهدل .. شاربه الرفيع المبروم وظهره المنحنى وارتعاش أهدابه .. وفى لحمها ودمها تنهدت صورة كتفين قويتين كانتا منذ ساعة فى يديها ! ..

ـــ اهلا بطاطة !

ومن فورها ادركت أنه مســـطول ، فتكلفت الغضب وهى تصفعه فى غلظة متعمدة بعينيها وكلماتها ، فكانت تحيتها له :

ـــ ما تبطلَ الهم ده بقى يا عبد اللطيفَ قبلَ الجوازَ ! .. صحتكَ عدم .. حاتجوز راجل عجوز عمره تلاتين سنة !

ذهلَ عبد اللطيفَ ولم يسعفه غير صوت الأم وهى تقتحم الحجرة وراء ابنتها المجنونة فى ذعر وأسف :

ـــ انتى يابنت اتلطشتى فى عقلكَ !! اتفضلَ ياسى عبد اللطيفَ دى أصلها قايمة من النوم تخرف ، بعيد عنك ، أهلا بحبيبى ..

وكان الخطيب مضطربا وهو يقول لأم الخطيبة :

ـــ يظهر الست الصغيرة ماهش مبسوطة من الزيارة .. أحسن أستأذن دلوقتى ..

ـــ كنت جاى فى ايه يا ابنى وماشى فى أيه .. امشى يامقصوفة الرقبة جهزى الشربات لسى عبد اللطيف .

وخرجت فاطمة فى سرور وهى تهمس :

ـــ شربات ايه .. دا عاوز حاجة سخنة تشغل المزاج ..

ولم تطل الزيارة التعسة .. جلس عبد اللطيف دقائقَ مع الست « بمبة » تجرع فى آخرها كوبا من الشربات الأحمر ماعت لها نفسه ، ثم أصر على الانصراف ..

وغادر البيت دون أن تظهر له فاطمة .. كانت فى لحظة انصرافه تزغزغ عمتها فى وسطها وهى تقول لها فى مرح عصبى :

ـــ جوزينى انتى يا عمتي .. انتي عينكَ كلها نظر ..

وظلت الست « بمبة » واقفة على راس السلم وهى تشيع الضيف بأرق ما تعثر عليه من كلمات حتى اختفى فى الشارع ..

وبعد دقيقة واحدة كان أهل الحارة كلهم يستمعون الى زعيق الست « بمبة » وابنتها وهما يتشاجران بأعلى صوتهما ، فقد فاض بالأم الأسى على ضياع الخطيب ، وفاض بالبنت الفرح الذى جلجل فى كيانها منذ الساعة التى عاشتها فى أول الليل فى حضن محمد .

* * *

قصد عبد اللطيف من فوره ورشة النجارة فوجد والده المعلم منصور على « الدكة » الخشبية التى تنزوى وراء الباب ، وقد خلع جلبابه البلدى واتكأ فى عظمة جسمه الضخم المترهل فى قفطانه اللماع فشغل أكثر من نصف مساحة الدكة العريضة ..

وحيا الابن أباه وجلس الى جانبه مطرقا فى صمت .

قال الوالد :

ــ الواد « بعضشى » عنده تعميرة كويسة !!

فلم يرد عبد اللطيف .

ــ كنت فين ! عند فاطمة ؟ ..

هز عبد اللطيف راسه بدون أن يخرج من صمته .

ودخل بعضشى ابن صاحب قهوة كنوز الحكمة يحمل فى يده شيشة فوضعها على الأرض وناول المبسم للمعلم ، ثم مد يده الى صدره ــ فيما وراء جلبابه المفتوح ــ فخرجت تحمل ورقة بنفسجية مكورة على سر لا يزيد فى حجمه على ساعة اليد الصغيرة التى كانت أرقامها الفسفورية تبرق فى معصم عبد اللطيف .

وتناول المعلم منصور الجزء الورقة ففتحها عن سرها فى أناة وحرص ، وتناول منها ذلك الشىء الصغير فأدناه من أنفه ، واختبره بين أسنانه قبل أن يرفع بصره الى الغلام الواقف أمامه ليقول له فى صوت تنم نبراته الخشنة عن السرور والارتياح :

ـــ كويسة صحيح ياواد يا بعضشى ..

تبسم الولد وانحنى على الشيشة فرفع جمرات النار عن هامتها المنسقة ومد يده الى المعلم بدون أن ينظر فأسقط المعلم فى اليد الممدودة قطعة صغيرة كان قد اقتطعها بأسنانه وعالجها بين أصابعه . فهيأ لها بعضشى مكانها ورد الجمراد حواليها فى ضربات خفيفة رشيقة بطرف الماشة النحاسية الصغيرة ، ثم أهاب بالسيد الضخم المتسلطن فوق عرشه الخشبى:

ـــ شد يا معلم واتمتع ..

نفث المعلم الكبير الدخان من فمه وطاقتى أنفه فى خيوط ثلاثة ضخمة وناول المبسم لخليفته .

ونهض الولد للخروج بدون أن ينسى أن يؤكد أنه سيعود بين الحين والحين بجمرات جديدة ، وساد الورشة المظلمة الواسعة صمت طويل لا تعيش فيه غير حشرجة السعال فى حنجرة المعلم بعد كل نفس يجذبة من الشيشة .. ومن وراء الأب والابن أخشاب مسندة الى الجدار ، وهياكل الكراسى الفاغرة فى الظلمة ، والابن يتناول المبسم من يد الأب ويتذوق بدوره بضاعة بعضشى ويثنى عليها .

وفجأة قال عبد اللطيف وخرجت العبارة المعدة مع الدخان فى وقت واحد من بين شفتيه :

ـــ انا عاوز تسامحنى فى فسخ خطبة ناظمة !

سأل المعلم الكبير فى فتور ذاهل :

ـ ليه ؟ حصل شىء .

ـ ما احناش لايقين على بعض والسلام .. شايله مناخيرها لفوق قوى .. تقعد لى ساكتة والا ماسكة رواية كلام فارغ وتسيب الكلام معايا لأمها .. وطالعة فيها باخوها الواد سيد ومكسبه .. وعمرها ما ضحكت لى عنيها زى ما بتضحك عنين العرايس لخطابها .. قصر الكلام لا أنا هاضمها ولا هى نازلالى من زور .. مانتفعش لبعض ..

كان يريد أن يشرح احساسه الحقيقى فلم يجد غير كلمات غامضة مائعة .. كان يريد أن يعبر عن شعوره الأليم بأن خطيبته تزدريه ، وأنه صار يخشى مواجهتها ، هو الموفق فى رزقه والمرموق من بنات الحى ، وان كان لا يقرأ ولا يكتب مثلها .. كان يريد أن يصفعها فى الكلام ، هنا ، كما صفعته هى هناك منذ لحظات فى بيتها ..

ظل المعلم ساكتا ، فقال عبد اللطيف مرة أخرى :

ـ سامحنى فى فسخ الخطبة . النهاردة أحسن من بكره .

ووضع قطعة جديدة من الفحم الملتهب فوق هامة الشيشة وجذب من المبسم أنفاسا قصيرة سريعة ثم قدمه للوالد .. ومع الدخان ندت عن صدر الوالد تنهدة طويلة .. بليدة .. وسمعه الأبن يهمس همسا يتكسر على شفتيه ويكاد يضيع فى شـــــاربه المنتفش :

ـ هى زعلتك الليلة ؟

ـ قالت لى انها ما تتجوزش راجل عمره تلاتين سنة وعجوز من بدرى .. يخلصك ؟

والمعلم الكبير تأثر عندما سمع هذا الكلام :

ـــ لا يابنى خلاص .. النسا على قفا مين يشيل .. دورلك على بنت الحلال اللى تعجبك أنت ، وأنا ما على الا أخطبها لك .. شد ما تضيعش النفس !!

وعاد المعلم منصور الجرىء يكرر حكمته :

ـــ النسا على قفا مين يشيل .. تعرف الواد بعضشى ده فى الحق بيجيب اليومين دول أحسن تعميرة فى بر مصر .

* * *

ومرت ساعة قبل ان يتنهد المعلم الكبير ويقول للمعلم الصغير :

ـــ قوم بينا نروح ننام والصباح رباح .

تعاون الأب والأبن على وضع العوارض الحديدية فى باب الورشة وامتحان أقفالها ، ثم انطلقا فى الظلام والغيبوبة كعادتهما كل ليلة الى البيت .

وأمام حارة داود رفع الأب بصره الى السماء السوداء ودعاها أن تهدى عبد اللطيف ابن الحلال الى بنت الحلال .

الكابـــوس

فى ربيع ١٩٤٦ ، لكن الجو فى دار عبد الصمد أبو نرماوى مفعم بالانحصار الكئيب والعزلة ، سقف خفيض وجدران عارية داكنة . الباب فى الصدر ، عن يمينه زير قديم فوق غطائه كوز مقلوب ، وعن يساره الفرن وملابس رثة معلقة بمسمار فى الجدار . عبد الصمد ، بين اليقظة والنوم ، مستلق فى اعياء على حصيرة قريبة من الفرن ، لا تحركه أصداء المولد فى ساحة القرية القريبة من داره . وعند ركن الحصيرة قلة من الفخار الأحمر .

عبد الصمد : (يعتدل على صوت طرقات على الباب وهو يدعك جنبه الأيمن) مين ؟ .. آه يا جنبى .. مين ؟

بركات : (صوت من الخارج) أنا بركات يا عبد الصمد .. افتح ..

عبد الصمد : (يضحك من نفسه) الله يلعنك يا ابن الحرام انت والفص بتاعك .. طيب طيب .. جاى لك يا ابن مبروكة .. صبرك بالله ركبى سايبة .. (ينهض بصـــعوبة على طرقات أخرى ملحة ، والضحك يغلبه ، وبعد محاولات مضطربة تزيد من ضحكه على نفسه يتمكن من فتح الباب ، فتتعالى أصداء المولد) خش يا ابن مبروكة ..

(وفى الحال يرتد عبد الصمد ساقطا على ظهره يدفعه شوال منتفخ ويدخل بركات الذى يرتدى فوق جلبابه سترة قديمة من سترات الجنود ، ويلقى بالشوال على الأرض وهو يلهث ، ثم يسرع باغلاق الباب فتخفت أصداء المولد) .

بركات : الجماعة لسه فى المولد ؟

عبد الصمد : (يتحامل على الشوال حتى يقف مترنحا) بقى يا ابن مبروكة أنا مستحمل زقة ؟

بركات : الجماعة فى المولد ؟ كلهم ؟

عبد الصمد : (يدعك جنبه الأيمن) جتك الغم ، الزقة رجعت الوجع فى جنبى العيان .

بركات : (وما يزال يلهث) أنت اللى الفص ملخلخك .

عبد الصمد : من ساعة ما ادتهولى فى العصارى وهو ملقحنى على الحصيرة .

بركات : لازم بلعته .. أنا قلت لك استحلبه .. أبو جنب اللى عندك ده هو اللى جاب خبر الحاج حجازى بعد ما صرف على الحكما دم قلبه من غير فايدة .. وأبو جنب مالوش الا المدعوق دا يا وله .. مش قلت له شغل له القهوة السادة وانت تصهلل .

عبد الصمد : ماعندناش ريحة البن .. وشيلة ايه دى اللى انت سارح بيها فى قلب الليل؟

بركات : (يقرفص الى جانب الشوال وهو يجفف وجهه بطرف جلابيته) ونوسة رخرة معاهم فى المولد ؟

عبد الصمد : (يتفوج على الحصيرة ويسند رأسه الى الجدار) وانت دخلك ايه تسأل على نوسة ؟

بركات : باسأل على خطيبتى يا جدع ..

عبد الصمد : انت لسه قريت فاتحتها ؟

بركات : وانت تطول تبقى عديلى (يربت بيده على الشوال) آهى حاتفرج وبكره أقرا فاتحتها ..

عبد الصمد : (يدعك جنبه) قلت لوهيبة خلى الواد منصور يروح يتفرج مع خالته نوسة واقعدى انتى معايا قالت لى : أنا وحشنى رقص أبو ريشة ..

بركات : (يداعب الشوال) حاتفرج ان شاء الله .. وزى ماخدت انت وهيبة وخلفت منها منصور آخد أنا نوسة ونخلف صبيان وبنات زى ما أنا عايز يا ابنى .. مش هو المهر اللى حابس دمى ؟ (يطبطب على الشوال) آهو المهر بيتدبر يا عبد الصمد !

عبد الصمد : انت لاقى تاكل لما عايز تتجوز وتخلف ؟

بركات : لازم أحجز نوسة قبل ما حد يطلع مهرها من جيبه .

عبد الصمد : حاتأكلها منين ؟ من خفة يدك ؟ والا من المدعوق اللى ما حد عارف ان كنت بتتعاطاه والا بتبيعه ؟

بركات : آهو بلطش مع الدنيا وتلطش معايا .. حلفتك بسيدى شهاب الدين وليلته المفترجة لتسكت بقى ..

عبد الصمد : حتى الشغل فى البنادر خبت فيه يا بركات ... لا نفعت فى مصر ولا فى السويس .. وآهى الحرب خلصت بقالها سنة وكل الناس رجعت منها بفلوس الا انت .. مازادش عليك الا الفشر والحكاوى، اللى بتحكيها .. اللى يسمع كلامك يقول ماخليتش فى البندر راجل ولا ست، ولا مصرى ولا انجليزى ، ولا عسكرى ولا حرامى ولا ابن حلال ولا ابن حرام ، الا لما كان لك معاه دور ..

بركات : يعنى أنا كنت لقيت شغل عدل ولا اشتغلتش ؟

عبد الصمد : لقيت اللى لقيته ورجعت لنا زى ما انت .

بركات : ويعنى اللى فضلوا هناك عملوا ايه ؟

عبد الصمد : أقله ما اشتغلوش مع الانجليز يا بركات .

بركات : يعنى كنت عايزنى أفضل أنهج من الغزق بالفاس اللى حيلتى فى أرض البيه علشان أطلع بتلتميت قرش فى السنة .. يعنى ماحصلتش قرش فى اليوم .. قالوا القرش بيجرى فى ايد اللى يزق عجله على هناك ويشتغل معاهم فى المعسكرات .. رحت نهجت من العتل واللفح والاهانة ماطقتش .. هجيت تانى .. هو أنا حا أعيش العمر كله أنهج ؟

عبد الصمد : ودخت السبع دوخات على قلة فايدة ورجعت تلطش برضه ..

بركات : الله بقى يا عبد الصـــمد يابو فرماوى .. انت حاتقلب عليا المواجع ليه ؟

عبد الصمد : والشوال ده فيه ايه ياوله ؟

بركات : (يعوج طاقيته) فيه الليالى الملاح ياوله !

عبد الصمد : الليالى الملاح ؟

بركات : فيه نص مهر نوسة يا وله !

عبد الصمد : رجعت تنط على الزرايب ؟

بركات : لا .. دى بضاعة غالية .. اللى فيه ياوله بورقة بخمســـــة .. ورقة من اللى تعلى المقام وتشق الحيط وتفوت فيه ..

عبد الصمد : بطل مزع بقى..

بركات : أنت عمرك شفت ورقة بخمسة جنيه ؟

عبد الصمد : (يتحسس الشـــــوال باحترام) دا شىء طرى ياوله ..

بركات : شيل ايدك .. حاسب على الرزق .. أنا حا أسيبه عندك قيمة نص ساعة لحد ما أروح أجيب الدكتور عمر وآجى ..

عبد الصمد : الدكتور عمر ؟

بركات : هو اللى حايشترى البضاعة ..

عبد الصمد : راخر بيشترى منهوباتك ؟ الشوال دا فيه ايه يا وله ؟

بركات : فيك من يكتم السر ؟

عبد الصمد : فيه ايه يا ابن مبروكة الشوال ؟

بركات : اللى فى الشوال ده عباس الصرماتى ..

عبد الصمد : (تفيقه دهشة شديدة) عباس الصرماتى ؟

بركات : بعينه العورا ..

عبد الصمد : عباس الصرماتى ايه يا واد يابركات ؟ هه ؟ عباس ما مات امبارح يا وله والبلد جمعت تمن كفنه ودفناه الصبح وخلصنا منه ..

بركات : دفناه الصبح وطلعته أنا تانى بالليل .. ما تفهمنى بقى ..

عبد الصمد : طلعته ؟

بركات : آى طلعته .. الدكتور عمر عايزه .

عبد الصمد : (ينتفض من الرعب وهو ينقل بصره بين الشوال وبركات) طلعته وجايبه لى هنا يا ابن مبروكة ؟

بركات : جتك الغم فى قلة مروتك .. يا واد مسافة ما أروح أجيب له الدكتور !

عبد الصمد : (يمسك بجلابية بركات وهو فى فزع شديد) تجيب له الدكتور ؟ ..

بقى بعدما جابو له التسريح . وغسلوه وكفنوه . وقروا على روحه الفاتحة ودفنوه ، تجيب له انت الدكتور ؟ ليه بقى ؟ يدى له حقنة ؟

بركات : ما تفوق أمال وتفهمنى ، أنا ورايا أشغال .

عبد الصمد : عباس الصرماتى ؟ هنا فى الشــــوال .. افتح الشوال ده ..

بركات : اتلهى ما انتش حمل بصة ..

عبد الصمد : بقى فتحت طربة الاعور وجبت الجتة فى الشوال ولفعتها على كتفك زى زكيبة القمح ، وحاتجيب لها الدكتور كمان ؟ .. ورينى اللى فى الشوال يا ضلالى .

بركات : (يتنهد ويفك الحبل الملتف حول قمة الشـــــوال ويوارب فوهته قليلا بين يديه) بص يا بنى آدم .. الاعور والا مش الاعور ؟

(عبد الصمد يلقى نظرة ثم يسنده بركات قبل أن يقع من طوله) ..

بركات : صدقت يا بنى آدم ؟

عبد الصمد : (ينهار الى الأرض) خده واطلع بره .. خده واطلع بره دا كان منجس الدنيا وهو عايش .. ياما راح بتفيدة ياما رجع بنظيرة ، ما طالش ينجس دارى وهو عايش جايبه انت ينجسها وهو ميت ؟!

بركات : ما تعقل أمال جالك خابط ..

عبد الصمد : فتحت الطربة على الميت ؟

بركات : يعنى فتحت سراية الحكومة ياخى !

عبد الصمد : وما خفتش ؟

بركات : خفت .. انما جبته ..

عبد الصمد : والدكتور عمر ابن الحاج نعمان بيشترى الميتين ؟

بركات : يلزمه تمرين على الأموات ..

عبد الصمد : يعنى من كتر ما هو فالح ؟ آهم كل ولاد الحاج نعمان فلحوا ماعدا عمر صاحبك .. كل سنة يسقط وعمره ما حيبقى دكتور .

بركات : الدكتور عمر دا زين شباب البلد ياجدع .

عبد الصمد : ماكانش الحاج نعمان كل ساعة يشتكى منه .

بركات : كان قعد سايرك الحاج نعمان واشتكى لك من ابنه يا عبد الصمد يابو فرماوى ؟

عبد الصمد : آهى الناس كلها عارفة .. فى مصر يســـيب المدرســـة بتاعة الطب ويمشى فى المظاهرات وينحشر فى اللى مالوش فيه .. وكل يوم والتانى انذار لابوه لما الراجل ياولداه عيى بقلبه واحتار فيه الاطبا ..

بركات : اش فهمك انت فى اللى بيعمله الدكتور عمر فى مصر ؟

عبد الصمد : آهم بيقولوا الباشا اللى اسمه النقراشى ، ديك اليوم قلبه من ع الكوبرى كان حايجيب داغه .

بركات : (يضحك) اسكت اسكت بلاش أمور جهل .

عبد الصمد : الكلام دا انا سامعه من عبد المتجلى افندى وهو قاعد يحكى الحكاية على مصطبة الشيخ كامل .. والتانى اللى جه بعد النقراشى راخر قارش ملحة عمر ابن الحاج نعمان .. الباشا اللى اسـمه سدقى ده .. الواد ده حايضيع نفسه بأقول لك .. اخواته التانيين ماهم مهديين يا أخى وفاتحين نفس أبوهم .. اللى موظف واللى تلميذ ... اشمعنى هو اللى فهيم فى السياسة أوى .. هو أبوه قلبه وجعه الا منه يا راجل ..

بركات : انت لا تعرف عمر ده يبقى ايه ولا ايه اللى جارى فى مصر .. أنا اللى اعرف .. أنا اللى شفت .. حدفتنى الدنيا فى زنقة من زنقاتى على بيته فى شارع القصر العينى .. لبدت عنده كام شهر .. خدمته هو ورفقاته .. تلامذة انما الواحد منهم بألف راجل .. سمعت كلامهم وعاينت افعالهم .. لا يهمهم صدقى ولا سليم زكى .. ولا ميت الف جونى . ساعة مايملوا الشارع يرجوا الأرض (يرفع صوته مشوحا بيده) : لا مفاوضة الا بعد الجلاء .. الجلاء بالدماء .. تسـقط معاهدة ستة وتلاتين .. كنت معاهم يوم كوبرى عباس .. وشفتهم لما هجموا على عسكر الانجليز فى ميدان قصر النيل كما الأسود .. بعينى دى شفت عمر .. اللى مش عاجبك .. وهو بيضرب جاسـوس من جواسيس الحكمدار وقع فى ايد التلامذة قبل ما يفتحوا عليهم الكوبرى .. عمر

دا كبير يا عبد الصمد كبير أوى ، بس انت اللى مدفون هنا فى قبرك ولا دارى ..

عبد الصمد : جاسوس ؟!

بركات : بصاص خاص ، وبقرشين يبيع ولاد بلده .

عبد الصمد : عمر ضربه ؟

بركات : شرحه !

عبد الصمد : ولا خافش ؟

بركات : هى الأسود بتخاف يابو فرماوى ؟

عبد الصمد : وبعدين ؟

بركات : (يتنهد) — وبعدين سبتهم فى مصر بيرجوا الأرض ويفوروا دم الحكومة وحكمدارها ، وحدفتنى الدنيا هنا تانى ، وزاملت ديب القرافة !

عبد الصمد : انت نهايتك حاتكون ان شاء الله على المشنقة .. ابقى شوف !

بركات : (يشير الى الشوال) مشنقة ليه هو أنا اللى موته ؟

عبد الصمد : يعنى لو كان حد شافك وانت جايبه أروح معاك فى داهية !

بركات : مين اللى يشوفنى ؟ الناس ملهية فى فتة المولد .. ومن ساعة الدكتور ما يدفع ويشيل احنا خاليين المسئولية والميت ده مانعرفوش .

عبد الصمد : خد الميت بتاعكَ يا بركات يا ابن مبروكة وغوروا! انتوا الاتنين من وشى خلى الليلة تفــوت على خير ..

بركات : دول خمسة جنيه يا وله .. جنيه ينطح جنيه .. ينطحه من غير ما يعوره .. يسمى عليه قبل ما ينطحه .. جتك الغم وش فقر ..

عبد الصمد : دارى ماهش دكان أموات يا بركات .

بركات : دا نص مهر نوسة يا مغفل !

عبد الصمد : نوسة لو عرفت تفقع بالصوت فى وشكَ .

بركات : واشــــيلها من داركَ واوفر عليكَ لقمتها وافرش منديلى على الرملة ..

عبد الصمد : آدى اللى كان ناقص .. تلم مهركَ من الجبانة ..

بركات : (ينهض بكبرياء) وماله ياوله ؟ واذا كانوا رفقات الدكتور عمر فى المدرســـة بتاعة الطب يلزمهم رخرين ميتين احنا مستعدين نورد لهم طلباتهم . احنا حانغلب فى ايه ؟ .. انحت واطلع ، وادفع وشيلَ .. والأعور بســـعر المفتح .. والجنيه برضه اسمه الجنيه ..

عبد الصمد : والله انت عيشتكَ تغم .

بركات : يعنى اشمعنى دى اللى تغم ماهى العيشة كلها غم فى غم أروح بقى اجيب الزبون ؟
(يجمدان على صوت طرقات مفاجئة على الباب)

عبد الصمد : (يستبد به فزع مخبول) ضيعتني يا ابن مبروكة ؟

بركات : انكتم لما نشوفة ايه العبارة (يرفع صوته متماسكا) مين اللى بيخبط ؟

نوسة : (صوت من الخارج) هو أنت هنا يا بركات ؟

بركات : (يطرقع بأصابعه راقصا) دى نوسة يا وله ! دى نوسة يا وله ! دى نوسة ياوله !

(بركات يوارب الباب فتدخل مع نوسة دفقة من صهللة المولد ، ويرد الباب) .

نوسة : سالخير عليكم .

عبد الصمد : (يلمح نظرتها المبتسمة لبركات) اش رجعك مبدرة ؟

نوسة : ادلعدى منصور ابنك ياخويا .. الدنيا نسمت ووهيبة حكت رأيها الا آجى آخد له الحرام بتاعك ..

عبد الصمد : (يسارع بنزع الحرام من تحت الهدمة المعلقة على مسمار الجدار ويمد يده) يلا مع السلامة لا الواد تستلمه السعلة .

بركات : ديهدى .. ماتطول بالك أمال ياجدع على ما تاخد نفسها ..

عبد الصمد : (يشير بحركة مبهمة فى اتجاه الشوال) ما إجنا عايزين كل حى ياخد نفسه !

نوسة : ياخى قول بس أبل ريقى من مية الزير السقعة .

عبد الصمد : (يقفز ليقف أمام الشوال بينها وبين الزير) هات يابركات القلة ..

نوسة : اشمعنى القلة يا عبد الصمد ؟

بركات : (يحضر لها القلة) ماتدقيش يانوسة .

نوسة : ومية الزير مالها يا عبد الصمد ؟

عبد الصمد : بعد ماخرجتو جالها سخونة !

نوسة : (تضحك وهى تتناول من بركات القلة) ماتبقاش تتقل عليه كده يابركات .

بركات : (يأخذ منها القلة بعد ما تروى ظمأها) دانا باعالج له جنبه .. هنيا ..

نوسة : الله يهنيك وينولك اللى فى بالك يابركات ..

عبد الصمد : (يشير لبركات . فى اتجاه الشوال فيهز بركات رأسه ، ويدفع عبد الصمد نوسة برفق نحو الباب) لغوا الواد كويس ..

نوسة : ما تسيب عبد الصمد ينام شوية يابركات وتيجى تتفرج على أبو ريشة وعمايله ..

بركات : يعنى عامل السنة دى اللى ما بيعملوش فى كل مولد ؟

نوسة : الا السنة دى يا بركات ..

بركات : هيه ؟

نوسة : تقولش وسطه مخلوع فى الرقص ..

بركات : والنبى ايه ؟

نوسة : عليه رقص السنة يا أولاد !

بركات : طيب ما تتعلمى لكَ منه حاجة تنفعك فى المستقبل !

عبد الصمد : (يعجز عن الاحتمال) ياجدعان .. يا أمة المسلمين دا وقته !

نوسة : ياللا معايا يا بركات .. الراجل هريدى ابو مسلم شـيخ الغفر قاطع سكتى ما أعرفش ليه وكل ما يشوفنى يحدف عليا كلام ..

بركات : (فى اهتمام) قاطع عليكى ؟ وعايز ايه منك هريدى أبو مسلم ؟

نوسة : أنا ياخويا عارفه .. دور يجيب لى سيرة البيه .. ودور يقول لى سراية البيه هى اللىحاكمة العب كله مش دوار العمدة .. أقول له أمال العمدة يبقى ايه يقول لى رئيس وزارة .. قلت له أمال انت صفتك ايه بقى قال أنا اللوا هريدى أبو مسلم .. لوا يعنى ايه يا بركات ؟

بركات : كبير الأمن .. زى واحـد فى مصر اسـمه اللوا سليم زكى . بس اللى أعرفه ان شـغلة اللوا ماهش كده أبدا .. هو بيلبس الرجالة طرح مش يفك طرح النسوان !

نوسة : دى كانت شغلة عباس الصرماتى !

عبد الصمد : أيوه والنبى ياختى تفكريه بعباس الصرماتى !

بركات : أنا جاى معاكى ..

عبد الصمد : رايح فين ؟

بركات : رايح أربى هريدى أبو مسلم وأوقفه عند حده .

عبد الصمد : والورقة أم خمسة جنيه نازلين نطح فى بعض من غير ما الواحد منهم يعور أخوه ! تسيبها لمين ؟

نوسة : ايه دا اللى بتقوله يا عبد الصمد ؟

بركات : دا كلام رجالة مالكيش حشرة فيه .

نوسة : يعنى ما انتش جاى معايا ؟

بركات : روحى انتى وأنا أحصلك ..

(بحركة آسفة يوارب بركات الباب ، لكن نوسة فى طريقها الى الخروج تلمح الشوال) .

نوسة : الله ايه الشوال ده يا عبد الصمد ؟

عبد الصمد : (ينظر نحو الشوال) الشوال ؟

(نوسة تعود خطوات فى اتجاه الشوال ، فيقفل بركات الباب ، وتتلاشى أصداء المولد) .

نوسة : فيه ايه الشوال ده يا بركات ؟

بركات : دول شوية درة يابت .. من عزبة البيه ..

نوسة : مش حلفت لى انك حاتبطـل النط فى الزرايب والغيطان ؟

بركات : ما هى دى آخر نوبة يانوسة !

نوسة : يابركات انا حلفت لأمك الليلة فى مقام سـيدى شهاب الدين انى أعقلك وأتوبك ونقسم لقمتنا الحلال على تلاتة ..

بركات : لقمة الحلال ضيقة يا أعز من عينى .

نوسة : ما أنا كمان حا اشتغل وأجيب فلوس أنشا الله الف على الدور أملا مية وأجيب م السوق واطحن واعجن واخبز واغسل (تلتفت الى عبد الصمد) وانت يا عبد الصمد بقى مشـــــاركه انشاء الله النوبة ؟

عبد الصمد : ربنا هو اللى عالم ..

(يفتح لها الباب ويغلقه بسرعة بمجرد خروجها)

بركات : جت سليمة !

عبد الصمد : ليلتك سودا وماهش فايته على خير .

بركات : شد حيلك أمال ، دى أصلها ليلة مفترجة .

عبد الصمد : ياسيدى شهاب الدين اقصف لى عمر ابن مبروكة وريحنى .

بركات : أنا حا أخطف رجلى بقى أجيب الدكتور عمر يشيله ونخلص منه ..

عبد الصمد : وانا ما اقعدش مع الميت لوحدى .

بركات : هو حايقوم يمسك فى خناقك ؟

عبد الصمد : يا واد يا ابن مبروكة الأموات لها حرمة .

بركات : مش أحسن ما ياكلهم الدود ــ والا يفحت عليهم ديب القرافة ؟ ..

وهم يعنى حاسين بحاجة من دى ؟ دول فى ملك تانى ياجدع انت .. نايمين على ضهرهم وكل

واحد منهم حاطط رجل على رجل ولا سائل فى العيشة واللى عايشينها ..

عبد الصمد : (بعد سكتة ذاهلة) طيب يا بركات قوم هات الدكتور عمر ياخد الميت بتاعه قبل الفجـــر ما يفضحنا والبلد تزفنا احنا والأعور للنيابة على صاجات أبو ريشة ..

بركات : (يخف للخروج منتعشا) تحيا المجدعة .

عبد الصمد : جتنى الغم صحيح اللى عرفتك وصاحبتك ..

بركات : (عند الباب الموارب) أوعى له !

عبد الصمد : (يقفل الباب بسرعة ، وينكمش على الحصيرة) ياسابل الستر على عبيدك جمد قلبى .. آمين يارب العالمين .. مدد يا أهل الله .. مدد ياسيدى شـــهاب الدين .. مدد يابو الكرامات .. يابو ريشة مدد .. ياندهة المنضام يا بو ريشـــة ، يا بو ريشة ياسند المنضام والســـعد فى ركابك خدام ..

(يســـتلقى على الحصـــيرة لحظة بين اليقظة والغيبوبة ، بين الحقيقة والحلم ، فيدهمه كابوس نسمع فيه معه رنات عالية لصاجات رقص تدوى فى داره — من كل ناحية مرة — ويثب واقفا وهو يرتعد من الخوف) .

(تضـــطرب حركاته وتلفتاته المخبولة مع رنات الصاجات التى تأتيه المرة بعد المرة من هنا ومن هناك) .

أبو ريشـــة يظهر ظهوراً فجائياً (شأن تهاويل الكوابيس) وقد علق فى كتفه بنـــدقية من بنادق الخفراء ، وفى يده صاجات رقص . وهو مجذوب بلا لحية ، متوقد الشخصية ذكى العينين ، وفى حزامه مجموعة مجلات وصـــــحف قديمة معلقة بفتلة ، وفى ركن عمامته طـــــرف قلم بارز مديد الطول ..

عبد الصمد : كراماتك يا أبو ريشـة .. ياندهة المنضـام ، يابو قلم سيد الاقلام ..

ابو ريشة : (ينتقل بخفة ويطوف بالدار على ايقاع الصاجات فى حركات ذكر راقصة) مدد مدد عبد الصمد ..

عبد الصمد : (يعبر عن ســــــعادته بالمعجزة بهتاف عصبى) خدامك ومحسوب كراماتك عبد الصـــــمد ابو فرماوى .

ابو ريشة : أبو ريشة له أحباب ، يسعدها بالنغم ، أما اللى حظه خاب ، يا ويله م الألم ، تتفتح الأبواب ، بالريشـــــة والقلم والكل يبقوا أحباب ، الديب والغنم !

عبد الصمد : (يهتف) والله يا دار عبد الصمد نلتيها من غير ما تطلبيها ..

ابو ريشة : جيتلك وبابك مقفول .. ومخك مسطول .. جيت لك ما بين يديك وعينيك .. وقلبى غضبان عليك .

عبد الصمد : دنا غلبان .. وعيان .. ومطحون .. وكل منهو بيفعص فيا شوية ..

أبو ريشة : لكن نفسك كبيرة يا مفعوص .

عبد الصمد : أنا واقع فى عرض الريشة والقلم ..

أبو ريشة : ازاى تاخد من بركات الفص ، من غير ما تقسمه معايا بالنص ؟

عبد الصمد : والله ما حاشنى عنك غير أبو جنب .. سامحنى أبوس ايدك ..

أبو ريشة : لو جتنى كنت شفيتك وعفيتك ، ورجعتك مبسوط لبيتك ..

عبد الصمد : أدى احنا فيها ..

أبو ريشة : (يعاود الحركة الراقصة ، فيقلده عبد الصمد)

لف معايا لف ..

لف معايا لف ..

لف معايا لف ..

(يتوقف أبو ريشة فجأة عن الرقص ، ويستمر عبد الصمد فترة قصيرة يتطوح وحده) .

أبو ريشة : أنا اللى ماسك عنك العمدة والغفير وحايش عنك بلاوى كتير ..

عبد الصمد : مدد يامسكت الحكام . ياندهة المنضام ، يا مفسر الاحلام يا حامل الاقلام . يابو الصاجات بترن ، بترن ، بترن ..

أبو ريشة : (يتناول البندقية ويرفعها فى يديه) بص .. جودة الغفير ادانى بندقيته .. سلمنى سلاحه ونام .. والعمدة باس ايدى .. وشيخ الغفر اللى راعب البلد بشوفنى يضرب تعظيم سلام .. والبيه الكبير كل ما أقصده يفتح درجه الكبير ويبسطنى .. امسك البندقية ..

عبد الصمد : عمرى ما مسكت سلاح ..

ابو ريشة : امسك البندقية !

عبد الصمد : لما بالمس سلاح ايدى بتترعش .

ابو ريشة : امسك البندقية (ويشرع فى الرقص ضاربا بالصاجات بمجرد انتقال البندقية الى يدى عبد الصمد الخائف) :

العمدة فى ايدى والكل عبيدى ..

عبد الصمد : (يرفع البندقية عالية بين يديه ويدخل فى الرقص) :

العمدة فى ايده ، والكل عبيده .

ابو ريشة : العمدة فى ايدى ، والكل عبيدى .

عبد الصمد : العمدة فى ايده ، والكل عبيده .

ابو ريشة : اللى تحت ساكتين ..
واللى فوق مبسوطين ..
دعواتى مطمناهم !
نغماتى منيماهم !
صاجاتى مرقصاهم !

عبد الصمد : مدد يابو القلم مترين ..

ابو ريشة : (بعد كل جملة دقة واحدة بالصاجات) :
مطمنهم بدعواتى !
منيمهم بنغماتى !
مرقصهم بصاجاتى !

عبد الصمد : وأنا والله لولا وجع جنبى لأرقص معاك للصبح .. لو عندى صحة وفوقان لأرقص وأضحك وأحب الدنيا .. أنا ما أقدرش أضحك .. ما أقدرش أرقص .. لكن برضـــه ما أقدرش على زعلك يا سيدنا ..

ابو ريشة : (فى طرب وانسجام ، يعاود الحركة الراقصة) .
لف معايا لف ..
لف معايا لف ..
لف معايا لف ..

يدوخ عبد الصمد فى الرقصة ويقع فى نهايتها على الحصيرة ويختفى أبو ريشة كما ظهر ..

عبد الصمد : (يفيق فلا يجد عنده بندقية ولا مجذوبا) بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم الله الرحمن الرحيم .. السماح يا أهل السماح .. الرضا يا أهل الرضا .. جه منين ؟ راح منين ؟ .. حلم والا علم ؟ علم ولا حلم ؟

يتكوم على الحصيرة ، ثم فجأة ينبعث واقفا على طرقات جديدة على الباب ..

جودة : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد يابو فرماوى ..

عبد الصمد : ياترى مين ؟ ياترى حلم ؟ ياترى علم ؟ ياترى ايه ؟ ياترى ليه ؟ ياترى مين ؟

جودة : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد يابو فرماوى ..

عبد الصمد : (يدور فى البيت فى لوثة) ليلتك سودة ياعبد الصمد يابو فرماوى .. مد ايدك للكلبشات يا عبد الصمد يابو فرماوى .. جت لك الحكومة ياعبد الصمد يابو فرماوى .. حكمت المحكمة يا عبد الصمد يابو فرماوى ..

صوت جودة : أنا جودة الغفير ..

عبد الصمد : (يلطم وجهه فى رعب) جودة جالك جودة .. جودة جالك جودة .. ووراه انشـــاء الله العمدة والنيابة ونفســـك فى ايه يا عبد الصمد يابو فرماوى ..

يستسلم ويفتح فتتعالى أصوات المولد ، ويفسح الطريق فى خوف ليدخل الغفير وبندقيته معلقة بكتفه ، ويرد الباب ..

جودة : مالك يا عبد الصمد ؟ بتترعش كده ليه .

عبد الصمد : هو كده أبو جنب ، لما يستلمنى يرعشنى ويرعش أبويا ..

جودة : سلامتك يا بو فرماوى

عبد الصمد : تسلم وتترقى عن قريب باذن واحد احد شيخ غفيـــر ..

جودة : بيقولوا المشيخة ماطلعتش من عيلة ابو مسلم من ايام سيدنا نوح ..

عبد الصمد : بس انت تزينها عن هريدى أبو مسلم .

جودة : عايز الحق ؟ .. لا .. انا أحب النـوم وهـو صاحى .. مفتح ومفنجل .. حتى لو خطف له تعسيلة بينام زى الديب .. عين مغمضة وعين مفتحة .. ومسنود من فوق ياجدع ..

عبد الصمد : ربنا يكفينا شر الجميع ..

جودة : (يتجه نحو الزير فيقفز عبد الصمد أمام الشوال) لحمة سيدى شهاب الدين بتعطش ..

عبد الصمد : الكوز مش نضيف .. عندك القلة ميتها عجب .. قربع وانبسط وارجع زى الصقر لزمام الناحية !

(ما أن يفرغ جودة القلة فى حلقه حتى يسرع عبد الصمد نحو الباب) ..

جودة : (يتلكأ) سمعت حكاية الواد صابر ابو خضرة ؟

عبد الصمد : (يمسك فجأة بالبندقية ويفحصها) بذمتك ياجودة ما غفلت الليلة ولا رمشك اللى فوق لمس رمشك اللى تحت ؟

جودة : ماحصلش ..

عبد الصمد : حدش لعب فى بندقيتك ؟ تكونش سلمت سلاحك لحد ولا انتش فاكر ؟

جودة : لا شوف بقى ! .. تبقى لما تاخد فص من الواد بركات نقسمه سوا .. علشان ما تخرفش ..

عبد الصمد : شفت حد دخل عندى الليلة ؟

جودة : لا ..

عبد الصمد : وماسبتش الدرك ولا دقيقة ؟

جـــودة : مسافة ما خطفت رجلى لحد دار الحاج نعمان خدت منابى من اللحمة ورجعت . بتسأل ليه ؟

عبد الصمد : (يوارب الباب) مع السلامة ياجودة .

جودة : بقى ماعرفتش حكاية الواد صابر ابو خضرة ؟

عبد الصمد : تصبح على خير ياجودة ..

جودة : ليه وليه يقول لامراتى ما تروحش تخبز آل فطير فى سراية البيه .. العمدة بعت شيخ الغفر يجيب صابر .. ومرات صابر فقعت فى وشه بالصوت .. ياناس ماهش عايز حريمه يخبز لحد غيره !!

عبد الصمد : الدرك فاضى يا جودة !

يخرج جودة ويقفل عبد الصمد الباب ويتكوم على الحصيرة ، ويهمد لحظة .. ثم يشهق فجأة من الرعب وهو يعتدل على ركبتيه ..

(الكابوس الثانى)

عبد الصمد : الشوال .. الشـــوال .. الشـــوال بيلعب .. (الحركة تزداد فى الشوال ، فيلطم فخذيه بكفيه) حوستك يا عبد الصمد .. الشوال بيلعب .. (فوهة الشوال يسقط عنها الرباط ، وتبدأ راس عباس الصرماتى فى الظهور) الحقنى ياجودة ..

مدد يابو ريشة .. اى واحد فيكم يلحقنى .. الحقنى ياشـــيخ الغفر يابو عين مفتحة وعين مغمضـــة .. ما هو اللى طالع لى راخر عين مغمضة وعين مفتحة (يبدأ الصرماتى فى الخروج من الشوال) انا فى جاهك ياسيدى شهاب الدين .. انا فى عرضك ياسيدى عباس ياصرماتى .

عبــاس : (يتمشى فى البيت بعينه العوراء وفى يده مخرازه الطويل مترنما بنفس نغمة « لف معايا لف) :

عد معايا عد ...

عد معايا عد ...

عد معايا عد ...

عبد الصمد : أعد ايه .. ؟ ايه اللى هنا أعده ؟

عبــاس : الصرم القديمة ..

عبد الصمد : نعم ؟!

عبــاس : عد الصرم القديمة ..

عبد الصمد : لا مؤاخذة .. انا افتكرت اللى حاتقول لى عدهم نسوان !

عباس : (يقرب مخرازه من عين عبد الصمد) عد الصرم القديمة ..

عبد الصمد : انا خدام الصرم القديمة ..

عباس : قدامك أهيه .. آدي كوم .. وآدي كوم .. وآدي كوم ..

عبد الصمد : حاضر ..

عبـــاس : عد الكوم ده الاول ..

عبد الصمد : حاضر ..

عباس : واعمل لك همة ..

عبد الصمد : حاضر حاضر .. حاجة حاجة يامؤمن .. دا شىء كتير ماله عدد !!

عباس : ودول سايبهم ليه ؟

عبد الصمد : انا اصلى واخدهم بالدور كوم ورا كوم .

عباس : ودول فيهم فردة لوحدها ليه ؟

عبد الصمد : على الحرام من وهيبة ما شفتها .

عباس : انت حرامى .. سرقت فردة !

عبد الصمد : اعمل بيها ايه ؟ دانا طول عمرى حافى !

عباس : فين الفردة الناقصة ياحرامى ؟

عبد الصمد : طول بالك دلوقت تلاقيها .. المال الحـــلال مايضعش ..

عباس : دى الصرم اللى رقعتها فى خمسين سنة ..

عبد الصمد : ربنا يزيد ويبارك !

عباس : بتقول طول عمرك حافى ؟

عبد الصمد : وكعابى مشققة ..

عباس : يعنى عمرك ما نفعتنى ؟ يبقى كفاية عليكَ عين واحدة .

(عبد الصـــــمد يصرخ عندما يقترب المخراز من عينه ، فتظهر صرخته الدكتور عمر وكأن الأرض انشقت عنه هو الآخر ، ووجهه مبتسم ، وهو فى معطف ناصع البياض ..)

عمر : مالك يا عبد الصمد ؟

عبد الصمد : عباس الصرماتى عابز يعورنى .

عمر : عباس ؟ هو فين ؟ دانا عايزه .. دانا بادور عليه ..

عبد الصمد : أهه .. أهه ..

عمر : دانا محتاجه .. دانا مشتريه .. دانا بينى وبينه تار ..

عبد الصمد : استلمه .. أهه .. شيل الله يبارك لكَ .

عمر : تعال ياعباس ..

عبـــاس : لما أشوف الفردة الناقصة راحت فين ..

عمر : تعال يا جاسوس .. تعال لى فوق الكوبرى ..

عباس : كوبرى ؟ كوبرى ايه .. أنا مش بتاع كوبرى .. أنا بتاع الصرم القديمة ..

عمر : دانا مشتاق لك يابتاع الكوبرى !

(يخرج من جيب المعطف ساطورا كبير الحجم) أنا تارى بايت ..

عبدالصمد : يجعله مبروكَ عليكَ !

عمر : ناقصنى تمرين كتير .

عبدالصمد : شيل واتمرن وانبسط ، ربنا يحظك !

عباس : عايز منى ايه ؟

عمر : أرد لك جميلكَ ..

عباس : أنا ما أعرفكش ..

عمر : ازاى ؟ دا احنا اتقابلنا كتير قبل كده .. وأنا عارفك وأنت عارفنى .. افكرك ؟ .. فاكر البيه والعمدة وشيخ الغفر بتوعك عملوا فينا ايه على الكوبرى ؟ بوم بوم بوم .. فاكر كوبرى عباس ؟

عباس : اللى عمرى ما شميت عليه نسمة ..

عمر : أنا شميت نسمته .. بوم بوم بوم لا مفاوضة الا بعد الجلاء .. الجلاء بالدماء .. مش هو اللوا هريدى أبو مسلم بتاعك اللى بوم بوم بوم .. تعال تعال .. أنا لازم أتمرن للجايات اللى أكتر من الرايحات ..

عبدالصمد : (بينما يختفى عمر وعباس يرتمى على الحصيرة) لف معاهم لف .. عد معاهم عد .. دوخ معاهم دوخ ..

عمر : (يعود الى الظهور وحده بسرعة خارقة والساطور فى يده ملوث بالدم وعلى معطفه بقع دموية كبيرة) خلاص يا عبد الصمد .. خلاص .. ريحتك منه ..

عبد الصمد : ربنا يريح قلبك ..

عمر : وانا كمان ارتحت

عبد الصمد : اتمرنت ؟

عمـــــــر : شرحته .. وفتحت دماغه وقريت اللى فى مخه .. اصحى بقى وفوق وفرفش واضحك وارقص. (يختفى ، ويهمد عبد الصمد فوق الحصيرة ، ويعلو فى الخارج نباح كلب تخرسه صيحة عالية من صيحات الخفراء) ..

عبد الصمد : (يتقلب ثم يفرك عينيه ويجلس ، ويجد الشوال على حالته التى تركه عليها بركات) وبعدين فى الليلة اللى مش فايته دى ؟ .. جم منين ؟ .. راحوا فين ؟ يكونش الفص بتاع ابن مبروكة لحس عقلى ؟.. أكونش اتجننت .. آدى الفرن .. وآدى القلة .. وآدى الزير وآدى غطاه ..

(فجأة تشتد على بابه طرقات تدفعه فى هذه المرة الى حالة من اللامبالاة) والله ما قادر أقوم بقى من مطرحى .. اللى قادر يخش من الحيط زى اللى دخلوا يتفضل واللى مش قادر يرجع !

بركات : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد .

عبد الصمد : مين النوبة دى ؟ انس والا جن ؟

صوت بركات : أنا بركات يا عبد الصمد ..

عبد الصمد : احلف انك بركات ..

صوت بركات : والله العظيم بركات ..

عبد الصمد : طيب جدك اسمه ايه ؟

صوت بركات : عبد الغنى أبو كمبورة ..

عبد الصمد : وأمك ؟

صوت بركات : مبروكة .. افتح بقى .

عبد الصمد : (يحبو من الحصـــــيرة الى الباب ويفتحه على حذر ، فينقض منه بركات ويغلقه بسرعة دون أن يصحب دخوله فى هذه المرة أى صدى للمولد) ما كان لسه بدرى ..

بركات : (زائغ العينين مضــــطرب الحركة) اســكت ياعبد الصمد بختى الليلة مهبب مش عارف ليه .

عبد الصمد : وأنا اللى جرى لى الليلة بسببك ماينحكيش .. فين الدكتور عمر ؟

بركات : (يقرفص عند الشوال) الدكتور عمر راح طنطا .

عبد الصمد : طنطا ؟ يعنى ماهش جاى يشيل الشوال ؟

بركات : لا ماهش جاى .. الحاج نعمان جت له نوبة القلب على غفلة والمولد برد .. والناس نازل عليها سهم الله .. بختى الجلو .. !

عبد الصمد : ياليلة مش فايتة ..

بركات : الحاج نعمان فى حالة خطر ..

عبد الصمد : واحنا اللى مش فى حالة خطر ؟

بركات : الدكتور عمر قام على طنطا بالعربية علشان يجيب الدكتور فتح الله بتاع القلب .. حايفضى لنا بقى والا يشوف أبوه .. دبرنى يا عبد الصمد ..

عبد الصمد : شوف أما أقولك بقى .. شيل وارحل .. تبيعه تحرقه خلصنى منه والسلام .. انت سامع ؟

بركات : حا أشيل يا عبد الصمد ياخويا .. حا أرجعه ..

عبد الصمد : ترجعه ؟

بركات : أنا قدامى غير كده ؟

عبد الصمد : ترجعه فين ؟

بركات : مطرح ما طلع .. هو مش له طربة ؟

عبد الصمد : وحياة منصور ابنى ديب القرافة عنده دم عنك .

بركات : مافيش نصيب .. ناولنى شوية مية أبل ريقى ..

عبد الصمد : رجعت الميه من زورك ..

بركات : حا أشيله .. طمن قلبك .. حانشيله يا أعز الحبايب سوا باذن واحد أحد ..

عبد الصمد : سوا ؟ أنا ياوله ؟

بركات : أمال يطلع عليه النهار عندى نروح احنا الاتنين فى داهية ؟

عبد الصمد : أنا مالى وماله ياجدع ؟ أنا بابيع ميتين والا لى بيهم أى اتصال ياوله ؟

بركات : احنا دلوقت رقبتنا فى حبل واحد ..

غبد الصمد : أيوه .. لفَ ياخويا الحبلَ على رقبتى أنت راخر لف .. لف ..

بركات : ايد تشيل وايد تفحت لحد ما نرجعه مطرح ما طلع وبادار مادخلك شر .. أمال حانعمل بيه ايه ؟

حانخلله ؟

عبد الصمد : بقى دى عيشة اللى أنا عايشها ؟

لا أنا صاحى ولا أنا نايم ..

لا أنا حى ولا أنا ميت ..

لا ورايا ولا قدامى ..

والف .. وأعد .. وبلبع ..

وآهو جالى بتاع شيل معايا شيل ، افحت معايا افحت ، اتشنق معايا اتشنق ..

بركات : توبة يا شـــيخ على أيدك ان عدت أبيع أموات تانى ، انشا الله يكون الميت بميت جنيه .

عبد الصمد : وان حد مسكنا فى السكة ؟

بركات : أقول انك لا تعرف أنا رايح فين ولا شفتك من أول الليل ..

عبد الصمد : والشيالة عليك ، أنا وسطى مفكوك .

بركات : ماشى كلام الجدعان ..

عبد الصمد : ومن صـــباحة ربنا لا أعرفك ولا تعرفنى ، ولا لسانك يخاطب لسانى ليوم القيامة ..

بركات : ماشى كلام الجدعان .

عبد الصمد : قوم الفع بلوتك ..

بركات : (ينحنى ويساعده عبد الصمد فى رفع الشوال) زقة لاجل سـيدى شـهاب الدين هات لى ابن الفرطوس على كتفى ..

عبد الصمد : (يوارب الباب ويتأكد من خلو الطريق) جودة نايم بيشخر .. قدامى يا ابن مبروكة ، ياما جاب الغراب لأمه ..

بركات : (وهو ينوء بحمله) ياما جمول وشلناها يانوسة .. وحياتك بعد كام شـهر ما أنا الا بايعه له برضه .. بس المرة دى عضم !!

(سـتار)

عطـــر فى الظـــلام

فى عصر كل يوم كنت أقوم بهذه الرحلة البغيضة ، فأقبع فى ركن العربة والعصابة على عينى والخادم ذو العين الواحدة يصف لى بعض ما نمر به فى الذهاب والعودة بين العباسية حيث كنا نسكن وشارع (فؤاد الأول) حيث كانت عيادة الطبيب ، فكأن « سمعان » هذا كان عينى فى محنتى ..

وكنت أدعه يصور لى بأسلوبه الفذ ما تقع عليه عينه الواحدة وأعكف على فصول حياتى الساذجة الصغيرة أتمثل فى ظلام الأربطة صورها ، ولم تكن أول مرة قدر لى فيها أن أخضع لمبضع جراح العيون ، ولن تكون فيما أحسب وأحس الاخيرة . لقد سبق لى أن عانيت هذه المحنة فى فناء مدرسة شبرا الابتدائية ، هناك فى ذلك الركن القصى حيث نصبت تحت شجرة الجميز تلك الخيمة البيضاء التى جعلنا ننظر فيها ولا نقربها ، ونسمع عنها أكثر مما ترى أعيننا منها ..

وكنت ، منذ جاءتنا الخيمة بمعداتها ، وطنت نفسى على يوم رهيب فى الأيام ، ذلك بأن عينى كانتا مريضتين منذ الحداثة وهما أبدا مثقلتا الجفن .. وكان حتما أن يجىء دورى ، فسرنا ذات صباح الى الخيمة صفا من سبعة أطفال أبرياء مطرقة رءوســـهم

واجفة قلوبهم كأنهم يساقون ظلما الى المشنقة .. واستقبلنا الطبيب فى ردائه الابيض وهو يقلب فى وعاء من الزنك عددا من الاسلحة المعدنية البراقة ، وثمة تلك الرائحة الكريهة القوية الخاصة التى ابغضها الى اليوم وابغض معها عيادات الأطباء ومخازن الأدوية ، الرائحة التى تضم معانى الصحة والمرض فى جوها الحاد الثقيل .

وفى ظلام العصابة البيضاء ، أذكر تلك اللحظات القاسية التى عشناها فى تلك الخيمة ، وقد وقفت أرقب رفاقى اذ يحملون الواحد تلو الآخر الى « المشرحة » فيرتفع « شارب الدماء » ذو الرداء الابيض سلاحه بيمناه فى غير اكتراث ، ويمد يسراه فيفتح بأصبعين منها عين « الضحية » ويدفع جفنيه الى الوراء فى غلظة مهنية تعودها وألفها .. ونغلق نحن عيوننا حتى لا نشهد المبضع وهو يهوى « فى » عين الصديق ، وان هى الا دقائق معدودات حتى نرى صاحبنا العزيز يخرج محمولا على الاعناق بدون ضجة أو اهتمام ..

وتعود الى ذهنى صورة عودتى الى البيت فى ذلك اليوم البعيد فى عربة كهذه العربة ، ومعى هذا الخادم الأمين نفسه الذى ألفت أن يقوم لى مقام بصرى كلما حجبت اللفائف نور الدنيا عن عينى ، وكيف حاول « سمعان » فى الطريق أن يضحكنى ويسلينى ، فلما بدا لى أن أسأله كيف فقد عينه وعما فعل يوم أن فقدها ، أضحكه هذا السؤال وقال انه ظل يبكى بالأخرى حتى بدا له أنه قد يفقدها أيضا اذا أمعن فى البكاء فكف عنه وقنع بقسمته ..

فى ذلك اليوم تعلمت أن الأمور فى هذه الدنيا نسبية قبل كل شىء ..

ورأيتنى بعين الذكرى أدخل البيت فأنال من أهلى عطفـــا جميلا ، ويعدنى أبى هدية طيبة أختارها يوم يرفع الحجاب عن

بصرى ، وكان عجبا أن يقع أختيارى على « نظارة سوداء » ..
ثم تقبل خالة لى فى مثل سنى كانت فى ذلك العهد تقيم معنا فتقول لى : ان « فوزية » تسأل عنى وقد رأتنى أدخل البيت فى رعاية الخادم والاربطة حول رأسى فخشيت أن يكون قد أصابنى شر فى الطريق .. وأنهض فى حراسة هذه الخالة الصغيرة فأقف فى النافذة ، وأسمع على الفور من ناحية بيت فوزية صوتها المشفق يسألنى فى حنان ولهفة عما أصابنى .. ثم لا أكاد أجيبها حتى تكون يد قاسية قد ردت النافذة فى عنف ، واذا هو أبى قد دخل علينا لينهانى فى غضب عن مخاطبة تلك « المرأة » ..

وتنساب بى العربة وأنا أتمثل فى الظلام محيا « فوزية » التى كانت أسرتى تمنعنى عنها وتغلق فى وجهها النوافذ كلما سمعتها تنادينى من بيتها القريب وما كانت تدعونى لتلحق بى أذى ، بل كنت أجد عندها ما لا أجد فى بيتنا من الروح والأنس والمحبة .. كانت فوزية « صديقتى » .. نعم صديقتى الوحيدة فى الشارع .. وكانت فى العشرين ، وكنت دون العاشرة .. وكانت حسناء .. نعم ، الحسناء الوحيدة فى الشارع .. وكانت تلبس كغيرها من النساء ، لكن فى زينتها قليلا من التكلف والاسراف لم يكن يخفى على ، ولم يكن يسوؤنى وان ساء غيرى .. كان لها عطر يدير الرءوس ، ويعطر الأنفاس ، ويذيع من حولها فيمس القلوب كعصا الساحر ، ويقول عنه أبى انه « فضيحة » تضج منها السموات .

نعم ، كانت غانية ..

ولم تكن هى تحدثنى عن حياتها ، ولكنى فهمت مما يتطاير حولى من الهمس أن صديقة طفولتى تكسب عيشها من هذه التجارة المريبة التى كانت أول مهنة احترفتها المرأة .. وكان أهل الشارع يكرهونها ويسبونها ويغلقون فى وجهها أبوابهم ، وترتسم على

وجوههم أمارات المقت والاحتقار لذكر أسمها .. وكانت هى تعرف ذلك وترضخ له وفى عينيها هذا الظل الشقى التعس الذى كنت أحبه فيها وأحبه ما عشت فى عيون النساء ..

واحسـبنى كنت الشىء الوحيد الطيب الكريم البرىء فى حياتها ..

فى أول مرة رأيتها كنت مع رفاقى نلعب الكرة فى الشارع الضيق الطويل ، وبعض النسوة من ساكنات الشـارع قعيدات النوافذ والشرفات والمشربيات يتفرجن على لهونا وصخبنا ، فيهن المشتركة معنا فى اللعب بنصائحها تسـديها من مقامها العالى ، والعابثة بما نحن فيه من لعب كأنه الجد ، والتى تود لو نزلت الينا لتمرح مرحنا وتضحك الحياة وتغضبها معنا .. وكان على أن أدير ظهرى وأضرب الى الوراء الكرة المصنوعة من الجوارب القديمة ، فما كدت أتهيأ لقذفها حتى حدثت ورائى معجزة صغيرة : ذلك أن حدة النقاش التقليدى بين رفاقى تلاشت دفعة واحدة حتى كأنهم اختفوا من المكان فى غمضة عين ، وصدرت فى الوقت نفسه حركات غريبة من النوافذ والشرفات ، فالتفت محجما عن ارسال الكرة لأتبين الأمر ، فرأيت زملائى قد تجمعوا صفا الى الجدار وأبصارهم رانية الى مدخل الشارع ، وتتبعت ببصرى أبصـارهم المتحفزة المتطلعة ، فما وجدت شيئا يستحق أن يكف له الاطفال عن الحركة والجدل ، وتختفى رءوس النسوة من هذه الفتحات اللائى يعرفن الحياة ويطللن عليها من وراء خشبها .. وانما كانت هناك فتاة مقبلة تتهادى فى شىء من الرفق والعجب .. حتى اذا ما أصبحت منا على خطوات ، رأيت الرفاق الصغار يتنازعون بينهم أمرا فى همس خطير ، وما كادت القادمة ذات الجمال والدلال تمر بهم حتى انطلق الصف كله خلفها كأن هزة كهربائية واحدة قد حركته ووجهت ارادته تلك الوجهة الواحدة المنكرة :

ـ الملعونة .. الملعونة ..

واضطربت خطى العابرة ، وانسدلت أهدابها على وجنتيها ، واصطبغ بلون الدم محياها الحزين . وتقلصت أناملها فوق حقيبة يدها ، وعضت أسنانها شفتها ، وكأن الدموع توشك أن تطفر من عينيها لتستدر الشفقة والرحمة من أولئك الطغاة الفجرة الذين كان صوتهم الرهيب المنكر يتبعها كظلها ، وهم يدقون أكفهم الصغيرة دقا منغوما على وقع الكلمة الظالمة ..

وعندما ثبت الى نفسى صرفت رفاقى بلسانى ويدى عن هذا اللهو العنيف الظالم ، ولم تلبث العابرة أن اختفت فى أحد أبواب الشارع غير بعيد من بابنا ، بعد أن التفتت نحوى فى ايماءة شكر وعرفان ..

وما كادت تفعل حتى عادت الرءوس النسوية الفارغة تبرز فى فتحاتها ، وتصايح نسوة الشارع الضيق الطويل ، وكان عجبا أن أسمع هؤلاء النسوة اللائى احتجبن عند مرور المنبوذة ، قد انطلقن يصفن معطفها وثوبها ويتحدثن حديث العارفات عن نوع قماشهما وثمن المتر منهما ، ولم تنس احداهن أن تحث أولادها على قطع الطريق عليها كلما خطرت فى الشارع ، بعد أن نالتنى بالسخرية وتوعدتنى برفع أمرى الفاضح الى أبى المدرس الذى « لا يعرف كيف يربى أولاده قبل أن يتصدى لتربية أولاد الناس .. » .

وتنساب بى العربة دائما بين العيادة والبيت ، وفى مخيلتى هذه الصور القديمة العزيزة ، و (سمعان) ماض فى « اذاعته » لا يكف عنها الا ليسعل أو يبادل العربجى الحشاش نكتة لطيفة أو دعابة عابرة .. وانى لأجسم الأمانى فى ظلامى : فأتخيل أن فوزية ستلقانى بعد هذه الاعوام السبعة ، وستلقانى من جديد وفوق عيني

هذه العصابة البيضاء ، فأتنسم فى الظلام عطرها الذى لا ينسى ، وتحنو على كما كانت تحنو على عهدنا الماضى ، فتأخذنى فى ذراعيها الى صدرها ، وتذوب على يدى عطفا ودموعا وقبلا ، وتغمر كتفى وخدى وراسى المعصوب بقبلاتها الممتزجة بالدمع والعطر ..

ولست أكتم عن « سمعان » هذا الذى أحلم به يقظا ، وانه ليسخر منى فأنصرف عنه غاضبا الى ذات نفسى أنطوى عليها وراء ظلماتى ولا اعود أعبأ به اذ يذيع بطريقته الفريدة وصف ما نمر به من المناظر والحوادث ، وهو يفعل ذلك فى صوت جهير يلفت أنظار المارة ، وكان هو لا يعجبه هذا الالتفات فيشتبك أحيانا فى معارك كلامية مع اولاد البلد ، وقد يحلو له أن يلتحم مع بعضهم فى «قافية» يطرب لها صاحبه العربجى الحشاش وان كانت تملؤنى ذعرا .. ففى ذات يوم ، وكنا نجتاز فى عودتنا ميدان العتبة الخضراء الذى كان بحاله القديمة مدينة كاملة غريبة ، توقف « سمعان » فجأة عن اذاعة آخر الأنباء ، وسمعته يطلب الى الحوذى أن يأخذ بلجم الخيل لتكف عن السير ، ثم أحسست به يقفز من العربة الى الشارع وهو يهتف بى فى دهشة وفرح صادق « ان فيك يابنى شيئا لله .. » .

ومالت العربة على جانبها الأيمن وقد هدأت الخيل وأوشكت أن تكف عن الحركة المنتظمة السريعة .. ثم ذاع من حولى العطر القديم الذى طالما عطر أنفاسى وأيامى ، واحتوانى جسد دافىء وطوقتنى ذراعان وأطبقت على فمى شفتان حارتان وتهادت العربة فى رفق وقد أصبح الخادم الظريف الى جوار السائق يحكى له قصة لا أسمعها ..

وهمست حين خلى بينى وبين الكلام : فوزية !!

فلم تجبنى من فورها ، فقد كانت — بين البكاء والضحك — مضطربة لا يقر لها قرار ، وأنعم روحى عطرها المألوف ، واضطراب

جسدها الملتصق بى ، ودق قلبى فى صدرى كالطبل ، وانقلبت أرض الله الواسعة عربة يجرها زوج من الخيل العجفاء فى شارع صخاب من شوارع القاهرة ، ثم أشربت روحى ذلك الصوت الحبيب يهتف بى : حدثنى ما بال عينيك ؟ ألا ترحمانك أبدا يا مسكين ؟ وهل كتب على ألا أراك الا وعلى نور عينيك حجاب ؟ .. أتذكر عهدنا ؟ .. أتذكر كيف كنت تسعى الى ملتمسا طريقك براحتيك ، فأدخلك بيتى ، وأسكنك صدرى ، تنام فى أمنى ، وتصحو على حبى ، أبكى لنفسى فتبكى لى ، وأضحك لك فتضحك للدنيا ، فما كانت الحياة عندنا يومئذ الا دموعا وضحكات ..

قلت : ما أحسب عيناى اكتفتا ياصديقتى ، وإكبر ظنى أنهما لن تدعانى طويلا قبل أن تطلبا الى فدية جديدة عن نورهما من دمى وأعصابى ، ولكنى أعدك وأشهد السماء أننى لن أسلم فى المرة القادمة تســـــليما فليست المسألة لعبة بعد كل هذا الذى عانيت وانما هى مسألة فيها نظر !

قالت ، مسكين ياحبيبى .. اننى أهب أعواما من عمرى ثمنا ليد سحرية تهبط الآن فترفع عن بصرك الحجاب لأرى روح الرجل الذى حل فى عينيك مكان روح الطفل ، ولتمتحن من فورك أثر السنين السبع فى صديقتك التى فرقت بينك وبينها الليالى ..

قلت : انى لضنين على الزمن بهذه الساعة الرائعة ، ولا يعجلنى أن أحث البصر ، فان حرمانى المؤقت منه يجعلك تسبغين على هذا العطف اللذيذ الذى قد أحرم بعضه متى ارتد .. ثم ان لى فى هذا التصور فى الظلام لذة الخلق الفنى . .اننى أتصورك الآن ، وأراك رأى العين ورأى القلب ، وأتحسس محياك بأناملى ، وأتخيل رسمه البعيد الراسخ فى مخيلتى ، ويرسم خيالى خطا متموجا يلمع

فى هذا الظلام كجدول من الفضة الذائبة يجدد لى شخصك الحبيب .. فهذه ثورة شعرك حيث يبدأ الجدول الفضى رحلته وسـط السواد ، وهذا هو يميل فى رقة فيعبر عن جبينك وعينيك وأنفك وشفتيك وذقنك ، ويدخل بعد هذا دخولا لطيفا الى حيث عنقك ويهبط بعده . . . . ثم يصل بى وقد تهدج صدرى ولهثت بأنفاسى الى قدميك ..

وعندما قالت لى ، فى ايحاء الأنوثة البليغ ، انها سعيدة اذ ترانى قد بلغت مبلغ الرجال ، أحسست فى تلك العربة ، وفى تلك الساعة ، أنى أسعد رجل صغير فى العالم .. ولست والله أذكر ما أجبتها به ، ولعل سمعان فى مقعده العالى سمع طرفا من حديثى، فان له أذنين كبيرتين وان لم تكن له غير عين واحدة ، فقد سمعته يغالب الضحك وهو يهمس فى أذن صاحبه الحوذى همسا خبيثا ، ثم سمعت الحوذى يسعل وهو يهوى بسوطه على ظهر الخيل قائلا :

— مسألة لم يعد فيها نظر !

استقالة شهرزاد

اسمع صوت اجنحة السكون الطائر فى هذا الليل الذى ضرب قبته فوق كوخى الريفى الصغير ، وحول حديقتى الخضراء المشرفة على النهر ، والنهر يجرى تحت قدمى الى غايته ، وقد زارنى فى هذا الصباح طبيبى الخاص ، وقضيت الليل بعد انصرافه فى مقعدى الطويل بالحديقة حتى أقبل الليل وبين يدى كتاب ، وفى حجرى قطتى شهرزاد تمر راحتى على ظهرها فتقرأ لى ما تيسر من أورادها الغامضة ..

والربيع من حولى كأنه القصة الضاحكة ، وقد جئت الريف مستشفيا من داء بشع أنقذنى منه ذلك الطبيب العظيم ، وما أرى من وجوه الأحياء الا وجهه بين الحين والحين ، ثم صاحبتى بصدق حبها وكريم مودتها .

ولشهرزادى وقار وغموض اذ هى تتحرك فى خطى جدها الفهد ، أو تنام ممطوطة فى أحلامها ، أو تتخذ أحد هذه الاوضاع المترفة التى تجعل منها تمثالا يخلب اللب حينا ويرجف القلب حينا .. رفيقة وحدتى وفخر كوخى وسيدته ، توحى فيه بالحكمة ، وتملأ صمته بقوتها الناعمة وضعفها الساكن ..

شهرزاد فى حجرى ، تمر أناملى فوق شعرها الدافىء فتحس تحته ذلك البدن الغض الحار وهذه الروح الصغيرة البريئة المعقدة

تضطرب اضطراب الحياة والشباب . واصابعى الفضولية تتخلل كساءها البديع حتى تبلغ نعومة وسادة قدمها ، فصدتها على الفور أطراف مخالب حادة هى تحت تلك الوســـادة خديعة كبيرة .. وضايقها ذلك الاصرار الفضـــولى منى على الاطلاع على دخيلة قدمها ، فدارت بعنقها الراسخ كأنها تهم بعض يدى عقابا لى ، ولكنها على غير ما توقعت لحست ظهر يدى بلسان كأنه المبرد ، وبادلتنى النظر من عينها الصافية .

واعجبنى وسرنى أنها — على غير عادة النساء — تتكلف هذا الاغضاء الكريم عن جراتى ، فقبلتها فى راســـها ، وبين عينيها المرتابتين المتكبرتين كعيون بعض النساء .. وقلت لها ، فى أذنها ، اننا فى مايو ، شهر الحب ، وانى سوف أجلب لها صاحبا لينجبا لى سربا ظريفا من الاطفال العميان الاعزاء ..

وكنت أحسب أنى أسرها وأرضيها ، ولكنها نظرت الى غاضبة عاتية ، فأحسست بغتة تلك الرعدة اللذيذة الممتعة الغامضة التى ترمينى بها أحيانا هذه البكماء الصغيرة . وكنت مفلسا ، ولكنى كنت أحس هناء جديدا ساذجا لا عهد لى به ، وكان طبيبى قد أذن لى فى تناول بضع كئوس من الخمر كل يوم .. وقد طلع على فجر الليلة وأنا فى مقعدى هذا قد شربت من خمرى أطيبهـــا ، وكنت أحدث نفسى : من الحمار الذى زعم مرة أن الاملاق متعة لذيذة ؟ .. كنت أحدث نفسى كأنها مخلوق آخر مستقل يعيش فى الكوخ معى ، وقد وضعت « لها » كأسا أمامى وجعلت أقول لها : « اننا زوج من الحمقى ، مشكلة بسيطة كهذه لا نجد لها حلا » .. فتقترح نفسى على : « لندع علاج هذه المشكلة مؤقتا ونشرب كأسا جديدة أحدنا فى صحة الآخر » .. فرفعت كأسى فى يدى وقرعت بها الكأس الاخرى المليئة التى كنت وضعتها « أمامها » عند طرف المنضدة

الآخر ، وقلت (لها) كأنها هناك حقل تسامرني : « في صحتك » ثم وخيل الى انى أسمع على الفور صوتها وكأنها صدى صوتي : « في صحتك » ..

وسكتنا ، وطال سكوتنا .. وصمت الليل من حولنا لا يعكره سوى صوت أجنحة السكون الطائر في الآفاق ..

وقالت شهرزاد على حين بغتة : انك ترتعد .. أتراك تحس البرد في هذه الليلة الدافئة المشرقة من ليالى الربيع ؟ .. أم لعلك ذكرت ليلة أخرى قديمة كانت أيضا من ليالى الربيع ، وكانت مشرقة صافية عرفت فيها سلطان ذلك الشيطان الرجيم الذى أوشك أن يحطم شبابك ؟ انك ترتعد ، كأنك ماتزال تسير خلف تلك المرأة التى تتقدمك الى القاعة ذات النور المريض الخافت والسقف المنخفض العريض ، وقد نثرت على أرضها حشايا ووسائد تمدد فوقها رجال ونساء ينتشر فوقهم سحاب من الدخان الاسمر .. لقد ارتعدت أمام ذلك المشهد الذى كان صدمة عنيفة لاعصابك ، وسألت قائدتك وأنت تود لو أخلى بينك وبين الخروج : أهذه وجوه قوم « نسوا » ووجدوا السعادة في النسيان ؟ ما أظن هذا النسيان من الروعة المترفة بالقدر الذى صورت لى ، وما أظن الخيالات الطيبة ترقصهم وتفعم قلوبهم — كما قلت لى — بالفرح ، وما أود أن أبقى ، وانما أبغى أن يقودنى هذا الغلام الذى فتح لنا الباب ، الى الاحياء في المدينة التى تمرح الآن فوقنا ..

قلت لسميرتى : ولكنى لا أحب هذا الحديث ياشهرزاد !

قالت كأنها ما سمعت قولى : ولكنك بقيت ، ولم يقدك الغلام الى الباب ، وانما قادك وصاحبتك الى حشية من تلك الحشايا المنثورة ، ورفع الى كل منكما عودا طويلا يمور في بوتقته ذلك السر

من أســـرار الغيبوبة : ومددت ، ايها المسكين ، الى العود الذى يرفعه اليك الغلام الراكع امامك ، يدا مترددة مشفقة ، ورفعته الى شفتيك وداعبت بهما مبسمه ، ثم حزمت أمرك فجذبت منه نفسا قصيرا سريعا . يالها من نكهة .. شىء طريف حقا .. ثم اقبلت عليه ،وعلى اعواد بعده ، فلذت لك النكهة وتذوقت نشوتها وأدهشتك قنزات ذهنك العجيبة ، وجعلت المرئيات ترقص من حولك وتتناثر كالشظايا ، وخيل اليك أنك تسرع نحو سكينة النفس التى تنشدها ، وأن الصفاء الروحى الذى تفتقده يسعى اليك .. أتذكر ؟ اتذكر تلك الليلة البعيدة من ليالى الربيع ؟ .. أتذكر كيف القى الزمن السلاح وولى عنك هاربا ، فلم يعد الماضى والحاضر والمستقبل فى وهمك الا انا واحدا ، وزين لك ان كل اولئك الرجال والنساء رفاقك فى السلاح ، وأنك تحبهم ، وأنك اخ لهم .. الم يكونوا مثلك يبحثون عن دواء للسأم ومضيعة خطرة للوقت تجمع بين الأنفس الكسيرة على المحبة والرضا والصبر ؟ .. أتذكر ؟ .. أتذكر قلبك يا مسكين وهو يرقص نشوان فى غفوته ؟ .. ولعلك فى ليلتك تلك النائية خلت انك تشارف الحكمة وتقبض بيدك على صولجان المعرفة وتتربع على عرش الصفاء .. وعندما خرجت مع الفجر واقبلت تودع صاحبتك ، ضحكت وقالت : « انك ستعود ، ستعود » .. فمضيت وكلمتها ترن فى وعيك كأنها كلمة القدر .

وسكتت شهرزاد فعادت أجنحة السكون تخفق فى الليل تريد ان تدفعنى من جديد الى الجنون بعد أن دفعت عنى أطياف الجنون وتهاويله .. فقلت لصاحبتى وأنا أمسح على ظهرها : لا أحب ان تحدثينى بما أفر من ذكره وأرتعد من سطوته ، فكفى حديثا عن الماضى الذى لن يعود وان بقيت آثاره واليك فانظرى هذا العصفور الجميل الذى أضله الليل وحيره ، فهو يتخبط فوق راسينا فى ورق الشجر ؟

قالت : لا يا صاحبى !! انك تحاول أن تصرفنى عن حديث أعلم أنك لا تحبه ، ولكنى أعلم أن شفاءك لن يستوفى حظه من الكمال حتى تسمعه فلا يفزعك ولا يشقيك ، وانما يكون قصة من ماض بعيد تسمعها وترويها وأنت الصحيح المعافى الذى لا يخشى نكسة ولا يرهب ما فات ولن يعود .. أنك رجل ضعيف لا عزمة لك ولا ارادة ، قد صاحت بك تلك المرأة وهى تودعك صيحة الاغراء ، أو لعلها كانت صيحة النذير ، واذا بك تعود حقا ، ثم تعود . واذا أنت مدمن مسكين أول دعواك وآخرها أن اللهم أحينى مجنونا وأمتنى مجنونا واكتبنى عندك فى كتاب المجانين .. نسيت كل شىء الا ساعة النشوة .. وكان يزين لك أن حياتك قد غدت حلما رائعا ، وأن هذا الساحر الذى قادتك الى بابه امرأة من نساء الليل ، هو حقا ذلك « الوطن الواحد » الذى يبحث عنه الفلاســـفة والمفكرون والمجانين جميعا ، فيه رباط القلوب وقرابة الرجال ، وزوال فروق الجنس والدين واللغة والجاه ، وعن طريقه وحده تأتى الى الدنيا كائنات جـــديدة متحابة متآخية تجـــردت من غلظة الكائن البشرى وصارت أذكى وأطهر وأسمى ، تتفاهم دون حاجة الى لغة ، لأنها تتخاطب بعقولها الجديدة التى صاغها الساحر وترتبط تحت رايته بوثاق الأخوة والمحبة ودين السلام .. حدثنى عما وجدت فى الافيون من حكمة .. حدثنى عنها يوم أصبح هذا السيد المطاع الذى أسلمت له نفسك وأبدلت به دمك فى عروقك يسيطر على حياتك .. وحدثنى عنها يوم تحس الموت قريبا منك دانيا اليك ، يقيم معك فى غرفتك اذا أقبل الليل ويتمثل لك فى كل لقمة تطعمها ، وفى كل سيجارة تشعلها ، وعلى حافة كل كأس ترفعها الى شفتيك .. ألم يكن شبح الموت رفيقك ومركبك ؟ ألم يكن يطوف حولك يغريك بنفسك ويغرى نفسك به ؟ ألم يكن يحصد بدنك وروحك حصدا لا رحمة فيه ولا مهل ؟ .. أنسيت الليالى التى اعتكر فيها صفاء روحك ، وضلت

حكمتك وتبضت شرايينك نبضها الأليم ، واكتبس صوتك وجلت مضيئتك ؟ .. ينزع ظمؤك لعابك ، ويترجرج مخك الفتات فى جمجمتك الخاوية ، وثمة أيد باردة تجس بدنك وتتحسس محياك .. وتمضى الليالى ، وكلما زدت هذا البدن الشائك وهذا الروح الهالك من السم الذى تضفيهما ، ازدادك شوقا اليه ، والحاحا فى طلبه ، ثم صرت تفيش عليه ، تحس الحاجة إليه قبل تناوله وبعد تناوله ، وأثناء تناوله ، دائما ، دائما .. ثم لا ينقذك الا ذلك الطبيب العظيم الذى يحيى العظام وهى رميم ..

كفى ! كفى بربك يا شهرزاد .. انك تعذبيننى .. وعذاب الآخرين لا يعنيك مادمت بعيدة ، ومادمت لك لذتك الموفورة .. ان أنانيتك لا حد لها ..

فما راعنى الا هذه الطعنة تأتينى منها على غير انتظار :

— ان الافيون اذن قد أتلف عقلك وأضاع أنصافك !

ولم أملك فى غضبى الجائح الا أن أرفعها وأقذف بها بعيدا ، وأدهشنى أن أجد لهذه القسوة ، بعد اساءتها الى ، لذة ومسرة فى نفسى ..

وهممت أن أعتذر اليها ، واذا صوتها من ورائى يقول لى : كذلك كنت أحسبك ، وأكبر ظنى أنك وقد فعلتها سيلذ لك منذ اليوم أن تسىء الى ، وأنك ستطردنى يوم تفرغ من لهوك بى ، هذا الذى يتنقل بين الرقة والعنف ، وبين الرضا والغضب ، أو يوم تعرض لك قطة جديدة أنضر منى شبابا وأعز مكرا .. وما كنت أتوقع منك غلظة القلب وكان العفو أيسر ما أنتظر منك ، وقد وقفت عليك حياتى وشبابى ، وجعلت همى أن أدخل السرور على نفسك التى صرعتها فى فجر الشباب بحماقتك ، أتمرغ على ظهرى فى حجرك ،

وأبيحك جسدى الرخص العصبى تداعبه وتجسه وتنعم به ، وأقبل كفك وأعضها لك ، وأرغع راسى الى راحتك مادة عنقى ومسبلة أجفانى كماشقة ، لأنى أعلم أن هذه الحركة تثيرك وتعجبك ، بل ترضيك ، بل تأسرك ..

قلت : بل أكرهها .. وما أنت الا أنثى ناعمة خطرة تحت هذا الكساء الابيض الفاخر .. انك تخيفيننى بضعفك .. ان مجرد لمسة منك تكفى أحيانا لبعث الرعدة فى كيانى العصبى كله .. والود الذى بيننا دائما معلق بخيط .. وما أستطيع أن أركن الى مودتك ، فهى فى أصلها وحقيقتها أنانية مقنعة غادرة .. كلكن هكذا .. ناعمات ظريفات .. وعيونكن خادعة كاذبة . ولكن مخالب غادرة تحت الحرير ، وعشقكن عداوة ، وقبلاتكن السم المقسوم ..

قالت فى صوت ما سمعته منها قبل ذاك : يحسن بنا اذن أن يذهب كل منا فى سبيله ، وقد بعتنى فما يعنيك أن يشترينى هذا أو ذاك ؟ انك لم تعد تصلح لعشرة جنسنا .. ان كل ما يستطيع أن يفعله الآن رجل مثلك هو أن يتأمل السماء حتى يموت .. أن يصلى ، ويصلى ، ثم لا يكون له بعد طول الصلاة فى نعيم الأرواح الطيبة رجاء كبير ..

فجمعت نفسى الطعينة فى كلمة واحدة :

— اذهبى !

وغابت شهرزاد فى سكون الظلمات ..

موسيقى رخيصة

كان عبد الرحمن يحب السهر ويطيب له أحيانا أن يطوف بصالات الرقص الصغيرة بعد انتصاف الليل وانتهاء العمل فى الجريدة ، ليشرب كؤوسا من الكونياك المريب الحاسم ويتحدث ضاحكا الى السقاة والقوادين والراقصات وكل انسان يلقاه ..

وكانت صاحبة أحد تلك الملاهى صديقة له تحترم صفته الصحفية وترحب به وتشكو له هموم مهنتها ، وعندها فن هزيل ومرح مصنوع متوتر ونساء مطليات متوترات الأنفس بالرغبة فى الكسب والكحول والمخدرات وبالموسيقى الجعجاعة ..

والى هذا المكان أخذنى صديقى الشاعر ذات مساء .. دفعنى الى التاكسى الواقف أمام باب الجريدة قائلا انه يعرف كيف تساورنى أحيانا الرغبة فى أن أخرج من جلدى ..

ودخلنا من دهليز طويل ، بين صفين من الصور المعلقة ، وجلسنا حول مائدة قصية وطلبنا كأسين ، على حين كانت مغنية قصيرة ممتلئة تتأوه فى ميكروفون أمامها بصوتها المفجع ، والدنيا زائطة ..

وفى الحال أخذ عبد الرحمن يتلقى التحيات من الجرسونات وبعض الزبائن السكارى بنات المحل المبذولات وينتشر بلذة مريعة خارج ذاته ..

ومن شـــــفطتين من الكأس الاولى راح يدندن مع النغم الشاحب الفقير وهو يدعونى الى الخروج من جلدى ..

وجلســـــت الى مائدتنا فجأة راقصـــتان . وكانت احداهما واسمها « شوشو » تعرف عبد الرحمن ، وهى بيضاء الجلد وممتلئة أكثر مما يلزم لامرأة واحدة ، ويناديها العالم الذى تعيش فيه باسم « شوشو لظلظ » أما زميلتها فكانت سمراء مهزولة تحفظ قاموسا من النكت المكشوفة وكان اسمها « نعيمة » .. نعيمة زغزغ .. وكان دمها ثقيلا .. وبعد ساعة كانت المائدة أمامنا قد امتلأت بكؤوس الكونياك والويسكى وأطباق الجزر المقشر والفول الســـــودانى وأعقاب السجائر .. وكان عبد الرحمن يفرد ذراعيه كالمجدافين وينهض بعجزه الهزيل عن الكرسى ويتطوح كالمجذوب راقصـــا ومطرقعا مع النغم بأصابعه . واذا بامرأة على المائدة التى وراءنا تطيل النظر الى صديقى وتبتسم لمرحه وهى تجرع فى ثبات كأسا من الكونياك .. وكانت وحدها ..

جن جنون عبد الرحمن بمســــحة من نضارة فى ذلك الوجه الحسن الثمل الذى ابتسم له ، فنهض بقوامه الدقيق الطويل الذى لا يخفى الكثير من بنيانه العظمى ، وقصدها وكلمها فقامت ومشت معه نحونا مترنحة تكاد تنهار على الأرض فى كل خطوة .. وما أن اصطدمت بالكرسى الوحيد الخالى عند مائدتنا حتى تشـــبثت به وشغلته دون أن تنظر الينا ، وقالت وهى تضحك :

ـــ آدى حال الدنيا !!

ونادى عبد الرحمن بصوته الخشن صديقه جمعة الجرسون وطلب خمس كؤوس جديدة ، فقالت السكرانة وهى تشير بسبابتها الى صدرها العارى :

ــ الكاس بتاعى أنا ... دوبل ..

ثم رفعت صوتها حتى جلجل فى ركننا كله :

ــ والدور ده على حسابى ..

بدأت أخص هذه التحفة باهتمامى ، تاركا لصديقى الشاعر تنشق عبير شعرها الثائر ومحاولة تقبيل عنقها ، بعد دقيقة واحدة من تعرفه اليها ..

كانت ثملة وكان هذا أبرز ما فيها ، لكنها ناضجة ، وقوية الشباب ، وثوبها أنيق ، وكأس الكونياك عندها جرعة تصبها فى حلقها ، ثم تقول للساقى الذى لم يكد يستدير لينصرف :

ــ واحد دوبل كمان !

وكانت تضحك .. تضحك باستمرار .. وفى ضحكتها رنة خبل ..

سألها عبد الرحمن عن اسمها أكثر من عشر مرات ، فكانت تقول وهى تنفجر فى كل مرة بضحكتها الجوفاء التى ترن أحيانا رنينا مقبضا :

ــ اسم ايه انت كمان ..

ــ بتشتغلى هنا ؟

ــ أنا زبونة زيك ..

وقالت الراقصة نعيمة وفى صوتها نبرة ضيق واضحة :

— حضرتها أول مرة تشرف عندنا الليلة ..

أما زميلتها المظلظلة فقد مالت على أذنى وهمست فيها وأنفاسها تضايقنى ببخار الكونياك الرخيص :

— دى شربت الليلة أكثر من خمستاشر كاس .. وبتدفع ثمن كل كاس ساعة ما يجيبه لها الجرسون ، وتطلب غيره .. والكاس عندها شفطة .. جاية لنا منين الداهية دى مش عارفة .

فسألت شوشو وأنا أنحى وجهى عن لسع أنفاسها :

— رقاصة ؟

— احنا عارفين .. دى الست فتحية نفسها فاتت مرة جنبها وحاولت تخش معاها فى كلام ماعرفتش .. والست فتحية قالت لنا فى الكواليس : نمرة مكشوفة . البنت دى حاترجع بكرة وبعد بكرة ، زى غيرها ، وبعدين تتذل وتركع وتطلب تنزل الشغل .

وسمع منى عبد الرحمن هذه المعلومات فى همسات سريعة متقطعة فزادته هوسا فى مغازلتها ، وظهر له أن اسمها توحة ، أما من تكون وكيف جاءت وحدها فلا حديث ولا كلام .. وما من شك فى أن ما فتن الشاعر السكران منها هو غموضها ، حتى لقد راح يتحدث عن « أبى الهول الثمل » وعن شعر مكنون فى عينيها ينتظر من يرتله ..

وكانت يداها العصبيتان تعصفان بأعقاب السجائر فى المنفضة وهى تنفجر بضحكة شهوانية ملتاثة كلما قبل عبد الرحمن كتفها أو عنقها ..

والموسيقى الرخيصة التى نحتقرها انا وعبد الرحمن صارت تعجبنا حتى ندندن معها كالمهاويس .. سكرنا والمرأة تضحك بيننا ضحك الجنون وصارت الأنغام التائهة — وهى تمر فينا — تتحدث الينا عن ثمول ، ولذة ، وهروب ، ولهيب .. وأن هذه الموسيقى المخبولة لتدفع الى الشرب بغير حساب .. كلنا سكرنا ، ولكن توحة كانت بالوعة كونياك ، وكانت عيناها مع كل كأس تزدادان لمعانا لا ندرى ان كان من نار داخلية ويأس ثقيل راسخ . .

ولحظت أن صديقى حصر هدنه فى اقناعها بالخروج من هذا المكان وأنها تسأله وهى تطلق ضحكاتها المثلوجة التى ضاقت بها آخر الأمر أعصابى :

— نروح فين ؟

— انتى تعبانه .. أوصلك بيتك ؟

— بيتى ؟

— أيوه .. النهار قرب يطلع ياتوحة ..

— وبعـــــدين ؟

— تعزمينى ، مثلا ، على فنجان قهوة ..

لم يبد عليها أولا أنها فهمت غرضه الحقيقى ، ثم أدركت معنى ذهابه معها الى بيتها فانفجرت فى هذه المرة بضحكة عاوية غريبة تمشت فى بدنى نبذبتها كموج من صقيع ..

وقالت له :

— طيب نشرب الاول كاس كمان ..

واحسست فى تلك اللحظة يدا متوددة تستقر من خلفى فوق كتفى ، فالتفت واذا بزميلنا اسماعيل ، بكل تلك الطيبة التى تشع

من وجهه الممتلىء وعينيه النهمتين ، وكان سكران كعادته فى انقضاضه على هذا العالم ليتصيد أنثى ..

وصافحت اسماعيل وانا أشعر أن عبد الرحمن وتوحة يقفان فى صعوبة وقال عبد الرحمن لنا وهو يسند رفيقته بذراعه :

ــ عال . مع بعض بقى لحد ما أرجع لكم .. كلها ساعة .

ومشى بها وصوت اسماعيل عابد النساء جميعا يثقب أذنى :

ــ ايه دى ؟ .. منين دى . .وقع عليها ازاى دى ؟

ولكن المرأة لم تكد تمشى خطوات حتى تهاوت ، فأصدر اسماعيل من أنفه صوتا اشتهر به ، وحمل عبد الرحمن صيده حملا وخرج به وتركنى فى قبضة فضول اسماعيل ..

والموسيقى تصرخ وتعول .. ونعيمة زغزغ الآن تتلوى على المسرح فى رقصتها الثانية والاخيرة بكل عريها الرخيص المنفر .. وصاحبى اسماعيل يعذبنى باستفساره الملح عن تلك المرأة .. هل سنراها بعد ذلك ؟ وهل أعرف المكان الذى أخذها اليه عبد الرحمن ؟ .. وكيف حال الجو الليلة ؟ وهل أنجزت أنا الاتفاق مع شوشو المرابطة معنا من أول الليل أم أن خيبتى ثقيلة ؟ ..

وربما كان قد مر ربع ساعة قبل أن يظهر عبد الرحمن مرة أخرى فى الباب ــ كالقذيفة المنقضة ــ ويناديني ، بصوته العريض ، من فوق الموائد المكتظة بالرجال والنساء ..

وكانت عودته غريبة ، ولهجته خطيرة ، وفى مظهره جد عجيب طارىء ، فأسرعت اليه تاركا لاسماعيل ، فتى الليالى ، متعة مسامرة الراقصة ذات اللحم الابيض ..

ــ ايه يا عبد الرحمن ؟ ..

ـــ ادفع بسرعة وتعالَ .. انا فى التاكسى على الباب ..

لوحت لاسماعيل بيدى ليفهم انى عائد بعد قليل ، ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم ، فخطر لى أن هذا هو اسماعيل الذى توقظ ريبته دائما كل مسألة تتعلق بالنقود ، وانه لا شكَ يخشى على عادته ان يكون فى الأمر مقلب مدبر له من ناحية دفع الحساب .. فأعطيته بقبضتى المشتبكتين عهدا اطمأن به قليلا واسرعت الى التاكسى الذىكان بابه مفتوحا فى انتظارى ..

ـــ مالكَ ؟ ..

ـــ اركب ..

ـــ رايحين فين ؟

لم يجبنى عبد الرحمن ، بل صرخ فى السائق :

ـــ لف بنا على كيفكَ شوية يا اسطى ..

وهنا لمحت فوق الدواسة فى ارضية السيارة جسما جامدا منكمشا على نفسه فى غموض ..

ـــ الله .. دى .. دى توحة ..

ـــ أيوه .. دى توحة ..

لم أدخل التاكسى ، وطارت الكؤوس التى شربتها من مخى ولم اعد ادرى ماذا أتصور ..

ـــ مالها ؟ حصل ايه ؟

وتنهد عبد الرحمن ومسح على جبينه بيده المشعرة العصبية :

ـــ حصل ايه .. فى التاكسى أول ماسبناكَ ابتدأت تضحك . تضحك .. تضحك زى المجنونة .. وسابتنى أبوسها زى ما انا

عاوز .. وتضحك .. عقلى بقى حايطير .. وبعد شوية وقفت التاكسى قدام عمارة ومسكتنى من ايدى وعينيها زايغة وجرتنى وراها لباب الشقة فى الدور الثانى . وحطت فى الباب مفتاحها اللى طلعته بصعوبة من شنطتها وفتحت وقالت لى وعينيها بتطق شرر : « خش يا بنى آدم » .. ومدت يدها ولعت نور الصالة .. ترابيزة اكل وحواليها كراسى .. وفوق الترابيزة .. فوق الترابيزة ..

ونفضت جسمه كله رعدة قاسية ..

وامتدت يدى بغير وعى الى خصلة من شعر المراة الملقاة فى الدواسة كالمتاع ، فأبعدتها عن فمها الذى يسيل منه اللعاب ، وسألته :

ـ شفت ايه ؟

ـ شفت كفن .. وعلى الكفن شفت بنت صغيرة عمرها يجى اربع سنين ، ميتة !!

ـ ميتة ؟

ـ ميتة يا اخى .. ميتة .. وامها .. الجنون ضحك لى فى عينها وهجمت على وصوابعها كانت حاتخرق عينى وهى بتقول : هى كل من شربت كاسين علشان تنسى بلوتها تبقى صيدة .. وجت تضحك تانى رحت طابق بكفى على بقها وجريتها على السلم بعدما رزعت الباب قفلته على اللى متمددة فوق كفنها مستنية الصبح والحانوتى .. اغمى عليها فى السلم .. شلتها فوق كتفى ورميتها فى التاكسى ده .. اهيه .. اهيه .. بص .. اسمها توحة ..

وهنا كان صاحبنا اسماعيل قد ظهر على باب الملهى ورآنا فانقض على نافذة التاكسى وثقب اذنى صوته الثمل وهو يقول لنا :

ـ مين حايدفع الحساب ياجماعة .. !!

عمـــق الصـــوت

هى : كل هذا الصمت ..

هو : هل خيبت أملك ؟

هى : انى اعجب لصمتك .. أما تقول شيئا ؟

هو : أتراك كنت تنتظرين فى شخصى ثرثارا عظيما ؟

هى : لا ، بل محدثا بارعا .. وما أحب الثرثرة ، ولكنى لما قيل لى انى ألقى اليوم ذلك الكاتب الذى عشت طويلا فى قصصه ، أعددت نفسى فى طريقى الى هذه السهرة العائلية للاستماع الى ما لا أذن سمعت ولا نفس وعت .

هو : نعم .. هذه ياسيدتى العزيزة هى المشكلة الدائمة ، وان الأمر لينتهى دائما بصدمة .. وأكبر ظنى أن الكاتب لو اصطنع لكل من يلقاه من الناس أول مرة شيئا من الاســـــتاذية الحكيمة والببغائية المتعالية لفاز برضاه واعجابه ، وربما بهره أيضا ، فما أشد ولع الناس بأن يبهروا .. ولكنى لا أعرف الا الصدق فى ظاهرى وباطنى ، ولا أعرف أن أتخذ لمن ألقاه مظهرا لا صدق فيه ، وأنا بطبعى رجل صامت ينطوى على نفسه فى تأمل أو يرقب الناس فى فضول .. والصمت البليغ عندى حديث كامل ولغة ، ولكنه حديث الأقلية ، وليس من سبيل الى فرضه على الناس كافة .

هى : انما خلق الناس ليتكلموا ..

هو : لو أحصيت السنين التى يضيعها الناس فى لغو الثرثرة لوليت من مجالسهم فرارا الى عمق الصمت .

هى : ولكنك تسكت فتطيل السكوت ، وتسمع وكأنك لا تسمع .. الا تهز نفسك نكتة رائعة ؟ .. ألا تعرف كيف تطرح عنك ذات ساعة همومك ومتاعبك وأفكارك وتخلص نفسك للمرح وحده .. مرح الصبية اللذيذ الغامر .. أو مرح الخالين من الهم ، الناعمين بالعيش ؟ .. انى ما رأيتك منذ ساعات تضحك من القلب ..

هو : ان لبعض النفوس ياسيدتى هموما عميقة سحيقة الاغوار ، ومن الظلم للناس أن يحدثهم صاحبها بها ..

هى : أما فى هذه فأنت على حق .. وهل يعرف الهم الا من يكابده ..

هو : قد ينتفض الهم على سن القلم ، ولكن للقلم نفسه حياءه ، فما بالك باللسان .. ومن للناس بسر من يطوى النفس على أمله السحيق ، ويقتات فى ليل الجراح وصمت الوحدة بالعميق الحارق من الأشجان والأحزان .. وبعض الناس أدرى من بعضهم ياسيدتى بالألم ..

هى : ملأت نفسى حزنا على هذا الصنف من الناس .. الذى لم ألق منه أحدا .. الا حدثنى عن هذا !

هو : يحكى ياسيدتى أن رجلا كان له مخ من ذهب ..

هى : أهى أسطورة تلهينى بها ؟

هو : بل قصة حقيقية ، على ما قد يبدو لكَ من غرابتها .. وانى اقصها عليك واناشدكَ ان تسمعى بقلبكَ ، فهى باب افتحه لك لتنظرى منه الى آلاف من المساكين قد تختلف قصة كل واحد منهم فى بعض تفصيلاتها عن هذه القصة ، ولكن قصصهم جميعا لا تخرج عنها فى صميمها .. هو اذن رجل كان مخه كله من ذهب وقد فحصه الاطباء الجهلاء صبيا ، فما فطنوا الى حقيقة أمره .. وقد زعموا لأهله يوم ولد أنه لن يعيش فما يعيش فى دنيا الناس مخلوق له هذا الرأس الضخم الثقيل الذى لم ير له الناس مثيلا .. ولكن الرجل ذا العقل الذهبى عاش .. عاش يجذبه رأسه الكبير ، ويقوده بين البشر ، وكأنه يجره جرا ويدفعه دفعا ، فيمضى متعثر الخطو يكاد يظن به الناس الظنون .. وذات يوم سقط من أعلى السلم فى بيت أهله ، فصدمت الدرجات الرخامية جبينه الذهبى صدمة انبعث منها رنين المعدن الصافى . فهب أبوه . وهبت أمه .. واقاماه من سقطته وقد شجت رأسه ، فاذا به قد سالت من جرحه اليسير نقطتان أو نقط ثلاث من . الذهب . وقال أهله وقد علموا أن له مخا من ذهب : ليكونن قرة أعيننا أسعد أهل زمانه ، بل أسعد من عاش على الأرض من البشر .. ولعلكَ ياسيدتى تخمنين ما كان عند ذاك من أمر أمه وأبيه .. فقد كتما عن الناس أمره ، وادخراه سرا وكنزا ..

هى : والصبى السعيد ؟

هو : أما الصبى المسكين فانه لم يعلم يومذاكَ عن حقيقة قدره شيئا فاذا بدا له أن يسأل أمه عن سر منعها له من اللعب مع رفاقه ، اجابته الكانزة بقـــولها : لئلا يسرقك اللصوص يا كنزنا الغـــــالى !

هى : وهل تلقى الكنوز فى عرض الطريق ؟

هو : وعرف المسكين معنى الوحدة صغيرا .. الوحدة فى أهله ، والغربة فى الدنيا .. وعلمته الوحدة تحت ثقل راسه ان يطرق فيطيل الاطراق ، وان يتأمل فيحسن التأمل .. فلما بلغ من عمره الشباب حدثه ابوه ذات يوم وامه تسمع بالسر العظيم .. وقرا العقل الذهبى فى عينى امه لمعة الجشع المروعة فروعه كنزه ، وبكى بين جنبيه قلبه ، فما كان يحسب ان تكون امه اول الطامعين ، وما كان يدرى انه أحد الموعودين بأن يعصروا للناس قلوبهم ، فامتدت يمناه المتشنجة ، ومن راسه اقتلعت اناملها الحزينة المعولة قطعة من الذهب الحر الوهاج والقتها فى حجر امه ..

هى : لو كنت أمه .. !!

هو : وبهرته قوته الوهاجة الجبارة ، ودار براسه ثراؤه العريض ، وثملت روحه حينا من الدهر بخمر الغنى والسلطان ، واستبدت به فى زهرة العمر نوازع الشهوات ، فمشى على الشوك واحتضن الخطايا .. وهجر بيته وأهله .. ونثر فى دروب الحياة من ذهبه ، كريما فى سفه ظمآن فى جنون .. خيل اليه أن كنزه لن ينضب .. نثر الذهب ذات اليمين ، ونثر الذهب ذات الشمال ، ونثره فى كل أرض بدون حساب .. وهل من نبع ياسيدتى لا يغيض؟ ولكنه الشباب ياسيدتى .. وآه لو عرف الشباب .. فلما قام المسكين من نومه ذات صباح ، بعد ليلة أشبعها مجونا وعبثا وزواها متعة ونعيما ، خفت على يده راســـــه ، ونطق فى عينيه ذبوله ، وارتعش فى ضميره ضعفه .. ونظر حوله فاذا هو وحيد بين أطلال السهرة وأطياف الشهوة وبقايا الشراب .. وحيد كأنما ضربت من حوله صحراء من جليد .. من شر الفناء استغاث برب كان فى سوق الخطايا قد نسيه .. واذا الذى نسى ربه يتضرع اليه ويناجيه لئن أبقيت لى سؤر كنزى لأكبحن شره نفسى المحسورة ، ولأقبضن عن السرف السفيه يدى ..

هى : لو كنت امه لما تركته النساء يفترسنه ..

هو : لقد علمته الحياة ما لم تعلمه أمه ، فعافت نفسه اللذات واعتزل الناس ، وغلت يده الى عنقه ، وسرى الشح فى دمه .. اذا دقت الفتنة بابه نام عنها ، وقصرت يده عن راسه ، وتعلمت اناملة الصبر على بعد الذهب ، ولكن قلبه الملهوف الظامىء لم يلبث أن عشق أنثى أولعت بالطرائف الثمينة والأشياء الغالية والترف الداعر وزينة الحياة الدنيا .. كان محبا مخلصا ، وكانت غاوية ضلت سبيلها .. اذابت بين أناملها أكثر ما بقى له من ذهبه ... وظلت تحاوره وتستدرجه حتى باح لها بسره .. لتلك التى كانت ، اذ يحبها ، تأكل راسه .. وان هى الا أيام حتى هب المسكين من نومه ذات ليلة على ألم شديد فى رأسه ، كى يشهد فى ضوء القمر حبيبته وهى تعدو هاربة وفى قبضتها قطعة أخرى اقتلعت بالدم من مخه الذهبى ..

هى : حـــــرام ..

هو : ولم يبق اذن من المخ العجيب غير بقايا .. حبات وذرات فى حنايا الراس وحول العظام .. وكان ينتظره بعد ذلك الهول الاكبر .. حبه الصادق الشريف الكبير .. فقد عرف عاطفة بكرا لم يهتف بها من قبل قلبه على طول ما عرف النساء .. وخرج كالمجنون الى شوارع المدينة ، يفكر فيمن أحب فى حزن كسير ، ويجرع غصص الندم على كنز اضاعه فى كل سبيل .. وكان الليل .. ورأى فى واجهة حانوت مضيئة بالنور زينة النساء ، ثيابا ومتاعا وحليا ، وبينها حذاء لطيف من الحرير الأزرق .. وبدا للشريد المسكين الضائع أن هذا الحذاء الرشيق انما صنع لينعم بدفء قدم الحبيبة .. فتحسس راسه فى وجل .. ولكن تردده لم يطل ، فحزم أمره ودخل الحانوت على حين كانت صاحبته فى ركن منه

قصى .. ولكنها مالبثت أن سمعت صرخة صارخة مروعة ، فأقبلت فى ذعر .. ثم أدبرت فى رعب .. فقد وجدت أمامها رجلا يوشك أن ينهار ، وفى عينيه المحملقتين اليها نظرة تفيض بعميق اليأس وساحق الألم . .فلما نظرت الى يسراه أبصرت الحذاء الأزرق الجميل على حين كانت على يمناه المبسوطة نحوها بضع حبات من الذهب المخضب بالدم ..

هى : حقا انه مسكين ..

هو : فاعلمى اذن أنهم كثيرون ، وأن كل واحد منهم يستحق منك هذه الهمة الراحمة .. كثيرون أولئك الذين ينظرون فى صمت ويتأملون ، ويتألمون .. أولئك الذين بمشون على الأرض هونا ، ويخلفون فيها عطرا ، والذين كتب عليهم أن يعيشوا من عصير قلوبهم .. ولعلك تعلمين الآن ياسيدتى ، وقد استمعت الى تلك القصة القديمة الحية ماذا يفعل المسكين من أولئك المساكين عندما تطحنه الرحى فيسحقه الألم ويسأم الحياة ..

بـلا سـيف

أستطيع أحيانا أن أتصور ما كان للموسيقى حتما من جمال خارق فى الزمان القديم الساذج ، عند فجر البشرية ، وهو الزمان الذى كنت أحب أن أعيش فيه ..

أتصور أن أول جماعة من البشر التقوا بواحد منهم يضرب الوتر فينفث أنغامه الفطرية قد ضجوا بين يديه بالبكاء فى فرح قدسى وخروا له ساجدين ..

ومنذ ليال ، وعلى دقات الطبل يقرعه المارد الزنجى القابع على الأرض أمام نار الحطب ، فى ذلك الملهى القاهرى المعروف ، برزت الراقصة الزنجية « زامبا » بقوامها الفارع المهتز كضبابة ابنوســــية مرحة ، وعلى أساريرها وفى أعطافها فرحة فطرية بالانطلاق والحرية ، فكأنها البركان يتوثب ليطلق الحمم ، وكأن عينيها العاصفتين المتكبرتين تبثان من حولها حياة جائشة دافئة ، وكأن خصرها ينثر فى كل انتفاضة مرسومة فكرة مجسمة ، وكأن أعضاء بدنها الملهمة على وقع النغم الفطرى تصور فى صمت معجز أدق خلجات النفس وأصدق نبضات الروح ..

ورأيت الزنجى قارع الطبل ، فى احدى لفتاته ، وقد افترت شفتاه المكتنزتان عن أسنانه البيضاء المنسقة ، يلوح بيمناه لصديقى

الذى يشاركنى مائدتى بدون أن تنقطع الصلة السحرية العجيبة بين يده الاخرى والطبلة ..

قال : ان « زامبو » صديقى .. صديقى منذ عهد بعيد ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول لى : عرفته فى باريس قبل الحرب .. وهو فيلسوف ، وفنان ، وانسان ..

وأتمت « زامبا » رقصتها الفطرية الجميلة وانحنت لجمهورها ثم اختفت وراء الستار ومعها زميلها قارع الطبل ، فلما عدت بعد قليل من حلبة الرقص وجدت صديقى الذى تركته وحده يجلس بين قوسين من « زامبا » و « زامبو » وقد صار كلاهما فى ثياب العصر .

وكان واضحا أن هذه لم تكن المرة الاولى التى يروى فيها « زامبو » قصته لغريب ، خضوعا منه لرغبة صديق .. ولم ألبث أن تبينت أن العازف الزنجى الذى يوشك أن يبلغ الأربعين رجل يحب أن يستخلص من الوقائع عللها ، ومن الأحداث عبرتها ..

لقد أنفق طفولته وشبابه فى أرض لا سلطان لأحد عليها ، عند أحد أطراف اقليم من أقاليم القارة الافريقية السحيقة التى يوطد الرجال البيض أقدامهم فى ربوعها .. وكانت الأرض بكرا ، ولا تدفع ضريبة ، ولا تفتح لأى أجنبى دخيل قلبها البتول ، ولا تقر لغير أهلها السود الأحرار سلطانا ..

وكان « زامبو » سيد مقدراتها ، وزعيم شبابها . .

ما من رجل أبيض واتته الجراة على اقتحام حدود الأرض الأبية الا وجد نفسه تحت رحمة رماح « زامبو » وأعوانه الأشداء .. وهكذا عاشت القبيلة ذات الشوكة والبأس .. عاشت على الحرية والأمن ، وعلى المنعة والرخاء .. خيرات موفورة ، ورجال

من المحاربين الاشداء أولى العزم والكبرياء ، وأطفال ســـــعداء يمرحون أمام الاكواخ ، ونســـــاء جميلات نهودهن المكورة على صدورهن كأنها أحقاق العنبر ..

ولكن البيض لم يلبثوا أن ضاقت عزتهم بتلك الأرض المتمردة العاصية ، فى قارة تنتشر عليها من اقصى الشمال الى أقصى الجنوب ظلال سلطانهم .. كيف لا يبسط سلطانهم سطوته المرهوبة على تلك الرقعة الصغيرة من الأرض المدلهة قلوب ســـــاكنيها بحب الحرية ؟ .. وتناهى الى « زامبو » ورجاله نبأ ما يبيتون ، فأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة فلما أقبلوا عادوا بجرحاهم ، وخلفوا للابطال السود قتلاهم ، والأسرى ، وأمجد الذكريات .. ومرت الاعوام ..

ثم سمع الزعيم أن تلك المملكة من ممالك البيض قد بعثت الى الرقعة الواسعة التى تحكمها من القارة السوداء قائدا جديدا يتوم ننه الجديد على مكر الثعلب ، وخفة النسناس ..

وتبسم « زامبو » عن أسنانه المنسقة البيضاء ومد يده الى كأسه الثالثة وهو يغمض عينيه الجميلتين اليقظتين كأنما يسترجع فى ظلام الجفون المطبقة تلك الأحداث البعيدة .

ــ وجاء من قومنا من يحدثنا بمدينة مسحورة أقامها البيض فى كبرى المدن التى يحتلونها من وطننا ، بناء ضخم فيه ألف شىء وشىء مما ابتكرت الحضارة وصنعت المدنية ، ومما يباع ويشترى وكل ما فيه رائع وجميل من البندقية الى المرآة ، ومن القرط الى المحراث ، وفيه فوق ذلك كله جياد خشبية تدور وتدور ، وأراجيح تعلو وتهبط ، ومغنيات ليس أجمل من أصواتهن ، وراقصات بيض حور حسان ليس أشهى من وصالهن .

وكان من الطبيعى أن ينتشر هذا النبأ فى قومنا كما ينتشر الجراد فى الأرض المنكوبة ، من الشمال الى الجنوب ، ومن الغرب الى الشرق .. فلما خفت تمرد رجالى بعثت الى القائد الأبيض برسول يسأله : أيستطيع « زامبو » وحاشيته أن يحصلوا على كلمة شرف تخول لهم زيارة المدينة المسحورة والعودة منها بدون أن يتعرضوا لخطر أو غدر ؟ .. وعاد الرسول يحمل الى اجلال القائد واغتباطه بهذه الزيارة الميمونة ، ووثيقة شرف يتعهد فيها بحمايتنا من كل سوء حتى نبلغ بعد زيارة المدينة مأمننا من وطننا ..

وهكذا ، فى صباح من الربيع ، دخلت فى طليعة رجالى تلك المدينة التى يسود البيض فيها السود .. وتلقتنا بالتحية بعثة ترحيب بيضاء . وقضينا أياما جميلة فى الاستمتاع بروائع الحضارة المجلوبة من أقصى الشمال ، ثم استبد بنا الحنين الى الاوطان ، فعاد موكبنا يخترق شوارع المدينة ، واذا بالقائد الابيض نفسه ينتظرنا فى الميدان الكبير لكي يؤدي لنا بنفسه تحية الوداع .. ولم يكن معه حرس وانما وقف الي جانبه رجل أبيض آخر فى ثياب مدنية كان يشرف علي قطيع من العمال الوطنيين يعملون دائبين تحت الشمس فى مبنى جديد يرسون قواعده . ولقينا القائد الابيض بتحية عسكرية ، ثم قدم الى زميله قائلا انه « المهندس » القدير الذى يقيم هذا المبنى الجديد ، وان صاحب المبنى من ابناء جلدتى الأغنياء وسوف يكون بيته هذا من ثلاث طبقات ، كأنه ثلاثة بيوت ركب بعضها بعضا بسحر ساحر ..

فسألته فى دهشة لا مزيد عليها :

ـ ثلاثة بيوت لأسرة واحدة ؟

قال في هدوء واقبال :

ــ بل لثلاث أسر ، تدفع كل واحدة منها عن سكناها أجراً كاملا ..

ــ يدفعون لمن ؟

ــ للمالك طبعا ..

ــ ومن هو « المالك » هذا ؟

ــ أى مالك .. كل مالك .. أنت مثلا .. تتفق مع هذا المهندس البارع وتدفع له نفقات البناء وأجره البسيط ، بعد أن تكون قد دفعت « للحكومة » ثمن الأرض . .ولكنك لا تلبث أن تحصل على كل ما دفعت له وللحكومة ، من الأقساط الشهرية التى يدفعها لك السكان ..

ــ فهمت .. وهل يسع « المالك » الواحد أن يبنى أكثر من بيت واحد ؟ ..

ــ بكل تأكيد .. أى عدد من البيوت تتسع لتشييده موارده .

ــ فهمت ..

اجل .. كنت قد فهمت حقا .. وبلغ من فهمى أننى لم أعد قط الى أرض آبائى وأجدادى .. تركتها نهبا لمن يطمع فيها ..

ورفع « زامبو » كأسه الرابعة الى شفتيه ، ثم رنا الى زميلته « زامبا » وقد ضحكت فى عينيه الجميلتين ابتسامة حزينة وديعة :

ــ لن أنسى ذلك الثعلب الأبيض الداهية الخبير بطبائع النفوس .. انه لم يشهر فى وجهى سيفا ، ولا أقبل على أرضى

يسخب مدامعه ، ولكنه بكلمة واحدة قد استطاع أن يجعل من الثائر الوطنى مالكا يشار اليه بالبنان ، ومن الاقليم المتمرد أرضا خاضعة يسودها الهدوء ! .

وتولتنى الحمى فى المدينة ، فكم من أراض اشتريت وكم من عمائر بنيت ! .. لا ثلاث طبقات فحسب ، بل خمسا ، وستا وكم من قوم أسكنت فى بيوتى ، وكم من أجور دخلت خزائنى ! ..

ولاذ بالصمت مرة أخرى ، وكأنما يسألنى أن اتصور وحدى باقى القصة وعاد يسترجع فى ظلام أجفانه المغمضـــة ذكريات ماضيه ..

وكان يمكن أن تنتهى الحكاية عند هذا الحد ، لولا أن لمحت صاحبته فى عينى سؤالا حائرا فتولت هى الاجابة عنه ..

ــ ولماذا اذن يطـــوف اليوم بمدائن العالم ، مع طبلته وراقصته ؟ .. تلك هى قصة المدينة التى تسترد بالشمال ما منحته باليمين .. لقد علمته بعدئذ كل شرورها واذابت أمواله فى مباذلها وظلماتها .. وليس يأسى « زامبو » العزيز على شىء مما كان له .. ان كل همه الآن هو أن ينسى وأن ينيم ضميره فى حباب الكئوس المترعة .. ثم يعمد الى طبلته فيدق عليها أمام نار الحطب بأنامله الملهمة ، وانهض أنا « زامبا » زوجته فأهز أمام السادة المترفين والسيدات الرفيعات نهودى العنبرية وأردافى الأبنوسية ، ونكسب بذلك عيشنا ..

اننا اليوم ياسيدى ، قوم متمدنون .. !!

لقـاء تحت المصـباح

كان لقاءا على غير ميعاد ..

ولو كنت أقل ايمانا بسلطان المصادفة ، لهزتنى عندما لقيت فى الليلة الماضية ذلك الفنان البوهيمى الصديق دهشة بالغة ..

ليلة البدر ، ولكن فى السماء سحبا ثقالا ، مسفية دانية .

ومن المصباح القائم على واجهة ذلك البيت المظلم الساكن فى الضاحية الوادعة من ضواحى القاهرة ، كالنور المطمئن الحالم ينبعث فى صفاء هادىء ، وينير لى ساعة الوحدة التى هربت اليها من ذلك الملهى الأنيق الذى تعتز به تلك الضاحية والذى أنفقت فيه الساعات الاولى من الليل ، مستمعا الى الموسيقى والغناء ، ومتأملا الوان الرقص وصنوف الناس — من أجانب ومصريين — ممن جاءوا الى المرح العصرى الصاخب يقتلون الليل ..

— معذرة ..

وكان الصوت الذى هتكت نبرته المهذبة ستر الوحدة من حولى لشاب وسيم تتدلى فوق جبينه الأسمر خصلة من شعره اللامع الأسود ، وتبرز من تحت قميصه الحريرى الأزرق المفتوح عن صدره فى الليل البارد عضلاته القوية الصلبة .. وكان قد بزغ فجأة من

حيث لا أدرى ، يريد أن يشعل من سيجارتى سيجارته .. وكان فى هيئته ما يوحى للوهلة الاولى بأنه أجنبى ، فلما كرر رجاءه تبينت فى لكنته الخاصة اذ ينطق الفرنسية ما ينم عن أصل اسبانى ..

وسقط نور المصباح على وجه الشاب وهو يشعل السيجارة من عود الثقاب الذى قدمته له مشتعلا بين راحتى المضمومتين ، فخيل الى من فورى أنى أعرف هذا الوجه وأحسست أنى رأيته من قبل ، فى مكان ما من الأرض ، ومن الماضى ، منذ أعوام لا أدرى عددها ..

ورفع بصره الى وجهى ليشكرنى ، فأومضت فى عينيه السوداوين بارقة دهشة ، وحدق فى وجهى قبل أن يقول لى وفى ملامحه أمارات محاولة شبيهة بمحاولتى للعودة بالذاكرة الى الماضى :

— ايها السيد .. ألم نلتق من قبل ، فى زمان بعيد ؟

قلت ، سبقتنى بالسؤال .. ولكنى لا أدرى .. أن لى ذاكرة متعبة .. ولكنى مثلك واثق أننا ، قبل الليلة ، التقينا .

قال : دعنى أقدم لك نفسى .. ربما كان فى ذلك ما ينعش ذاكرتينا ، ويبعث الماضى حيا . بدرو .. بدرو الراقص وعازف البانجو .. مدريد حتى ١٩٣٥ ، فرنسا من ١٩٣٦ الى قيام الحرب .. كباريه «الجبسى» بالحى اللاتينى .. مونمارتر فى ليالى المعرض الدولى . بدرو وأنغامه الغجرية وزميلته التى كانت تراقصه أو ترقص وحدها على أنغام البانجو التى يعزفها .. دعنى أذكر اسمها فانكم معشر الشرقيين تذكرون النساء دائما دون الرجال .. « ايزابيلا » .. ايزابيلا السمراء كورقة التبغ ، الرقيقة كنسمة الفجر .. « ايزابيلا » ذات الصاجات والدف والعينين البديعتين بلون الشهد ..

وصدق البوهيمى الفنان ، فانه لم يكد يرسم لى تلك الصورة السريعة بصوته الدافىء الأسمر واشارات يديه اللاتينية المعبرة حتى انبعث من احد اغـــوار ذاكرتى ذلك الماضى كله دفعـــة واحدة ، بكل دقائقه الهاجعة تحت اثقال السنين ، وشجى العيش .. كأنما مر ذيل ثوب « ايزابيلا » الأسود الموشى برقائق الدنتلا الحمراء على صفحة ذاكرتى فنقش فوقها سطور الماضى حية تتكلم .. وصحت وانا أقبض على كتفى « بدرو » فى حماسة منفعلة :

ــ بدرو .. نعم الآن عرفتك .. ياصديقى العجوز .. اربعة عشر عاما ، عمر آخر يا « بدرو » .. انى الآن اذكر كل شىء .. نعم ، كل شىء ..

ــ أجل .. لما لوحت لك انا بصاجات « ايزابيلا » ، أيها الذئب المصرى العجوز ..

ــ قل لى يا « بدرو » .. ماذا جئت تفعل فى بلادنا ؟

ــ وهل لى صناعة تعرفها غير الرقص ، والغناء ، والعزف على البانجو ؟

ــ اين ؟

ــ فى هذا الكباريه القريب .. وانت .. ماذا كنت تصنع هنا وحدك فى الليل ؟ .. تطارد ظبية شرقية ناعمة من ساكنات هذا البيت .. وتحت المصباح تغنى لها ، وقد انتصف الليل ونام الناس ..

فرفعت له يدى اليمنى وحركت اناملى أمام عينيـــه فى نور المصباح ..

ــ لا يا « بدرو » .. انظر .. الا ترى أن حقي فى القنص قد سقط برغبتي ورضاى ؟

وهاج « بدرو » فى الشارع الساكن وماج :

ـ رباه .. القيد القيد .. لماذا صنعت هذا بنفسك يا .. الا تقول .. لى اسمك ، فقد نسيته كما كنت نسيت اسمى .. آه نعم .. هو هذا وكنت تحب أن تسمع « ايزابيلا » وهى تناديك ، لأنها دائما كانت تنطق اسمك ملحونا ، وكان اللحن يعجبك .. حدثنى الآن ، عن تلك التى استطاعت أن تضع فى أصبعك هذا القيد الرهيب ·· كيف حدث هذا ·· لقد كنت حرا كالهواء ياصديقى .. ولكن .. أتسكن هنا ؟ .. لا ؟ .. فما الذى جاء بك اذن الى هذه الضاحية فى منتصف الليل ؟

ـ كنت هناك فى الملهى .. ولكنى خرجت منذ ساعة انشد راحة اعصابى فى الوحدة والهدوء .. ان تلك الموسيقى الصاخبة البربرية يابدرو تقتل سكينة النفس ..

ـ لو انتظرت ربع ساعة لرأيتنى وسمعت أغنيتى الجديدة التى فتنت بها القاهرة . انى يا صاحبى منذ شهر ابعث التنهدات بصوتى فى صدور هوانمكم الجميلات .. كيف لم يبلغك صيتى .. وانت أيها العجوز ماذا فعلت بك الحياة .. ؟ .. وهل حبيبتك جميلة ؟ أهى سمراء ؟ ومتى عدت من فرنسا ؟ وماذا تصنع فى وطنك ؟

ـ اكتب ..

ـ آه ، نعم .. اذكر الآن احاديثك لى ولايزابيلا عن القصة والفن والاسلوب العربى .. وهل بلغت فى دنياكم هذه العجيبة شيئا من النجاح ؟

ـ لا يا « بدرو » .. لا تحاول أن تغرينى الليلة بالحديث عن حاضرى ونفسى ·· تعال نعش فى الماضى ·· فى ذلك الشىء

الجميل العريق الذى بعثه لقاؤنا هذا الجميل العجيب .. «ايزابيلا» .. أهى معك هنا ، حبيبتك السمراء الفاتنة التى كانت تحبك حبا من السماء ؟ .. لكم أشتهى أن تقول لى : « نعم هيا بنا اليها .. فأعود معك من فورى الى الملهى لاقطف من ثغرها ، فى دهشتها قبلة » ..

واطرق « بدرو » وهو يشعل سيجارة جديدة ، فلما جلسنا على الرصيف جنبا الى جنب تحت المصباح ، قال لى بدون أن ينظر نحوى :

ـ « ايزابيلا » قتلها جندى المانى ثمل فى منيارناس قبيل تحرير باريس ..

ووقع بيننا صمت عميق اليم ، وكان كلانا مطرقا يتأمل أرض الشارع وهو يجذب من سيجارته أنفاسا قوية نهمة ينفثها فى الليل .

وفجأة ، بدأ يهمهم بنغم مبهم خافت بدون أن يرفع بصره عن الأرض ..

وخيل الى ان روحى تلتقط من وراء السنين ذلك النغم القديم الذى يسترجع أخى «بدرو » فى نفسه كلماته الرقيقة الراقصة .. ثم ارتفع صوته الرخيم العريض قليلا ، واستقام له اللحن فانطلق به قلبه ولسانه وليس ثمة سواى من يصغى اليه الا السحب القريبة وذلك المصباح فوق رأسينا :

الليل يا « ايزابيلا » !

الرقص يا « ايزابيلا » .

أيتها السمراء كورقة التبغ !

العذبة كنسمة الفجر .

يامن تذكرنى عيناك بالشهد .

ويلفني شعرك كما يطوى الليل السر !

هذه ساعة الرقص فقومى وارقصى !

الليل يا « ايزابيلا » .. !

الرقص يا « ايزابيلا » !

هزى الدف فى يمينك ..

وارفعى بيسراك ذيل الثوب ..

وميلى أمام ابصارنا المفتونة واخطرى ..

انك حلم ليالينا ، وقصة هوانا كلنا ..

وهذه ساعة الرقص فقومى وارقصى !

وسكت « بدرو » وعاد ذلك الصمت يغيش عميقا خيا تحت المصباح ..

كانت الأغنية القديمة قد حملتنى الى صفحة بعيدة من صفحات الماضى النائية .. الى ليلة عشتها منذ أربعة عشر عاما فى قرية صغيرة على ساحل فرنسا الجنوبى .. ليلة عيد انقلب الليل فيها نهارا ، وضجت عذارى القرية طوالها بالغناء ، وأرسلت أجراس كنيستها الصغيرة العتيقة الى السماء ضراعاتها المعدنية من خلال البرج القديم ، على حين كان تمثال ربة الغجر ، فى محراب الكنيسة المزدان بالأزهار والشموع ينتظر القرابين ..

الليلة السحيقة ، كأنها كانت منذ قرون ..

ــ كنت يومذاك سائحا فى الأرض جواب آفاق ، أحيا دائما كما يحيا أولئك الغجر انفســــهم ــ حياة القافلة .. وكنت فى ربيع عام ١٩٣٦ ، الرجل الوحيد الذى دخل الكنيسة الصغيرة بدون أن يحمل قربانا ..

قلت لصاحبى « بدرو » تحت المصباح :

— اتذكر يا « بدرو » ؟ .. انت وانا راكعين أمام التمثال فى محراب الكنيسة الصغير ، وبيننا « ايزابيلا » ترتجف شفتاها بدعواتها الخافتة المتصلة ، ومن حولنا جموع الضارعين والضارعات وقد وضع كل غجرى ما حمل من القرابين أمام تمثال تلك العذراء شموعا موقدة .. وأحذية أطفال .. وقطعا رقيقة من الوشى .. وصورا فوتوغرافية للأحبة .. أين كانت نائمة فى أعماق نفسى هذه الصورة الحية البديعة ؟ .. فى السهول الخضراء المعشبة ، وعلى الطريق البيضاء المتألقة فى ضوء القمر ، تلك المواكب الغريبة من نساء عقدن خصورهن بالمناديل الحريرية ذات الالوان الفاقعة ، وتدلت من آذانهن الاقراط الضخمة ترقص حلقاتها على أكتافهن ، ورجال من عشاق الحرية الوثنية ، من كل شريد فى أطراف الأرض يقضى عمره على قدميه ، أو فوق صهوة جواد لا يعرف له هو الآخر وطنا . أو فى مركبة من تلك المركبات الضخمة التى تجرها جياد هزيلة عجفاء ، وتمضى كالأفكار الهائمة فى السهول والوهاد على أنغام قيثارة غجرية تنوح وتشكو فى الليل ..

قال « بدرو » وبصره عند شريط الأفق الراقص تحت نور البدر ، هناك بعيدا فى ثغرة بين بيتين بعيدين من بيوت الضاحية المصرية النائمة :

— كانت « ايزابيلا » تحب هذا الهيام تحت قبة الليل .. وكانت تغنى ، وكانت ترقص .. تغنى الحياة وترقصها .. وكانت تقول انه ليس من حق أحد أن يسألها من اين هى قادمة ولا الى أين هى ذاهبة فليس لأحد أن يسأل الشهاب المنطلق فى كبد السماء : لماذا يجول فى الليالى الزرقاء ؟ ..

مع ذكراها الطيبة عشت مع مواكب الغجر وقد اقبلوا من كل صوب يحملون النذور والقرابين الى ربتهم العذراء التى يحجون اليها من قديم الزمان ، كما يحج المسلمون الى مكة والمسيحيون الى بيت المقدس .. انها عقيدتهم ووجدانهم ورمز غرامهم العميق الكبير بالحرية ، أخت الفن .. ان الجنون بالحرية هو دينهم ..

وعشت تحت السماء الزرقاء وفى ضوء القمر مع صبايا الغجر المترنمات بأغان تضطرم بالغزل الجرىء الملتهب ، أو تفيض بالحزن الذليل المنكسر .. وعشت مرة أخرى مع ذلك الغلام البوهيمى الصغير الذى رأيته يحمل « مندولينه » ويمضى الى مركبة حبيبته التى لم تتم عامها الثالث عشر ، فيقف تحت نافذتها ويرفع صوته الصبيانى بأغنية حب ، ربما كان هو نفسه واضع كلماتها وموسيقاها : « افتحى نافذتك ياحبيبتى .. وافتحى قلبك ، ليدخل عطر هواى .. واذا كان أبوك قد نام ، فليكن باب المركبة ما تفتحين » !

كان يبثها هواه والقبيلة كلها تسمع .. ولم يكن عليه من بأس ، فبعد بضع سنين يتزوجها ، وينجبان بنين وبنات ، وسيحب البنون ، وتحب البنات .

قال بدرو وهو يشعل سيجارة اخرى :

ــ كانت لنا حياتنا .. حياة جميلة، لكنها حرة .. كانت تموج فى الأغانى والالوان والعطور والانغام .. كنا نملأ الليل .. وكانت لى فوق ذلك كله « ايزابيلا » ! .. « ايزابيلا » سيدة البنات السمراوات ذوات الشعر الطويل المحلول حول النار .. انها تغنى .. انها ترقص .. انها الحب .. شعلة من حياة ، تسبح فى الجو بنشوتها ، وتسجل فى رقصاتها أوضاعا فنية جديرة بالخلود ..

قلت : حقا .. لقد كنت أحس فى بعض الاحيان وأنا أشهد رقص ايزابيلا وتلك الاوضاع البديعة التى تهديها اليها فطرتها ان الدنيا تفقد جمالا جميلا جديرا بريشة الرسام وازميل النحات ليخلد على الزمان .. ولست أنسى يا « بدرو » شعرها الأسود الطويل الثائر وراء ظهرها ، وكأنه اطار من الأبنوس يضم حسنها المذهل الفريد ..

قال ويمناه المرفوعة بالسيجارة الى شفتيه ترتعد :

ــ وأتاها جلف المانى فظ فقضى برصاصة واحدة على كل ذلك الجمال وكل ذلك الحب .. اراد منها ، هى التى لا وطن لها ، أن تخون فى جسدها فرنسا التى تأوينا ، فأبت « ايزابيلا » ، وماتت شهيدة .. رأيت صدرها الذى طالما توسده رأسى المتعب الشاكى وقد مزقته الموت ، ورأيت دمها يسيل على يدى ، حارا صارخا .. الدم الذى كنت أعلم علم القلب أنه يجرى بحبى ، وينطق باسمى .. الدم الذى صاغت أحلامه أنغامى وهمساتى .. الدم الذى أراقته على أرض منبارناس رصاصة ألمانية قذرة ظالمة ، كانت موعودة يوم صبت فى مصنعها بتحطيم قلبى .. وحياتى .. ودفنتها .. وعشت بعدها مجنونا بحزنى .. مقتاتا بلوعتى ، مترنحا بفجيعتى ..

ورفع « بدرو » عينيه المخضلتين بالدمع الى المصباح الذى يعلو راسينا ، وتأمله مليا من خلال الدموع ، وخيل الى أنى أسمع ضربات قلبه تحت قميصه الأزرق الخفيف وهو يهمس فى سكون الليل :

ــ حدثنى بعض مواطنيك عن فلسفة « المكتوب » عندكم .. حسن ياصديقى . كان مكتوبا أن يرى دموعى هذا المصباح المصرى الحالم .. قبل أن أعود لأغنى وأرقص عند البرابرة الذين اجتمعوا هناك ، ليقتلوا الليل ..

الستار الممزق

كنا قطيعا من الغرباء ينتزعون رزقهم فى الاقاليم بلا رشاقة ولا عزة ، وكانت أقدامنا المتعبة تظل فى الاحذية العتيقة أكثر من خمس عشرة ساعة فى اليوم ، فهى لا تكف عن التثاؤب الأليم كأنها هى الأخرى أفواه ذابلة ، وكانت عيوننا اذا داعبها الهواء الحر الطلق تتشكى وتطرف ، مجروحة من جمال النور .

وكان « محمد المصرى » أحد الرجال الأربعة فى الفرقة .. وفى الرواية المضحكة ذات الفصل الواحد ، التى تبدأ بها برامجنا منذ سنتين كان يقوم بدور الخواجة « خريستو خرلبو سكلاريدس » تاجر القطن الأريب الذى يلفظ الداءات كطلقات الرصاص ، وعليها نقط تثير فى جماهير الفلاحين الطيبة عواصف ساذجة من الضحك . جاءنا من حيث لا ندرى فصار واحدا من هذه الجماعة العجيبة التى تضم مع رئيسها وأعوانه ثلاث نساء ، والتى تتجول باسم الفن فى بعض أنحاء الوجه البحرى حاملة اسم « فرقة التمثيل الراقى الوطنية » .. وكان له وجه هضيم ، ووجنتان ناتئتا العظام وشدقان غائران ، وحذاء يشد بعضه من خشية الفناء بعضا فما كاد يظهر على المسرح فى سترته المهلهلة وقبعة الخوص المزرية ووجهه الملطخ بأصباغ فاقعة حتى يضج القطيع الطيب بالضحك والدعابة الخشنة،

وأذا مشى تأرجح فى الهواء عن غير عمد كورقة الشجر الجافة وهو ينظر الى الاشياء من ارتفاع مترين ..

هذا الزميل الذى لقيته على طريق الحياة كان انسانا لطيفا وكلنا أحببناه ، الرجال والنساء .. وقد لفتنى اليه أول الأمر بؤسه الصارخ ولقب غريب يطلقه عليه زملاؤه الرجال فى الفرقة ، اذ ينادونه « محمد البخيل » فى بساطة يتلقاها بابتسامة شـــاحبة منكمشة .. ومنذ التقطت غريزته اهتمامى به صار يلقانى بمودة صريحة يؤثرنى بها ، ويحنو فى أوقات فراغه على طفلى ممدوح الذى يجوب معى أرض البشر فى مهد من القش المجدول ..

طالما حاولت أن أجذبه الى الحديث عن نفسه ، ولكم وددت أن أسأله . كيف لا أراه مرة واحدة جالسا مثلنا الى طعام .. وكان يطيب لنا ، أنا وزميلتى لواحظ ، كى نحطم الجدار الذى أقامه حول نفسه وندنيه منا ، أن نداعب خجله ونخرج انطواءه .

ــ تاخد سيجارة يامحمد يامصرى ؟

ــ ما أقدرش يا مديحة يا أختى .. الحكيم محرج على .. اعصابى يا أختى ، بعيد عنك ..

ــ لا أنت يظهر بقى زى ما بيقولوا عليك صحيح .. بخيل !

وتنكشه لواحظ فى فترات الاستراحة فى عبث حنون :

ــ حا اعمل قهوة يامحمد يامصرى .. تاخد معايا فنجان ؟

ــ ممنوعة يا أختى على ..

ــ من ايدى انا ؟ ..

ــ تسلم ايدك الحلوة .. علشــــان بس ماتزعليش آخد فنجان ..

وتتأمله وهو يتذوق كل رشفة من الفنجان الفخارى الكبير .

ـــ كويسة يا محمد ؟ ..

ـــ تسلمى ياروحى .. أصل الحكيم بقى مانعنى من المنبهات خالص .. قال لى أعصابك يامحمد ، لا تروح فى شربة قهوة .. صحة مافيش يا أختى .. ربنا يسلمك ويحرس لك شبابك .

وتروح أيام وتجىء أيام ، ونزلنا بلدا وعرضنا برنامجنا ليلة بعد ليلة .. وحدث أن فتن ابن العمدة بلواحظ فبعث مع « أنيسة هشـــتك » بهدية من الفطير المشلتت ، وهمســـت لواحظ فى أذنى همسة فتظاهرنا بدعوة الجميع الى الوليمة الفاخرة ونحن نعنى قبل كل انسان فتانا المسكين ..

ـــ يللا يا أولاد .. على حســـاب أولاد العمد .. أهجم يامحمد يامصرى على خير المنوفية قبل ما يبرد ولا يلهفه الأستاذ بركات ويتاويه ..

قال الأستاذ بركات مدير الفرقة وهو يتشـــمم الفوطة التى تحتوى الوجبة الدسمة ويمهد لانقضاض الجميع عليها :

ـــ ياجماعة يمكن الفطير مش كويس على أعصاب الجدع . !

لكن لواحظ الصغيرة نافحت عن فطيرة كاملة كانت من نصيب صاحب النصيب ، سلمت أعصابه ..

ترى أين أنت يالواحظ اليوم .. كنت يوم الفطيرة ترقين من الرحمة الى المحبة ، طفلة لايزال ظل من النضرة الطاهرة يجول حائرا فى عينيها .. لاول مرة فى حياتك كنت تنتزعين قوتك . فتتعرين وترقصين فى الليل .. حكايتك كلها حكيتها لى .. لمديحة أختك الكبيرة التى عصرتها التجربة قبلك .. أمك التى أصابها العمى وهى مكبة على مكنة الخياطة فى حارة بيرجوان .. والمخلب البشرى

الذى مزق وجودك قبل أن تتمى عامك الخامس عشر .. والقروش التى تدخرينها القرش على القرش لتحققى بها ، يوما ما ، حلمك القهار : أن تعيدى الى أمك البصر ..

أكل محمد المصرى الفطيرة ، ومرت الايام والخلية دائبة وراء الستار المزق والنور الصناعى المختنق ، على عمل تؤديه فى شىء من الولاء الغامض للفن بدون تفكير ، وبدون أن نحمل معنا ندما ولا أسفا ، ولا ذكرى .. بدون أن نحس اقبال الغد ولا اقبال الشقاء ولا الشيخوخة البائسة الباردة .. لكن لنا على الأقل هذا الحق : أن يجد كل منا كتفا تؤاخى كتفه على الطريق المجهولة ويستمد من دفئها صبرا على الكفاح ..

جاء محمد المصرى مرة فجلس الى جوار مهد طفلى وغنى له ، ثم قال لى :

— أنا باحب البنت لواحظ ..

— وهى والله تعزك يامحمد ..

فانحنى يهمس بترنيمة فى أذن الطفل ، ويخفى عنى نظرته .

— ما تتجوزها يامحمد ؟

— خايف عليها ، أحمل ذنبها ، وانا مسكين ..

— اطلع يابخيل ، انت محوش ..

— ملاليم ..

— طيب لواحظ بتحوش علشان تعمل عملية لأمها .. فهمنا وآمنا .. انما انت تبخل على نفسك ليه .. حتى السيجارة ؟

— شوفى يا أم ممدوح يا أختى .. أنا يلزمنى قبل ما نخلص الرحلة دى يكون معايا تحويشة كويسة .. عشرة جنيه .. أقله عشرة .. ولحد دلوقت ، بينى وبينك ، بقيت ململم قولى سبعة قولى تمانية ..

مكنت صغيرى من ثديى وعدت أناقش زميلى ..

— ليه ؟ .. لازم حاتشبك الحبوبة ؟ ..

— أبدا .. لواحظ أنا عارف أنه حرام أتجوزها وأشيلها همى فوق هم أمها .. انما أحكى لك وانتى تفهمينى .. بقى أنا عندى اتفاق أشتغل فى رحلة الصعيد الجاية مع فرقة الكوميدى الكبير بتاعة المسيرى من أول نوفمبر .. واحنا قولى حانشـــطب ونلم عزالنا فى أواخر يونية .. يعنى باذن واحد أحد ها أقعد عواطلى زى العادة يوليو وأغسطس وسبتمبر ويمكن شـــوية من يونية وشوية من أكتوبر كمان ، فوق البيعة ، وأنا يامديحة يا أختى جربت الجوع قبل كده وبينى وبينه معرفة .. أعرفه كويس ، ومابقتش بقى أستحمل المرمطة أعصـــــابى .. ومعدتى .. وأسنانى .. كلى ولا صيت ولا فلوس ولا مستقبل .. العشرة جنيه اللى أحوشهم المرة دى من تحت الضرس يوكلونى .. ويبسطونى طول الصيف ، وبعدها يحلها ربنا والاستاذ المسيرى .. أما لواحظ .. خلينى بعيد عن لواحظ أحسن .. يعنى لازم تيجى مرمطة البنية فى الدنيا على ايديا أنا .. ؟

لكنها ما أن تظهر حتى أكاد أسمع بين ضلوعه المهزولة وجيب قلبه الخافق فى هيكله الهفهاف ..

— ياصباح النور ياسى محمد ..

— ياصباح الجمال يا أخت النجوم ..

وتبرق عيناه ويكتسى الجلد فوق عظام وجنتيه الناتئة بشبهة من ماء يترقرق وأحس أن فى الدنيا حولنا نغما يعلو على مصيرنا الذى يصرخ دائما فى وجوهنا بأننا لم نخلق للسلام والراحة والهناء ..

* * *

صار بينهما شىء يعلمه الله وأحس معهما جماله يزدهر فى قلبى .. رأيته يخطف قبلة من يد لم تنسحب منه .. وشعشعت لهما روحى وهما يلوذان بنجواهما الرقيقة وراء ذلك الستار المزق الذى يفصل وجودنا عن وجود الناس .. وراقبت فى حنان الأم كل ذلك التقدم البطىء المهذب لغرام حلو يشد الوثاق على رجل وامرأة يكافحان معا فى الدنيا ويحصلان من مخالبها على القوت ، وشىء من هناء الروح .. يارب امنحهما قوة الحب يستعينان بها على هذا البلاء الذى اسمه الحياة .. ما ألطفهما وهى تقبل عليه فى رقة عذرية عجيبة على مثلنا فى النساء ، وتمد له يدها وفيها رسالة جاءها بها الخفير من فندق المركز حيث تركنا بعض متاعنا وخط سيرنا ..

ــ اقرأ لى الجواب ده ياسى محمد ..

وتناول محمد المظروف من يد لواحظ وفضه وتأمل السطور الأولى من الرسالة قليلا ثم قفزت نظرته الى ذيل الورقة وقال لها :

ــ من الشيخ عبد العليم برضه ..

ــ اقرأ لى يا أخويا ..

تنحنح محمد المصرى ثم تلا عليها :

حضرة بنتنا العزيزة الآنسة لواحظ المصونة ، طرف المحترم الأســتاذ بركات أفندى مدير جوقة التمثيل الراقى الوطنية بجهة منوف :

« من بعد اهداء مزيد السلام والسؤال عن صحتك الغالية وصحة الست مديحة صاحبتكم ربنا لم يحرمكم من محبة بعض وكذا الست أنيسة تخبرك الست أمينة والدتك أنها حزينة جدا وحصل لها مرض من انقطاع مكاتيبكم من قبل ليلة نص شعبان الفضيلة بست أيام وعدم ورود أى نقدية من التاريخ المذكور .. خصوصا وأن الدكتور عبد السلام بك الحكيمباشا عاوز يعمل لها العملية يوم ١٩ الجارى وعاوز المقاولة مقدما وحضرتكم لم ترسلى للآن أكثر من سبعة جنيه وستين قرش وفاضل الاتناشر والأربعين قرش غير سفلقة التمرجية ولزوم التغذية وخلافه وتحلفك الست أمينة والدتك بتربة والدك المرحوم أنك ياست لواحظ لم تتأخرى أكثر من كده فى ورود باقى النقدية لزوم العملية واذا أمكن حضورك يوم ١٨ الجارى لحضور العملية تانى يوم يكون لكم الشكر .. ومن جهتنا قايمين بالواجب أنا وحرمى والبنت نفيسة كريمتى وجميع من بطرفنا يهدوكم السلام ختام » ..

حسانين عبد العليم

صاحب البقالة الزينبية الوحيدة

حارة بيرجوان بالسيدة زينب مصر

* * *

أسدل الستار فى الســـاعة الواحدة من الصباح وأطفئت الكلوبات وخلت الساحة من الجموع المتثاقلة ، وبعد قليل توجه الأستاذ بركات وسلامة وعبد العزيز البربرى مع ابن العمدة الى

الدوار حيث كانت تنتظرهم « قعدة مزاج » ومعهم أنيسة هشتك لخبرتها فى تسليك الجوزة ورصـــــها وتوليعها ومنادمة روادها ، وخلت لنا الأرض الفضاء والسكون تحت سماء تلذ فى غيبة القمر رؤية نجومها ..

جلست لواحظ على الأرض أمام المنصة الخشبية التى كنا طوال الليل نرقص فوقها ونغنى ، وتمددت الى جوارها على مزقة من ستار قديم ووضعت رأسى فى حجرها وجعلنا نتأمل السماء فى صمت عميق . كان طفلى نائما ، فى الداخل ، لكن أذنى المرهفة كانت تتوقع فى كل لحظة أن نسمع بكاءه .. وكان يأتينا من الحقول البعيدة رجع رتيب مريح من نقيق الضفادع ومن ورائه صدى ناء لأنين السواقى الدائرة على النهر البعيد .. وكان محمد المصرى راقدا على ظهره غير بعيد منا وعيناه تسألان النجوم وهو يمضغ بين أسنانه عودا يابسا انتزعه من عشب الأرض وتأمله طويلا قبـــــل أن يلوكه .. وهمست لواحظ فى أذنى مائلة على بوجهها وشعرها الطويل يغمرنى بأريجه الطبيعى اللطيف :

ــ محمد راخر ما اتعشاش !

ــ انتى فاكراه بيمضغ العود علشان جعان ؟!

ــ لا .. بس شكله فكرنى أننا ماكلناش حاجة .. أقوم أجيب العيش والجبنة والبطيخة من جوه ؟ .. زمان المزغودة أنيسة بتنهش فى ورك الوزة ..

قالتها وعيناها على زميلنا ، ثم نادته :

ــ محمد .. تاكل لقمة ؟

اعتدل محمد ، وتأخر رده قليلا :

ــ نشق قبلّه البطيخة نشوفها قرعة ولا ايه حكايتها !

ونهض معتمدا على الأرض براحته وتأرجح قوامه الأثيرى نحو الستار فرفعه وغاب وراءه قليلا ثم عاد وهو يضم الى صــــدره بطيخة ، وفى يمناه سكين ..

قال وهو يضع البطيخة على ورقة من جريدة قديمة ويشهر فوق قلبها سكينة .

ــ ممدوح لقيته عريان غطيته ، ونايم يا أختى فى أمـــان الله ..

وطعن البطيخة فما أن سمعنا صوت انشقاقها حتى صاحت لواحظ وهى تضحك :

ــ قرعة مافيش كلام ..

وتهاوى شطرا البطيخة تحت أعيننا متفتحين عن قمرين فى بياض الحليب .

قال محمد وهو يتنهد ويقفز عامدا الى ما كانت تدور حوله من أول الليل خواطره :

ــ يادى البختياربى .. بقى ياستى هما كام جنيه اللى ناقصين قلتى لى ؟

ظلت نظرة لواحظ عالقة بالوجه الضامر الذى باغتها صاحبه بهذا السؤال ، وارتجفت يدها المستندة الى ركبتى وهى تقول له فى صوت خافت يرتعش فيه الفهم العميق :

ــ احنا فى البطيخة يا محمد ولا فى الفلوس ؟

ــ كام جنيه ياشيخ عبد العليم قلت لى ؟ .. أيوه .. اتناشر وستين قرش كمان .. سى محمد المصرى معاه تمانية ونصف نخلى

النص يتفنجر به يبقوا كام ؟ يبقوا تمانية .. ولواحظ ياترى معاها كام ؟ .. هه ؟ .. قولى ياست لواحظ ..

ـــ ايه الكلام ده ياسى محمد .. بكره تتعدل ..

ـــ وما تتعدلش الليلة ليه ؟ .. معاكى كام بس قولى لى يابنت الحلال ماتوجعيش قلبى ..

ظلت زميلتى فى ترددها الحائر وبدنها الممتلىء المكتنز بالشباب يرتعد كله ، فأهبت بها وقد مستنى بدورى من أمرها وأمر صاحبها هزة من الطرب :

ـــ يا أختى انطقى بقى ..

ـــ معايا .. معايا جنيه صحيح .. و .. شوية فكة ، مش عارفه كام .. ييجى نص جنيه برضه .. أنا عارفه ..

وفى حركة تمثيلية مقصودة ، ركع الأخ محمد أمامى ورفع الى مقامى كفين ضارعتين :

ـــ يامديحة يابنت الكرام ، قولى لنا معاكى كام ؟

ـــ معايا اللى يكملهم خمستاشر باذن الله ..

لمعت النجوم فوق رءوسنا ، ولمعت انعكاسات من اشراقها فى حبات الدموع التى انبثقت فى عينى لواحظ وتناثرت على وجنتيها .

وتلامست عن غير قصد أناملنا وتعانقت خفقات قلوبنا وشاع فى الوجود كله من حولنا دفء بديع .

فى صحة شلبى

ـــ هل شرب الدم البشرى يفيد الصحة ؟

كان السائل رجلا مهزولا يضطرب جفناه باستمرار فوق عينين شاذتين ، وفى ابتسامته غيبوبة وخبل ، وجدته جالسا أمامى ذات ليلة منذ بضع سنين فى عربة قطار فى الريف .

فى أول اشتباكنا فى الكلام حيانى وسألنى عن صحتى ، ثم قال لى انه يعمل سائقا لسيارة نقل فى شبين الكوم ، ثم شكا لى من حالته الصحية وشتم الاطباء بألفاظ الحشاشين ، ثم فاجأنى ـــ بعد محطتين أو ثلاث ـــ بذلك السؤال العجيب حقا : هل شرب الدم البشرى يفيد الصحة ؟

ولم ينتظر ردى بل أخذ فجأة يضحك من نظرتى المفزوعة الى جفنيه الخافقين ..

ـــ بذمتك ، ألم تشربه ؟

ـــ أشرب ماذا يارجل !

ـــ ولو مرة ؟ ..

وكان القطار البليد يتسكع ويطيل الوقوف عند كل شبه محطة ، وقد نسيت أن أقول ان عربة القطار لم يكن فيها غير

راكبين آخرين أو ثلاثة ، نائمين فوق مقاعد بعيدة عنا ، وان الوقت كان ليلا ، وانى لا أحاول هنا ان اروى القصة السخيفة المألوفة عن حالة رعب أمام مجنون خيالى ، بل ان اكون أمينا على تصوير لقائى مع هذا برجل لا استطيع ان انساه ولا أعرف مصيره .

قلت له وقد بدأ يخيفنى البريق الشاذ فى عينيه :

ــ اهذا مزاح معقول يا اسطى ؟

ــ الاسطى شلبى .. محسوبك ..

ــ تشرفنا ..

ــ يفيد الصحة أم لا يفيدها ، بذمتك ؟

قلت له وأنا احاول ان اضحك واتبسط :

ــ الاسطى فى حالة فرفشة .

فانتقل الى مقعدى والصق بى كتفه وقال فى حماسة وانفعال، ونظرته تتوه فى خفق جفنيه :

الحكاية اساسها صحتى .. صحتى فى هذه الايام ليست على مزاجى .. دكتور المركز يسخر منى .. والاخوان فى قهوة السواقين يسخرون منى .. وشىء فى دماغى يقول لى ان شرب الدم البشرى يجدد الشباب ويرجع الصحة ..

ــ شىء فى دماغك ؟

ــ شىء فى دماغى ..

ــ صوت خفى تسمعه ؟

ــ لا ، انا لا اسمع اصواتا .. هناك شىء فى دماغى والسلام .. ويقول لى أيضا ، هذا الذى فى دماغى ، ان كثيرا جدا من

الناس يشربون الدم البشري وانه هو سبب الصحة التى ينعمون بها ..

ــ أين ؟

ــ فى الدنيا .. وعندما رايت حضرتك قال لى شىء فى دماغى انك من الشاربين ..

ــ أنا ؟

ــ أليس عندك ، فى هذه الشنطة التى على الرف ، زجاجة من عصير الدم ؟ الليل طويل ، فتعال نشرب معا ..

ــ ليس فى حقيبتى غير ســـــجائر .. علب كثيرة .. هل تدخن ؟

فاضطربت جفونه الثقيلة العصبية ، وسألنى :

ــ ما اسمك يا اخى ؟

قلت له اسمى وقد سحر نظرتى اختلاج جفنيه المرعبين ، وأسنانه الخربة وراء شفتيه الرقيقتين الشاحبتين :

ــ عبد الغفار حسونة ..

ــ موظف ؟

ــ تاجر فى بركة الفيل ..

ــ ماذا تبيع ؟

ــ ســـــجائر ..

ــ فقط ؟

ـــ وحلويات ، وكراسات وأقلام ، ولعب وهدايا فى مواسم الأعياد .. لكن المفروض أنى قبل كل شىء بائع سجائر ..

وفى شبه توسل أجابنى مستعطفا :

ـــ لماذا لا تبيع الدم البشرى أيضا فى دكانك ، زجاجات ثمن الواحدة شلن ، وتكسب الثواب فى جميع ضعاف الصحة فى البلد ؟ أتكره المكسب ؟ ألا تحب الخير للناس ؟ ما هذا الطبع السيىء يا عبد الغفار يا أخى ؟

ورمى شنطتى بنظرة ركنية مريبة ..

قلت له فى محاولة بسيطة لتغيير الحديث :

ـــ هل الاسطى شلبى يملك سيارة النقل التى يقودها ؟

ـــ لى نصفها ، لكن مسألة اخفاء الزجاجة فى شنطتك فيها جرح لاحساسى ..

لم يكن فى الشنطة غير هدايا للأهل فى البلد ، مجموعة من علب السجائر وقليل من ملابسى .. وقد راقبنى الاسطى شلبى وانا أنهض فى اذعان لانزالها من فوق الرف .. وكان « شىء فى دماغى » يقول لى فى تلك اللحظة ان شارب الدماء هذا خطر .. وأنه عندما يجد أن متاعى القليل خال من الزجاجة التى يطالب بها سوف يخرج هو من سلته هذه زجاجة فارغة ـــ لعل امرأته كانت تستعملها للخل ـــ ويملؤها من دمى ..

وفتحت الشنطة فأطل برأسه معى على محتوياتها، فلما عرضت عليه أن يختار مما معى العلبة التى تعجب مزاجه ، وضـــع يده الناحلة المرتعدة على كتفى وضحك وهو يقول لى فى هدوئه الكريه :

ـــ طلع الزجـــــاجة يالئيم . أنا مالى وللســــــجائر ياسى عبد الغفار ؟ عاشت الأنناس .. انما أريد الزجاجة ، فصل على النبى ؟ ..

ـــ يا أسطى شلبى ..

ـــ صل على كامل الانوار ..

ـــ اللهم صلى عليه .. يارجل هذا الهزار زاد عن حده ..

ـــ هزار ؟ اتحسبنى أهزر معك ؟

وتوقد الخبل فى غيبوبة عينيه وصار صوته مشروخا منفرا :

ـــ لماذا لا تريد أن تكســــب ثوابا فى أخ لك ؟ .. صحتى يا عبد الغفار صحتى .. ألا تهمك صحتى ؟ .. عندما رأيتك تجلس أمامى قال لى شىء فى دماغى ان علاجى عندك أنت ، لا عند دكتور المركز .. ليس عند دكتور المركز الا كلمة واحدة « بس بطل أنت الحشيش » .. أعطنى أنت يا عبد الغفار .. أعطنى .. أعط أخاك شيئا من الدم الذى عندك ، وكن ظريفا .. لابد لى أن أشرب من الدم البشرى .. ولماذا ترفض وأنا حتى الآن اطلبه من شنطتك لا من عروقك ؟ .. هات الزجاجة لنشرب فى صحتك وصحتى .. هات وصل على النبى .. اخز الشيطان وتبحبح ..

ـــ أنت مجنون !

قلتها وأنا أرتجف الى جانبه من الرعب ، وتمنيت أن يصحو احد الركاب القلائل من النوم ، وتعلق جبنى الطبيعى وكل حبى للحياة برجاء جميل ، أن أسمع فجأة الرنة المعدنية المألوفة من قراضة التذاكر على ظهر احد المقاعد البعيدة فى العربة ثم يظهر الكمسارى كالنبى المنقذ ويرى لنا حلا فى الاسطى شلبى ..

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ..

كل ما حدث هو أن هذا الرجل النحيل الذى لا يكف جفناه عن الاختلاج انهار دفعة واحدة وعلى غير انتظار منى أمام كلمة مجنون .. وجهه الضامر المتعب اختفى بين كفيه المرتعدين ، كأنما يريد أن يختفى من الكلمة ذاتها .. وأخذ الأسطى شلبى ينتحب فى طفولة .. كل ما حدث هو أن هذا المســـكين الذى أخافنى قد بكى فجأة خائفا من الجنون ، وأن قلبى رق له واحتار فيه .. لم يحدث بعد أن توعدنى بشرب دمى من عروقى شىء من تلك الاحداث المخيفة او المضحكة التى كانت تبشر بها بداية لقائنا .. مجنونى انا الاسطى شلبى أرعبنى قليلا ثم أخذ عطفى كله ساعة طويلة قبل أن نفترق عند نزوله فى محطة شبين الكوم .. ولايزال يعيش فى نفسى فزعه من هذه «النوبة» التى تراوده كل شهر مع ظهور الهلال الجديد ــ على حد قوله ــ والتى تزداد كل مرة الحاحا على دماغه بتلك الفكرة العجيبة المتسلطنة .. أن الدم البشرى وحده هو سبيله الى استرداد صحته التى أضاعها فى الغرز والاســـفار والمواخير .. ان الحاح هذه الفكرة يضطهده ويأخذ بخناقه فى مطلع كل شهر قمرى ويكاد يدفعه الى الضراوة والفتك .. وقد ذهب الى طبيب الصحة وصارحه بحالته وتوسل اليه أن يشفيه فقال له « بس بطل انت الحشيش » وصرفه فى سخرية .. وهو خائف من نفسه ..

وقف شلبى على رصيف محطة شبين الكوم يكلمنى وجفناه يضطربان فوق عينيه المحتقنتين ، حتى تحرك القطار .. لم يكن يريد أن يفلت يدى من بين يديه .. وكان آخر ما سمعته من كلامه :

ــ المصيبة يا عبد الغفار يا أخى انى أول أمس كنت أنقل بطيخا الى طنطا ، فكان يخطر لى فى بساطة كلما رأيت انسانا فى السكة الزراعية ، انى يسعنى أن أصدمه وأصرعه وأشرب من دمه ثم أعود الى عجلة القيادة وأستمر فى طريقى .. وهذا بالضبط

هو ما أشعر انى سأفعله ذات يوم .. يوم قريب .. وربما كنت انت آخر من ينجو من عطشى .. أنا عطشان يا عبد الغفار .. لعلى قاتل أول عابر سبيل يقع فى طريق سيارتى غدا أو بعد غد . ولعلى شارب من دمه .. وأنت ستمر بشبين الكوم فى عودتك الى مصر بعد يومين ، فأستحلفك بالله أن تمر علينا .. أنا دائما بالليل فى قهوة السواقين فى البر الشرقى .. تعال خذ معنا نفسين ودبرنى فى الموضوع .. مع السلامة .. أنا فى انتظارك لكن .. بشرفك ، ألا يفيد صحتى .. يفيدها أم لا يفيدها .. يجب أن أعرف .. يجب أن أعرف ..

هل عرف ؟

انى لم أره بعدها !

الجريـــدة

منذ الساعة العاشرة من كل صباح يرابط الشيخ على عند صندوق البوستة المدفون فى جدار دوار العمدة ، والذى لم يحدث أن ظهر عنده عبد الواحد أفندى البوسطجى قبل الساعة الحادية عشرة ..

والشيخ على — وهو كهل نظيف ومؤدب — قلق فى انتظاره ومتكلم .. عبد الواحد أفندى هذا شاخ مثل حماره ويجب احالتهما الى المعاش .. انه يتأخر فى طوافه لأنه يفتح الصحف والمجلات ويقرؤها ويبحلق فى صور النساء العاريات وهن كاشفات فى الصور عن كل شىء .. فاذا ظهر البوسطجى كان الشيخ على أول من يهلل لمقدمه ، لكن عبد الواحد أفندى — وهو كهل محطم ونصيبه من الأدب والذوق محدود — يفهم نفسية الشيخ على ويطيب له أن يكايده .. وفى توزيع الخطابات يتلكأ ويتباطأ ويدقق تدقيقا مفتعلا فى شخصية متسلم كل رسالة .. والجريدة مطوية فى يده تحت رزمة الخطابات التى يوزعها على الجمهور الملتف حول حماره فى بطء ومناوشة وزعيق ومداعبات . والشيخ على يتوثب الى جانب الحمار بدون أن تطاوعه كبرياؤه فى طلب الجريدة بشكل قد يكشف شوقه الى لقائها ..

له فى بلدنا اربعة افدنة وجاه ودوار وحصان ركوب ومكانة لكنه يقول كلما كلم أحدا : أسفاه ! لو أدخلونى المدرسة لكنت أعرف القراءة والكتابة !

وأخيرا يتلقى الجريدة من يد عبد الواحد أفندى الذى لا يعدم دائما كلمة مسمومة يتوج بها تلذذه بتنغيص غبطة الشيخ على بوصول جريدته .. وهنا يحدث دائما ــ كل يوم ، منذ سنوات وسنوات ــ مشهد لا يتغير ولا يزيد أو ينقص منه شىء .. يطبق الرجل الجريدة ويضعها فى حرص ، من طوق جلبابه البلدى ، فى جيب هائل يكاد يشغل أحد مصراعى الصديرى المقلم ذى الأربعين زرارا ، وينطلق الشيخ على .. ينطلق بمعنى الانطلاق .. وهو يهرول حقا لكنه مسدد فى اندفاعه كالسهم .. الى دكان محمود الخياط ..

الى ركن بعينه من حصيرة مصطبة الدكان الداخلية يتوجه الشيخ ويخرج الجريدة المطبقة من صدره ويفردها فى عناية ثم يشوح بها ناحية الخياط المشتغل وراء مكنة الخياطة الصغيرة ، ويقول له :

ــ سيب يا واد يا محمود المكنة دى وتعال نشوف الحالة ايه النهاردة .. دا يظهر الجريدة مليانة تمام النهاردة .. عبد الواحد أفندى قال لى كده فعلا وهو بيسلمنى الجريدة ..

وكل يوم ، منذ سنوات وسنوات ، يحدث فى دكان الخياط مشهد لا يتغير فيه الا بعض جزئياته الضئيلة ، نتيجة لاختلاف شخصيات ضيوف الخياط وعددهم فى كل مرة .. يوقف محمود المكنة فى هدوء ويتناول الجريدة ويبدأ من أول السطر فى الصفحة الاولى لا يبالى سياسة من تجارة ولا اعلانات من حوادث . ساعة وساعتين وأحيانا اكثر .. الى أن يجوعوا .. الى أن يبح صوت

الخياط ويتعب الشيخ على من عملية الرضا والسخط والاندهاش والفرح والحزن والتأييد والمعارضة وهى عملية تشترك فيها — مع كل عضلات الوجه والتفاتات الرأس وايماءات اليد — طرقعات اللسان وانتفاضات الحاجبين وبعض الحركات الصوتية التى منها ما يخرج من الحنجرة ومنها ما يكون طريقه الأنف ..

ومحمود لا يشتكى ولا يتململ بل يجد لذة ويتهلل كل يوم طلعة الشيخ على وجريدته ..

والشيخ على يقول له « ياواد » لكنه فارس خيال ومحمود يحب فرســـــان الخيل النادرين فى المنوفية ، ثم انه يحب اللبس النظيف ، وهو من احسن زبائن الدكان وأكرمهم ، والشغل قليل ، والوقت طويل ، وصوت المكنة المستمر والكلام الفارغ من الزبائن والضيوف شىء يثير النفس ..

وجاء وقت صار البوسطجى فيه يعابث الشيخ على بدعابة واحدة ثقيلة لا تتغير : ماذا لو مات محمود الخياط ؟!

وكان الشيخ على يقول ان محمودا قوى كالثور ولم يبلغ الأربعين ، وانه هو الشيخ على الذى فات الخمسين سيموت حتما قبل الخياط .. ثم يعود فيقول ان البلد فيها من يسرهم أن يعرفوا حال الدنيا على حسابه !

لكن محمودا الخياط هو الذى مات — فجأة — فى معركة دارت بعصى الشوم فى زفة عروسة كانت تمر أمام دكانه .. مات وأغلق دكانه !

فى تلك المناسبة الحاسمة قال له البوسطجى وهو يسلمه الجريدة ، فى شماتة :

ــ البقية فى حياتك !

لم يتكلم الرجل بل طوى الجريدة وادخلها فى جيب الصديرى ، ثم مشى وئيدا نحو دكان محمود الخياط ..

رمى باب الدكان الموصد بنظرة قاسية واخرج من جيبه منديلا كبيرا فرشه فوق تراب مصطبة الدكان الخارجية الصغيرة ، وجلس .

وأخرج الجريدة ونشرها بين يديه .

وأطال التمعن فى سطور الصفحة الاولى وشكلها وصورها .. واقبل من الدرب الكبير حمار البوسطجى فى طريقه الى القرية المجاورة ، ونظر عبد الواحد أفندى فى الرجل الجالس وعرفه ..

طالما أغاظه وتسلى به وعكر صفوه .. لكنه فى هذه اللحظة أوقف الحمار فجأة أمام المصطبة ونزل عنه وأقبل فجلس الى جوار الشيخ وقد أحس فى نفسه عطفا عليه .. وتلقاه الشيخ على متوجسا ومتحفزا للاحتدام ..

ــ تعرف أنا سمعت الناس فى بوستة شبين الكوم العمومية النهاردة الصبح بيتكلموا عن القطن والوزارة .. أخبار مهمة جدا فى الجرايد .. مليانة تمام لازم الجريدة .. وريني أما نشوف الحالة ايه النهاردة ..

وقبل أن يتكلم الشيخ على كان عبد الواحد أفندى قد تناول الجريدة من يده وانحنى فوق صفحتها الأولى بركن وجهه الذى تقع فيه عينه اليسرى .. السليمة .. وقرأ ..

* * *

صارا صديقين ، حتى ان الشيخ على قال للبوسطجى وهو يودعه الى الغد :

من بكرة ان شاء الله نبحث لنا عن مكان انسب من مصطبة الولد محمود .. دى سكة عمومية وميت سلام عليكم .. حانقرا والا نرد السلام ! .. ايه رايك فى حوش الدوار عندى .. نقرا على رواقة ونشرب قرفة على كيفك بتجينى مخصوص من طنطا .. علشان كرام الضيوف أمثال عبد الواحد افندى !

أبـواب الليــــل

العاجزون عن الخلق

يقلدون الخـــــالقين

والعاجزون عن الحب

يعذبون القـــــادرين

سعد مكاوى

- ١ -

يتعذب فى الحلم ، فى الماء الاسود الثقيل الذى تصطدم فيه تيارات تحتية جبـــــارة كلما لطمه واحد منها دفعه الى مدار غير مداره ، وهوى به فى اتجـــاه القيعان الســحيقة أو نفضه حيث الظلمة أخف وكثافة الماء أهون ، فى اتجــــاه الســـــطح من هذه اللجة الشنيعة اللزجة ، يتعذب بارادته المشلولة ، بغصـــة اليأس المريرة ، بذراعيه العاجزتين عن الحركة ، لكن جسمه يسبح فى سرعة مذهلة وفى مدارات هائلة ، فى بحر مظلم يعج بوحوش مائية بشعة تتداخل قطعانها الكبيرة فى رقصات وحشية وتتجمع وتتبدد ، بحر لا نهاية لظلماته ولثعابينه وحيتانه وأفواهه الشرهة وانيابه الشنيعة وأذرعه الاخطبوطية المرصعة بصفوف من مصاصات شهوانية مهتاجة ، ووحوش الماء دنيئة والظلمة نفسها خسيسة لا يلمع فيها شىء غير قرون الاستشعار النهمة وعيون تقطر كالأفواه المفتوحة والمصاصات الفاغرة نهما ولعابا وعدوانا ..

وبغصة اليأس كان يعلم أن البحر بلا شطآن ، وأن الزمن ما أن رسم له مداراته التائهة الفظيعة فى بطن الظلمة حتى استلقى ونام ونسيه فى وحشته وضياعه ، وبثمالة الأمل كان يعلم أن ثمة جزيرة فريدة تعلو فى مكان ما سطح الظلام الرهيب الذى يمسكه فيه حلمه القاسى ، وكانت بقية الارادة فيه تشكل فى داخل الحلم الكبير حلما آخر متوثبا بين حدين من يأس ورجاء ، حول هذه الجزيرة

التى اما أن يبلغها أو يهلك ويهلك كل شىء معه . هناك يستطيع أن يجمع آخر قواه لائذا بحماها ، وقبل أن يسقط لاهثا ومستجيرا عند صخرتها العالية ينتصب على قدميه ويشكو لها البحر والحوت والثعبان والاخطبوط .. لابد له من هذه الجزيرة ، ولو لم يكن فيها من قوت غير الصخرة والسكينة لكانت خيرا من هذه العيون الشرهة والافواه الدنيئة التى تشغى بها ظلمات البحر الرهيبة .. ومن يدرى .. ربما وجد عند الصخرة التى تنتهى اليها كل المدارات وتتكسر عندها كل الموجات أناسا آخرين يحملون من طاحونة الاعماق الخسيسة لعنات مثل لعنته ، وربما عادت هنالك الحركة الى أطرافهم الجامدة وجاشت الارادة فيما بقى لهم من أنفسهم ، وربما وجدوا عند الصخرة أنسا وأمنا ونجاة ..

وينتهى الحلم بيقظة غارقة فى عرق الرعب ، ووثبة تريد الخروج الى الشارع والاندماج فى ضجة النهار ونوره ..

هذه ثالث مرة يرى فيها الحلم وينسحق الكابوس .. الى الشارع ، الى العمل ..

وقف عند كشك الصحف المواجه لمبنى محطة باب اللوق وطلب نسخة من جريدة الاخبار ، وناول البائع ورقة جديدة بعشرة قروش وفحص القروش التسعة فى هدوء قبل أن ينصرف على مهل فى اتجاه ميدان التحرير وهو يطوى الجريدة فى يده دون أن ينظر حتى فى عنوانها الكبير وشعر صدره المتلبد الخشن بارز من فتحة قميصه ، وعظام وجنتيه بارزة ، وتجويف العينين من فوقهما عميق ، وشعر حواجبه الغليظة متفق فى الفوضى والغزارة مع شعرات شاربه الكث ، وكلماته كابتساماته نادرة .

وأمام أول كشك للصحف فى الميدان وقف مرة أخرى وطلب نسخة من جريدة الجمهورية وناول البائع ورقة بعشرة قروش ،

جديدة مبهجة ، ودقق فى فحص القروش الأربعة والقطعة الفضية ذات خمســـــة القروش ثم انصرف فى هدوء وهو يطبق الجمهورية ويطويها فى داخل الأخبار .. وما أن جاوز باب المجمع فى دورته حول الميدان حتى بلغ كشـــكا آخر للصـــحف عند مجمـــع خطوط الاتوبيسات ، وهناك دقق مرة أخرى فى فحص الفكة قبل أن يستأنف خطواته البطيئة وهو يطوى جريدة الاهرام مع زميلتيها ويتفادى الترام المقبل من ناحية دار الآثار ، وعبر الى الرصيف الآخر عند مكتب التليفون والتلغراف . .

وعند باب المقهى المتواضع الذى يسبق مطعم الفول المشهور رأى ماسح أحذية يعرض صندوقه على الرصيف ، فدخل المقهى وجلس وهو يعلم أنه سيسمع قبل أن يطلب الشاى دقة الفرشاة على الصندوق ..

وجاء الشاى واشعل سيجارة ..

ــ ياسلام .. الورق الجديد يفرح ..

ــ بس أنا مش عايز فضة فى الفكة ..

ــ هى الفضة وحشة ؟ ..

ــ لا بس بتقل جيوبى ! ..

ولمعت فى تجويف العينين احدى الابتسامات النادرة ، فابتسم الهزال المجعد فى وجه ماسح الاحذية ، وجه شيخ فى حدود الستين لابد أنه عاش أربعين أو خمسين منها فى هذه الانحناءة على روائح الورنيش والنعال ..

ــ ياسيدى ربنا ما يخف جيب حد أبدا .. عن اذنك .. حاجيب سيجارتين من بتاع السجاير اللى جنب القهوة ده وأفك أم عشرة ..

وترك الرجل صندوقه واقبل الجرسون باشارة من الزبون فتناول ورقة جديدة من ذات عشرة القروش ووضع على الرخامة قطعة من ذات القرشين واربعة قروش من ذات خمسة المليمات وقطعة فضية بخمسة قروش ..

ادينى لو سمحت شلن ورق أحسن .. الفضة بتقل جيبى ..

قالها وهو يدفع نحو يد الجرسون قرشا صغيرا مع القطعة الفضية وما ان تأمل خمســــة القروش بطريقته المدققة حتى عاد ماسح الاحذية بفكته وأخذ القرش ونهض الزبون وغادر المقهى .

وهو الآن متجه نحو ميدان باب اللوق مرة أخرى بعد أن أكمل دورة حول ميدان التحرير ..

وهو الآن فى الصيدلية يشترى ورقة أسبرين بقرش ويفحص الفكة قبل أن يضعها فى جيبه .. وورقة نعناع من دكان سجائر ، والفكة ونعناعة واحدة يقذف بها فى فمه ثم يرمى الورقة فى أول سلة مهملات تقابله .

والآن لم يعد يفكر فىأسماء الشوارع ولا سير الزمن ، وهو يشعر حقا بثقل الفكة فى جيوبه .. ولسوف يزيد هذا الثقل بعد أن يتم جولته ويضنيه الصداع فى الترام والاتوبيس ويكويه الألم فى أصابع قدميه ..

هو الآن فى قلب معركة اليوم ..

— ٢ —

مع آخر النهار دخل دكانالخردوات من باب شارع البستان فوجد زبونة فى ركن العطور مزنوقة بمزاجها فى حصار من غزل (حسنى) الخشن .. بنت جميلة مدينة للدكان بثمن مناديل واحمر

شفاه وملابس داخلية وعقد جميل بثلاثة أفرع كانت يد حسنى الطويلة وهى تداعبه تأخذ من صدر البنت بعض ثمنه .. ما الذى يعجب هؤلاء المتسكعات فى حسنى هذا غير صبره الذكى على ثمن البضاعة عندما يكون المشترى أنثى ؟

— مساء الفلّ ياحماده !

هو الذى يبدأ بالتحية دائما، وابتسامته كبيرة، وصلعته هلالية هى الأخرى كابتسامته الواسعة ، ولصوته العريض جاذبيته النابعة من شذوذه ، لكن الا تصفع كبرياءهن هذه الحقارة الزاعقة فى تكوين بدنه اللحيم الذى يبدو نابيا فى الدكان الانيق وفى تركيب فمه اللعابى وفى وجهه البهيمى كله ؟

— مساء الخير ياسى حسنى !

ووقفت البنت وقالت فى فتور :

— أمشى انا بقى ياحسنى ..

لكن صاحب الدكان أمسك ذراعها الاسمر الملفوف بيده الكبيرة :

— ابدا يازيزى .. خليكى قاعدة شوية .. محمد أصله عنده شغل فى المخزن .. قيمة ربع ساعة بالكتير .. أنا خارج معاكى لما يطلع من جوه ويستلم المحل ..

عادت البنت الى الجلوس وقوامها متحشرج فى زنقة الثوب ، ودفع محمد بابا صغيرا كشف عن صناديق من أحجام مختلفة تبلغ سقف حجرة صغيرة داخلية مقطوعة بالخشب فى اقصى الدكان ، ودخل فارتد الباب الخشبى الرقيق على محوره وطوى المخزن عن نظرة زيزى التى قالت فى تنهيدة :

ــ الجدع محمد بتاعك دمه تقيل !

واليد الكبيرة عادت بأصابعها الغليظة الى مهبط العقد :

ــ العقد حاينطق عليكى يابنت الايه !

وفى ركن المخزن ترابيزة عتيقة كانت فى تلك اللحظة تتلقى الفكة التى يخرجها محمد من جيوبه .

ودعك جبينه بقوة كأنه ينفض عنه الصداع قبل أن ينشغل بترتيب الفكة فى أكوام صغيرة للتعريفة وللصاغ ولقطع القرشين ولقطع خمسة القروش ..

وفى عملية الاحصاء متعة متجددة ، وحصاد اليوم طيب .. وكشف النفقات بسيط لا يتجاوز الريالين ..

ودار محور الباب الصغير وظهر فى فتحته كرش حسنى ..

ــ زيزى مشيت !

ــ فى ستين داهية هى ودمها التقيل يا أخى !

ابتسم حسنى ونظرته تزن أكوام الفكة المتقاربة فوق الترابيزة :

ــ هيه .. عديت ؟

ــ عد انت كده ..

امتدت الاصابع الغليظة ، لا ينقصها الا مصاصات أذرع الاخطبوط فى الحلم ، وبدأت تعد قطع خمسة القروش .

ــ نبقى نخصم المصاريف !

ــ كام ؟ ..

ـ أقل من أربعين قرش !

ـ بس ؟! ..

ـ كل حاجة بقرش .. تذكرة الترماى وباكو النعناع والجرايد ومسـحة الجزمة وكباية الشاى .. انما الغدا على حسابى ..

تأخر الرد قليلا فى هذه المرة والاصـابع الشرهة تمص الارقام .. ويعرف محمد هذه الحالة ، عندما يبلغ حسنى مرحلة الافتتان برنين النقود وهى تتساقط من أصابعه تساقط الارقام من شفتيه :

ـ ماتخليه راخر على حساب الشركة ؟

ـ لأ .. لقمتى لازم أصرف عليها من نصيبى .. الاصول كده ياسى حسنى .. انت سايب المحل لوحده ؟

ـ كوثر بره .. بعت لها البواب نزلت من فوق .. سبعة وخمسين .. تمانية . .تسعة .. ستين .. ماشاء الله .. شغل عال صحيح ..

انتظر محمد فى صمت وهو يزنق رأسه بين كفيه ويضغط بقوته حتى سمع الرقم الاجمالى ، ثم قال فى فتور واعياء :

ـ الصداع حايجننى !

ـ ماتاخد له حاجة ؟

خدت الاسبرين اللى اشتريته ، ييجى خمسة ستة ..

قلم ، من النوع الطويل الذى يبيعه الدكان ، يحسـب به حسنى على غطاء صندوق كرتونى قديم نصيب كل منهما من مكسب

اليوم والباب الصغير يدور مرة أخرى على محوره أمام يد مطوقة بساعة ذهبية دقيقة .

— ياترى سبع والا ضبع ؟

فراغ المخزن أصغر من أن يحتوى الثلاثة معا ، لكن نظرة الى الترابيزة من فوق كتف رجلها أشاعت الرضى فى وجهها الذى تكاد القوة فى قسماته تغطى بصرامتها على ما فيه من جمال ناضج ورقة انثوية :

— لأ .. سبع النهاردة ياحمادة !

وتجاوب مع صوتها الجذاب صوت زوجها العريض :

خلى الفكة كلها للدكان وادى محمد فلوسه صـــــحيحة من الخزنة ..

وكانت كوثر ترى خطوة محمد للخروج من المخزن لكن جسمها ظل مالئا لفراغ الباب بطوله وبياضه واستدارته وعرى ذراعيه وجراة الثوب عليه .. لا يؤذيها أن يضطر محمد الى الاحتكاك بها ولا أن يرى حسنى الاحتكاك .. وعيناها متكلمتان :

— كام ياحمادة ؟

— التلتين زى العادة !

— يعنى كام ؟

— يعنى .. متين وســـــتين .. هاتى اتنين جنيه والباقى عشرات ..

— وعاوز العشرات من فلوس الناس والا من صنع ايديك الشاطرة ؟

واهتز قوامها الطويل وهى تضحك من نكتتها ومالت الى الدكان فتبعها الرجلان والبدين يربت على كتف النحيل فى ملاطفة :

ــ والله يا ابنى أنت عليك ايدين تعومك فى الدهب وتأكلك الشهد !

كان الدكان خاليا فقصدت كوثر الخزنة وفتحت درجها :

ــ غيرشى هو اللى كسلان وقليل الهمة !

آه ... ستبدأ الاسطوانة ..

مد يده فى حركة ملحة مستعجلة :

ــ الصداع تاعبنى .. حا أطلع أنام ..

ــ ياخويا من اللف اللى بتلفه .. ما هو لو شغل كبير ما ياخدش منك التعب دا كله !

دخل حسنى فى الكلام بلباقته الذهنية :

ــ أصلها ياسيدى ناوية تعشيك الليلة أرانب !

ــ عايز أنام !

فالتفت حسنى الى امرأته :

ــ محمد تعبان دلوقتى يا كوثر .. سبيه يريح جسمه ساعتين واما نقفل نبقى نصحيه يسهر معانا .. أهلا ست سهير .. اتفضلى ..

قالها واندفع نحو البنت التى دخلت من باب شارع البستان . فدفس محمد الفلوس فى جيبه وخرج من باب الشارع الجانبى وهو يتحسس اشرطة الاسبرين التى تملأ أحد جيوبه ..

- ٣ -

لا يتفكر عم جاد سكان السطح الا فى أول كل شهر عندما يحمل اليهم الايصالات ويأخذ الايجار متعففا فى شموخ عن قبول البقشيش الزهيد ! فهو من فصيلة البوابين العظام ، ولا يعترف بسكان الحجرات المتناثرة فى سـطح العمارة التى يحتل دكان الخردوات ناصيتها الرئيسية ولا يحييهم فى نزولهم وطلوعهم ، ومحمد لا ينال منه لفتة الا عندما يظهر له فى ركاب كوثر وحسنى اللذين يسكنان فى الدور الثالث شقة محترمة ..

ومر محمد أمام دكة عم جاد فى خطواته البطيئة فلم يتصور البواب أن يكون شعور محمد بتعاظمه راحة مطمئنة .

واستلمه السلم كما يستلمه فى مثل تلك الساعة من كل يوم ، بقدمين تشكوان نقح الألم ورأس مصدع .. لاداعى لان تأخذ رجل هذا المتعاظم السخيف على السطح أو تألف يده دق باب حجرته .. كل واحد فى حاله أحسن ..

وعلى مهل بلغ محمد الدور الخامس الذى كان مجرد سطح لنشر الغسيل قبل أن يبنى فيه المالك هذه الحجرات الاربع المتناثرة فى فراغه ويجعل لكل منها ملحقا داخليا للطبخ والاستحمام .. ومحمد يحب وهو يخرج سلسلة المفاتيح من جيب بنطلونه الخلفى أن يصحبه الى الداخل شعوره العذب بأنه لن يرى حتى صباح الغد وجوه الناس ولن يقول طوال الليل كلمة لانسان .. وما أصعب أن يحدث شىء غير هذا .. أن تدق الباب يد تدعوه أن يفتح لانسان ويكلمه ويحتمل وجوده حتى ينقشع .. حتى رنة يد كوثر التى يميزها تؤلم قلبه بخفقة نفور غريزية ..

والمفتاح الكبير فى السلسلة هو مفتاح باب الحجرة ، وفى الداخل عتمة مريحة تتجدد فيها أماكن شماعة الحائط والترابيزة

والسرير البسيط ، وفى السكون المريخ عبق شاحب من أثر غوث البخور الذى كان قد أشعله فى الصباح ونشق عطره القوى وهو يقضم بلحاته الجافة قبل أن يصف أوراقه الجديدة الجميلة فى جيوبه ويخرج للناس .. هذا اجمل ما فى الوجود ، يخلع الحذاء ويدعك أصابع قدميه ويغضم قرصا جديدا من الاسبرين ويدخل فى الجلابية ويتمطى فى السرير ويئن ويفكر وينام آخر الأمر دون أن يقسره أحد على الكلام ، وبابه مقفول عليه !

لكن الليلة لا مفر له من أرانب كوثر والبيرة المثلجة والحاج حسنى عليه أن يأخذ من عنده حاجة لانقاذه من الصداع الذى لا يريد أن يترك رأسه .. ولسوف يسمع مرة اخرى الاسطوانة التى لا تمل المرأة ترديدها والتى يساعدها رجلها فى ادارتها بخفة لبقة ومس رقيق .. انت غلطان وعبيط ياحماده .. انت الذى فى أصابعك ثروة .. هل تظل طول عمرك قانعا من كل جهدك المضنى بهذا الربح البسيط ؟ .. لماذا لا يكون الشغل على مستوى أعلى ؟ .. الورق الكبير .. نفس الجهد وربح مضاعف ومستقبل وضيء خلاب ..

زفر محمد ويده تدعك طرف قدمه وفى قوس حاجبه حركة لا واعية تقلد حاجب كوثر النشيط البليغ ..

فى قوس حاجبها استفزاز مثير وهى واقفة فى مخه كما كانت منذ قليل بباب المخزن .

يطردها باصرار لا يقل عن الحاحها فى البقاء ، ويستحضر لطردها متسكعات الدكان ، وفروع العقد الثلاثة المتململة على صدر زيزى ، ولفتة قوام سهير وهى تدخل الدكان مسرعة ومهتزة .. وينقلب على وجهه وهو يدق جانبى جبينه بقبضتيه لاهثا وراء

الصورة التى يلوذ بها فى النهاية فى انهيار طفل مثبوذ ،سكين ؟ عمامة الشيخ الأعمى ..

وهربت العمامة كما ألفت أن تهرب من أعماقه واختلطت فى مخه صور وأصوات وانداحت دوامات وعض الوسادة كاتما أنينه ورأسه يكاد ينفجر .. ليتهن كلهن دميمات .. فى دمامة نرجس بائعة اليانصيب .. البنت العجفاء التى كانت ضحكة الفرح التى نورت وجهها هى بداية الزلزال ..

نرجس أحيانا يدخل فى وسعها أن تطرد كوثر ، ويسمع ضحكتها التى تطلب البقشيش السخى ، فلقد مرت الورقة الرابحة بيدها الهزيلة قبل أن تستقر مطوية فى جيب سترته الداخلى .. لم تقبل أقل من ورقة بخمسة جنيهات .. وأعطاها .. وأعطى غيرها .. وطار الصداع ، وطار النوم .. سهرت أحلامه لتكشط عن وجه الحياة بثوره ودمامله وعفونته .. أيها الناس لست أقرع ولا أجرب ولا مجذوما .. معى مئتا جنيه والشيخ الأعمى كان يقظا يصلى ويسعل عندما دخل ابنه البيت مع الفجر جاهلا أن الحلم الكبير الذى ابتلع ليل ابنه ينسكب أيضا على صباحه وغده ..

ــ كده يا ابنى ؟ كنت فين لحد دلوقت ؟

ــ كنت بره ! ..

ــ دا معاد الورشة قرب ..

ــ أنا مش رايح الورشة النهارده !

ــ شفت كلامى ، لما تسهر بره للصبح تروح الورشة ازاى فى المعاد يامحمد ؟

لا علم للشيخ بالزالزال وما ينبغى له أن يعلم ، فما هو بالكفء لمثل هذه الزلزلة .. ليبق سعيدا بوحيده الذى ونفقته المقادير الى العمل فى ورشة الحفر ولم تجعل منه كأبيه مقرئا ، ولتبق أمنيته أن تزيد يومية ابنه فى الورشة خمسة قروش فى السنة المقبلة ، ليسعد وليبتهل هذه زلزلتى أنا وحدى ، أما راحة الشيخ فهى فى جهله .. لو ان الشيخ علم أن ابنه أعطى بائعة يانصيب خمسة جنيهات لمات بالسكتة القلبية ..

ــ ومش رايح الورشة ليه يامحمد يا ابنى ؟

ــ الصداع رجع لى .. العن من الأول ..

ــ خدت أجازة ؟

ــ لما أروح بكره حاتقول للاسطى شلجيان انى كنت عيان ودماغى واجعانى .. ما هو عارف ان ريحة مية النار حاتطير مخى .

ــ يا ابنى حد يلاقى يومية زى يوميتك ؟

اقرأ أورادك ودعنى فى حالى ، أنت تجهل معنى أن تكون الحياة كلها مية نار وزنك وكليشهات من الثامنة صباحا الى السهرة ماعدا أيام الآحاد وأنت وأنا نجهل معنى الحمام المشـــــوى وليل البارات وحيل النساء .. انت لا تراهن ، انت منذ ماتت أمى من ثلاث وعشرين سنة حطام مستوحد .. أريد ان اسكر واضربها بالصرمة .. والكباب .. أريد يا أبى أن آكل لحما .. صل ونم ياشيخى .. أريد أن أفكر فى هدية للاسطى محمود رئيس الورشة .. أوقية كاملة تدخل السرور على قلبه الذى لا يعرف الرحمة .

لم تكن الهدية من نصيبه .. غلبه طبعه الفظ عندما رأى وجه محمد فى اليوم التالى واكتشف بعد قليل خطأ جسيما فى حفر بعض كليشهات مجلة الحوادث .. وعندما ارتفع صوت الاسطى محمود

أرتفع صوته هو الأخر حتى جاء بصاحب الورشة من مكتبه ليرى الاسطى محمود وهو يتلقى الصفعة على وجهه .. وشتم شلجيان نفسه والدنيا انقلبت .. لم يعد فى الوجود مية نار ولا هدية للاسطى محمود ولا شيء غير الرغبة فى الانطلاق والاستمتاع .. وخرج من الورشة ومن حياة أبيه فى يومين متعاقبين .. وعرف الخمارة التى فيها البنت سميرة فلبد فيها وهناك دوار وغيبوبة وزئير .. آه ! ..

هذا الزمن انقضى .. وعند سميرة التقى ذات ليلة بصديقتها كوثر وزوجها حسنى .. وامتزجت الكئوس واندمج الحساب وفرقعت الضحكات كيف تنسى هذه الليلة .. كوثر تكلمت عن دكان الخردوات وعن حى باب اللوق .. وحسنى تكلم عن كوثر وعن تجارة التجزئة .. وتكلم محمد عن يوم طرده .. من ورشة الزنكوغراف .. كان يضحك فى سكره وهو يصف الاسطى محمود لسميرة وكوثر وحسنى ويقلد لهم صوته الحشاشى وهو يصرخ فى وجهه قائلا له : ان الكليشهات سيعاد حفرها على حسابه وان من المستحيل على ورشة زنكوغراف محترمة مثل ورشة شلجيان أن تسلم للمجلة صور تحقيقها الصحفى عن البنك الاهلى وهى مليئة بالأخطاء البارزة ، حتى فى صور الاوراق المالية الصغيرة ، هذا خطأ لا يغتفر خاصة من محمد الذى طالما داعبه شلجيان نفسه قائلا : ان له براعة مزيف نقود خطير يستطيع أن يبدع أوراقا مالية تحار الابالسة فى اكتشاف زيفها .. وتعلو ضحكاته وهو يصور لهم هول الصفعة وفزع شلجيان أمام ثورته العنيفة وتراجعه أمامه وهو يحاول فى خوف أن يفهمه انه مطرود من الورشة .. كان سكران وثمالة ثروته تتبخر وكوثر تتودد اليه ونظرته مشدودة الى مدار خصرها وهو يحسب فى مخه المضطرب : « اذا دفعت الحساب كله لا يبقى معى أكثر من خمسة جنيهات .. مثل التى أعطيتها لنرجس ! .. » .

وكانت يد كوثر تلمس ركبته أحيانا وهى تكلمه :

ــ بقى الخواجه ده بتاع الزنكوغراف اللى بتقول عليه قال لك انك تقدر لو حبيت تعمل فلوس زى ما انت عاوز ؟

آه .. كان دايما يقول لى كده .

ــ وانت جربت الشغلة دى ؟

ــ وخفت منها على طول .. لقيتنى باقدر أطلع ورق لو شافه أبليس نفسه يحتار فيه !

ــ وكنت بتعمل الورق دا فى الورشة عند شلجيان دا اللى بتقول عليه ؟

ــ دى مرة والا مرتين .. وبعدها خفت ..

ــ خفت ليه ؟

ــ كانوا حايبلغوا عنى ..

وحسنى يطلب الكئوس ويشعل السجائر ويعجب لمحمد ماذا هو صانع عندما ينفد مكسب اليانصيب ، هل يعود نادما الى مية النار ؟

ومحمد يضـــــحك ويشرب ويهذى ويرتاح لليد التى تلمس ركبته :

ــ خفت فى الحقيقة على حريتى ؟

ــ ٤ ــ

نهض محمد وملأ الكنكة الكبيرة بالماء الذى وجده فى كوبة متروكة من الصباح ورفعها فوق السبرتو ثم تناول السلسلة من فوق الترابيزة القريبة من الوسادة وتأمل المفتاح الصغير فى راحة يده ..

مفتاح المخبأ الذى يضم الادوات والاحبار والمكبس والكليشيهات وكل عدة الشغل ..

يوم عثر الثلاثة على هذه العدة حبكت كوثر مفرش المائدة حزاما حول خصرها ورقصت من الفرح . ولو انه طلب منها عندما تأتى بعد قليل لتأخذه وتطعمه أرانبها أن ترقص عارية لفعلت وهى تحسب له المكاسب الجديدة لو أنه لان فى يدها وازدرى مثلها ورق القروش العشرة وسمت به همته الى الورق الاكبر !

صوتها سلاب : ماذا يكلفك هذا زيادة والادوات موجودة ياحمادة والبراعة موجودة !

ورمى قبضة من الشاى فى الكنكة قبل أن يقصد الباب الصغير فى يمين الحجرة ويدير فيه المفتاح الصغير دورتين قبل أن يفتحه عن حمام يحتمل مع الحوض والدش ترابيزة للطبخ واخرى يتوسطها ، بين حاشـــــية من رقائق الزنك والادوات الدقيقة والقنانى الملونة والفرش الحساسة ، مكبس صغير انتهت سيرته العلنية بمحضر فى قسم الازبكية ضد سارق مجهول ..

وطالت وقفته فى المخبأ البسيط ، وامام الجهاز الصغير وجد الرد على سؤال كوثر الملح : ماذا يكلفه التحول من مزيف صغير الى مزيف كبير ؟

وذكرته حاجته الى الشـــاى بالكنكة التى تغلى فارتد اليها وعالجها قبل أن يصب الشاى ، وما أن تذوق رشفة من الكوب المضلع حتى سمع الدق على الباب ..

لقد استوت الارانب والاســـــطوانة جاهزة والبيرة مثلجة والسلطات لذيذة ! ..

— يكلفنى ايه ؟ راحة البال ..

ـ يعنى دلوقتى اللى بالك مستريح قوى ؟

كوثر تشرب وتأكل بنهم وهى تتكلم والاحمرار الدموى يشيع فى وجهها ، وتصب لمحمد فى كأسه وهى تستنجد برجلها :

ـ والا ايه ياحسنى ؟ مش القانون كده برضه ؟

وحسنى مهما شرب لا يسكر :

ـ كده طبعا .. كده .. دى زى دى .. لكن انتى عارفه رايى من الأول يا كوثر .. محمد بكيفه .. هو حر .. ماتبقيش لحوحة !

طوت ذراعيها أمامها وانحنت فوق المائدة لتلوى عنق محمد نحو صدرها الذى تكشفه حركتها البسيطة :

ـ بلاش ياسيدى انت توزع بره .. احنا نوزع الشغل الجديد كله هنا فى الدكان .. نشيل معاك الحمل .. الدكان بس هو اللى حايوزع تخاف ليه بقى ياسى حماده ؟

كان قد أعد رده الذى استوحاه من المكبس :

ـ عايزه تعرفى أنا خايف من الشغل الكبير ليه ؟ .. علشان بيفضح الناس مابيدققوش فى الورقة ام عشرة .. بياخدها الزبون على جيبه على طول وهو فرحان بزهوتها .. عمرك شفتى صراف بنك بيدقق فى لون الحبر أو نوع الورق ؟

وضعت المراة فى طبقه ورك أرنب :

ـ ولا فى الورقة أم جنية !

ـ لو فتح عينه رحنا فى داهية !

ـ ويفتح عينه ليه ؟

ـ زى ما بيحصل دايما .. علشان النصيب .. وكل شىء له نهاية .

ـ طيب ما احنا كمان فى الحالة دى حانخسر الدكان وكل حاجة .. يبقى نخليها حاجة تستاهل أحسن !

وضع كفه على الكأس رافضا المزيد من البيرة :

ـ انا مش عايز اخسر حريتى .. عايز الصداع يخف واعرف انام من غير أحلام .. حريتى .. انا اقدر اعيش اى عيشة بس اكون حر نفسى ..

وجاءته عند هذا الحد من اعترافه همسة ناعمة من الرجل :

ـ احنا ساعة ما حطينا رجلنا سوا فى الشغلة دى مابقيناش أحرار يامحمد ..

فاضت مرارة محمد فى همسة معترفة بالحقيقة :

ـ انا ما اقدرش امشى اكتر من كده بقى !

ـ ماتاكل ياحمادة !

ـ مش قادر بقى ياكوثر .. ايوه .. احنا عبيد المكبس .. بس برضه انا لحد دلوقتى نص عبد .. اقدر اقوم اكسر المكبس وادوسه وانزل امشى فى الشـــــوارع على كيفى ولا حد له عندى حاجة !

ـ اوعى يا حماده !

ليتركها الآن ويصعد الى خلوته براسه الثقيل وقلبه المنكمش امام أطياف الحلم الذى ينتظر نومه ليكبس على صدره ..

أوعى ياحماده تتجنن وتكسر العدة ..

ـــ تصبحوا على خير ..

وانطرح فى الخلوة على فراشـه فما أن غلبه النوم بعد قليل حتى احاطت به الافواه والعيون وشلت غصص اليأس ارادته ، واذا بموجة بالغة الفظاعة يحملها الكابوس ، واذا بهذه الموجة العاتية تلطمه لطمة تقذف به نحو الجزيرة المنشودة ، ولاول مرة رأى عن قرب صخرة النجاة .

وعلى سفوح الصخرة أفراد كالحصى المتناثر ..

وياللعجب ! هذا الحصى الآدمى كله يشبهه .

كل واحد منهم هو صورته ، نفس الشارب الكث والوجنات البارزة والحواجب الغزيرة والعيون الحزينة التى نســـــيت ومض الابتسام وانطفأت منها وقدة الرجاء .

كلهم محمد !

هو ذا فى مئات من الصور تنهض جميعا صارخة فى وجهه قبل أن ينتهى به مدار الموجة التى تحمله الى الأرض أن أرجع الى البحر وخذنا معك فما فى هذه الصخرة من خير !

وما أن القى البصر حتى رأى الجزيرة كلها تموج بأفواه أشد ضراوة من مصاصات الظلمة وبعيون افتك نهما من عيون الماء .. وما هى الا خطفة بالبصر حتى رفع عينيه الى السماء وزأر فى روحه بصرخة مروعة يطلب بها شهابا يشق صدره عن قلبه ويميته فى الحال .. أو جناحين يرفعانه ..

صرخة انتفض لها جالسا فى سريره الضيق وكيانه كله رعشة وعرق ورعب . ولا جناحان !

فى الرعب يصحو وينام ، فلم تكن اللطمات التى يتلقاها راسه من ذيل السمكة المفترسة العظيمة فى الحلم غير دقات قوية على باب حجرته .

— مين ؟ .. مين اللى بيخبط ؟

كان العــرق نديا لزجا فوق جلده المرتعش ، وكانت يقظته مفجعة اذ يعود الى واقع اليقظة من تهاويل الاحلام ..

— أنا .. افتح !

— انت مين ؟

وظل خوفه من عذابات الحلم التى كانت أعصـــابه لاتزال محتفظة بشحنتها المروعة أقوى من خوفه من كل سر يمكن أن ينفتح عنه الباب ، حتى لو كان الطارق ضابطا فى حاشية من مخبرين وجنود :

— مين ؟ مين ؟

— أنا جاد .. افتح !

سكن روع محمد قليلا وهو يغصب نفسه على مغادرة الفراش فى معاناة وانين ، وسيطر على مخه وهو يقصد الباب اهتمام جديد بتيار الهواء الذى سيتدفق من الباب عندما يفتحه ويجفف عرقه ويؤذيه فى صحته .. وقبل أن يفتح خطفت عينه نظرة نحو باب الحمام تريد أن تطمئن الى أن ما وراءه مستور عن العين ، ثم ضم طوق جلبابه الواسع على صدره المشعر وأدار المفتاح الكبير فى الباب واستقبل البواب الرذل بسؤال عاجل :

ـ احنا امتى دولقت ؟

ـ قرب الضهر .

ـ وعاوز ايه ؟

ـ الست كوثر عابزاك تحت .

خيل اليه ان وراء الكلمات زراية خبيثة ، فانتفضت فى صوته نبرة حادة :

ـ فى الدكان ؟

ـ فى الشقة .. بتقول لك الفطار جاهز !

ـ طيب ! ..

ورد الباب وأدار فيه المفتاح دورتين قبل أن يرتد الى الباب الداخلى الصغير .

وفتحه بالمفتاح الصغير ودخل الى الدش وفى خاطره المنزعج أن نظرة البواب اليه كانت واشية بالسخرية من هذا الافطار الذى ينتظره فى شقة المراة .

وبينما كانت قطرات الماء الباردة تمسح عن جسمه لزوجة العرق كانت نظرته مشدودة الى المكبس الصغير الذى سهر أمامه الى ما بعد الفجر ثم لاح لخاطره وجه كوثر وهو يدعك جسمه بيديه ملتذا بما يحسه من استرخاء فى عضلاته المتوترة ، وصحت فى ذاكرته ضحكتها الناعمة بالأمس وهى تقول له فى مرح خليع :

ـ انت كل ما تتكلم تقول أنا عبد المكبس .. أنا من النهارده حا اسميك عبد المكبس !

وخرج من الحمام بعضلات أقل تصلبا ، وحرص على أن تستقر السلسلة بالمفتاحين فى عمق جيب بنطلونه الخلفى بعد أن أحكم اغلاق بابيه الداخلى والخارجى ، ثم هبط على مهل الى المرأة .

وكلمه شىء فى نفسه عندما وقف أمام بابها :

عيناها داعرتان ، وبشرتها لها لمعة صدفية نادرة فى النساء وحسنى تحت فى الدكان ، وملعون أبو الدنيا !

وفى الحال تكلم فى نفسه صوت آخر : لا .. لا .. لا ..

ودق الجرس ثلاث مرات قصيرة كأنها هى الاخرى تردد نفس الرفض ومالبث أن وجد نفسه أمام المرأة التى حولته من ورقة القروش العشرة الى ورقة الجنيه الى ورقة الجنيهات العشرة أمام شعرها المضطرب وسيجارة بين شفتيها ..

ــ أهلا بعبد المكبس !

خطواتها المائعة تجــر وراءها حزام الروب الاخضر الخفيف الذى يكشف قطاعات رقيقة من غلالة النوم البيضاء :

ــ مالك بقيت خم نوم ياسى حماده ؟

ــ أنا ما نمتش الا بعد الفجر ..

على المائدة أطباق كثيرة ، بيض وبسطرمة وزيتون أســــود وجبنة وطعمية وعسل ..

ــ تقول لى ماليش نفس حا اخد على خاطرى واخاصمك .. دى طعمية بيتى عاملاها لك صوابعى دول علشان تاكل صوابعك دول .. خلى عندك ذوق وكل واشكر !

كانت واقفة الى جانب كرسيه وهى منحنية تقرب منه طبق الطعمية فلمست أطراف أصابعها الطويلة أصابعه السمراء التى

سرت فيها رعشة قصيرة ، ثم دارت حول المائدة وجلســـت فى مواجهته وصدرها المكشوف يتحداه أن يهدأ أو يعصى لها أمرا :

ــ كويسة الطعمية ؟

ــ تسلم صوابعك ، بس أنا ماليش نفس ..

ــ يعنى تستاهل تنباس ياحماده ؟

ــ يبوسها حسنى !

ــ يادم !! ..

ذراعاها جميلتان ، وما أجملهما ملفوفتين حول عنق رجل ، ما أجمل هذا الاخطبوط الناعم الابيض الخالى من مصــاصات الحلم الشنيعة ، ويالشراهتها فى الاكل ، وما أكبر اللقمة التى تطحنهــا أسنانها القوية .. كأنياب وحوش المنام ! ..

ان حسنى مغفل عندما يخون هذه المرأة مع زبونات الدكان .. مغفل وشره وقذر !

ــ قدامك لسه كتير فى الشغل ؟

ــ جمعتين كمان .. مش عارف ..

ــ كام ؟

ــ ميت ورقة ..

ــ والنبى ما أنا الا بايسة لك صوابعك يوم ما تخلص الألف جنيه دول ، ولو أنك مش راضى تبوس صوابعى .. صوابعى أنا ياوحش يا عبد المكبس ..

ودست أبهامها بين شفتيها وراء قضمة البســطرمة الكبيرة وكلمته عيناها الضاحكتان : « كل كما يأكل الحيوان » !

بعد قليل ثقل عليه الصمت :

ــ حسنى كل طعمية ؟

ضحكت المراة وانزلق الروب كله من صدر غلالتها الرقيق :

ــ مالحقهاش .. كل جبنة وعسل ..

ونهضت بعد قليل وفمها محشو بآخر لقمة واخذت ترفع بعض الاطباق دون أن تربط حزامها :

ــ تعرف ياحماده .. بعد سنة واحدة .. لو شديت حيلك والتوزيع كمان مشى كويس .. نحط أرباحنا على بعضها ونعمل مشروع كبير .. تزهزه لنا أيام حلوة . .

ــ مشروع كبير ؟

كان قد ظن أنها نهضت بعد أن ملأت معدتها لتهاجمه بلحمها العريان ولكنها وقفت قبل أن تبلغه وتكلمت فى جد :

ــ أيوه .. انا بافكر أفتح السنة الجاية لوكاندة فى اسكندرية .. بلدنا .. بلد أمى .. وأعملك مدير أد الدنيا !

ــ وحسنى ؟

ــ انت عليك عفريت اسمه حسنى ؟!

ــ تعمليني مدير .. وتعملى حسنى ايه ؟

ــ ان كان معانا يمسك الحسابات .. حسنى طول عمره شاطر فى مسك الدفاتر ..

وخطت نحوه الخطوة الباقية ..

واستراح صدرها كله على كتفه المنكمشة وهى تنحنى لترفع طبق العســـــل ..

- ٩ -

ــ معجـــزة !

لم يكن فوق مفرش المائدة غـير مائة ورقة وورقة من ذات الجنيهات العشرة ، وكان المؤتمر الثلاثى منعقدا فى حجرة المائدة نفسها فى ساعة متأخرة من الليل ..

وهتفت كوثر مؤمنة على كلمة زوجها :

والنبى يا حمادة ما أنا الا بايساهم صوابعك دول ؟

وانفجر حسنى بالضحك عندما وثقت زوجته الى لمس أصابع محمد بشفتيها قبل أن يسحبها منها ، ونظر محمد فى يده التى مستها القبلة الدافئة وارتسمت فى وجهه الجاد شبه ابتسامة :

ــ شغل أيام وليالى ..

وعادت الاوراق الجذابة الجديدة التى ينسـكب عليها نور النجفة تتداولها أصابع كوثر الرشيقة التى تجس كل ما تلمسه بسعار شهوانى وأصـابع حسنى الغليظة المقترنة فى باطن محمد بأطراف الوحوش المائية الهائمة فى نومه الثقيل ، وصب محمد لنفسه قليلا من ماء الدورق المثلج وابتلع معه اسبرينة وهو يتأمل المرأة والرجل فى فضول ساكن .

ما أسعدهما !

هاهو الرجل يثب برزمة من الأوراق مرفوعة فى يمناه ويرتجل رقصة تستنفد احساسه بامتلاك ناصية المستقبل :

ــ حاجة تخم البنك الاهلى شخصيا !

وهاهى المرأة تضم بين نهديها رزمة أخرى وعيناها تومضان ببريق خسيس :

ـ شفت ياحمادة انك قادر وفاجر !

هرش محمد فى شعر صدره المتلبد قبل أن يقول لهما فى هدوء :

ـ لازم نعمل امتحان للبضاعة !

ـ الدكان مايستحملش الورق أبو عشرة ؟

لكن كوثر قاطعت زوجها فى حرارة :

ـ دكان مين ياعم .. أنت تسافر اسكندرية وتوزع المبلغ هناك وانت مستريح وتشوف لنا مدام صابونجى لسه عاوزه تبيع لوكاندة كليوباترة والا لأ ..

ما أوسع دائرة أملهما !

وفى هدوء قال لهما مرة أخرى :

ـ نجربها فى نفسنا فى الاول ..

ـ قصـــدك ايه ؟

ـ دول ميت ورقة وورقة .. ورقة واحدة من شغل البنك والباقى من شغلى أنا .. ورقة واحدة حقيقية .. عندكم ربع ساعة تطلعوا لى فيه الورقة دى ..

قالها وابتسم ..

كان يعلم انه يطلب اليهما المستحيل وكان علمه بهذه الحقيقة هو سر التذاذه وقوام متعته .

لن يعرفا الورقة الصحيحة .. ذلك شىء فوق قدرة حسنى

الغبى وكوثر التى يستغرق اهتمامها حلم الفندق السكندرى والثروة الدانية .

وعندما اعترفا بعجزهما قال لهما وهو يفحصهما مليا :

ــ الورق ده مايساويش حاجة وحانحرقه سوا دلوقت !

لحظة انتصار وتفوق ،لحظة لذيذة وابتسامة كبيرة ، وتناول ورقة من بين الاوراق المنثورة على المفرش ودعاهما الى الاقتراب منه .. وهرول الرجل وانحنت المرأة .. مسكينان !

هنا .. فى هذا الجانب من الورقة .. هاهى الغلطة القاصمة .. ومن حسن الحظ انه تنبه اليها فى حينها قبل أن يدفعوا البضاعة الى السوق .. هنا .. أين الورقة الصحيحة .. انظرا الفارق .. آه .. الآن عرفتما .. خطأ يقفز الى عينى الخبير وحده .

صمت عميق انتهى فجأة بانهيار المرأة فى نواح عصبى :

ــ يامصيبتى ! .. يعنى يضيع شهر كمان على ما نجيب نتيجة ؟

ــ لازم أعيد الشغل كله من أوله ..

ظلت المرأة الواقفة الى جانب كتفه تدير الورقة بين يديها فى انكسار معتم وفى شفتها السفلى رعشة مبتلة وحاجبها المقوس ناطق بالأسى .. حتى ردفها الملتصق من غير وعى فى تلك اللحظة بكتفه كان متخاذلا فى مرارة وفاقدا لصلابة ثقته بنفسه .. فأشعل زوجها سيجارة بيد يرتجف بين أصابعها عود الكبريت وقذف بعلبة السجائر فوق المفرش فى اتجاه امرأته :

ــ خدى نفسك .. ولعى لك سيجارة !

وصمت قاس لم يجرؤ أحدهما خلاله أن يسأله كيف أمكن أن تحدث هذه الغلطة التى اضاعت جهد أسابيع ، أما محمد فدهش

من نفسه التى أرادت نجاة أن تفيض بالرثاء لهما ، وهرب من تخمر ذلك الاحساس الى الكلام :

ـــ لازم نحرق الميت ورقة دول حالا ونخلص منها !

ـــ نحرقها ؟! ..

ودفعت المرأة نحوه بالورقة الصحيحة ثم طوت الاوراق المتناثرة بذراعيها وضمتها الى صدرها حتى احتبست الاوراق عنده فى كومة مهوشة ، وجعلت تدسها فى فتحة ثوبها حتى وارتها جميعا قبل أن تتحداه :

تعال خدها بنفسك !

لم يكلمها بل ناشد رجلها :

ـــ يا حسنى فهمها ان ورقة واحدة من الورق ده تضيعنا كلنا .. نهض الرجل السمين الى صاحبته التعسة :

ـــ أيوه ياكوثر .. الورق ده مالوشى قيمة .. بالعكس .. يودينا فى داهية .. ولازم يتحرق دلوقتى .. قدامنا احنا التلاتة .. هاتى ياكوثر ..

ومد محمد يده فأخذ علبة الكبريت من فوق المفرش وهو يقف :

ـــ نحرقها فى حوض المطبخ ونقتصر على تشييع الجنازة !

وسبقهما على حين تفجر من قلب المرأة نواح مفجع ..

ـ ٧ ـ

ـــ حسنى ؟ .. حسنى مع زيزى بيقبض منها تمن الديون اللى عليها للدكان !

كانت معه فى مخبئه الحار ومنديلها يجفف عرق جبينه وفى نفسها مع آمالها المشرقة غيظ دفين من هذا الرجل العجيب الذى تضمه معها أربعة جدران وهى بقميصها الداخلى دون أن يسقط ويستسلم ، وكان توزيع الف الجنيه الاولى فى الاسكندرية قد تم بسهولة أدهشت حسنى الذى عاد من رحلته حاملا مع نجاحه بشرى قبول مدام صابونجى التنازل عن فندق كليوباترة مقابل سبعة آلاف جنيه ..

لم تكن تدرك أنه يتعجل نهاية عبوديته ، هذا العبد المتوتر النفس الذى يمتزج ليله بنهاره فى عبادة متصلة للمكبس ، اله المخبأ العلوى .

ــ مع زيزى ؟ .. يعنى احنا الاتنين بنحوش نصيبنا وهو داير يفرقع نصيبه على البنات وانتى ساكتة له ..

دنت منه وحمالة القميص ســــاقطة عن كتفها الى ذراعها والتصقت بظهره حتى أفعمت رائحتها حواسه الراكدة :

ــ اطبع ياجميل ، اطبع .. حاتيجى ليلة ياحمادة نعمل فيها حفلة كبيرة .. ونسكر .. أنا وأنت .. ونكسر المكبس ده .. والعدة كلها .. نمسح الزمن ده كله .. ونحط ايدنا فى ايد بعض وعلى اسكندرية .. على النغنغة وهنا العمر ..

وانحنت فألصقت بشعره شفتين حارتين ، وكفت عن العمل يداه المرتجفتان ..

وبصوت خافت قرأت الارقام التى جذبت نظرتها الى ورقة مستندة الى احدى زجاجات الالوان الصغيرة :

ــ ٦٠٠٠ باقى ثمن اللوكاندة ..

ـ ٤٠٠٠ تجديد ودعاية واحتياطى ..

ـ ١٠٠٠٠ر١٠ المجموع الكلى ..

وطوقت الذراعان الآسرتان كتفيه ومسحت شــعره بخدها الملتهب ..

ـ بس كده ياحمادة ؟

تململ فى جلسته المحكومة بجســمها الدافىء المشرف عليه وامتدت الرجفة من يديه الى ظهره :

ـ أنا حالف لاكسر العدة دى كلها بعد طبع الورقة العشر تلاف .. كفاية كده ! .. كفاية ! ..

لكن اليدين اندستا بكل سخونتهما المستفزة فى شعر صدره باصرار لحوح شعبانى :

ـ أمرك عجيب يامحمد .. ما اللى يطبع عشر تلاف يخليهم بالمرة عشرين ألف .. ومش لازم حسنى يعرف بالعشرة التانية دى .. دى بتاعتنا احنا .. أنا وأنت لوحدنا .. مهرنا يامحمد ..

انتفض كيانه متصلبا وجاشت نفسه واهتز صوته :

ـ ماتنزلى تنامى لك شوية ! ..

ابتعدت عنه فى احتدام ورجعت خصلات شعرها الى الوراء بحركة عصبية من رأسها :

ـ أنت مالك شايل الدنيا على دماغك .. هو احنا بنسرق من البنك والا بننقص الفلوس فى البلد ؟ ..

احنا بنزودها .. احنا بنوفر التعب على البنك .. والا يعنى اعيش طول عمرى أبيع مناديل وأحمر شــفايف وترجع أنت لمية النار ؟

ضحك محمد والتفت اليها فى توسل :

ــ انزلى وسيبينى اخلص وردية الليلة .. انا عاوز اخلص .. عاوز اخلص .. معندكيش فكرة انا اد ايه عاوز اخلص ..

ــ طيب حا ارقد بره فى سريرك !

ــ لا .. اعملى معروف .. انتى معطلانى عن الشغل ..

فابتسمت المراة لنبرة الفزع التى اختلجت فى صوته :

ــ مش حا اكلمك خالص .. حا انام ..

ــ لا .. لا ...

ــ انت ماعندكش غير كلمة لا .. لا .. خايف من ايه ؟ .. انت هنا حاضن المكبس وانا متلقحة هناك .. وحسنى مش راجع من عند صاحبته الجديدة الا وش الصبح ..

ــ انا مش خايف من حسنى ..

ــ منى انا ؟

ــ ولا منك .. انا خايف من حاجة تانية .. خايف انسى كلمة لا .. مش عاوز انساها .. شوفى لما نسيتها النسيان خدنى لفين .. من العشرة صاغ للجنيه للعشرة جنيه .. انا نسيتها كفاية لحد كده ..

لم تفهمه ، لكنها لا تعترف بالهزيمة :

ــ لما تخلص .. وقت ما تخلص .. انشا الله بعد سنة .. لى معاك كلام تانى ..

وبحث يده فى جيبه عن ورقة الاسبرين :

ــ لما أخلص لى كلام تانى مع الدنيا كلها !

والتقت عيونهما فى نظرة عميقة كاشفة ، العبد والعبدة ، وبينهما بريق المكبس ، ذلك الصنم البارد الاخرس .

ــ ٨ ــ

ظل يدق الباب القديم حتى فتحت الجارة :

ــ مين .. انت ياسى محمد ؟!

ــ ابويا فين ياست امينة ؟

ــ ازيك يا ابنى .. لك وحشة .. كده برضه ياسى محمد .. تسيب الراجل العاجز لوحده المدة دى كلها ولا تسألشى عنه ؟

ــ البركة فيكم . ماتعرفيش راح فين ؟

ــ لا يا ابنى ما أعرفش .. اللى يعرف حسونه صبى البقال .. هو اللى بيسحبه فى دخلته وفى خرجته ويعرف طريقه .. خش يامحمد يابنى أشرب الشاى على ما أبعت حد من العيال يسأل لك حسونه .. بقى تعمل كده فى ابوك يا ابنى ..

ــ كل شىء قسمة ونصيب ياست امينة .. عن اذنك .. أنا حا اروح بنفسى لحسونه ..

ــ وترجع مع الشيخ ياسى محمد .. اوعى تسيبه تانى .. لازم تعيش معاه يا ابنى وترحم عجزه وشيبته ..

ولذعه صوتها الطيب وهو يهبط على عجل فى السلم المعتم الذى ايقظ عطنه الخفيف ذكريات صباه ..

ـــ الشيخ بيقرأ الليلة فى ميتم الحاج عمران صاحبه ..

فسأل حسونه الذى اشبعه عناقا وعتابا :

ـــ فى صوان ؟

ـــ دول ناس غلابه على أد حالهم .. فى حوش بيت الحاج .. حاتلاقى الكلوب منور ع الباب .. فى أول حوداية فى المغربلين بعد دكان السوبيا ..

اندفع محمد الى الشارع الضيق الذى تلقفته زحمته بعد أن عبر خطوط الترام فى شارع محمد على دون أن يتلفت ، وظلت الزحمة تضغطه حتى سمع ذلك الصوت الواهن المرتعش الذى تسرى نبراته المجردة من الجمال فى وعيه وفى دمه وهو يستقبله عن بعد ليهديه الى مكانه من بيت الميت : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وازدادت حدة اندفاعه فرآها ، على دكة التلاوة ، عمامة الشيخ ، على حين كانت يده تنتقل بين أيد كثيرة ظلت به حتى أجلسته فى كرسى غير بعيد من الجهد الاليم الذى يبذله أبوه فى التلاوة : « واذا مروا باللغوا مروا كراما .. » .

ولم تكن هناك كلمة استحسان واحدة .

كانت كلمات الاعجاب كلها مدخرة للمقرىء الشاب ذى الجبة الزاهية الذى ينتظر دوره فى ثقة بالنفس وهو يحتسى جرعات صغيرة من فنجان كبير يتصاعد منه بخار شراب ساخن .. وعندما تفجرت دموع محمد ربتت كتفه يد رجل يلبس جلابية وطربوشا :

ـــ شد حيلك يا ابنى .. موت الحاج شق علينا كلنا .. آدى حال الدنيا ..

— ٩ —

كان جالسا على طرف سريره وهو يدعك اصابع قدميه فى ارتياح عندما سمع الدق على باب حجرته فغضب نفســــه على النهوض ونظرته تطمئن الى ان باب الحمام موصد ، وأدار المفتاح الكبير فى باب الحجرة وهو يستحضر صورة وجه البواب المتعاظم ويجهز له الرد الحاسم الذى يلفظه فى الحال ، عم جاد هذا ، خارج حدود عالمه الخاص : « قل لها هو راخر عيان ومش قادر يسيب السرير .. مع السلامة ! » .

كان يعرف أن كوثر مريضة ووحيدة ويتوقع أن توفد اليه البواب فى أية لحظة ، لكنه ما ان فتح بابه حتى استشعر الخزى من جلبابه الفضفاض المفتوح عن شعر صدره وقال فى اضطراب وحيرة :

— زيزى !!

وضحكت له عيناها العسليتان :

— سعيده ياسى محمد !

— لامؤاخذة .. ماكنتش عارف انك انتى اللى ع الباب ...

— وهو أنا غريبة ! .. انا اللى آسفة .. يظهر انك كنت حاتنام ..

— أيوه .. فعلا .. أى خدمة ؟

— ياساتر ! .. مافيش اتفضلى ؟

تنحى عن الباب فى دهشة انقلبت الى توتر عصبى عندما وجد نظرتها تطوف ببلاط حجرته العارى وفرشته البسيطة وملابســـه

المكدسة على الشماعة العتيقة قبل أن تقول له النظرة ببلاغة : « مادمت لا تملك كرسيا واحدا فلا مفر ياجميل من ان أجلس على السرير ! » .

ــ اى خدمة ؟

ــ انت قليل الذوق ليه ؟

ــ ابدا .. بس أنتى عمرك ماشرفتينى قبل كده ..

فضحكت مستمتعة بحالته الشاذة :

ــ مافيش أهلا وسهلا ؟ .. مافيش وحشتينى يازيزى ؟

وخيل اليه بعد أن هدأت حدة المفاجأة أنه يعرف سبب هذه الزيارة .. هذه العيون البسامة لن تلبث ان تمتلىء بالدموع وهى تحكى له مأساتها شاكية اليه ما صنع بها حسنى صاحبه ، فهى واحدة من ثلاث من زبونات الدكان عرفن الطريق الى خمارة سميرة والى أماكن أخرى تبدأ الرحلة اليها من الخمارة ..

صار صوته ألين والطف :

ــ تشربى شاى ؟

ــ أيوه كده ياشيخ محمد ! . .آهو أنت دلوقت ابتديت تبقى بنى آدم ..

ــ بتحبيه تقيل ؟

ــ انا اللى حا اعمله بايدى ..

وبينما كانت تجهز الشاى تملأ ثرثرتها المنبسطة وشبابها المرح حجرته الصغيرة بفيض من حيوية وبهجة ، وعبرت بخاطره كلمة

حسنى التى قالها له فى أول المساء : « البنت زيزى دى حايبقى لها مستقبل ! » ..

وكان حسنى فى أول المساء قد كلمه عن الدنيا وعن النساء والفلوس ، وعندما انتهى من عد رزمة الاوراق المالية التى اخرجها من خزينة الدكان نطق الرضى من حيوانية وجهه الغليظ وقال له :

— يا اخى أنا مش قادر افهمك ! .. انت عايز ايه من الدنيا ؟

وكان محمد عائدا لتوه من زيارة أبيه ونفسه مفعمة بالسخط على كل شىء ، فقد لانت نفسه فى محضر الشيخ واستسلم للاصابع الأبوية الناحلة وهى تتحسس وجهه فى شوق ، حين كانت نظرته الآسفة تسجل حاجة شال العمامة الى الماء والصابون .. والآن (يشوح) حسنى بالنقود فى وجهه أمام خزينة الدكان ساخرا من تعاسته وقلقه ..

حسنى فى واد آخر ، ولن يفهمه اذا تكلم ..

— مش عارف ياحسنى .. أنت عارف ايه اللى انت عايزه من الدنيا ؟!

أراحت يد حسنى رزمة النقود فى جيب سترته الداخلى ونطق الابتسام فى عينين جاحظتين وشفاه غليظة :

— عايز أحسن ما فيها يا أخى ! .. أحسن ما فيها ! ..

نعم .. هذا خير تلخيص لحياته كلها ..

ويريد من الحيـــاة احسن ما فيها ولو عرف الناس جميعا وعرفت زوجته أيضا حكاية البنات الثلاث سهير وليلى وزيزى ، فان كوثر على نفس الطريق دبت خطاها وتكونت شخصيتها ومن الطريق نفسه عرفت حسنى ..

ـــ بأى تمن يا حسنى ؟!

ـــ اللى تغلب به العب به !

ـــ يابختك ! .. ياريتنى اقدر اعرف زيك ايه اللى انا عايزه من الدنيا وايه اللى يزيح الهم اللى على قلبى ده ..

ـــ انت مش معاك فلوس ؟

ـــ معايا !

ـــ طيب ما تسيب الهموم لاصحابها ! ..

لا جدوى من الكلام معه ، فلن يفهمه أبدا .. لكنه عندما نهض فى فتور قائلا انه يريد أن ينام انفجرت فى وجهه سـخرية حسنى :

ـــ يا اخى انت مابتزهقشى من النوم ! .. ماتيجى تسهر معايا عند سميرة .. فى بيتها مش فى البار .. البنات عندها زى الرز .. وزيزى بتسأل عليك ! ..

ـــ عايز انام !

ـــ طيب ياخويا .. اطلع نام .. واتغطى كويس لاتاخد هوا .. انا حا اقفل الدكان .. كوثر لسه الانفلوانزا لابدة فى عضمها ومش قادرة تسيب السرير .. ماتنساش تبعت لها أسبرين مع عم جاد .. واديك عارف طريق بيت سميرة اذا صحيت قبل نص الليل وغيرت رأيك ..

لم يذهب الى سميرة فجاءته هذه الضائعة الأخرى التى قال لها وهى تضع كوبى الشاى علي الترابيزة .. نافخة فى وجهه لتخرجه من جموده الذاهل :

ــ والله تنفعى ست بيت !

ورشق نظرته فى عينيها كأنه يتوقع أن تنسكب دموعها وتنهار لكلمته وتروى مأساتها ، لكنها وهى تميل نحوه على الناحية الأخرى من الترابيزة ضحكت فى نعومة :

ــ مش تستنى لما تدوق ؟!

انها تلعب لعبة كوثر ، هذه التى تصور عندما دخلت عنده انها ستنكفىء على سريره وهى تنشج وتئن وتعترف !

انها راضية عن حالها .. أهو اذن شىء سهل أن يفقد الانسان عفة نفسه ؟ .. وها هى تدعونى بالكلمة والاشـــــارة أن أذوق واحكم !..

رشفة من الكوبة قبل أن يقول لها فى جفاء :

ــ اللى بأعمله أنا أحسن من كده كتير ..

ــ واللى بتعمله كوثر ؟!

ورنت ضحكتها الخليعة وهى تقصد باب الحمام المقفول واثقة من نفسها ومستمتعة بلعبتها ، لكنها مالبثت أن استدارت اليه فى دهشة :

ــ انا شفت كتير وقليل ماشفتش كده أبدا .. انت ياراجل بتقفل باب الحمام بتاعك بالمفتاح ؟!

آه ! وصلنا لباب الحمام !

يجب أن تخرج فى الحال ولم يبق أمامه حل الا أن يطردها بغلظة !

لتذهب الى حسنى فى خمارة سميرة ، لتذهب فى داهية ..

وقام الى باب الحجرة ففتحه لها فى صمت مهين .. وعندما شتمته وهى تمرق من الباب ابتسم فى وجهها ابتسامة مخيفة .

- ١٠ -

كل ما فى هذه الحياة ينبغى أن يتحطم ، كل ما فى نفسه صار نازعا الى الخروج والصراحة ، وداعا لاحلام هذه المرآة ، وداعا لفكرة فندق كليوباترة ، وداعا لعم جاد وللصـــداع وللكوابيس ، وداعا للباب الصغير ومفتاحه ..

هاهى على حقيقتها ، كما تكون عند يقظتها ، مجردة من كل تجميل وتزييف ، وكأن عمرها فى هذه الأيام الثلاثة التى اعتلت فيها صحتها زاد عشر سنوات ..

ولم تكد كوثر تفتح له حتى عادت مسرعة الى غرفة النوم ، وحزام الروب يسعى وراءها على الارض فى كسل :

ــ اقفل الباب وراك ، أنا مش قادرة أصلب طولى ..

تلكأ فى الصالة حتى تصور انها دخلت تحت الغطاء ، وسمع صوتها المزكوم يناديه :

ــ انت رحت فين ؟

كانت السيجارة بين شفتيها ويدها العصبية تبحث عن علبة الكبريت بين طيات الملاءة التى نشرتها فوق ساقيها :

ــ أنا زعلانة منك ياحمادة !

أشعل لها السيجارة بولاعته ثم جلس فى طرف الكنبة الصغيرة المواجهة للسرير دون أن يتكلم ، فعادت تناوشه وهى دائمة القلق تحت الملاءة :

ــ زعلانه خالص .. يومين ماتسألشى عنى يا وحش ..

ما من شك فى أن هذه المسكينة فى مثل هذه الساعة من الصباح ترفض أن تنظر الى وجهها فى مرآة !

— أنا اليومين دول كنت مشغول لشوشتى .. والليلة كان عندى ضيوف !

— ضيوف ؟!

— ايوه .. واحدة ست !

نظرت كوثر فى شاربه المهوش وقد رفعت حاجبها النشيط فى تعبير عن الشك والتحدى والتهكم :

— قول كلام غير ده !

— وحياة العيش والملح كانت عندى ضيفة حلوة !

فرفست الملاءة بقدمها :

— يابختك ياسيدى .. عينى على أنا قضيت الليل مع الزكام والكحة ..

أشاح ببصره عن عريها وهو يسألها :

— ليه ؟ حسنى كان فين ؟

— حسنى من ساعة ما خرج امبارح بالليل ماشفتش وشه لحد دلوقت .. حسنى أشغاله دلوقت فى الليل ! ..

— مالوش حق ...

— ودى جت لك منين على غفلة ؟

ابتسم محمد وهو يرتب أفكاره فى ذهنه :

— دى ياستى هدية من جوزك !

نطقت فى عينيها الحيرة امام هذه اللهجة المطمئنة الجديدة التى يكلمها بها من كان يرتجف لوقع نظرتها ، لكنها كانت قد شمت ريح المعركة فجهدت لتبدو له طبيعية ومرحة .

ـــ هو خلاص بيورد لك انت راخر !!

امتدت يده الى ورقة الاسبرين فأخذ منها قرصين هرسهما بين أسنانه :

ـــ ما انتى عارفاها !

ـــ هى مين ؟

ـــ زيزى !

ندت عن حلقها صيحة غيظ قصيرة خشنة ، وبوثبة واحدة انتصب أمامه جسمها الطويل فى القميص القصير وشعرها ثائر حول وجهها المسكين المجهد ، وأنفها يكاد يدخل فى عينيه :

ـــ انت جاى تفرسنى ياراجل أنت ؟

ـــ لا ياكوثر .. أنا جاى أقولك انى ماشى ..

وقبل أن تفتح فمها مد يديه فى لطف فأمسك بهما كتفيها العاريتين الباردتين ببرودة الرخام :

ـــ لوحدى .. مش مع زيزى زى ما حاتفتكرى .. زيزى أنا طردتها امبارح من أودتى .. طردتها طرد ..

ـــ ماشى يعنى ايه ؟ .. ماشى على فين يامحمد ؟

ولاول مرة لحظ أن صدرها متهدل وجاشت فى نفسه من نحوها شفقة .. لكأن كل لحظة فى هذا الموقف تزيد فى عمرها أمام نظرته المشفقة سنة ..

ــ أتكلم يا محمد ! ؟؟

ــ أنا خلاص بطلت المكبس !

ــ يعنى ايه ؟!

يعنى حا أشوف شغلة تانية .. بعيد .. أى حاجة تانية .. إنما تزييف مش حا أزيف بعد كده .. وانتى وحسنى معاكو فلوس تناموا عليها لآخر العمر وأنتو مطمنين .. خلاص .. كفاية كده .. أنا مسافر .. مسافر بعيد .. كفاية يا كوثر ..

ــ ايه اللى جرى لعقلك مرة واحدة ؟

ــ لو فضلت فى الشغلة دى يوم واحد كمان حا اتجنن .. أنا عارف .. انتى مش ممكن تعرفى .. مش ممكن تفهمينى .. انتى زى حسنى تفهمى فى الفلوس وخلاص .. ومش لازم تفهمينى .. انما صدقينى ..

ــ أمال مين اللى تفهمك ؟ زيزى اللى طفشانة معاك يا خاين ؟

وفاضت النقمة من صوتها المرتجف ، فأجابها فى رفق :

ــ قلت لك يا كوثر زيزى خرجت من عندى مطرودة .. أنا باهرب من كل حاجة .. من زيزى وسميرة وحسنى والدكان والمكبس وكل حياتكم دى .. من كل حاجة ! ..

ــ يعنى منى أنا كمان ؟

ــ ومنك انتى كمان يا كوثر !

وأذهلته الصفعة القوية وصفرت كالصاروخ فى أذنه ..

وصار لون الوجود دمويا وهو يضرب .. يضرب ، يضرب ولا يرى ولا يسمع ..

يضرب فى غل وجنون والتذاذ وغمى ..

وهدات العاصفة والمراة كومة على الارض عند قدميه ... تتنفس وتتحسس قدميه بأطراف أنامل متشنجة ..

وصفق الباب وراءه فى ارتياح .. ورعدة .. واندفاع ..

وداعا !

واستلمه السلم على غير عادته نشيطا متوثبا .. وقبل أن يبلغ الدور الخامس كان المفتاح الكبير فى يده .. ثم مرق من بين السرير والترابيزة وهو يجهز المفتاح الصغير بين سبابته وابهامه .. وانقضت نظرته على المكبس أول ما انفتح له المخبأ ولا تزال يداه ساخنتين من أثر ضربهما فى لحم بارد !

— ١١ —

فى الظلام ، وقف فى السلم الذى يفوح بعطن الرطوبة ويده فوق جيبه المنفوخ بثروته التى جمعها من التزييف ، عندما جاءه صوت الشيخ من وراء الباب المقفول خاشعا واهنا :« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .. » .

والعرق ينسال غزيرا على رقبة محمد وظهره وساقيه ، وكل كلام اعده فى الطريق ونمقة للقاء الشيخ تبدد من قلبه كما لو كان نفثة بخار تطايرت ..

وجلس على أحدى درجات السلم فى الظلام دون أن تقوى على دق الباب يده التى ضربت وحطمت .. ولمست أصابعه مرة

أخرى جيبه المنفوخ برزمة النقود الكبيرة ، وعبثا حاول أن يسترجع لمحة من القصة المعقدة التى كان قد لفقها فى الطريق .. كيف يفسر للشيخ وجود هذا المبلغ الكبير فى حوزته دون أن يدخل فى مخ الشيخ أن ابنه لص ؟

وغص حلقه وزفرت أعماقه نفثة ضنى واعياء ، ومال رأسه فاستند الى الجدار الرطب ..

وهوم لحظة ثم فتح عينيه فى ذعر ، لكن الرأس ظل مستندا الى الجدار ، وعادت الجفون تنطبق فى استرخاء ولا مبالاة ..

ويسترخى الزمن وعطن الجدار يزكمه ويأخذ بخناقه ويشل ارادته ويغطسه فى ماء مظلم لزج يفور بتيارات جبارة تلطمه الواحد بعد الآخر فى مدارات هائلة .. ووحوش متربصة ..

ومن حوله تدافعت فى الحال جيوش من أفواه كالمصاصات وقرون استشعار كالمخالب ، واذا بموجة عاتية ترفعه فجأة الى صخرة النجاة ليجد على قمتها نرجس بائعة اليانصيب ملوحة له بأوراقها وهى تناديه فى مرح : « اللى فضلت !! »

وانفتحت الابواب فى رعب، فما سمع سكان هذا البيت ولا جيرانه فى حياتهم ولا حتى فى كوابيس أحلامهم السيئة مثل هذه الصرخات الفظيعة التى ضجت بها فجأة ظلمة السلم أمام باب الشـــــيخ ..

فى رعب رأوه ورأوا النقود الكثيرة التى يمضغها ويبصقها فى جنون عند قدمى الشيخ المسكين الذى تسنده جارته أمينة ، وزلزلتهم صرخاته كلما وسعه فى هياجه أن يريح فمه من المضغ والبصق ويأخذ نفسه :

ــ كســـــرت المكبس !.. كســـرت المكبس ! .. كسرت المكبس ! ..

المرتعـــدون

قبيل الفجر الذى لا يعرف فى مدينة الجزائر هدوءا ولا سكينة اضطرت فرانسواز صاحبة حانة « المرايا الصغيرة » الى استدعاء البوليس الحربى لانقاذها من عربدة ضـــابطين من قوات المظلات هاجتهما الخمر الى تحطيم المرايا وصبت عصارة سكرهما نقمتها على كل مرآة فى حانتها ، واستخدما فى التحطيم الكراسى والاحذية والزجاجات والكئوس ، وبلاغة سكرى منادية بتحطيم جميع المرايا فى العالم ..

وكان صـــوتها الشاكى فى التليفون باكيا ومذعورا ، حبيبة الجنود ، بنت مارسيليا المعتقة .

وعندما وصلت قوة البوليس الحربى الصغيرة .. صف ضابط واربعة من الجنود ــ وجدت الضابطين ممددين فى حالة سكر كامل فوق الشظايا والقىء ونفايات الاكل ، ولم يجدا هناك غيرهما سوى المرأة الاربعينية ذات الجفون المدهونة بصبغة زرقاء زاعقة والشعر القصير البلاتينى ، وكانت لائذة بالبار العالى فى رعب وهى تندب مراياها العزيزة التى صنعت لحانتها سمعتها :

ــ انظروا الكارثة يا أطفالى ! .. لم يبقيا على مرآة واحدة ! .. وهل عندى وقت للجرى وراء طلب التعويض فى المكاتب ؟

شهرا بعد شهر .. أنهما فى العادة يســـــكران فى هدوء ، وهذا التحطيم شىء جديد تماما على الكابتن بول والكابتن روبير . لا أدرى ماذا دهاهما الليلة ! .. كانا يحطمان بالتذاذ مجنون وهما يناديان بسقوط المرايا ! .. واليكم يا أطفالى النتيجة ، فلتسجل ذاكرتكم هذا المنظر ، فأنتم شهودى فى طلب التعويض عن هذا الخراب .. حانة المرايا بدون مرايا .. أهذا ممكن يا فرانسواز ، يا مسكينة !. أترونه ممكنا يا أطفالى .. بلا مرايا ،يا الهى ! ..

وما أن سمع جنود البوليس الحربى اسمى الضابطين حتى انحنى رئيسهم فوقهما فى شىء من الرهبة وسأل المرأة التى خرجت لهم من وراء البار غير قاصدة أن يهتز ردفاها فى البنطلون الاصفر المحبوك حول نصفها السفلى :

ـــ ايهما بول وأيهما روبير ياحلوة ؟

قالها فى فضول صادق ، فقد كان يسمع عنهما الاعاجيب وكان يريد أن يعطى كلا من هذين الاسمين وجها .. سمع الكثير عن أفانين قسوتهما فى « استجواباتهما » وعن أجهزة الكهرباء العجيبة التى يستخدمها الكابتن روبير المشهور الذى يصطنع دائما لهجة مهذبة حتى عندما يشرف على نزع أظافر فريســـــته وكأنه يقول للضحية : اسمح لى ياعزيزى ، فلابد لى أن أنزع اظافرك واكتب التقرير المطلوب ! ..

وكان أحد المخمورين قد بدأ يتحرك فى مرقده القذر فقالت فرانسواز وهى تشير اليه :

ـــ هذا الذى هاج هياج الوحش وشتم نفسه الليلة أمام كل مرآة قبل ان يحيلها شـــــظايا هو روبير .. وما أفظعه وهو ســـــكران ! ..

وانحنى جنديان على كل جثة ليتعاونا على رفعها ، لكن صيحة فظيعة ارتفعت فجأة من كيان روبير الذى فتح عينين عكرتين :

ــ التقرير ! .. التقرير ! ..

ثم تأوه واغمض عينيه واخذ يهذى فى انفعال :

ــ يالها من حماقة امام العذاب والموت ! .. صفوف وراء صفوف من العناد الغبى ! .. تكلموا ! .. تكلموا ! .. ما من أحد يقع فى أيدينا ولا يتكلم ! ..

وارتفعت يمناه واهوى بكفه على صدغ أحد الجنديين المثقلين بحمله :

ــ تكلم ! .. تكلم ياطاهر ! ..

وتحمل الجنود غلظته حتى (دلقوه) فى سيارة الجيب الى جانب زميله الذى لم يفق من غيبوبته ، وتحركت السيارة بسرعة تاركة المرأة الحزينة على مراياها منسحقة عند باب حانتها المحطمة .

ــ التقرير ! .. التقرير ! ..

كان بول قد ظل مندلقا فى أرضـــــية السيارة برغم حركتها العنيفة ، لكن روبير الذى ارتطم قفاه بحديد المقعد البارد كان يسترد حواسه سابقا صاحبه الى عالم الوعى ، وكان صوته يرتفع فى بعض الاحيان عاليا :

ــ لماذا لا يتكلم كل هؤلاء الحمقى ! .. تكلم يا طاهر ، فلن ارحمك ! ..

وفى مكانه المحشور المضطرب من السيارة اعتدل ما وسعه ذلك ، وخايله وجه هادىء تنيره عينان مطمئنتان ، ولكأنه يسمع صوت طاهر فى أول الليل وهو يقول له فى أعماق الزنزانة المعتمة :

ـ تكلم انت ، أما نحن فلن نتكلم ! ..

ولقد انتصف الليل حقا دون أن يتكلم طاهر أو تتكلم أمه أو خطيبته ، ولقد عادت كل التفاصيل تغرق ذهن الضابط العائد على مهل من لطشة الكونياك التى احتضنت انهياره الداخلى ..

والآن يذكر أن ساعات التعذيب قد مرت على غير جدوى منذ قال للفتى الجزائرى الساكن النفس :

ـ سأجيئك أنا بالخبر اليقين من قبوبول ، ثم نزفك وفتاتك وأمك الى الموت ونستريح من وجوهكم !

وما أعجب الا يكون قد مر على هذا الصراع غير ساعات قليلة !

كل شىء بدأ عند الغروب ، فى نهاية الردهة الطويلة التى تشق الطابق الاول من مركز القيادة لقوات المظلات ، عندما ظهر طاهر أمامه وهو يمشى وئيدا مطمئنا بين حارسيه .. وهناك قال له بصوته البارد كنصل سكين فى ليل شتوى :

ـ اتبعنى ، واعلم انك لن تجد هنا من يرحمك .

وهو يعلم أنه قالها من فوره للجزائرى حتى يشعره أنه يفقد بين يديه كل حقوقه كانسان ، هو الذى يلمع الوسام فى صدره شاهدا بنجاحه فى مراقى مهنته كجلاد محترف ..

وكانت الحجرة الواسعة التى دخلاها عارية ، أربعة جدران صماء ونافذة عالية ذات قضبان غليظة ، وهناك قال للجزائرى فى برود هادىء :

ـ هل تعرفنى ؟

ـ انت الكابتن روبير ، المشهور ..

انا ايضا اعرفك ياعزيزى واعرف دكانك .. وهل عندك علم بخبرتى فى الحصول على الاعترافات ؟

فأجابه طاهر بمثل هدوئه :

ــ أحب اولا أن يكون عندى علم بسبب القبض على !

وتبسم الكابتن روبير الذى ما وقع أحد فى شبكته الا حدث له ما يحدث للاعب التنس المبتدىء عندما يعجزه فى التبادل السريع للضربات أن يجد الوقت الكافى للتفكير فى مكان الضربة المقبلة ، فهو يتلقى الكرة ويردها حيثما اتفق ولا يتبين خطأه الا بعد أن تكون الضربة قد فشلت وبعد فوات الفرصة .. ورشق عينيه فى عينى سجينه الواقف أمامه عند الجدار العارى :

ــ من هم أصـــــدقاؤك الذين زينوا لك القاء القنبلة على السيارة الحربية ؟ سؤال بسيط لا أنشد عندك الا جوابه البسيط ثم نتصافح وتذهب الى بيتك ياعزيزى !

ــ لا أعرف عن أى قنبلة تتكلم !

ــ تعرف ، وستتكلم !

كان طاهر يعلم أنه واقف أمام رجل يعامل الآدميين كما يعامل الصياد السمك .. بعض الاسماك يكفى أن تلقى اليه بالدودة ثم تجذبه بشدة واحدة خارج الماء فيضطرب لحظة فى الهواء ثم يلفظ الحياة فوق الارض ، والبعض الآخر يلزم لصائده أن يراوغه ويغريه ويطاوعه قبل أن يذيقه طعم اليأس ويسحبه الى سطح الماء ليدرك طعم الموت ، وهو يظل يقاوم كلما جذبه الصياد جذبة تدنيه من الشط ، ويظل الصياد الماهر يعالجه حتى يظفر به ويحطم مقاومته ، وما الانسان عند مثل هذا الرجل الا حيوان متى ذاق هو أيضا غصة اليأس وطعم الموت تولاه رعب الاستسلام ..

وكان الصياد يحس فى هذه المرة ان السمكة لاتزال حرة فى قلب الماء فسعى الى تناول الفريسة فى قبضة يده وهو يتربص بعلامات الخوف وبوادر الاستسلام :

ــ تكلم ياعزيزى !

ــ تكلم أنت !

ــ قنبلة الظهر !

ــ لا اعرف شيئا عن هذه القنبلة كما قلت لك ..

ــ أنت ألقيتها ، فكيف لا تعرف عنها شيئا ؟

ــ أنت تتبع معى طريقتك المألوفة المشهورة يا كابتن روبير ، تفترض سلفا أن الادلة التى تحتاج اليها موجودة فى رأسى ، ومهمتك هى استخراج هذه الادلة ..

قال الفرنسى وهو يبتسم ويجرب طريقة الدماثة :

ــ وافترض سلفا أنك عاقل ولا يسرك أن أسلمك الى الكابتن بول خبيرنا الكهربى فى القبو أو أن أصدر أمرى فى الحال باعتقال زينب أمك .. أليس اسمها زينب ، أمك ؟

ــ وأنت ياسيدى الكابتن ، ما اسم أمك ؟

لم يضربه الفرنسى بل وضع يده على كتفه :

ــ اسمها جاكلين ، لكن هذا التظاهر بالبطولة لن يفيدك يا طاهر ، فتكلم قبل أن تفقدنى هدوئى وأنسى اننا أصدقاء !

قال الشاب فى هدوئه الوطيد ، دون أن يفوته أن الجلاد يعانى رجفة فى يديه وفى جفونه المنتفخة :

ـــ اتحسبنى اجهل انك قادر على كل كبيرة وان مهنتك هى التعذيب ؟ اننى فى دهشة من انك حتى الآن لم تستخدم يدك او تستدع زبانيتك !

زفر الفرنسى وقال فى خطورة مقصودة :

ـــ اتريد الحقيقة ؟ ان امك فى الحجرة المقابلة !

ووقعت فى الحجرة العجيبة الكئيبة لحظة صمت عميقة ، ثم قال طاهر فى هدوء :

ـــ ان الحياة لا معنى لها اذا لم يردها المرء حرة ويعشها حرة .

وهنا ارتفع صوت الفرنسى :

ـــ كلام جميل ، فاسمع الآن امك وهى تغنى يافتى !

وخرج ورد على اسيره باب محبسه ودخل الزنزانة المقابلة على شيخة هنالك لائذة بالجدار العارى ..

وكانت سمراء نحيلة نارية العينين يتدفق من ركن فمها الأيمن على ذقنها وعنقها الضامر خيط هزيل من الدم ..

ووقف أمامها لحظة قبل أن يقول لها :

ـــ لماذا لا توفرين على نفسك العذاب يا امراة وقد اعترف طاهر وقبضنا على شركائه ؟

والتقت عيونهما فى نظرة متوقدة قبل أن تلوى الشيخة عنقها النحيل وتبصق على الارض ..

وعند ذاك ناولها ضربة (ببوز) الحذاء على ارتفاع الركبة ،

فتداعى جسمها فى الحال مطلقا انة جافة ، وارتفعت من الارض حيث تكومت المراة كلمة :

ـ يا وحش ! ...

لكنه انحنى فوقها فى العتمة وهو يهدر فى أذنها :

ـ ابنك تكلم ولن يلبث شركاؤه أن يشرفونا ولا جدوى من عنادك !

ـ يا وحش !

فصفعها ، ثم رفعها من شعرها حتى استوت على أربع ، ودفع برأسها بكل قوته نحو الجدار ، فساخت روح المرأة من قسوة الصدمة .. وقبل أن تفيق من دوارها أخذ يصفعها بغلظة وخبرة :

تكلمى .. تكلمى ..

وما كان الصمت العنيد كالسباب يثير ثائرته فقد تأهب لمرحلة جديدة من الضرب الفنى لا مفر خلالها من ان يرتفع صراخ الضحية ، فما يخفى عليه ان الابن ـ من مكانه القريب ـ تلزمه شجاعة قصوى وجهاز عصبى ممتاز كى يقاوم عذابا ينزل بأمه ..

والزنزانة عند ذاك تسبح فى ظلمة تزيد من حجمها ومن شناعة عريها ، وكأنها كرة من الطين اللزج تشع ظلمات داعية الى تذوق القسوة والى ضرب الحياة بالموت والحرية بالسلاسل .. لكن صوت طاهر ارتفع فى تلك اللحظة مقبلا فى يسر من خلال قضبان بابه القريب :

ـ وما دخل عجائز النساء بقنبلتك يا كابتن ؟

ـ تكلمى أو أهشمك ! ..

كان يريدها مذعنة تماما .. يريدها أن تكشف ما تعرف وما تفكر فيه ولا يبقى منها الرعب سرا مكنونا ..

ولم يكن أحدهما الآن يرى الآخر ، فساعده هذا الظلام الكثيف على أن يرفع من ذهنه أن عدوه لم يكن غير حطام امرأة عبرت اليه « استجوابا » مبدئيا .. أما المرأة العنيدة فكانت قد زحفت بعيدا عن متناول يديه وهى تسمع تنفسه العنيف حابسة أنفاسها .. وجعل يتحرك فى الظلمة مادا أمامه يديه مثل الكلابتين :

ـــ تعالى يا عجوز ، فلا مفر لك من أن تتكلمى .. ما من أحد يقع فى يدى ياشيخة ولا يتكلم !

وتحسس الظلمة فى كل اتجاه ، وما أن نالها آخر الأمر من شعرها حتى ضربها بحافة يده الصلبة على عنقها ..

واذا كان من الحق أنه سمع أنينها ، فلقد سمع أيضا كلماتها الممزقة المستبسلة :

ـــ كذاب ! .. الم تقل أن ولدى اعترف ! ..

فأمسكها من كتفيها وأنهضها وأخذ يرجها بكل قوته كما لو كانت (زكيبة) يريد أن تلفظ بين يديه ما تحتويه .. وتمطى شيطانه المعتم أمام هذه العجيبة ..

فى الضرب لذة يعرفها الكابتن روبير الذى لم تكن هذه أول مرة يجد نفسه فيها فى الليل فى صراع من هذا النوع مع فريسة من فرائسه ..

ان فى الظلمة خاصية فريدة تجرد الضحية من مظهرها البدنى، ومتى حجب الجسم وامحت الصــورة أمكنه ان يستخرج المكنون بالعذاب دون أن يبالى .. وهو يضرب هذه الكومة العنيدة من

اللحم كما لو كان الفكر شيطانا يسكنها ويخرجه الضرب فى صورة اعترافات .. وهو لا يسمع فى الصراخ غير أنين الكائن الانسانى فى حالة « آلام الوضع » .. وضع « السر » الذى يسعى للحصول عليه .. وما الانسان الا آلة من لحم ودم وعظم تدور على آلات التعذيب لتصنع انتاجا ثمينا اسمه « اعتراف » يتضمنه تقرير الى القيادة العليا ..

وطعنها بركبته فى بطنها يستحثها على افراغ جعبتها ، وظل يطعنها حتى يئس منها ..

وخلى عنها فى غيظ وقال لها :

الآن أحضر ابنك من زنزانته هذه القريبة ، ولن تريه فى هذا الظلام لكنك ستسمعين صراخه ، وعندها أضىء لك النور لترى طاهر بعد نزع أظافر يديه وقدميــه .. هاأنا أتوجه الى الباب يا زينب .. هاأنا أفتحه .. الا اذا شئت أن تتكلمى وأن يحتفظ طاهر بأظافره ! ..

صرخت المرأة المعذبة فى زئير عال :

— متى جاءك هذا البهيم يا طاهر ياولدى فابصق فى وجهه !!

فى الردهة كاد فى انفعاله العنيف يصطدم بجندى من جنود المراسلة يحمل فى يده اشارة عاجلة ، وما أن قرأها حتى التمعت عيناه واقتحم الحجرة المظلمة التى تضم طاهر الساكن واعصابه القوية واحتمال البصقة التى أوصته بها أمه ..

لكن طاهرا تلقى الضابط عندما عاد اليه بابتسامته الهادئة التى ضاعت فى الظلمة :

— لماذا ضربت أمى يا كابتن روبير وما أظنك تحب أن يضرب أحد أمك ؟

ـ ليست أمك التى ستضرب منذ اللحظة ، فلقد تم القبض على البنت يا بطل !

تأنى طاهر هنيهة قبل أن يسأل :

ـ البنت ؟

ـ حبيبتك !

ـ حبيبتى ؟

ـ هند !

ـ خطيبتى منذ الاسبوع الماضى خارج المدينة ، فى زيارة لأعمامها الفلاحين فى قرية لا أعرف اسمها . .

ـ بل كذبت عليك فتاتك يا مغفل ، لانها عندما ضبطناها كانت هنا فى المدينة ، على بعد شوارع قليلة من مسكنكم ، فى مخدع عشيقها تاجر الزيت !

أحس طاهر أمام السفالة التى تواجهه بأكاذيبها القذرة وحيلها المفضوحة أن وصية أمه واجبة النفاذ وليكن بعدها ما يكون ، لكنه اكتفى بأن سأل الوغد حامل الوسام :

ـ ما عليك اذن ألا أن تستنطقها هى الاخرى !

ـ هذا هو ما يفعله الآن الكابتن بول ياعزيزى !

وأشعل سيجارة أخذ وهجها كلما جذب منها نفسا يضىء قطاعات متغيرة من قسمات وجهه ، وطال الصمت . .

وكان هذا الصمت هو الآخر سلاحا من أبرع أسلحة الجلاد المحترف . . وفى الصمت كم نضجت طبخته ! . . وعاد آخر الأمر الى الكلام :

— هند الآن ياطاهر تتعذب !

— شيء مؤسف ..

— هل تريد سيجارة ؟

— لا !

— وهى تتعذب بسببك انت !

— لكل هذا نهايته المحتومة ! ..

— هل تحب أظافرك ؟

— انت لا تخيفنى .. وفى أعماقك تعرف هذا ! ..

داس الكابتن نفاية السيجارة بنعله بعد أن اشـــعل منها سيجارة أخرى ثم عاد الى لعبته البطيئة :

— هند الآن مكهربة تماما ، سخنة كالفطيرة ، متأوهة كما لم تسمعها أنت تتأوه ، وعارية بين يدى الكابتن بول الذى لا يعرف عفة !!

— لا تحمل هم هند فى قلبك الكبير الطيب ..

— ياله من عناد أحمق أمام عذاب الموت ! ..

— تكلم بما شئت ، اما نحن فلن نتكلم ..

— لابد انها قد أفرغت الآن كل ما فى جعبتها ولابد أن بول قد استخدم مع أجهزته الظريفة كهرباءه الشخصية ! .. ولسوف أذهب الآن بنفسى فأجيئك بالخبر اليقين من قبو بول ، ثم نزفك وأمك وفتاتك الى الموت ونستريح من وجوهكم ..

قالها وخرج واغلق الباب على السجين بالمفتاح ، وهبط الى القبو وهو يشعر فى حلقه بجفاف شديد ، وجفناه يختلجان ..

هو الآن فى السيارة المنطلقة بأقصى سرعتها نحو الثكنات فى حالة وعى نسبية ، وقد انحنى على صاحبه المندلق فى الدواسة الوسخة رافعا بين يديه ذلك الرأس الثقيل ومتأملا الوجه المألوف الذى كاد عند انتصاف الليل يدهمه بالجنون عندما التقى به فى الردهة الطويلة فى قلب مبنى قوات المظلات وملامحه منقلبة مشـــــوهة ، وسمعه يقول له منتفضا من غيظ شيطاني وانهيار كامل :

— اننى لا أفهم !! ..

وعندها نظر كل منهما فى وجه الآخر ، المقبل من بين زنزانتين عذب فيهما أما صامتة وابنها العنيد ساعات ، والقادم من أعماق قبوه الذى ذاقت فيه بنت صغيرة ساعات من أهوال دون أن تفلت منها كلمة اعتراف ، وعندها صرخ كل منهما فى فزع مخبول ، اذ رأى وجهه فى وجه صاحبه ، كما يرى صورته فى المرآة ..

وعندها انحدرا سويا الى بؤرة فرانسواز ، أما الآن فقد تحطمت كل المرايا وها هو بول يفتح عينين شاخصتين كدرتين ويتأمل وجه صاحبه المنحنى فوقه لحظة قبل أن يشيح بوجهه ليتأمل جانب الطريق الذى تمرق فيه السيارة ، ثم ينتفض جسمه كله انتفاضة وحشية بعثته منتصبا على قدميه ويندلق فوق الجندى الجالس أمام عجلة القيادة وهو يهذى بكلمات مبهمة كالعواء ، وتطبق يداه على العجلة لتديراها فى حركة باغتة عنيفة نحو الرصيف ، فى اتجاه واجهة متجر تزين واجهته الزجاجية مرآة ضخمة يســـطع فوقها بحروف كبيرة سوداء اسم المحل « ركن فرنسا » ..

الأمير شيخو

هذه المرة سآخذك الى طفولتى — الى تلك الاعماق النائية الصافية التى كان الحلم فيها هو كل الحقيقة ، قبل أن تشيخ فى النفس حقائق الوجود المودعة فى الفطرة .

ان طريقتك فى الاستماع تعجبنى ، اذ تلتهمين الكلام مقبلة عليه بأذنيك وعينيك ، كطفلة ظريفة ذكية كلها فضول واقبال .. من هى الشيخة تحفة التى قلت لك عندما دخلت عليك فرأيتك تداعبين ببغاءك هذا البليد الحريص على صمته برغم أن لسيدته مداعبة تنطق الحجر ، أنك ذكرتنى بها ؟ .. هى امرأة كانت تعيش فى أحد أحياء شبرا أيام طفولتى ، هناك فى ذلك الربيع النقى البعيد وراء ضباب السنين ، وكان مجرد ظهورها فى آخر الشارع يجعلنى اندفع مرتعدا الى صدر أمى ، أدفن فيه وجهى ، هكذا ، وأنشد عنده أمانا من خوفى ..

ابعدى هذا الابكم المزركش فان نظرته الى لا تريحنى ، وتعالى الى ركننا وامنحينى أذنيك وعينيك ودفء يدك .. فى شبرا شارع اسمه الأمير شيخو كان ولعله لايزال قريبا من شارع فؤاد حيث كانت تسكن أسرتى ، وكانت فى آخره حارة مسدودة قذرة، فى أولها بيت حقير يتداعى للفناء وما اظنه عاش طويلا بعد أن ودعت طفولتى .. هناك كانت تعيش الشيخة تحفة ، فى حجرة أرضية

تحت مستوى الحارة ، هى والقبر سواء لولا النافذة الواحدة الضئيلة التى كان يقف فيها الببغاء الاخضر الرهيب صائحا فى من يمر به ، ولو كان المعلم جرجس صاحب الملك وبائع الخردوات :

ــ انتم ناس ياغجر ؟! .. انتم ناس ياغجر ؟!

الببغاء ! .. لن انساه ابدا .. كنا نحن أطفال الحى نسميه « الأمير شيخو » ونعمل له فى كل أحوالنا الف حساب .. كان طيرا مهزولا عجوزا نسل العمر نضرة ريشه ، يقف دائما كالديدبان القوى الشخصية فى نافذة ربته الشيخة تحفة ، وعينه المستديرة الصفراء نصف نائمة ، ومنقاره المعقوف شامخ ، كقائد عجوز يتحدى ، وينتظرك ان دخلت الحارة الى أن تمر أمامه ، واذ ذاك يزعق فى وجهك زعقة واضحة ترجف أوصالك ، فى صوت صاحب قهوة بلدى :

ــ انتم ناس يا غجر ؟!

ومن وراء هذا الامير المتعجرف الوقح كانت تبدو أحيانا فى الحجرة الغامضة رءوس حيوانية اخرى ، تحصينها أن استطعت فتجدينها سبعة وتصغين الى موائها الشـاكى فتعجبين للعجوز وببغائها يعيشان فى ذلك القبر مع سبع قطط ..

وتخافين ، لو أنك طفلة ! ..

كنت اخاف من الشيخة تحفة ، ومن حارتها التى لا يدخلها النور ، وجحرها الذى تموء فيه القطط الجائعة ويسب الببغاء الناس ويسخر منهم .. وهى ؟ كانت شبحا نحيلا يرتدى السواد ويمشى يكلم نفسه ، ان خرجت تشترى الرغيف أو الفجل أو اللبن .. شبح مستوحد لا يعرفه احد ولا يعرف أحدا .. فان اشتهت فى خروجها انيسا رأى الناس الببغاء قائما على كتفها أو سربا من

قططها يموء حول قدميها ، وقد جعلت فى عنق كل قط انشوطة ذات لون زاعق .. وكنت اسمع الكبار يقولون عنها انها مجنونة تعيش من حصة ضئيلة فى وقف تركى كبير ، وكثيرا ما رأيت من النافذة والدى وهو يكلمها ويغمزها بنقود فى يدها ..

وكان من الجلى لنا نحن الصغار الذين نرهب تلك الشخصية أن الكبار لا يحبونها وأن حصتها من عطفهم رحمة ، ومن احساسات طفولتى التى لا أنساها ذلك التساؤل الذى كان يملأ خاطرى : كيف أن وجودا انسانيا على هذا القدر من العزلة والانزواء يمكن أن يجتذب أحقاد حى كامل ؟ .. كانوا يقولون انها تحضر العفاريت مستعينة بالقطط والببغاء والصومعة المعتمة ، فتؤذى بذلك من تشاء ، وكنت أصدقهم ، نكرهتها وخفتها .. وقد وعيت تماما ذلك الدرس الذى تعلمته من طفولتى ، وأدركت أن من ينطوى على نفسه يثير فى القطيع الغيظ والحقد والعداء .. أن الكبار من حولنا لم يطيقوا أن تعيش بينهم واحدة لا تكلم أحدا غير الباعة ، ولا تفتح بابها لمخلوق ، وتعايش القطط وحدها ، وتسلط على الناس حيوانها الوقح الذى يصرخ فى الناس أنهم ليسوا أناسا ، ويزعم لهم ، وهم الناس الطيبون ، أنهم غجر ..

لم يوافق المجموع على أن تظل فيه هذه الوحدة المزعجة .

وبالايحاء تولد فى نفوسنا ، نحن الصغار ، الكره لها والخوف منها عجوز الشر المجنونة صديقة الببغاء والقطط والعفاريت ! ..

واستغلت أمهاتنا الجاهلات الموقف فصرن يخوفننا بالشيخة تحفة وحيواناتها ذات الارواح السبعة وعفاريتها الفاتكة وشتامها الأخضر ساكن النافذة ، حتى شحنت نفوسنا الغضة بغضـــــــا ومقتا ..

وكان لابد أن ينتهى الحال بكارثة . وكان فينا ثلاثة شياطين هم عادل وولسن ومحمود ، وكانوا أكبرنا، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، ولهم فى أذى الشقاوة أسهم ورصيد .. ولا ريب أنهم تجسسوا على المرأة المسكينة ورصدوا حركاتها حتى غادرت مأواها فى ذلك المساء مع ثلاثة من قططها تستجدى لها شيئا من اللبن من بيوت بعيدة عن الحى .. وما صنعته عصابة السوء الصغيرة فى ذلك المساء ، عادل الذى صار وكيل نيابة أحداث ، وولسن الذى غدا ضابطا طيارا ، ومحمود الذى يدير الآن فرعا ضخما فى مؤسسة مالية كبرى ، كان فى الحقيقة ذروة التعبئة النفسية العامة التى استمرت زمنا طويلا .. وقد صنعوه فى نشوة من حافز انتقامى غامض وبلذة شريرة جارفة ، وصنعوه — وهم لا يشعرون — باسم القبيلة كلها .

اجتمعوا فى شارع الامير شيخو وذهبوا فاقتحموا حجرة الشيخة تحفة وربطوا فى ذيول القطط الاربعة كل ما وجدوه من أشياء المرأة البائسة .. الحلة والطبلية والكوز والعصا وعلب الصفيح الفارغة .. كل شىء .. وقامت فى القبر ضجة لا يصعب عليك تصورها ، وارتفع المواء وقد تلاطمت أشياء الشيخة فى ذيول قططها المهتاجة فصارت الحيوانات الصغيرة المذعورة يعض بعضها البعض وهى تتصادم فى الفراغ القليل المعتم ..

وشمخ « الامير شيخو » بمنقاره وهو يرى ويسمع كل هذا الصخب الجنونى ، وتقمص عظمة صاحب القهوة البلدى وزعق من عليائه فى الاولاد الثلاثة المبسوطين :

— أنتم ناس ياغجر ؟!

فقال له محمود وهو يهجم عليه فى غيظ :

— يلعن أبوك أنت كمان !! ..

وأمسكه ، وتحمل دفاعه عن نفسه بضربات منقاره القاسية ، فلم يتركه الا بعد أن نتف له جميع ريشه .

صار الطير المسكين عاريا كالدودة ، مهدور الكرامة الى حد تحتار فيه النفس بين الضحك والبكاء ، فسعى بجلده الازرق المرتعد ووركيه الرفيعتين الطويلتين الى ركن يرتعد فيه فى غباء مصعوقا بالألم ، دون أن يجسر على وقاحة ..

وجاء الشياطين الثلاثة الى بيتنا ، وجلسوا حول أخى الذى يكبرنى بعامين يحدثونه بأنباء غزوتهم ، فضحك كثيرا وجعل يضرب بكفيه على فخذيه من السرور والابتهاج وهو يقول لهم :

ـ عفارم ! .. بنت الكلاب دى ..

وأنا لم أر ما حدث بعد ذلك فى جحر المرأة ، لكننى رأيتها بعد ساعات وهم يأخذونها فى جوف الليل أخذ الحيوان الهائج الى مستشفى المجانين .. وأستطيع أن أتصور ما كان .. أستطيع أن أرى تلك المرأة التى كانت تعيش بعقل الطفلة ونفسها وهى عائدة بقططها الثلاث ووعاء اللبن الفارغ .. وأراها وهى تسمع الصخب الفظيع داخل المأوى ، فتقتحمه ، وتتلقاها القطط المجنونة بخوفها ، فتهجم عليها مستصرخة ، فاذا دفعتها عنها من الرعب راحت المخالب تخدشها فى يديها والانياب تعضها فى ساقيها . وتهم العجوز المذعورة أن تصرخ مستنجدة ، واذا كابوس فى صورة طائر خرافى بشع فى عريه التام ، يبزغ لها من الركن ويحجل نحوها وهو يرفرف بجناحين صغيرين من لحم منتوف ضارب الى الزرقة ، واذا هذا المسخ يندفع نحوها صارخا بشكواه يريد أن يتسلق بدنها الى صدرها ..

انطلقت الشيخة الى الشوارع صارخة فى الليل ، فطاردوها وعندما امسكوها كانت البقية الباقية من عقلها قد غاصت فى لجة الجنون المطبق ، فصارت بذلك ناضجة لمستشفى المجانين .

رأيتها وهم يأخذونها ، وبكيت ، فقد ادركت أن هذه نهايتها .

والحق انى لا أزال الى اليوم أتساءل عما صار اليه «الامير شيخو » بعد أن فقد ريشه الاخضر والمرآة التى كان يلعن الناس من شباكها ! وهل ظل يزعق فى الناس زعقتهالتى لا تتبدل ! .. آه لو يخرج من صمته الابدى ببغاؤك هذا الغبى ، فيدع لأناملى شعرك الذى لا يمل ملاعبته بمنقاره ، ويحدثنى بشىء من أنباء أخيه القديم ، أمير الزقاق ، ذلك الذى بح صوته ونتف ريشه وهو ينادى : أنتم ناس ياغجر ! ..

السعر معروف

جلس عبد المنعم شحاتة البحيرى فى حجرته الصغيرة بشارع خلوصى وأمامه الجنيهات السبعة والعشرون التى كانت كل حصاد الجريمة البشعة ، واخذ يلمس الجنيهات ويتأملها فى صمت حزين شاحب، الورقة الكبيرة المصقولة التى تساوى وحدها ألف قرش ، والورقة الأخرى من فئة الجنيهات الخمسة ، والاثنتا عشرة ورقة من فئة الجنيه ، ينشرها ويطويها ويقلبها وهو يقاوم ذلك الشعور المفزع بالشبه الغريب بين الجارة العجوز التى قتلها فى تلك الليلة وامه الطيبة التى تعيش فى القرية البعيدة ، نفس النظرة فى العين والغلظ فى الشفتين ونفس الشعر الاكرت المخضب بالحناء ! والسمرة البدينة ، والانكسار المطبوع ..

حتى صوتها .. صوتها عندما أطبقت يداه على عنقها ..

وانفجر القاتل فجأة فى بكاء عنيف وهو يدفن وجهه بين يديه فوق كومة النقود الصغيرة !

كان قد جاء فى أول الشباب من أعماق البحيرة وضرب فى مجاهل القاهرة مستخرجا لنفسه قوت العيش ، ولم يكن لصا محترفا ولا قاتلا بالفطرة ، لكن كل ما استطاع اهله الفلاحون الفقراء أن يفعلوه من أجله أن علموه مبادىء القراءة قبل أن يقذفوا به الى العاصمة ، ثم نفضوا أيديهم منه الا فى الاعياد والمصائب .

وكفاحه الطويل أفضى به الى محطة بنزين قريبة من مسكنه فى شبرا ، فاشتغل عاملا بها ، ثم زاد أجره وعرف حفلات السينما والساقطات والكتشينة مع الرفاق فى القهوة ، والحشيش أيضا .. ولم يعد يكفيه أجره والعطاء القليل الذى يناله احيانا من أصحاب السيارات ، فمن حق الشباب أن يرى الدنيا من حوله براقة مغرية وأن يشتهيها ويعشقها ويريدها مريحة وطيبة ، ومن حق عبد المنعم شحاتة البحيرى أن يهتم بجارته الشيخة المتهمة بالشح واكتناز المال ، فيدرس حياتها ، ويسمع ما يلغط به الجيران فى الحارة عن شبابها البعيد وما كسبت من حياة الليل وما ضبعت ، وعن ثروة ترقد معطلة تحت وسادة العجوز المستوحدة ..

لكن هذا ليس معناه انه فكر فى ارتكاب جريمة أو أعتقد أن من حقه أن يكون له هذا المال المدفون الذى تنام عليه صاحبته الضنينة .. ولم يكن يجهل انها كانت فى شبابها مغنية أفراح ، وأنها فى عز نجاحها اشترت عشرين فدانا فى قريتها بالمنوفية التى كانت تزورها فى السنة مرة لتقبض ايراد الفدادين وتوزع بعض الصدقات على أهلها الفقراء وتحضر المولد السنوى الكبير لولى القرية سيدى شهاب الدين وتنشد فيه بعض التواشيح ثم تعود الى ميدان عملها وشهرتها فى طنطا ، مشيعة بالشكر والاحترام والعرفان ..

وكان بسيونى العجلاتى الذى يحتل دكانه ناصية الحارة مغرما بالكلام عنها ، والصورة التى كان يستخرجها عبد المنعم شحاتة البحيرى من ثرثرة العجلاتى كانت ترسم لشبابها البعيد فى خياله مغنية جميلة ، لها مع ألوان الناس عجائب ، وكل ليلة لها نزوة أو نادرة ..

كان يعرف قصتها المشهورة مع أحد محدثى النعمة عندما

جاءها فى بيتها بطنطا يطلبها للغناء فى حفلة ساهرة فى بيته ، وكيف سألها بعد التعارف والمؤانسة : كم تأخذين ؟

قالت : المعروف !

قال : يعنى كم ؟

قالت : تكفينا معرفة الناس الطيبين !

قال : يعنى كم ؟

قالت : ما تراه أنت جزاء حسنا عن الأغنيات الثلاث أو الأربع التى سأغنيها .. المهم هو أننا تشرفنا !

اشعل الزائر المنفوخ سيجارة من علبته الذهبية وسألها فى شبه غضب :

ــ يعنى كم ياست ؟

فأشعلت هى الاخرى سـيجارة من علبتها ونفثت الدخان متطلعة الى حلقاته المتعاقبة فى دوائر لطيفة كأنها أوهام ، وقالت :

ــ أنا سعرى معروف !

حاول الرجل ان يبتسم متلطفا وهو يقول لها :

ــ الست تدخن كثيرا .. قد يؤثر هذا فى صوتها ؟

فقالت وهى تزفر :

ــ أنا أشرب فى اليوم الواحد اكثر من أربعين سـيجارة ، واسخر من الزعم الشائع الذى يحرم التدخين على أهل المغنى .. حضرتك آنستنا !

قال : كم تأخذين ان شاء الله ؟

قالت : مائة جنيه أن شاء الله ..

ظهرت على وجه الرجل المتعاظم الذى ضايقها منه أنه لا يعرف كيف يعزم على سيدة بسيجارة علامات الضيق والاستهوال ، ثم قال لها فى شيء من التهكم :

ــ وأم كلثوم نفسها تأخذ كم ياست ؟!

ــ تأخذ قدر هذا عشر مرات ، أو أكثر ان شاءت ، ويكون هذا فى الحقيقة قليلا عليها !

ــ وعلشان خاطرى ؟

ــ مائة جنيه هى التقدير الذى روعى فيه خاطر السيادة !

وزفرت البنت العصبية ، وبرق الشرر فى أعماق حدقتيها ! ولكنها ذكرت أنها لا تملك فى ذلك اليوم غير سبعين قرشا ، وأن الديون تركبها وتكتم أنفاسها فى انتظار ايراد العشرين فدانا .. وتنحنح السيد المستكرش ولعبت أصابعه الغليظة بطرف شاربه ، ثم تبسم عن فم تغثى النفس من حالة أسنانه ومن ألوانها المتأرجحة بين السواد والصفرة :

ــ نجعلها خمسين !

ــ مائة ...

ــ ستين ، ونتكل على الله ..

احست المغنية التى لم تســـمع بها القاهرة جرحا فى عزة نفسها ، فكادت تنسى افلاسها وديونها ، وقالت له فى صوت تجرد من كل مجاملة ورقة أن كلمتها واحدة ، وهزت ســـاقها وأطفأت سيجارتها فى غيظ ، ثم اشعلت سيجارة جديدة ..

وجرحت رجولة الرجل البدين أمام التماع الشخصية التى كسرت كبرياءه ، وتوقد فى عينيه بريق التحدى ، فوقف واستأذن فى جفوة قائلا للمغنية فى صوت يرتعد بالانفعال :

ــ أنا لست هزيلا فى مائة جنيه ياست ، فقط .. كنت أرجو أن تكرمينا بتنزيل خصوصى ..

لم ترد الست ، فتردد لحظة ، ثم قال فجأة :

ــ نهايته ! .. اتفقنا .. ليكن .. مائة جنيه .. فقط .. أرجو الا تنسى أن ضيوفى لم يتعودوا الاختلاط بأهل المغنى !!

قالها الحيوان ومد لها يده باحدى بطاقاته ، وأعاد المحفظة المنتفخة الى جيبه فى كبرياء :

ــ وتفضلى العنوان !

وقفت المغنية تودعه والبطاقة فى يدها ، فقالت فى صـــوت رقيق وابتسامة الحرب تشيع فى وجهها اللطيف الاسمر !

ــ اسمع ياسيدى المحترم .. مادمت لســـــت مجبرة على الاختلاط بضيوف السيادة خلال الغناء فانى أغير رأيى .. انى الآن اقبل أن آخذ خمسين جنيها فقط !!

وصفقت الباب وراءه فى ارتياح !

كانت هذه هى صورة شبابها النائى فى مخيلة جارها الشـاب عبد المنعم شحاته البحيرى ، أما الآن فهى بائرة وضائعة ، وملقاة بكنزها الدفين عند أطراف أصابعه .. وفى ساعة من ســــاعات الضيق المالى والنفسى اقتحم عليها فى الظلام ركنها ليسرق كنزها، لكنها لما احست بوجوده همت أن تصرخ وتقاوم ، فقتلها ..

ولم يره احد ، لكن كل ما عثر عليه عندها لم يتجاوز تلك الجنيهات السبعة والعشرين .. وجدها فى منديل مصرور تحت ركن الوسادة القذرة البالية ..

خنقها بقبضتين خائفتين ثائرتين ، وخرج من جحرها تخايله صورة وجهها الذى وجد له فى نفسه معنى غامضا لايتبين مصدره ، ولم يكن فى قلبه مع الرعب والاشمئزاز من نفسه الا هذا الاحساس الغريب بما فى ذلك الوجه الذى جرده من الحياة من الفة قريبة الى نفسه .. ثم توضح له وهو يرتعد فى حجرته ذلك الشبه العجيب بين ضحيته وأمه ..

لم ينم الا ساعة اختلسها مع ضوء الصبح ، وصحا منها على يد تدق بابه فى غير رفق ، وصوت جاد ينادى :

ـ عبد المنعم شحاته البحيرى .. عبد المنعم شحاته البحيرى ..

انتفض فى ذعر ووقف عند باب الحجرة يلهث ويرتعد أمام عملاق القانون والسجن والمحكمة والمستشارين الثلاثة الذين رآهم فى افلام السينما .. والمشنقة .. ونفسك فى ايه يا عبد المنعم ..

ولا مفرمن أن يفتح للطارق ويلقى القدر المرصود بالباب وجها لوجه !

ولم تكن اليد الطارقة للبوليس كما حدثته نفسه ، بل يد ساعى التلغراف تقدم له برقية ..

تناول عبد المنعم البرقية فى شبه غشية ، ثم دخل ورد الباب ..

وكانت البرقية من أبيه ، وتحمل هذا التوقيع : « أبوك شحاته » وكان فيها أن أمه ماتت !

فى حركة آلية اندفع عبد المنعم شحاته البحيرى الى محطة القاهرة وهو يردد كلمات سيطرت منذ تلك اللحظة على وجوده ووعيه سيطرة كاملة : « فى نفس الليلة ! فى نفس الليلة ! » .

وفى القطار قرأ ما كتبته صحف الصباح عن جريمة شارع خلوصى .. جريمته !

عاش فى فكره تلك اللحظات العنيفة الجنونية التى خنق فيها ضحيته فوق حشيتها الملقاة فى الركن المظلم ، وتخايلت له المشنقة ، وان كان قد سر أن البوليس يقف أمام الحادث مكتوف اليدين ، لا يتبين سبيله الى الفاعل المجهول .

« فى نفس الليلة .. فى نفس الليلة .. » .

انه فى مأمن من سطوة القانون وفى طريقه الى القرية البعيدة كى يشيع جنازة أمه ، ويتقبل فى مأتمها العزاء مع أبيه واخويه الفلاحين .

لن يدق الباب عليه شرطيان ورهط المخبرين !

لن يفتح له باب زنزانة لا زميل فيها الا خيال الوجه الذى يشبه وجه أمه !

لن يقول المستشار : « حكمنا باعدام عبد المنعم شحاته البحيرى » ولن يقول له الضابط تحت حبل المشنقة : «نفسك فى ايه ياعبد المنعم ! » .

لكن الصورة المفزعة كانت معه فى القطار ، الوجه المخنوق وملامحه التى تشبه وجها آخر عزيزا ينتظره الآن باردا على فراش الموت .

ودخل قريته متهالكا منسحقا ، وفى خوف أحس وسط أهله

كم هو غريب عن حزنهم ! .. كانوا حزانى لأن ربة البيت ماتت ، وكان هو حزينا لان المرأة التى قتلها تشبه أمه .

وقبل خروج الجنازة من الدار أصابه فجأة عجز مذل عن أن يلقى على وجه أمه نظرة .. لم يطق هذا ، لانه خاف أن يصرخ عند النظرة معترفا بجريمته !

ولم ينس لحظة واحدة وجه عجوز شارع خلوصى حتى انفض المأتم ، فى نفس الليلة !

وصـــار كل همه أن يتلقى من بعض أبناء القرية المتعلمين صحف الصباح كل يوم ، وكانت تصل متأخرة ، فيستقبلها فى لهفة محمومة ، ويتابع أخبار التحقيق ، ويستمد من وضوح الغموض فى الحادث شعورا متجددا بالطمأنينة .

القانون عاجز .. وان كان للقتيلة وجه كوجه أمه !

انها تتخايل له وتلاحقه وتعيش رغم طمأنينته الظاهرة تحت جلده ، وأمه ماتت فى الليلة نفسها ، والليل طويل وأسود من كل عذاب أسود .

وقال له أبوه بعد أيام ان عليه الآن بوصفه رشيد العائلة المتنور أن يستقر وينشىء بيتا ، وأشار الى ابنة شيخ الخفراء ، صديقه .

ثم كلمه عن الزراعة والنقود وسوء الحال قبل أن يسأله بعد العشاء على الطبلية العتيقة فى دهليز الدار ، أمام أخويه : رفاعى وبسيونى ، عن موعد سفره الى عمله فى القاهرة .

قال عبد المنعم وقد نكس رأسه :

ــ غدا ان شاء الله .. الاجازة تنتهى بعد غد .

لكن نفسه كلها كانت متشبثة بغير خفاء بالبقاء فى الريف النائى ، بعيدا عن المدينة وشارع خلوصى ، وكانت مليئة كلها بخوف غريزى من مغادرة هذا البيت وترك أهله مرة أخرى الى هوة الضياع ، وفى تلك الليلة تأمل طويلا أباه وأخويه ، وتمزقت نفسه وسط أولئك الاطهار ، وبكى أمه التى لم يخنقها أحد ..

وعندما حانت ساعة الصفر قال له ابوه :

ـ اذا كان معك فلوس فاترك لنا شيئا منها يا عبد المنعم !

فأخرج رزمة مطوية بغير عناية ووضعها فى حجر الشيخ الطيب .

ـ هذا كثير يا بنى .. سبعة وعشرون جنيها .. أهى كل ما أدخرت من عرقك ؟

ـ نعم ، كل ما وصلت اليه يدى !

ـ الا تحتفظ ببعضه ، قد تحتاج الى أشياء ..

ـ لا .. خذها كلها .. كلها ..

ـ خذ هذه الجنيهات الخمسة ..

ـ لا .. لا أريد من هذا المال شيئا !

فدعا له أبوه أن يكفيه شر أولاد الحرام ، وقبل عبد المنعم أهله وهو يشعر أنه انما يشم رائحتهم لآخر مرة .

وبكى فى القطار طويلا ، وندم على أنه لم يركع أمام ابيه ويعترف ، ولاح لخياله منظر حجرته وقد وقف أمامها المخبرون ينتظرون وصوله .

وكانت صحيفة واحدة فى ذلك اليوم هى التى أشارت ، فى سطور قليلة توحى بقرب حفظ التحقيق فى مصرع عجوز شـــارع خلوصى ، « جريمة شبرا الغامضة » .. لكن صـــوتا فى أعماق عبد المنعم شحاته البحيرى كان يحدثه بأنه سائر بنفسه الى قبضة المصير ، الى وجه أمه ، وجه العجوز التى خنقها .

وشحبت نفسه ، وجاءت لحظة سال فيها العرق غزيرا على جبينه وصدغيه ، وسيطرت على كيانه كله تلك الرعدة التى الفت طوال هذه الايام الخمسة أن تزوره ، ثم رأى ركاب عربة الدرجة الثالثة ذلك الشاب الاسمر النحيل الذى يرتدى زى عمال محطات البنزين وهو يسقط فجأة من مقعده على ركبتيه وســمعوه يزعق منتحبا فى انفجار عصبى مفزع :

ـــ أيوه أنا قتلتها .. أنا قتلتها .. أنا ..

بعـــد الأربعـــين

لم اكد أصل الى المنصورة حتى ندمت على الرحلة كلها ، وملأ نفسى شعور اليم بتطفلى وانا ادخل مبنى الشركة ، لكن توفيقا لم يكن موجودا ، وتطوع أحد زملائه فوصف لى « البيت » وهو يبتسم ويشير الى أن صديقى فى أجازة اليوم بسبب صداع ، وان « الراحة » فى البيت نعمة ..

ـــ البيت ؟ .. ألا يقيم توفيق اذن فى فندق المحطة ؟

فقالت لى تلك الابتسامة الخبيثة فى عينى زميله العجيب :

ـــ كانت اقامته فى اللوكاندة فعلا قبل أن يجد منذ أيام بيت الاحلام ..

وتركت الابتسامة فى وجه صاحبها ودخلت فى حنطور صغير ، ودخل الحنطور حى شجرة الدر حتى وقف بى أمام بيت صغير قريب من الخلاء ، وعلى بابه وجدت صـــــاحبى توفيق واقفا بالبنطلون والقميص وهو يساوم بائع بطيخ ويزن بين يديه بطيخة فى وقار .

ولا جدال فى أن الشـــــعور الذى نطق فى وجهه عندما رأى هبوطى من الحنطور على غير انتظـــــار هو الفتور المندهش غير المضياف !

وأنا اعرف لغة الوجه الانسانى ، فصدقنى !

ولقد تجلدت للمحنة مهما يكن من شىء وعانقته وقبلته وزعمت له — مداراة لخجلى — أنى ما جئت الدقلهية الا للتعزية فى أحد انسبائنا ، ثم لم يهن على أن اغادرها قبل أن أخطف رجلى الى المنصورة لاطمئن على أحوال صديقى .

كل هذا ونحن بالباب .. لا قال لى تفضل ولا الارض انشقت وبلعتنى بندمى وخجلى واضطرابى ..

وفجأة سمعته يقول لى وهو يلتفت نحو البيت فى قلق :

— اسمع ! هل فيك من يكتم السر ؟

— اليوم فقط يخطر لك أن تسألنى هذا السؤال ؟

— ضحى هنا ! ..

آه ! هذا سر فتوره ومفتاح ابتسامة زميله موظف الشركة الخبيث ! .

وانا أحب لك مادمت تريد الحكاية كلها أن تؤمن مثلى بأن الصداقة درجات ومقامات .. ومن حقك قبل أن أدخل بك على ضحى أن أضع صديقى توفيقا أمامك فى « خانته » كواحد من أولئك الذين جمعتنى بهم المصادفة وحدها ووضعتنا معا فى طابور ، بعد أن جاءت بنا من عوالم متباينة الى فصول المدرسة التى حاولت فى صبانا أن تحشونا بمعلومات واهتمامات موحدة ، ثم مشى الزمن بكل منا فى توليفاته المذهلة وغابت عنى فى «تخاريم» الحياة العجيبة اغلبية عظمى من شخصيات الزملاء القدامى ووجوههم ، كما تغيب أيام كانت فى أوانها غضة وحريفة ، وصارت العلاقة الوحيدة بينى وبينهم هى النسيان ، الى أن تأتى أمسية ، فما أكاد أدخل المترو

الواقف فى محطة باب اللوق حتى أجد وجها من تلك الوجوه القديمة مضافا اليه بصمة الزمن ، تركته فى سنته السابعة عشرة أو نحوها ولقيته بعد أكثر من عشرين سنة ، وأدهشنا ونحن نعجب للمصادفة أن نكون من سكان ضاحية واحدة ولا نلتقى ، ثم يكون لقاؤنا هذا قبيل انتقاله الى المنصورة لادارة فرع الشركة الجديد هناك ..

وكنا نجلس متجاورين وأمامنا مقعد مزدوج خال ويد توفيق تربت على كتفى فى سرور صادق ، ولسانه لا يكف عن اجترار ذكريات المدرسة أو الكلام عن أولاده الثلاثة ودخله الذى لا يكفى نفقات معيشة حسنة برغم نجاحه فى عمله ، وقال لى وهو يضحك :

ـــ مادمت عزبا فان هذا الكلام لا يهمك طبعا !

وسألته عن انتقاله القريب الى المنصورة فقال : انه هو الذى طلب النقل وسعى له ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لضغط مصروفات الاسرة وموازنة دخلها .. وكان المترو عند ذلك قد وقف لحظة بمحطة الملك الصالح قبل أن تنطبق أبوابه ويعاود الحركة ، فما لبث المكان الخالى أمامنا أن شغلته سيدتان ، ومن الجمال ما ينفض رائيه نفضا ، ولا سبيل الى تجاهل صغراهما التى كانت نادرة الانوثة ، وكانت تعرف أن مجرد ظهورها يعطى كل رجل الحق فى أن يطيل اليها النظر ويخشع قلبه .. وهذه الجميلة المثيرة لم يكد يقع بصرها على زميلى القديم فى مدرسة فؤاد الأول ـــ بعد أن جاءت جلستها أمامى ـــ حتى دهمها فى الحال تغير مدهش وشحب وجهها وارتعدت أصابعها القصيرة غير الرشيقة فوق حقيبة يدها البديعة ، ثم عكر صوتها انفعال غريب وهى ترد على سؤال خافت من الكهلة التى معها :

ـــ بعد ثلث ساعة تقريبا نصل حلوان !

وصاحبى أيضا كان حاله عجيبا ..

وشعرت أمام أضطرابها وذهوله أن سيالا خفيا يشملهما وان يكن صاحبى عاجزا عن تصديق الاشارة التى يرسلها اليه الطرف الآخر ، وكأنه يرفض الاتصال ويقاومه ، على حين كانت الشابة المثيرة ترشق نظرتها فى عينيه فى نداء مستصرخ بليغ ، ثم لم يكفها هذا فتعمدت أن تفتح مع رفيقتها حديثا عن المنصورة ، ولفظت اسم البلد وهى تشد اليها نظرة زميلى وانتباهه ..

وما أن سمع حتى أغمض عينيه وسمعت صوت تنفســـــه المضطرب ، وكنت بعد ذلك شاهدا على دقائق هذا الحوار الصامت المفعم بالضراعة الواضحة من جانب وبالذهول المستريب من الجانب الآخر ، حتى نزلنا فى المعادى وتركناها وقد حجبت اللهفة فى وجهها غيمة من خيبة ، وكانت وهى تنظر من نافذة المترو ترانا ونحن نبتعد على رصيف المحطة وكان توفيق يمشى فى ذهوله دون أن يشعر بوجودى الى جانبه ..

وتعثرت خطواته قبل أن يتنبه على صوتى عندما سألته عن طريقه الى بيته وأعطيته بطاقة بعنوانى ورقم تليفونى وقال لى وهو يمسك ذراعى انه يسره حقا أن أرى أولاده وأتعشى عندهم فى يوم قريب ، قبل سفره ..

وعندما امتدت يدانا للمصافحة عند المحطة سألته فجأة :

ـ هل تعرفها ؟

ظل ينظر الى قبل أن تنفك عقدة لسانه فيقول لى ونحن نعبر المزلقان :

ـ لا .. تصورت فعلا اننى أعرفها ثم تبينت خطئى ..

قلت :

ـ امرأة مثيرة حقا ! ..

فقال : فعلا .. مثيرة !

وسكت لحظة قبل أن يشير الى مدخل شارع هادىء صغير :

ـ أن بيتنا على اليمين فى نهاية هذا الشارع ..

ووقفنا مرة أخرى ، ثم سمعته فجأة يقول لى :

ـ اسمع ! لقد خمنت الحقيقة وأنا أعرفها !

تأملته مبتسما ، زميل المدرسة الثانوية وقد تخطى مثلى الاربعين ووقف أمامى كالتلميذ المذنب وهو يجاهد للاعتراف ، ثم قلت له :

ـ لابد أنك قبل الزواج كنت تبرطع فى المنصورة على هواك ؟

تنهد واحتار وكاد يشد على يدى مصافحا ويذهب عنى ، ثم رأى أن يقول شيئا :

ـ عندما عرفتها فى المنصورة لم يكن لها كل هذا المظهر المنمق .. وقد قلت لنفسى اليوم عند النظرة الاولى ان هذا مستحيل ، ولا يمكن أن تكون هذه هى البنت التى عرفتها منذ تسع سنوات .. لكنها تعمدت أن تكلم صاحبتها ، والصوت أفضح للشخصية من الوجه ..

وسكت لحظة قبل أن يضيف هذه اللمسة الاخيرة :

ـ كانت شبه خادمة فى بيت سكنت فيه ..

ـ هذه البديعة الساطعة !؟

اسمها ضحى ..

ثم سألنى :

ـ هل عندك مانع من أن نتمشى قليلا حتى بيتى .. ؟ .. احب أن تعرف البيت ونتفق على موعد زيارتك القريبة .. انها خطوات .. أحسست أن من القسوة أن أترك هذا الانسان الذى يريد الآن بعد أن انحلت عروة تحفظه أن يتكلم قليلا عن ماضيه .. عن ضحى .. فمشيت معه وانتظرت حتى تكلم من نفسه .. كان عزبا يوم رآها فى المنصورة وكانت المتعة المختلسة من مبادىء شبابه المحترمة ، لكن ضحى لم تعطه فرصة لمغازلتها ، لسبب بسيط غير متوقع ، اذ أنها وقعت فى حبه من أول يوم .. سألته :

ـ الم يكن هذا هو ما تسعى اليه فى الحقيقة ؟

فنفض الهواء أمام وجهه بحركة عصبية من يده :

ـ احبتنى حبا مربكا لانه كان مليئا بالاحترام والخوف واليأس ، فلم آخذ منها حتى قبلة ! ..

ويا للحسرة التى كانت فى صوته !

وسكت وغاب عنى هنيهة قبل أن يقف بى تماما فى وسط الشارع ليقول لى :

ـ زمن ! .. كانت زوجة أبيها صاحب البيت ترهقها وتعنف بها ، لكن هذا الحب البكر العجيب انشأها من جديد وكأن نبلا طبيعيا مدفونا تحت مظهرها الذى لم يكن نظيفا ولا مهذبا قد عاد للظهور فى مشيتها وطريقة كلامها وتسريحة شعرها ونظرة عينيها .. وكانت ترتعد لنظرتى وتتجمد كالفأر المذعور أمام عينى القط المتسلطتين .. وعندما دخلت عليها حجرتى وهى تكنس فى أحد الايام كان أول ما بحثت عنه عيناها هو الباب سبيل الفرار ... وضقت آخر الأمر بهذا الحال وثقلت وطأته على أعصابى .. وقد رايتها انت اليوم وتستطيع أن تفهمنى .. وقررت الانتقال

الى مسكن آخر فى حى أرقى هو حى شجرة الدر .. وفى آخر ليلة لى فى بيت بسيونى أفندى دخلت ضحى حجرتى ومظهرها كله ناطق بأنها جاءت واهبة .. نظافتها وشعرها وفستانها وعيناها ... وتملكتنى رغبة مجنونة فى أن اهينها واحرجها .. اقول لها مثلا انه يحسن بها أن تبحث عن طباخ يبادلها الهوى .. كان موقفها السلبى الطويل منى قد اترع قلبى بمرارة صعبة .. وأمام الجمال الذى تحت رحمته خنقت رغبة الحيوان فى كيانى ، فطردتها فى جفوة ، فى بلاهة .. ثم افترقنا فلم أرها الا فى المترو منذ دقائق .. مثلاثة .. جرحتها فلما مر الزمن ووجدتها لم أعرفها وأكلمها ، وكنت الصنم الغبى التعس ..

قالها بحرقة نادمة يائسة ، لكن بنتا صغيرة لا يتجاوز عمرها أربع سنوات بزغت فى تلك اللحظة من آخر بيت على اليمين واندفعت نحوه فطوقت ساقيه بذراعيها السمراوين الصغيرتين ، وهزته كما لو كانت توقظ نائما :

بابا ! جبت اللى قلت لك عليه ؟ .

أفاق وتبسم وامتدت الى شعرها القصير أصابعه العصبية وكأنه يؤوب من سفر بعيد ، وقال لها فى رفق :

ـ سلمى على عمك يانادية ..

والتفت نحوى دون أن يرفع عنها عينيه :

ـ هذه هى الوسطى .. ومحمد أكبر منها بسنة وعادل أصغر بسنتين .. وهذا هو البيت .. فمتى تشرفنا بتناول العشاء عندنا ؟ هل يناسبك مساء السبت ؟ ..

وبعد يومين أخذنى توفيق الى بيته وقدمنى الى زوجته التى لم تكد ترحب بى حتى سألته فى لهفة : هيه ؟

ولست ادرى لماذا احسست أن حماستـــــه فى الرد لم تكن طبيعية :

ــ خلاص ! المدير وضع امضاءه الكريم على القرار ..

ــ المنصورة ؟

ــ طبعا ، كما طلبت ..

ــ ومتى نسافر ؟

ــ هيه ؟ .. السفر ؟ لا أعرف .. ولاداعى للعجلة .. عندنا وقت ..

ولم يفتنى اضطرابه وهو يرد على زوجته التى بدت لى طيبة وديعة وارتحت الى صوتها الرقيق المطمئن ، من ذلك الطراز الذى خلق ليربى الاولاد ويعمر البيوت ..

وقالت لى وهى تضحك :

ــ انظر الى صاحبك ! .. كان متلهفا ، فلما نال غايته لم يعد يظهر أى سرور !

فاندفع هو الى الكلام :

ــ أنا مبسوط طبعا ، لكن لاداعى للعجلة فى بحث موضوع السفر .. أمامنا مدة .. ولابد من ترتيب كل شىء هناك قبل سفرك مع الاولاد .. أين هم ليسلموا على عمهم ؟

كان محمد ونادية وعادل مع الدادة فى الفســــحة اليومية وتركتنا أمهم وغابت فى مطبخها .. وعندما ظهر الاولاد عبرت لأبيهم وانا اقبل وجناتهم اللطيفة عن اعجابى بهم ، فقال لى فجأة :

ــ ياعم بذمتك أليست العزوبة أحسن وأسهل ؟

فى أول لقاء لنا ، من يومين ، كنت تتغنى بسعادتك الزوجية وتعالج فى كلامك مسئوليات الأسرة وميزانيتها ..

حتى ذلك اليوم كانت حياته الزوجية هادئة كمجـرى مائى متدفق فى سلاسة ويسر ، وهاهى تدخل فجأة فى شلال ! ..

وجلسنا حول المائدة وزوجته لا تدرى من أمر هذا الشلال الخطير شيئا ، وودت أن أقول لها محذرا ان المهم الآن ليس آداب الاولاد على المائدة بل زوجها نفسه .. اليقظة يا أم الاولاد ، فقد هبت من الماضى رياح شديدة تضرب فى شراع رجلك الذى يهتز الآن على الامواج .

وما أحكمك يانادية الصغيرة وانت متعلقة بعنقه بعد العشاء فى اصرارك اللذيذ على أن يكون نومك فى حجره ! ..

وبعد اسبوعين جاءتنى منه رسالة من المنصورة تكشـف سطورها المضطربة القليلة عن انشغاله وتنتهى باعتذار عن قصرها ووعد بكتابة رسالة مطولة قريبة .. ثم تلقيت منه بعد عشرة أيام رسالة ثانية يطلب منى فيها أن أذهب الى زوجته التى يستبد بها القلق لعدم عثوره على مسكن مناسب حتى تلحق به مع الاولاد والاثاث ، وأن أقنعها بالصبر ، فليست مسالة الشقة المناسـبة بالسهولة التى تتصورها .

وفى مساء اليوم التالى فوجئت بصوته المضطرب فى التليفون وهو يطلب منى أن اقصد بيته فى الصباح وامنع زوجته بأى شكل من السفر الى المنصورة ، ثم ابعث اليه ببرقية مطمئنة ..

وكنت اتوقع أن تقول لى زوجته الثائرة بمجرد ظهورى :

ـــ أنتم الرجال لا تنفعون أبدا فى البحث عن شقة ، وسأتولى المسألة بنفسى وأجد الشقة اللازمة فى أربع وعشرين ساعة .

وعندما دخلت عندها وجدت أمامها تلالا من الملابس وحقائب مفتوحة ، وكان ما قالته لى شيئا آخر غير ما توقعته ..

ـ هل تجد انت من واجبى الاستمرار فى السكوت ؟ .. لماذا يرفض صاحبك بهذا العناد فكرة سفرى الى المنصورة ؟ .. ماذا يحدث هناك ؟ .. أنى مسافرة بعد ظهر اليوم أو صباح غد على الاكثر ، وسيكون موعد وصولى مفاجأة له .. أريد أن أرتاح ..

واحسست عجزى امام هذا المنطق فأبرقت اليه بالنتيجة ، واذا به بعد ساعتين على التليفون مرة اخرى يشكرنى ويقول لى انه مسافر فى الحال الى القاهرة ، وان زوجته تعرف ذلك من مكالمة تليفونية تمت بينهما .. وما أن هبط من القطار حتى وجدنى على الرصيف أمامه ومعى ثورة على تورطه فى اثارة شكوك زوجته ، لكنه اخذ بذراعى واندفع بى الى فناء المحطة وهو يقول فى انفعال :

ـ لاداعى لكل هذا الاكلام وتعال معى الى البيت ، فانى عائد الى المنصورة باكسبريس المساء .

وكانت خطته التى كشف لى عنها هى أن يتخذ من وجودى معه درعا ، لكننى رفضت الفكرة من اساسها وصارحته بأنى أكاد أعتقد انه يخفى فى المنصورة شيئا لا يريد أن يعترف به ، وتركته يفهم من كلامى انى أتصور فى حياته هناك مغامرة جديدة مبتذلة يدفن فى تفاهتها أشجان ضياع فاتنة المترو من حياته الى الأبد ..

ومر اليوم دون أن يتصل بى كما وعد .. ويوم آخر .. وفى اليوم الثالث لم أعد أطيق الصبر فتوجهت الى بيته ، فكان أول ما انفتح عنه الباب صوت زوجته السعيد وهى تغنى !

وما أن سألتها عن الأحوال حتى قالت فى بساطة : كل خير ! .

ــ وأين توفيق ؟

ــ توفيق سافر .. أتعرف ؟ .. توفيق معه حق .. ما الذى يرمينا على المنصورة ! ..

ووقع صمت قصير قبل أن تعود الى الكلام :

ــ كانت غلطة يوم تحمس للفكرة وكتب طلب النقل ، وقد اعترف لى بهذا الغلط هو نفسه وقال لى إن الانسان لا يتعلم بالمجان وانه سيسعى للعودة الى القاهرة ..

وكانت مقتنعة تماما بالبقاء فى مكانها فى انتظار نجاح رجلها فى مسعاه ، بل كانت لا تكتم أشفاقها على توفيقها المسكين فى وحدته البعيدة ..

وخرجت من عندها أكثر حيرة مما دخلت ، وهجس فى خاطرى وانا فى طريقى الى بيتى شعور بالندم ، كما لو كنت شريكا معنيا لصاحبى ، وقررت أن أسافر اليه وأوقظه وأوقفه على قدميه وأنبهه الى أن المسئولين فى الشركة سينظرون الى طلب الغاء النقل بعد شهر واحد من الحاحه فى طلبه نظرة مسيئة الى شخصيته ومستقبله .. وليس معنى هذا الشعور النبيل أننى لم يكن بى فضول الى الوقوف على سر حكاية المنصورة ..

وها قد جئت فندمت ، دون أن تنشق الارض لتبلع خجلى من نفسى ، أما البائع اللهج فقد شق البطيخة بسكينه فاذا هى حمراء بلون الدم ..

ومازلنا بالباب ، لم يزد علينا الا اسم ضحى القابعة هنا بكل جمالها الخطر الذى ينهض وحده حجة ! .

ولعلك تتلمس منذ بدأت معك هذه الحكاية وصفا لهذه المرأة يجعلها ماثلة فى وعيك بثول اللحم والدم والصورة ، فاعلم أنك انما

تتلمس المستحيل ، وهل من سبيل الى وصف لهب لم تحترق عليه اطراف الانامل ؟

انها فهدة ، وها هي الفهدة — وقد دخلنا البيت آخر الأمر — تبتسم لرؤيتي .. ابتسامة كالغابة ! .

— أنا وأنت صديقان لانك كنت معه يوم الترو ، وهذا يكفي لكي تكون صديقي اذا سمحت لي !

وهي ناعمة وذكية تحاول أرضائي بكل وسيلة :

— المطبخ يناديني ، ولابد أن عندكما كلاما كثيرا تقطعان به الوقت ، لان الغداء سيتأخر ، فاني أسوأ الطباخات والشــهادة لتوفيق !

لكني لم أكد أفتح معه الموضوع حتى الزمني حدى :

— أسمع ! .. انا لم أقل لك انقذني !

فاندفعت متراجعا بغير نظام :

— مسألة طلب الغاء النقل ليست من مصلحتك يا توفيق !

فزفر في وجهي من الضيق :

— اسمع ! مسألة طلب الغاء النقل كذبة أرحت بها امراتي .. فاتركني أسرق الحظ من الزمن وبعدها يحلها الحلال يا أخي !

انه الآن قليل الكلام وستائره مسدلة ، ولن أعرف منه كيف وجدها وجاء بها ، وكأن صمته في بعض اللحظات يقول لي :

— بعد أن تأكل انصرف !!

وجاءت لحظة أحسست فيها أن من حقي أن أجرب الصفاقة لتدمير جحر الفهدة :

ـ نادية ومحمد وعادل يسلمون عليك ..

ـ الله يسلمك ..

ـ أين وجدتها ؟

ـ لم أجدها ، هى التى بحثت وجاءتنى .

وسكتنا لحظة قبل أن أستنهض همتى لمزيد من الالحاح :

ـ وأين كانت طوال هذه السنين ؟

ـ فى الدنيا ..

ـ ألم تسمع منها حكايتها ؟

ـ هربت من زوجة أبيها .. وداخت وتعبت .. وفى القاهرة تزوجت من رجل غنى مات من سنة وترك لها أموالا .. هل عندك أسئلة أخرى ؟ ..

ـ ترك لها ثروة ؟

ـ ترك لها الستر ..

ـ انت فى ورطة !

ـ قلت لك ان رأيى مختلف عن رأيك تماما وانى لم أطلب منك مساعدة ..

وعلى المائدة تأملت التناقض الفظيع بين جمال ضحى ويديها الغليظتين المحمرتين بأصابعها المنفرة ، وقلت لهما فى تسليم كامل :

ـ انا ضيف خفيف من النوع الذى يأكل ويمشى فى الحال ، فلابد لى أن أبيت فى القاهرة الليلة ..

وبعد أن أكلت على مائدته الفراخ والبطيخ عدت نافضا منه يدى ، معترفا بأن الفهدة اقوى من الحمامة .

وحاولت بعد ذلك فى دوامة أشغالى أن أنسى صاحبى وأهله وأسلمت للزمن مصائرهم ، حتى الفهدة السلابة جهدت أن أنتزعها من دمى ومن تحت جلدى ، ثم جاء الصيف فقضيت على عادتى شهرين فى دنيا الشاطىء المريحة وعدت من الاسكندرية بعد هذا الحمام النفسى الطويل لاجد فى انتظارى المفاجأة الثالثة فى صورة دعوة ملحة ، لا تطيق مناقشة ولا تقبل عذرا ، للغداء معه فى جزيرة بحدائق الحيوانات ، وكان صوته ، وهو يؤكد لى أنى لن أندم على قبول الدعوة ، طروبا ومطمئنا ..

وتكشفت الدعوة عن ثلاث مفاجآت جديدة ، قلت لنفسى أمام الاخيرة منها أن من حقها أن تأخذ كأس التفوق وتحتفظ به حتى تظهر لها منافسة جديدة من غرائب زميل الدراسة القديم تنتزع منها الجائزة .

المفاجأة الاولى : منظر أسرة هانئة حول احدى موائد جزيرة الشاى فى انتظار طلعتى ، ونادية ومحمد يقذفان الخبز الصغير لبط البحيرة ، وعادل يناقش والده فى طول عنق البجعة الكبيرة الجميلة ، والأم طلقة هناك وسط رعايا حنانها كالشمس الضاحكة ، ووجه توفيق عند رؤيتى يتهلل ، كأن لم تأت منذ أشهر ساعة أوقفنى فيها ببابه المنصورى وقفة طفيلى يتعثر فى خزيه ! ..

المفاجأة الثانية : توفيق عاد منذ فترة قصيرة الى عمله فى مركز الشركة العام بالقاهرة ، وزوجته راضية عنه وفى عينيها وهى تنظر اليه انعطاف سعيد ناطق ..

أما النمرة الكبرى فى سيرك توفيق فقد دهانى بها عندما قمت للتليفون فتبعنى وأطال باله حتى انتهت المكالمة ثم مشى الى جانبى

قابضا على ذراعى فى انفعال ، ونظر فى ساعته ثم ضحك وهو يقول لى فى همسة :

ــ موعد ضحى معى منتصف الساعة الثانية تماما فهى الآن داخل الحديقة فى طريقها الى هنا !!

وبلغ من فزعى أنه طلب منى فى احتدام أن أخفض صوتى ، فقد كنا نقترب من مائدتنا ، فأوقفته لاسأله :

ــ هل دعوتنى لاوصل الاولاد والست للبيت بعد الغداء حتى تتفرغ أنت للأنس ؟! . انك أعجب زوج فى كل من أعرف من أزواج !

فاختلس نظرة تجاه أسرته التى لم يعد بيننا وبينها غير خطوات ، وابتسم فى وجهى ابتسامة من يلذ له أن يكون بطل هذا الموقف :

ــ لن أكلمها يا أحد الأذكياء ، ولن يلحظ أحد غيرك أنها تعرفنى .. كل ما شتفعله هو أن تجلس الى أقرب مائدة وترى زوجة توفيق وأولاد توفيق .. فهمتنى ؟

وها هى كراسينا ، وان كان الكرسى الذى تركته منذ دقائق فى أمان الله يبدو لى الآن خازوقا محتوما ينتظر الشهيد المختار له !

وما جدوى الاطالة ! . .

جاءت فهدته وجاورتنا ونالت ما تمنت .. حقق لها صاحبها امنيتها التى ربطتها فى عنقه فى ساعة دلع .. هاهى ترى زوجة توفيق وتتأمل أولاده شأن أية امرأة غريبة تحب الاطفال ، على حين كان الناس حتى الجرسونات ، يلوون أعناقهم تجاه مائدتها ..

جذابة خلابة ملفتة ، حتى زوجة صديقى الطيبة قدمت تحية

الأعجاب ، وكانت هى التى « لفتت نظرنا » أنا وزوجها الى جمال السيدة القريبة منا ..

ــ كلها جاذبية .. مش كده يا توفيق .. ؟

وتوفيق بسام المحيا يتأمل هذه مرة وتلك مرة ..

كان فى نشوة سعادته بانتشاره عند امرأتين فى لحظة واحدة ، اسعد من طفل فى قمة المرح الصبيانى ، ولقد خفت أن يتمزق أمامى ويفتضح ، لكن صلابته كانت مروعة ، فى تلك اللحظة كان سلطان زمانه المزهو بسيادته على قارتين متجاورتين تجهل كل منهما وجود الاخرى وهى تراها رأى العين ..

ونظرت نحو الفهدة المطمئنة فى جوارنا وألبست شكلها الجميل روحا جميلا من عندى .. لقد هزتها الرؤية وكشفت لها الحقيقة عارية ، فهؤلاء الاطفال كائنات حية من لحم ودم ومن الجنون تصور حياة أبيهم بعيدا عنهم كما لو كانوا لا وجود لهم .. أن وشائج عميقة تشد هذا الرجل الى زوجته هذه وصبيتها ، والأسرة نسيج حى ، ومن ينزع منه خيطا يؤذى النسيج كله ولا مفر من أن تنتهى علاقة هذا الرجل بأى امرأة بالندم والاحزان .. وسيكرهها وينبذها .. والدنيا مليئة برجال عشاق جاهزين ، وما هى بالهينة فى النساء ! . ها هى تكاد تنشج بالبكاء ، لولا الحياء ! .. وما أطيب قلوب الفهود وأن كنا نحن الذين لا ندرى ! ..

وما أزال أحلم للفهدة بقلب طيب لكن زوجة توفيق لا تزال تبكى صابرة فى انتظار عودته تائبا من الغابة ! ..

الطيبـــات

عاشت عمرها الطويل تســـتغفر لذنوب الناس فى ذعر ، وتنكمش لائذة بفطرتها أمام كل الاحقاد والوضاعات ، وكان ضغط السنين يحفر فى وجهها خطوطا قوية محسوسة لســجية الطيبة النادرة التى كانت قوام طبعها ، ثم سكنت قوة الحياة فى وجهها الممتلىء الاسمر الذى كانت الطيبة الكبيرة تترقرق فى قسماته ، فتشيع منه سكينة ساذجة .

وكانت أم احسان فى الاعوام الاخيرة من حياتها صديقة لعمة من عماتى . كانتا تصبغان شعريهما بنوع واحد من الحناء تجلبانه من دكان عطار عتيق فى مجاهل تحت الربع ، وكثيرا ما دخلت عليهما بيت عمتى فوجدت فى ساعة أقضيها معهما أنسا ولذة وحكايات ، فاذا حانت ساعة الغداء وجلســـنا له ، قامت عمتى الى وهيبة الغسالة فى الحمام ، فجاءت بها لتشاركنا الطعام الذى نأكله ..

وأم احسان كانت قليلة الكلام ، لكنها معى كانت أحيانا تفتح صندوقها السحرى وتخرج لى منه الوان الماضى ، لونا من هنا ولونا من هناك ، منها الباهت الناصل ، ومنها الزاعق الحى .

طالما جهدت أن أتمثل من مزق حديثها الضنين ما كان لها من صبا وشباب وحياة . وكان أبوها تاجرا وسكيرا وابن لئام ، على

حد قولها ، وقد زوجها وهى فى عامها الثامن عشر لاول رجـــل طلبها ، صاحب له كان يملك مخزنا متواضعا للفراشة فى السيدة زينب ، ورآته هى أول ما رآته فى ليلة الزفاف ..

والمعلم حنفى كان رجلا طيبا ، ومثلها كان من عشاق الهدوء والحياة الفاترة ، فتحابا على العشرة ، وصارت لهما حياة رتيبة السكينة لا أحداث فيها .. وقد دامت لهما تلك الحياة الطيبة أعواما تذكرها أم احسان بالخير ، قبل أن تأتى احسان ..

ان مجىء الابناء يحدث دائما انقلابا فى حياة الزوجين .. يقبل فجأة مخلوق ثالث نابع من لحمهمـــا ومن حيـــاتهما ، فلا يلبث أن يستأثر بالاهتمام كله وتتركز فيه المسرات والاحزان ويملى على البيت ارادته وهو الضئيل كالبعوضة لا تفتر عن طنينها ، ثم ينمو ويشب ويتجه اليه وجود الأب والأم طوعا أو قسرا ، وتغدو الحياة كلها كفاحا من أجله وحده .. جاءت احسان وكبرت وصـــارت صبية عصبية وعاصية .. لها عناد وعنفوان ، وأنانية .. والمعلم حنفى ذاب وجوده فى وجود أميرته الصغيرة المدللة ، فهو دائما واقف فى صفها ، ظالمة ومظلومة .. كان ذلك أول انفصام دفين بين الرجل وامرأته ذات الحساسية الكامنة تحت أطباق الحياء وضعف وسيلة التعبير عن الذات .. وكانت تريد ابنتها على صورتها فاذا بها شىء مستقل ، جديد ، بنت متمردة على دروس المدرسة وعلى شغل البيت وعلى حياة أهلها وكل هذه الدنيا الرخيصة التى جىء بها اليها ، دنيا الحارة والمستقبل الأعجف ..

وكانت احسان قد دخلت فى عامها الثالث عشر عندما وقعت الكارثة التى انحطت فى فجأة قاسية فظة على حياة أمها ووضعت حدا أليما للهناء الفاتر المذعن للنصيب .. ليلة لا تنسى ، ليلة سقط

المعلم حنفى فجأة مغشيا عليه وهو قائم فى غرفة نومه يكبر لصلاة العشاء .. والطبيب الذى هرعت احسان حافية القدمين فجاءت به من عيادته فى السيدة زينب كان اسمه الدكتور « قدرى » ، جاء فلم يكد ينظر فى وجه الشيخ الممدد على سريره حتى بان فى نظرته أنها النهاية .. لم يكن قد بقى لزوجها فى حياته غير حشرجة متصلة ممزقة ، ومحاولة مروعة يائسة للكلام ، لكن الموت الصاعق صرع رجل البيت دون أن يأذن له فى القول ..

كل ما حدث أن رجلا واحدا من سكان الارض قد نقص ، لكن ذلك الحدث الصغير انتهى به كل معنى فى الحياة ، ومسخ طعمها على يد الزائر الأعمى الرهيب الذى صدع نفس أم احسان فى ضربة واحدة مباغتة ..

وقفت عصية الدمع أمام الوجه الشمـــعى الذى كان محور وجودها وعلمت أنه لا مفر لها من أن تواجه الحياة منذ الساعة وحدها مسئولة فى ذلك التيه المظلم عن وحيدتها ، وتحملتا معا كل ذلك الاضطراب السخيف المرهق الذى تقيمه المآتم فى حياة المنكوبين .. كل الغرباء الذين يدخلون فيعرضون حزنهم المصنوع ، ثم يعودون فى غير اكتراث الى شواغلهم .. وهاتى نقودا للحانوتية .. وهاتى نقودا أخرى للمقرئين .. وللدائنين أيضا .. أليست الحياة شركا ومصيدة ؟ .. مال قليل وهم ثقيل .. وكابوس جديد جاءها فتربع فوق أنفاسها فى صورة أخت المرحوم ، كأن ضربة الموت القاصمة نفسها لم يكن فيها كل الكفاية .. وقد أقبلت الست « اقبال » أخت المعلم ، فأقامت معهما فى البيت زاعمة أن لها فيه من قديم الزمان حصة بالميراث ستعرف المحاكم كيف تفصل فى أمرها ..

واستسلمت أم احسان فى انكسارها المطبوع ، فما بعد الموت مصيبة لا تحتمل .. وتمزقت نفسها الطيبة على لسان العانس

الوقحة ونفسها الدنيئة ، وتحملت من أجل وحيدتها اليتيمة كل هوان، فقد وعدت الست اقبال باحضار عريس لاحسان والمساهمة فى تجهيزها .. ألا يساوى مستقبل البنت كل حرمان وأذى ، وكل وحدة مريرة لا حل لها ولا مخرج ؟ .. وهذه العجفاء السليطة فيما يبدو تكنز مالا ، واحسان لا يلبث أن تتضـــــوع بين يديها أنفاس الخطاب ..

وفى حياة الأم وابنتها بعد ذلك أربع سنوات باهتة مرت كلها فى ذلك الجو الشاحب من الفتور والانتظار ، بلا أحداث ولا ألوان . والوجود الانسانى — فى فترات متباعدة من تاريخه — يمر دائما بمساحات واسعة لا حركة فيها ولا لون لها ..

ولعل الشىء الوحيد الذى يجعل الحياة شيئا محتملا فى تلك الصحارى المترامية التى تقطع رحلة العمر هو أن الحياة الانسانية مكونة فى صميمها من سلسلة وثبات بعد سلسلة هجعات .. فى كل مرة يبدو أن الحياة تتقزز من جديد للمصير ، ونشعر أننا نبعث ، ويجيش ماء الحياة فى وجودنا ، ونتصدى للأحداث فنترك فى كل حدث بضعة من روحنا تنسلخ عنا وتهوى الى الماضى .. وقد عاشت احسان الصغيرة تلك السنوات الاربع فى النافذة ، تنتظر ابن الحلال الموعود ، وتحلم ببيت « العدل » الذى تلوح لها به فى كل حين ممتها ، وتتمناه لها فى دعواتهن أمها وصديقاتها دولت زوجة العطار، ووهيبة أرملة الشيخ عبد الرسول منشد الأذكار ..

وليس يعدل موت المعلم حنفى فى معالم حياة الأم البارزة الا ظهور أحمد أفندى طالبا منها الزواج من ابنتها احسان .

وكان أحمد أفندى من حملة دبلوم الفنون والصنائع ووارثا لبيتين من بيوت الحارة وصاحب قطعة أرض فضاء بشارع السد ،

كما كان موظفا بشركة كبيرة للنقل بالسيارات ، مركزها الرئيسى مدينة الفيوم ، وكان له فى أهل الحى مكانة ، فهو «الباشمهندس» الذى تتمناه كل أم لابنتها .. كان فى احدى زياراته للقاهرة عندما رأى احسان فى الشباك ، وبعد ظهر اليوم نفسه زارت أمه بيت المرحوم المعلم حنفى لتطلب يد البنية للأفندى .. وكان أن تم الاتفاق بمعزل عن الست اقبال ، وكان فى ذلك التكتم حصافة محمودة من أم العروس ، فقد حدث فى الشـــتاء الماضى أن أفنديا من موظفى وزارة الاشغال خطب احسان من عمتها فكان رد العانس — كما علمت احسان وأمها بعد حين — ان البنت فقيرة يعجزها تجهيز نفسها على نحو لائق بموظف محترم ، فضلا عن سوء طبعها ودلعها . وليس كل يوم يأتى بعريس ، فالكتمان فى هذه المرة واجب ، ويكفى ان تخطر الســـــت اقبال بالخطبة الجديدة قبل موعدها بيوم أو بيومين .

وليس فى قصة الشبكة والجهاز والعقد والزفاف ما يخالف قصة أى زواج آخر من نوعه ، وكل ما تحب أن تذكره الست أم احسان عن تلك الفترة أنها كانت أياما سعيدة ذات أعباء ثقال .. وكان هناك سؤال دائم تثيره فى نفسها تأملاتها المستوحدة وأحاديث صديقتيها دولت ووهيبة وعدوتها اقبال : هل تسافر مع وحيدتها لتعيش معها فى بيت زوجها بالفيوم أم تقنع بالحياة مع عدوتها النكدة الفظيعة فى القاهرة حتى تبعد عن نفسها شبهة القيام بدور الحماة الكريه ؟

وكانت تنزع نفسها الى الرحيل ، وتتصـــــور حياتها بدون ابنتها خواءا مستفظعا مخيفا ، لكن فطرتها الطيبة كانت تنأى بها عن دور الحماة ، وهل يعنيها الا أن تسعد احسان وتهنأ ؟

وسافرت احسان مع زوجها الى الفيوم ، وتلاشت فى نفس أمها كل مقومات حياتها الحقيقية بكلمة خرجت من فم شيخ ثرثار

متفيقه ، وبكت فى تلك الليلة فى فراشها ، وتذكرت صـــــباها هى وزوجها ، وتمنت لو كان حيا يحمل معها بعض وطأة العيش ، وعاشت ساعتها الراهنة بكل ما فيها من ضياع ووحدة ومخاوف .. وتصورت أيامها المقبلة والمرأة البغيضة التى تعايشها وهى تتسلى فى مقتبل الايام على حساب أمومتها القلقة ، وتكايدها بأسئلة لا آخر لها عن احسان ، ظاهرها الاهتمام وباطنها الطعن والايلام .

كيف حال احسان ؟ أهى سعيدة ؟ أتراها حملت ؟ وهل تلد ولدا أو بنتا ؟ أيتخلى عنها عنادها أم يصـــــطدم تمردها بارادة « الباشمهندس » فتكون الـــــكارثة ؟ .. والحياة الفارغة تقضى باطراد مدمر على الجانب الحسن من الذات ، فلا يبقى منها آخر الأمر الا الجانب الوعر الخشن .. وقد عاشت بعد رحيل رفيقة الحياة الصـــــغيرة فى مخاوف وكآبات وانتظار ملهوف لرســـائل احســـــان ...

وكانت رسائل الفيوم تكشف لها عن ولع العروس بحياتها الجديدة وشغفها بزوجها .. كان يسرها أن تعلم ان احمد طيب وكريم ومحب ، وان أثار فى قلبها دهشة غامضة ان احسان «تحب» زوجها .. كان معنى ذلك عندها أن حب ابنتها قد حطم فعلا نطاق الأسرة ليتوجه بكل أنانيته الى الزوج .. الى الرجل .. الرجل الغريب . وما كانت لتكره أن تسعد ابنتها ، لكن الروح مهما أوتيت من كمال الطيبة لا تقوى على مجاهدة بعض المشاعر غير الكريمة .. بدأت أم احسان تستشعر لونا مبهما من غيرة غريبة على طبعها .. وهى لا تنسى « الوجيعة » التى دهاها بها خبر أم أحمد حماة احسان التى قررت فجأة الاقامة مع ابنها فى الفيوم ، تلك المرأة السخيفة المتعالية .. وابنها المغفل الذى يرضى بتدخل أمه على نحو دائم فى شئون بيته .. مسكينة احسان ! .. منذ الآن ستحيا فريســـــة

الحماة .. الحماة ، الدخيلة الباحثة عن السيطرة على البيت ، الحاقدة حتما لانها لم تعد شيئا كبيرا فى حياة ابنها .. الحماة .. الناقد اللاذع والعدو المتربص .. كيف تترك الأم ابنتها فى براثن الغول .. حانت الساعة لزيارة الفيوم لترى الحالة هناك رأى العين وتقف الى جانب ابنتها المسكينة فى محنتها .. لقد كانت حماقة منها أنها لم تصحب ابنتها من أول يوم .. وحيدتها الغالية فى حاجة الى نصائحها ، وان أسبوعا واحدا تقضيه عندها فيه الكفاية لتطعيم احسان ضد سموم « العقربة » ..

وفجأة سرت فى بدن أم احسان رعدة .. اليست ، هى الاخرى ، حماة ؟! .. كيف غاب عنها هذا ؟ .. الا تهجس نفس احمد افندى له كلما ذكرها بمثل هذه الخواطر السوداء ؟

أتسافر اذن ، أم لا تسافر ؟

وصادف أن جاءت فى رسالة احسان الجديدة دعوة ملحة ، فما كان أسرع الأم الى حزم حقيبتها والانطلاق الى القطار .. لم تتريث أن تمهد لوصولها بانذار ، لم يكن فى نفسها يومذاك طيبة ولا سكينة .. كانت قد صارت حماة كالاخريات .. كانت امرأة فيها بوادر شر فقدت أمنها الداخلى .. ونزلت من القطار فى محطة الفيوم ، وقالت للعربجى الذى تناول منها حقيبتها ووضعها فى عربته : « بيت أحمد أفندى الماوردى الباشمهندس جنب الكنيسة الكبيرة فى حتة اسمها الحادقة » ..

وأم احسان اذا بلغت من ذكرياتها هذه الزيارة أخرجت منديلها وتأهبت للدموع قبل أن تقفز فى عينيها قطراتها الكبيرة الموجعة .. أما احسان فبكت من الفرح عندما رأت أمها تدخل عليها ، لكن أحمد وأمه لقياها فى دهشة وفتور .. وما كان أسمج

الرقطاء حماة ابنتها وهى تقول لها فى استنكار محرج لئيم : « حد بيجى كده من غير ما يدى خبر .. اقله كان سى أحمد قابلك على المحطة ! » .. وصافحها سى « أحمد » نفسه فى برود ، ثم قال لها بعد قليل وهو يتكلف رقة جارحة : « لازم ياحماتى بقى تقعدى معانا كام يوم ، علشان نفرجك على السواقى » .. وراحت احسان تحتضنها وتقبلها ، وأرادت أن تغطى موقف زوجها وأمه فقالت : « أحنا مبسوطين قوى بزيارتك ياماما » فتلقت الضيفة كلمة «احنا» فى قلبها كما لو كانت طعنة .. ابنتها تشهر فى وجهها انضمامها القلبى الى أحمد وأمه ! .. واحست أم احســـــان كم هى غريبة ومنبوذة ..

وفهمت بعد قليل أن صحة احسان لم تكن فى الايام الاخيرة على ما يرام ، فأثارت فى جو البيت اهتماما حادا لم تعبأ فيه بالرجل وأمه .. « عيانة » ؟ يا بنتى ! .. ازاى ؟! . .وبايه ؟.. والحكيم قال ايه ؟ جه والا ماجاش ؟ وجبيتوا الدوا والا لا ؟! » .

واقتحمت وجه ابنتها بنظراتها الثاقبة ، وخيل اليها أن بها حقا سقما وشحوبا، وكأن شيئا فى كيانها كله قد تغير فى تلك الأشهر الخمسة التى عاشتها بعيدا عنها .. فاختلت بها بعد الغداء وراحت تسألها وتستجوبها ، وأحست وابنتها تروغ من الكلام أن فترات الصمت بينهما تطول ، وان شيئا ما يجعلهما كغريبتين التقتا على غير موعد ، وليس بينهما غير لطف الشمائل وادب المجاملة ..

وفى المساء ابتدرت أحمد أفندى بعد عودته من الشركة بسؤال قاطع لم تحسن التمهيد له : « بنتى مالها ياسى أحمد ؟ » .

وكان الرد صريح الجفوة ، فقد شملها « الباشمهندس » بنظرة حادة وأجابها فى صوت صارم : « عيانة وخست النص عندى ، مش قصدك تقولى كده ؟ وانا طبعا السبب ! .. » .

أحست أنها تكرهه .. لا كان لابنتها ولا كانت له ! .. وقضت ليلة سيئة صحت فى صباحها على صوت احسان وهى تقىء فى حوض الحمام وتتأوه ..

ــ الله ؟ انتى حامل يا احسان ؟ وليه يابنتى بتخبى عنى ؟ انا خبيت عنك حاجة ؟

ــ يصــح تبقوا كلكم عارفين وانا لا ؟ .. هو انا ماليش حساب يا احسان خلاص ؟

ــ أديكى عرفتى !

ــ لازم هو اللى منعك تقولى لى ! ..

ــ يانينة سبينى فى حالى ! ..

ــ دى آخرتها برضه يا احسان تكلمينى كده ؟ ..

واذا باحسان تتركها فى الحمام وتخرج وهى تزفر من الغيظ ، ضائقة بفضولها ..

وجاءت « الضربة » الجديدة بعد قليل ، عندما سمعت احسان تنادى حماتها « ماما » .. « ماما » .. ابنتها تنكرها .. أحست أن وجودها يتحطم . ما أقسى أن يكون للمرأة بنت وتسمعها تقول لأخرى : أماه ! .. بأى حق تغتصب تلك الاخرى هذا النداء الذى تتجمع فيه كل معانى الحنان ونكران الذات وكل قوى الامومة ؟ .. الآن مأذونا قرر لرجل وامرأة الحق الاجتماعى فى أن يعيشا معا ، يمحى الماضى ويحطم ؟ أممكن هذا ؟ أن الأم لا تصير أما ؟ .. ان عشرين سنة تستهلك فى تكوين وجود حى تخرجه من أحشــائها وتمنحه خير سنوات شبابها ، وتحييه من روحها وجسمها فى ظل الترمل والوحدة ، ثم تظهر أمراة أخرى ، مجهولة ، لم تصنع شيئا ، ولم تألم ولم تمنح ، فيتحول اليها النداء العذب والوجود الحبيب كله ؟

.. ان الحيوانات نفسها لا تفعل هذا .. لكأن قطعة تنتزع من لحمها اذ تنكرها ابنتها وتمزق بلا رحمة معنى وجودها ..

ودخلت على احســــان بعد قليل حجرتها وهى تنتفض من الغضب ، فبكت احسان واقسمت لأمها وهى تمسح دموعها أن كل ما فى الأمر انها منعها الحياء وحده أن تقول لها بلسانها انها حبلى ، أما مناداتها أم زوجها بكلمة الأمومة فان لها قصة ، وهى فيما تفعل معذورة : فقد قاومت ماوسعها أن تقاوم ، وكانت تنادى حماتها فى البداية « ياهانم » ثم « حضرتك » ولكن الأم وابنها قالا لها ان فى ذلك تكلفا لاداعى له ، فرضخت آخر الأمر لارادتهما ، كى تظفر براحتها بينهما .. لكن الأم لم تجد فى ذلك ما ينقع غلة غيظها :

ـــ عال ! .. يعنى لو طلبوا منك المرة الجاية تقولى لى انا « ياست هانم » تعمليها ياست احسان ! علشان راحتك انتى ! .. يعنى لو طلبوا منك تمتنعى عن زيارتى أو ماتكتبيش لأمك تقومى علشان راحتك تنسينى بالمرة .. خلاص جوزك وأم جوزك هم دلوقت الشورة والمشورة ، وأمك مابقلهاش أى قيمة .. طبعا .. جوزك هو الكل فى الكل .. وأنا عارفة انه بيكرهنى وهو اللى مقسيكى على .. أنا عارفه .. حاسة كده وأنا قلبى مايكدبش أبدا .. شوفى مقابلته لى .. دا لو واحدة غريبة كان برضه قابلها أحسن من كده .. هو أنا جاية أشحت منه ولا استعطى ؟ .. الراجل دا ما يقبلنيش ..

ـــ يا ماما .. ماتقوليش كده .. أحمد كويس .. وما أحبش تقولى عنه حاجة وحشة .. دا جوزى وأنا بأحبه ..

ـــ طيب يابنتى .. انا بقى ألم هدومى وأسافر مصر أحسن ، وربنا يهنيكى بجوز الهنا اللى بتحبيه ..

واذا صوت الرجل من ورائها يقول لها وقد دخل دون أن تشعر به :

ـــ بقى اسمعى ياســــت هانم .. انتى بقى لك هنا يومين ما شفناش فيهم غير وجع الدماغ والنكد .. ايه اخرتها معاكى ؟ ..

وهمت احسان أن تتكلم ولكنه أسكتها باشارة من يده :

ـــ أنا هنا فى بيتى ومش عاوز دوشة بقى بالمرة ! ..

وانهارت أم احسان ودارت بها الدنيا وهى تقول فى صوت ممزق مسكين :

ـــ أنا مســـافرة فى الحال .. دلوقتى حالا .. كتر خيرك يا ابنى !

هكذا كانت نهاية زيارتها الاولى لابنتها بعد زواجها .. الطرد .. طردها زوج ابنتها ! .. طردها طردا .. وحزمت أشياءها بيدين مرتعشتين ، وعلى الرصـــيف قبل أن يتحرك القطار بكت احسان وقالت لأمها :

ـــ يا ماما لازم تبقى تيجى وما تقطعيش الجوابات ! ..

لكن الأم لم تتكلم ولم تذرف كل دموعها الا بعد أن غادر القطار محطة الفيوم ..

ودخلت حـــــارتها القديمة وقد انكسر شىء فى قلبها وكل شخصها ، ولم تعد تخرج أو تضحك ، وندر بعد عودتها الاسيفة أن زادت فى كلامها عن الكلمة أو الكلمتين ..

وشاع البياض بسرعة فى شعرها ، وتوالت رسائل الفيوم وهى لا تجيب وزارها أحمد أفندى مرتين فى خجل واســــتغفار ، واستعطفها ودعاها الى تشريف بيته قائلا انه بيتها أيضا ، وأخيرا رق شىء صغير فى قلبها ، فردت باقتضاب على احدى الرسالتين .. ثم على كل الرسائل .. لكنها ظلت على عزمها ألا تدخل لزوج ابنتها بيتا .. حتى تلقت ذات صباح برقية من الفيوم بتوقيع أحمد

المـاوردى تخبرها أن احسـان وضـعت بنتا سـميت « عزة » باسم جدتها لأبيها ..

هى اذن جدة وليست تدرى ! ..

بنتها وضعت بنتا وهى بعيدة لا تعلم ! ..

صـارت جدة كما صارت من قبل حماة دون أن تتبين فى نفسـها غير فرحة ضئيلة لم تلبث أن خبت .. وهالها أن تصورت اقـالا وهى تسـخر منها وتلذعها بكيدها :

« كده وانتى بعيدة ! ... يا ندامة ! ... » ...

فى تلكَ السـاعة كنت أدخلَ بيت أم احسـان لأصحب عمتى فى عودتها الى بيتها فى المنيرة ، وفيها رأيت نهاية وجود انسانى ورأيت وجه أم احسـان الحقيقى كما صنعها زواج ابنتها امراة شـيخة منهارة تعترف بهزيمتها ، وتحدث عمتى فى احتدام نفسى مخيف عما صح عليه عزمها ، دون أن تبالى فى هذه المرة ، فى تصدعها الأليم، بأنى موجود اسمع وأرى :

ــ أروح لبنتى ياست فاطمة .. أروح وأستحمل وأشـيل جوزها وأمه على راسى وأخدمهم كلهم .. أحسن لى من وحدتى هنا ، أنا خلاص ما بقتش طايقه .. بايخ ورزل وقليل الأدب أحمد افندى أستحمله علشـان عيون بنتى وبنت بنتى .. أمه عقربةلاوية ديلها وسمها ناقع زى بعضـه .. أنا خلاص ما عادليش حياة .. اعيش بقى حياة بنتى .. أبيع حصتى فى البيت وأروح أديهم الفلوس وأعيش معاهم .. لحد ما أموت .. أعيش لبنتى وبنت بنتى ..

واختنق صوتها ، وارتسم فى عينيها تعبير ممض كسير ، ثم تصبب العرق على صدغيها كالفصوص وهى تسـقط على الكنبة مغشيا عليها ، وعرضت لذهنى فى تلك اللحظة صورة احسان وهى صبية ، تعدو حافية القدمين لتحضر طبيبا لأبيها المحتضر ..

مؤتمـــر الكهـــان

- ١ -

ساحة المعبد الكبير فى طيبة ، وشعب نحيل أسمر يخرج من الابواب ويتدفق عبر الساحة الى انحاء المدينة ، شعب من البسطاء كان قد ترك المحراث والنول والفأس والازميل والمعول ليصغى فى خشوع ورائى الى عظة كاهن المعبد الاكبر فى محراب آمون ..

رجلان فى سن الشباب وفى ثياب الشعب المختصرة البسيطة يتوقفان عند أحد أعمدة الساحة ، ولا يرتفع صوتاهما بالكلام قبل أن تبتعد عن مكانهما الجموع ..

الشمس ساطعة ، فى صحوة النهار ..

صانع التماثيل ــ يكاد ينشق من الغيظ صدرى ! ..

زارع الغلة ــ فى كل يوم يعظم حجم كرشه ويضيق أفق عقله ..

صانع التماثيل ــ انى ما سمعت هذا الكاهن اللحيم المستكرش يلقى عظة من عظاته الا فكرت فى خنقه فى محرابه ! ..

زارع الغلة ــ لماذا يعرض فى صلاته بالافكار الجديدة ؟ ..

اسمعته كيف أوشك أن يجاهر بعصيان امنحتب الرابع اذا تجاوزت دعوة الملك الى الهه الجديد حدود الكلام الى العمل ؟ ..

صانع التماثيل ــ انه يعلن الحرب على الافكار الجديدة دفاعا عن نعيمه وقصوره وأوقافه وأمواله ونفوذه .. لقد قلت هذا دائما .. ينبغى جمع الكهان كلهم فى مكان واسع مثل هذه الساحة والقضاء عليهم مرة واحدة اذا أردنا حقا أن نحرر أنفسنا من سطوتهم المتحجرة ..

زارع الغلة ــ انه يزيف الحقائق فى جرأة مذهلة ، كاهن آمون الغليظ العنق ! ..

صانع التماثيل ــ انه ببساطة يدافع عن مكاسب الكهان .. لم تعد مهمتهم التكهن بأحوال الاجواء والمواسم الزراعية ، ولا تنظيم احساس الشعب الفطرى بأن هناك ذاتا الهية عليا تلهم العقلاء وتأخذ بيد البسطاء .. ان مهمتهم الآن هى الطمع فى الحكم والتنافس على الاموال والمناصب والدس والتآمر .. هى أن يجمدوا حياة الناس ، لأن الجمود هو الوسيلة الكاملة للمحافظة على مركزهم وثرائهم وكل ما يرفلون فية من نعمة مخزية ..

زارع الغلة ــ هل يتركهم امنحتب الرابع يفعلون ما يشاءون ؟ ان الملك صبى صغير ، وصحته معتلة ..

صانع التماثيل ــ لا مفر من صراع مع الكهان ! ..

زارع الغلة ــ لقد كدت أهجم على هذا الوقح عندما مس سيرة أحمس طارد الهكسوس وسيد طيبة النبيل وبانى عظمة مصر ، وعندما أراد من جموع المصلين أن تفهم أن النصر كان نصر كهان آمون لا نصر القائد الحكيم والشعب المقتدر ..

صانع التماثيل ــ أن الكهان لم يصنعوا فى تاريخنا غير شىء واحد هو تخدير الشعب ومص نخاعه على وقع التراتيل ! ..

زارع الغلة ــ أنت على حق ، ولا مفر من القضاء على هذه الطبقة الخسيسة الجشعة وكل الصرح العفن الذى أقامته وكل أربابها ورموزها وطقوسها ونفوذها ..

صانع التماثيل ــ ليس ذنبنا نحن أبناء هذا الجيل أن أحمس وأمنحتب الاول وتحتمس الثانى وحتشبسوت وتحتمس الثالث وأمنحتب الثانى وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث قد عاشوا وحكموا وماتوا فى ظل أرباب متعددة وأساطير متجمدة .. فى ظل آمون وغيره .. نحن الآن يا أخى فى عصر أمنحتب الرابع ، عدو الكهان وصديق الحقيقة .. انه القدر الذى سيبطش بهم ..

زارع الغلة ــ من واجبنا اذن أن نعينه فى بحثه عن الحقيقة ..

صانع التماثيل ــ بلا جدال ، فهو عاشق كامل لكل قوى الحق والعدل والحقيقة ، ومبشر بمستقبل عادل وكريم ..

زارع الغلة ــ لماذا لا يذهب اليه العقلاء فيقولون له انهم معه فى بحثه الجليل ، وانهم على استعداد للوقوف معه فى معركته ضد أولئك الذين يأكلون عطايا الآلهة وخيرات الارض ؟ ..

صانع التماثيل ــ ان العقلاء يذهبون اليه فعلا ! ..

زارع الغلة ــ حقا ؟ وماذا يقول لهم ؟ ..

صانع التماثيل ــ يقول ان الصراع الذى تتهيأ الاوضاع كلها لانفجاره فى وقت قريب هو صراع حتمى ، وأن كروش الكهان ستنفجر ويستريح الناس ..

زارع الغلة ــ يخيل الى أنك تعرف الملك الصغير المفكر ؟ ..

صانع التماثيل ــ انه غير موجود الآن فى طيبة .. انه فى الصحراء يتأمل ..

زارع الغلة ــ لا تقل لى انك لا تعــــرف مكان تأملاته فى الصحراء ..

صانع التماثيل ــ بل أعرفه كما أعرف نفسى ..

زارع الغلة ــ هل معه حرس ؟ ..

صانع التماثيل ــ انه يخرج الى الصحراء مستوحدا ، لكن بعض محبيه يذهبون أحيانا الى المكان فيقفون من بعيد ويتأملون هم أيضا هذا اليافع الناحل الاسمر وهو راكع فوق الرمال يناجى ربه الواحد الأحد ويدعوه ، ويتأمله ويفهمه ..

زارع الغلة ــ اذن فهو فرعون غير جبار ؟ ..

صانع التماثيل ــ هو رقيق كالنسيم ، يتلقى نفحات السماء على حساب صحته وبدنه وراحته ..

زارع الغلة ــ خذنى اليه ..

صانع التماثيل ــ هذا حســــن .. اذهب الآن الى حقلك فابذر عمل يومك ! ثم جئنى فى المنحت بعد انتصاف النهار لترى تمثالى الجديد بعد أن أنتهى من اللمسات الاخيرة فيه .. وسوف ترى معى عند الغروب بشير عقيدتنا الجديدة وأمامنا ، اخناتون ..

زارع الغلة ــ أخناتون ؟ ..

صانع التماثيل ــ هذا هو اسمه ..

زارع الغلة ــ أمنحتب الرابع ؟ ..

صانع التماثيل ــ أخناتون هو اسمه الذى اختاره لنفسه ولم تفرضه عليه سلالته ، بوصفه بشارة دين آتون الجديد ..

زارع الغلة ــ يبدو لى أنك كلمته وفهمته وأنك تعلم أمورا تخفيها عنى ! ..

صانع التماثيل ــ ليس غروب الشمس ببعيد ، وسيأتى بعد الغروب شروق ، فيأتيك علم ما أعلم .. وسأكون فى انتظارك فى الموعد .. تعال دون أن يعرف أحد ..

زارع الغلة ــ ليكن تمثالك رائعا يا أخى فى كماله ! ..

صانع التماثيل ــ وليكن حصادك يا أخى باسم آتون وافرا بالخير والبركة ! ..

- ٢ -

الليل فى قاعة فسيحة فاخرة فى قصر رئيس كهان آمون فى طيبة .. الرئيس يتصدر الاجتماع بكرشه المستريح الشاذ بين جماعة الكهان النحيلة ، وحوله أقطاب عصابته فى ملابس « العمل » الرسمية ..

كاهن ضامر العود فارع القامة يقف فى مواجهة رئيس الكهان مستعدا للكلام ، وفى عينيه جذوة خبث تتكلم وحدها حتى عندما يكون هو صامتا ..

الرئيس ــ هل ذهبت فرأيت فسمعت ؟ ..

الكاهن ــ هى كلمة واحــــدة أقولها لكم : اما نحن واما هو .. انه يريد أن يسلبنا كل شىء .. انه يؤسس دينا جديدا بغير جحيم أو كهانة .. وانه يصفنا بالافاعى وسياسته هى أن يخلعنا خلعا ..

أصوات صارخة من أركان القاعة — مجنون ! .. لنخلعه قبل أن يخلعنا .. دين بلا كهان ؟! .. انه مجنون ! .. انه يدنس عقيدة أوزيريس ويســـفه آمون ويعتدى على كرامة رجال الدين الطيبين الشرفاء .. اما نحن واما هذا المجنون ..

الرئيس — لنستمع الى الأخ الذى رأى وسمع ..

الكاهن — رأيته موليا وجهه شطر قرص الشـــمس متلقيا أشعتها بذراعين مفتوحتين ، وكانت الشمس مائلة فى الأفق الغربى، وهذا الشاب النحيل راكع فوق الرمال ، ومن وراء تل صغير قريب رأيت حفنات من رجال ونساء تتأمل الشاب الغارق فى تأملاته ، فى صمت ينتظر كلماته المهموسة أن تعلو فتبلغ الآذان والقلوب ..

صوت — هل تكلم ؟ ..

الكاهن — لقد صلى ..

أصوات — وماذا قال ؟ ..

الكاهن — قال ان الافاعى التى ولدتكم وحكمتكم فى الناس ستدخل جحورها فارة من اشعة آتون المطهرة التى ستكنسكم من البلاد ..

صوت — اهذه صلاته الجديدة ؟ ..

الرئيس — ان لك ذاكرة مشهورة ايها الأخ الذى رأى وسمع، فهل تذكر شيئا من صلاته التى سمعتها ؟ ..

الكاهن — اذكر الصلاة وأذكر الصوت أيضا .. الصــوت الشاب الذى يبدأ هامسا ثم يعلو ويصفو ويملأ فضاء الرمال .. سمعته يناجى الهه قائلا :

« انت ياربى الواحد الأحد حى فى قلبى حياتك فى الكون ..

« فى قلبى الذى ينتفض بقوة الشعور بك عرفت أنك واهب الحكمة وواهب القوت ، وانك واحد لا شريك لك .

« أنت يا من خلقت العالم بكلمة ..

« أنت الواحد الأحد آتون ..

« فى ارادتك سر الحياة والنماء والحصـــاد ، وكلمتك تنزل المطـــر ..

« أنت تتكلم فى أعماقى وتهبنى القدرة على أن أحس قدرتك فى الكون ، وأرى وجهك فى الشـــمس ، ويطالعنى كمالك حتى فى وساوسى وأحلامى ..

« والشمس كشفت لى نورك ، أيها الواحد الأحد آتون » ..

أصوات — كفى ! .. كفى ! .. اننا لا نريد أن نسمع هذا التطاول على قداسة آمون فى معبد آمون !! ..

الرئيس — صـــبرا .. لنسمع حتى النهاية فتمتلىء قلوبنا تصميما على قتل هذه البدعة قبل أن تقتلنا هى فى غفلة منا .. اتذكر أيها الأخ الذى رأى وسمع شيئا آخر من هذيان المجنون ؟ ..

الكاهن — سمعته يناجى الهه قائلا :

« يا حى يا مبدع الحياة وباسط الأرض ورافع السماء ..

« أنت الوجود وواهب الوجود ، والاله الأحد الذى لا اله غيره ..

« من لطف ذاتك لطف حسى الذى استشف وجودك الحق وآمن به ..

« وبقدرتك أستطلع المستقبل وافسر احلامه واعلم بعض ما يقع بعيدا عنى فى كل مكان وزمان ..

« لانى حبيبك يا واحد يا أحد يا آتون ..

« وباسمك سأمحو فى وطنى اسم آمون من الهياكل والقلوب والزم كهانه السكوت الواجب ..

« وبعبادتك وحدها سأنادى ، يارب كل الناس فى كل مكان .

ترتج القاعة بزمجرات الكهان ، لكن صوت الكاهن الخبيث يعلو :

« أليس الوجود كله يسبح باسمك فى الارض وفى السماء ، وما طيران الطير فى الهواء ومرح الحملان فى الحقل الا صلاة لك ؟ ..

« الست من خلق الجنين والنطفة وكل نبات وحيوان وانسان، ومن زين الدنيا بالجمال لنعشق الجمال ونعبدكِ فيه ؟ ..

« الست النور الذى يعمل فيه سكان العالم ؟ ..

« انت آتون الذى لا شريك له فى الملك آتون الهنا الواحد الأحد » ..

زمجرة رهيبة وصرخات عاوية ، وعدد من الكهان يتشنج هنا وهناك ، وساعة تضيع قبل أن يتمكن الرئيس من الكلام ..

الرئيس ـــ الآن وقد سمعتم وفهمتم ، أحب أن تعرفوا أيضا ما جاءتنى به تحرياتى الخاصة وعيونى فى قصر الملك .. انه ينوى ان يهجر طيبة قلب البلاد ومركز عبادة آمون الى بقعة فى أعماق الصحراء الجنوبية ليبنى فيها مدينة على ضفة النيل الشرقية يسميها « أخت آتون » ، بل ان مهندسيه قد زاروا البقعة التى اختارها

وخططوا طرقها وقصورها ودواوينها ومعابدها ومصانعها ومساكنها وأضرحتها واصطبلاتها .. وقد علمت أن من طرق المدينة طريقا رئيسيا يبلغ عرضه عشرة أمثال شوارع طيبة الكبيرة ، ويحمل اسم آتون ، وثلاث طرق كبيرة أخرى للمركبات تساير شاطىء النهر ، وأمام قصر الملك قصر مثله لكاهن آتون الاكبر ، ذلك الذى سيسرق منا شغلنا ويفوز هو وأعوانه الجدد بنعمة البلد ! ..

صوت — وهل نذهب نحن عند ذاك فنقشر البصل لنسائنا ؟ .

صوت — اذا لم نكن نحن كهانا ، فماذا نكون ؟ ..

صوت — سيرحب البسطاء بهذه الدعوة ويتمردون علينا ..

صوت — لنقتلها قبل أن تبلغ قلوب البسطاء ..

صوت — ليتكلم الرئيس وليرسم لنا طريقا ..

صوت — بسرعة ! ..

صوت — الآن ! ..

الرئيس — من رأيى أن نترك له الخطوة الاولى ، على أن نرتب من الآن شئوننا ونرسم خطتنا ، فما رأى الأخ الذى رأى وسمع وجاءنا بصلاة عدونا ؟ ..

الكاهن — نعم ، لننتظر اللحظة التى يقف فيها الناس مذهولين أمام الدين الجديد الغريب على عقولهم ، وعند ذاك تدق ساعتنا .. وعندما نتكلم سيكون فى صفنا التراث وجلال أوزيريس وسلطان آمون .. سنظهر فى عين الشعب حماة مدافعين عن عقيدته ، ولن يسقط فى هذه المعركة شىء من حقوقنا .. كل ما علينا هو أن نكون مستعدين ، فى انتظار أول حماقة من عابد الاله الواحد ..

الرئيس ـــ والآن انصرفوا فى رعاية آمون ، وحذار ان يبلغ احدكم باب بيته قبل أن يكون قد نسى كل كلمة من الصلاة الهاذية التى دنست محراب ايمانه ..

الجميع ـــ سمعا وطاعة ! سمعا وطاعة ! ..

— ٣ —

الرمز الالهى فى صدر اخناتون ينثر فى كل اتجاه اشعته الطيبة، والمحراب غارق فى السكون ، فى أحد الايام الاخيرة من حكم أول الموحـــدين ..

أما قرص الشمس المنحوت فى لوحة الجدار تلهو طفلة حسناء فى وجهها النضر مرح الوجود كله ، تقلد فى لهوها طيرا يصـــفق بجناحيه فى السماء ، أو حملا بريئا يرقص رقصة الحياة الرشيقة فى حقـــل يانع الخضرة تتفتح فيه كل ثانية براعم جديدة من قوى الحيـــاة ..

يدخل من باب جانبى صـــفير ابوها وامها ، فتندفع الطفلة واثبة الى حضن الرجل الناحل وتغمر وجهه الشـــاحب بقبلاتها الرطبـــة ..

اول شعاع من شمس الصبح يتسلل من النافذة فى هدوء ..

أخناتون ـــ صباح الحب ياحبيبتى الصغيرة ..

الطفلة ـــ اتعرف يا أبى ؟ لقد صـــحوت اليوم مبكرة حتى لا تفوتنى صلاة الشروق معك ! ..

الأم ـــ ان اباك مريض اليوم فلا ترهقيه بقبلاتك وثرثرتك ..

الطفلة ـــ الن يصلى ؟ ..

أخناتون ـ اننا نناجى ربنا كل صباح لتطمئن به قلوبنا ..

الطفلة ـ اذن نصلى معا نحن الثلاثة ..

أخناتون ـ يا طاهرة النفس ، اتصلين مرتين ؟ ..

الأم ـ مرتين ؟ ..

أخناتون ـ لقد كانت تصلى عندما دخلنا عليها .. ان مرحها صلاة وعبادة واستجابة خاشعة لحكمة الوجود .. الا ترددين ورائى فى صلاتك عند كل شروق وكل غروب أن خفق جناحى الطائر فى السماء صلاة ، ومرح الحبوان الصغير فى الارض صلاة ؟ .. ان قلب الكائن الحى ليس فى حاجة الى اى طقوس فى تعبيره عن الشكر لواهب الوجود .. وان الابتسامة التى تلقين بها كل انســـان ، ابتسامتك الرقيقة المخلصة النابعة من قلبك الكريم ياعزيزتى ، لهى خير صـــلاة يتقبلها منك الواحد الأحد آتون .. ان الطقوس والنصوص بضاعة الكهان ..

الطفلة ـ الى الصلاة أيها الأب اللطيف ..

الأم ـ أجل ، لنفرغ من الصلاة فالطبيب ينتظر ..

أخناتون ـ لقد مللت وجه هذا الرجل ..

الأم ـ انه صديق يعمل على اطالة عمرك ..

أخناتون ـ ان طول العمر هدف سخيف فى الحقيقة ياعزيزتى .. وسواء طال عمرى أم قصر فان الكهان المتربصين سينتفضون فى ساعة موتى كالنسور الجائعة ويدمرون كل شىء ، ولن يهدأ لهم بال حتى يتربعوا من جديد على عرش نفوذهم ويكبلوا قوى الشعب الروحية بالاغلال القديمة نفسها .. لقد وثبت قبل أوانى .. وفى المستقبل سيقول الناس هذا الذى أقوله لك الآن .. وثبت قبل أوانى ..

الأم ــ انت تبالغ كالعادة فى تصوير مخاوفك على تراث الروح فى مصر ! ..

الطفلة ــ الى الصلاة ايها الكسول ، الى الصلاة ! ..

الأم ــ اذهبى يا حبيبتى فهاتى الازهار لابيك ، وعندما تعودين بها سنصلى ..

الطفلة ــ سأقطف له أجمل زهرات بستاننا ، لانه سيد لطيف يا أماه ..

(تخرج مرتجلة رقصة طائرة)

الأم ــ هل ادعو طبيبك الآن ؟ ..

أخناتون ــ لا ، بعد الصلاة .. الآن أريد ان أقول لك شيئا . أريد أن تؤمنى مثلى بأن الازمنة القادمة ستؤمن كلها بما صعب على زماننا أن يؤمن به .. ستأتى أزمنة بلا كهنة ولا خرافة ولا نصوص جامدة ، أزمنة تشرق فيها الحقيقة فى كل نفس بشرية بغير تعاليم ولا وساطة ، فيختفى الكهان ، وتسقط كل الارباب المزيفة ، وينطلق ملايين الناس فى كل مكان من الارض معانقين حياتهم فى فرح ، واعين بالكون كله وعيا باطنيا ساطعا كشعاع الشمس الخالدة نواة الوجود .. وسيظهر عمالقة تزدهر فى قلوبهم عقيدة أخناتون فى قوالب جديدة وتفسيرات صادقة تناسب كل عصر .. وسيقود هؤلاء العمالقة جنسهم الى الخلاص خلال آلاف من سنوات التجربة والمخاض والفهم والوعى .. وفى النهاية تشرق شمس آتون على العالم كله ، فاذا البشر اخوة واذا الدين واحد والحب شريعة وقانون .. اننى أستطيع من الآن ان أرى الانسان وهو ينتشر فى الكون كله فى عبادة عاملة وقدرة خلاقة يلتحم بها فى ذات الاله الشاملة .. وان طبيبك قد يمنحنى أياما أخرى من العمر ، لكن من يمنحنى مثل هذا اليقين العلوى الا قلبى ؟ ..

يركع امام رمزه المقدس فى خشوع وتركع الى جانبه صاحبته، ويستغرقان فى صمت ملىء بالهناء ..

الطفلة تدخل على اطراف اصابعها وفى يدها زهرات قليلة بديعة ندية ، فتقف هنيهة متأملة ظهر صديقها اللطيف ، ثم تقترب منه على مهل ، وتنحنى ، وتضع الزهر الجميـــل امامه فى قدس المحراب ..

تغمر اشـــعة الشمس المكان وتفيض على المحراب والصلاة دفاها الأبدى ، على حين تخرج من قلب زهرة حمراء نحلة طفلة تحوم قليلا ابان الصلاة الصامتة قبل أن تنطلق من النافذة المفتوحة الى آفاق السماء ..

العنبـــر نمـــرة ٣

كانوا قد ارقدونى على النقالة التى تمشى على عجـــلات واخذونى الى حجرة العمليات فكمونى وبنجونى وفتحوا فى ذراعى اليمنى المهشمة فتحة واسعة ، ثم اعادونى فاقد الوعى الى العنبر الطويل العارى الا من صفين من أسرة قذرة يرقد على كل واحد منها انسان مثلى .

ومرت على أيام فظيعة كانوا يخرجون فيها من الفتحة التى فى ذراعى قطعا دقيقة من العظم ودما وقيحا وأشياء (مقرفة) تفوح برائحة نتنة .. على ان رائحة العنبر كله كانت نتنة .. نتنة .. وذكرياتى عن تلك الايام غامضة ، ومبهمة فى جملتها ، وراء صهد الحمى والالم .. كل ما أعرفه أن الحادث وقع فى الصباح واكلت المكنة ذراعى فى الورشة ثم غبت عن الوعى حتى صحوت قليلا على العملية فى المستشفى .. وعشت بعد ذلك اياما فى شبه حلم ثقيل متصل كنت أحس فيه أن ذراعى تخضر وتسود وتتورم وتصير من الثقل بحيث لا أعود أنا بالنسبة لها الا كما تكون ذبابة ملتصقة بفخذة خروف مسلوخة يحملها صبى جزار ..

وربما كان قد مر على وجودى فى العنبر نمرة ٣ اربعة أيام أو خمسة عندما جاءت النقالة ذات العجلات بنبوى كاتب مخزن

الخشب وقذفت به على السرير المجاور لسريرى . وكلّ الذى أذكره الآن انى لما أفقت من احدى غاشيات الحمى كان وجوده الى جانبى هو أول ما لفتنى الى الحياة .. ملت براسى لأراه فوجدته راقدا مثلى على ظهره فى جمود تام ؛ لولا أن عينيه كانتا هما أيضا مائلتين نحوى .. ولست اذكر أول كلمات تبادلناها ، لكننى اظن انى سألته عن صحته ودعوته أن يتشدد ، فرد على ، وتكلمنا .. وقال لى اسمه وقلت له اسمى .. وعرفت كيف انهارت حمولة الخشب على ساقه فهرستها ..

والمستشفى الكبير عالم عجيب يموج بالدكاترة والتمورجية والحكيمات والفوضى والحقن والاهانة وثلاث وجبات هزيلة وأنين يرتفع من كل ركن فى العنبر .. وبين كل لحظة واخرى ينخلون بمعاطفهم البيضاء ووجوههم الجامدة فيضـــعون على النقالة ذات العجلات واحدا منا ويغيبون به ثم يعودون فيتركونه لنا ..

وعندما أقبلوا ليأخذوا « نبوى » سمعته يئن وهم يرفعونه من السرير الى النقالة بصوت محزن واهن :

ــ حاسب يا افندى رجلى .. رجلى يا افندى مهروسة ..

وبعد مدة رجعوا به فاقد الوعى والزبد يعلو فمه تحت شاربه الخشن الكبير، وكان وجهه مزبدا متغير السمات، وفى حلقه حشرجة مخيفة ، وكانت ساقه اليسرى مغلفة فى ضمادات هائلة فأرقدوه وهو لا يعى وربطوا له ساقه مرفوعة فى جهاز متصل بأعلى السرير فصارت معلقة أمامنا كالقتيل البدين ..

ولما عادت اليه الروح وبدأنا نتكلم جاءت البنت عنـــايات الحكيمة والتى تطرقع باللبانة وشخطت فينا واسكتتنى بلهجة وقحة، لانها لم تكن لطيفة مثل البنت الاخرى حسنية ..

وبدأت من تلك اللحظة فترة عصيبة عانى فيها نبوى آلاما شديدة ، وكنت من وهن القوى بحيث لا يسعنى الاهتمام بكثير مما يدور حولى فى العنبر الثالث ، والا بنبوى ، تآخينا ، وكان كل منا لصاحبه بعض العزاء فى المحنة .. وكنت أشعر أنى أعبر كل يوم مرحلة جديدة فى طريق الشفاء ، على حين كانت حياة نبوى فى خطر لا يخفى على أحد ، حتى رفاقه الراقدين .. كانت ذراعى على سوء حالها أحسن كثيرا من فخذ نبوى التى كنت ألمح فيها عند تغيير الضمادات جرحا بشعا غائرا يكاد يكون أخضر اللون ، وكان يخيل الى انى أستطيع أحيانا أن أرى العظمة المكسورة فى أعماق اللحم الممزق ..

وكانت الحمى تأتى هذا الحطام الهزيل مع كل عصر فتهزه وتنفضه نفضا ، وأحيانا كان يبكى ويهذى وهو يعانى سكراتها الأليمة باسم امرأة ..

ــ بس لو كانت حكمت تيجى أشوفها وتشوفنى ! ..

ولم يكن يزوره الى ذلك الحين غير أخيه العامل بمصنع النسيج وشيخ معمم من أقاربه كان كلما زاره يقرأ على رأسه سورة يس ، وكان نبوى فى صحوة وعيه يقول لى انه يكره أن يرى كل هؤلاء الدكاترة والمرضى واحدة من نساء أسرته ..

وقال لى مرة :

ــ عيب نسوانا تيجى هنا ويبص لهم الدكاترة دول ! ..

وذات مساء اشتدت به الحمى فى أول الليل فجاءت البنت الحكيمة بالدكتور صفوت المعجبانى الذى دخل ونظر فى وجه نبوى ثم فى ضمادات فخذه وأصدر فى ضيق أمره :

ــ هاتوه لى حالا هناك ..

ومرة اخـــــرى غاب نبوى طويلا وعاد من حجرة العمليات بشفتين مزبدتين مستقطع القسمات . كانوا قد رفعوا له من الجيب الضخم الذى فى لحم فخذه قطعة اخرى من العظم .. وسـاءت حالته حتى جعلت أفكر فى جــــزن عميق هادىء فى أن « نبوى » المسكين ســـيموت دون أن يرى امرأته التى يبدو من هذيانه أنه لا يشغل باله فى الدنيا غيرها .. وصار كثيرا ما يهوى فى لجة من نزع يائس ، ويهذى فيتكلم عن حكمت .. حكمت دائما .. حتى كدت اقول للدكتور صفوت اله العنبر الحاكم بأمره : « ياناس هاتوا له حكمت مرة ! .. » .

حتى كان يوم صحوت فيه بعد العصر من غفوة قصيرة على حديث مهموس يدور الى جوارى من ناحية سرير نبوى .. فكان أول ما خطر لى : « نبوى مات » وفتحت عينى .. لم يكن نبوى قد مات ، بل كان على غير العهد به كأنما ردت اليه الروح واسترجع بعض لحمه المفقود وعافيته الهاربة ، وكانت احدى يديه بين يدى امرأة تكشف الملاءة السوداء عن فستانها الاحمر وعنقها الابيض وذراعين من عاج من أغلى صنف ..

ولحظ صديقى أنى صحوت وان غض حيائى من بصرى ، فما نسيت كلامه عن الحريم وكرامة الحريم ، لكنه نادانى فى فرحة صادقة كلها طلاقة وحيوية :

ــ جودة .. مراتى حكمت أهيه ! ..

فالتفت نحوهما فى ارتباك ، وقلت دون أن أرى غير اللون الاحمر واحدي الذراعين المليئتين :

ــ حمد لله ع السلامة ياست ! ..

وقال نبوى وهو يرفع رأسه قليلا عن الوسادة :

ــ دا جودة يا « حكمت » .. أخويا ..

فى حياء نظرت لى وتمنت لى الصــحة والشفاء . يالجمال عينيها العسليتين الكحيلتين .. وصوتها كأنه النسمة العليلة التى ترد الروح .. حقا يجب أن يكون لكل رجل امرأة من هذا النوع ! .

والعنبر كله وقف على رجل ، وبعد ربع ساعة كان الدكاترة التلاميذ داخلين خارجين بلا سبب ظاهر ، ومتلطفين مع المكسورين الراقدين الذين كانوا يلعنون كل يوم آباءهم ، وبخاصة نبوى .. حتى البنات الحكيمات (اللعبيات) صرن يقتربن من سريره ويبتسمن للست الحلوة القاعدة قرب وسادته .. وارتفع من أقصى العنبر صوت عم بشندى الأجش ــ وقد نسى تماما أضـــلاعه الأربعة المكسورة وأعوامه السبعين ــ زاعقا ملء وجوده الممتن لبارىء الجمال :

« اللهم صلى على جميل النور ! » .

حدث فى العنبر نمرة ٣ كله انقلاب شامل ، وصار موعد حضور حكمت لزيارة زوجها شيئا يحس به المستشفى كله ، وكان الاهتمام العام بها مهذبا على نحو ربما لا يصدقه من لم يره ، فقد كان فيها من بساطة الطهارة ونبل المحبة الشريفة شىء يكسر كل وقاحة عابثة أو هاجس غير برىء .. وكانت حكمت ربما حملت الى نبوى شيئا من طعام أو فاكهة ، لكن أخطر ما كانت تحمله اليه وأجمله هو نظرتها الندية التى كانت تغمره بها فتجذبه من هوة الفناء جذبا قويا رحيما .. صار بينها وبين الحمى التى تريد أن تقضى عليه صراع جبار .. معركة حقيقية بين الحب والموت . .

والانسان منا عندما يرقد طريح الفراش مدة طويلة تخطر له خواطر غـــريبة عن نطاق تفكيره المألوف ، حتى لو كان مثلى من من البسطاء . لم أفكر فى نفسى وأشغالى المعطلة والورشة المقفولة

وتدبير أمر المستقبل كله بقدر ما كانت تشغلنى مسألة نبوى ورجله .. ان شكل فخذه التى أراها الآن كل يوم عند التغيير عليها لم يعد يسر حبيبا .. تقريبا لم يعد له فخذ .. نشروا له ثلثى عظمة الورك فصارت ركبته تبدأ على مسافة قريبة من وسطه ، وما بقى من فخذه شيء مشوه مهزول لا معنى له ، والبنت حلوة ، وشباب ، والشر فى الدنيا كثير .. وكان خيالى ربما سرح بى فى هذا المعنى الى حدود يستحى اللسان أن يذكرها ، ثم يخزى الشيطان وأعود الى التفكير فى مستقبل أخى نبوى وما ينتظره فى حياته التى ردتها عليه ، قبل قدرة الطب ، نفحة الحب .

ويبدو أنه كان يعالج فى صمته الطويل وهو يتقدم للشفاء نفس الافكار والصور ، اذ سمعته ذات صباح يقول لى دون أن ينظر نحوى فى أول الأمر :

— مانمتش الليلة ياجودة ..

— ليه يانبوى ياخويا ؟ .. رجلك كانت تعباك ؟

وسكت نبوى قليلا وأحسست من مجرد صمته أنه سيتكلم فى موضوع جدى لعله أن يكون موضوع حكمت ..

— مراتى لسه ماشافتش اللى فاضل من رجلى ياجودة .. وانا خايف ..

قلت له بعد أن بحثت قليلا عن الكلمة المناسبة :

— ماتقولش كده ياراجل .. دى مراتك ست عليها الكلام ، وبنت أصول وبتعزك ، واللى يحب مايكرهشى يانبوى .. وهو أنت لا سمح الله جرى لك ايه ؟ ..

سكت ، لكن عينيه لم يكن فيهما كل الاقتناع المريح .

وجاءت قبل الظهر حكمت ولم تكد تقضى معه دقائق قليلة حتى كانت الفكرة المتسلطة على نفسه منذ أيام قد دفعته الى تصرف جعلنى أضع يدى على قلبى وأتوجه الى الله بدعاء حار صامت .. سمعته يقول لها :

— قولى لى يا حكمت .. رجلى يعنى .. يعنى شكلها مش ولابد يعنى .. تحبى تشوفيها ؟

كان ردها همسا فلم أسمعه ، لكنى رأيته وهو يرفع طرف الملاءة فى حرص ثم يفك بعض الاربطة بيد مرتجفة عن الفخذ المشوهة ..

رأيتها والابتسامة المرتعدة تملأ وجهها وهى تنظر دون أن تطرف عينها ، وسمعت كل حرف فى ردها :

— ياخويا .. والله ما باين عليها حاجة .. دى خلاص قربت باسم الله ما شاء الله .. ربنا يتم لك بقى بالشفا وترجع لبيتك وأهلك ..

كان ذلك حكما انتظره نبوى وانتظرته معه كما لو كان سيخرج من شفتى مستشار فى محكمة الجنايات .. وقد أحسست معه أنه بهذا الحكم أسعد مما لو قيل له ان ساقه ستعود كما كانت تماما قبل أن يهرسها كوم الخشب فى الشادر .. تفتحت الحياة وأشرقت وتحدث بذلك المستشفى كله .. فلما غادر نبوى السرير أول مرة ليحاول خطواته الأولى مستندا الى العكاز ، حفت به زفة زائطة من المرضى والمرضات والزوار ، واقسم نسيم أفندى معاون المستشفى وهو يتمحك فى حكمت أن يوزع الشربات على حسابه على الدور الثالث كله ، من قسم الاشعة الى قسم جراحة العظام ..

حكى لى جودة هذه الحكاية عندما قابلته فى الاسبوع الماضى فى اتوبيس الفيوم ، وكان عائدا من بلدته بعد أن باع قطعة صغيرة من الارض كان يمتلكها عن أمه كى يستعين بثمنها على اعادة فتح ورشته بعد أن ظلت مغلقة ثلاثة أشهر ، وهى المدة التى قضاها متنقلا بين عنابر المستشفيات الحكومية لعلاج ذراعه المكسورة ، وعندما ودعنى فى ميدان التحرير تذكر فجأة شيئا من حكاية نبوى وحكمت لم يروه لى ، فقال لى وهو يضحك ضحكا طيبا لا خبث فيه :

ـ نسيت أن أقول لك ما وقع عندما جاء موعد خروج نبوى من المستشفى .. جاءته البنت حسنية المرضـــة بزجاجة كلونيا وربطة قطن معقم وقالت له :

« ياعم .. الدكتور صفوت مارضيش نديلك حمام علشـــان رجلك لسه ما قفلتش ، انما برضه حا أهيألك حمام الدخلة الجديدة .. بس أوعى تنسى تسلم لى على الست ! .. » .

نبين زين

أمس فى حديقة بيت أحد أصدقائى انقضت علينا فى ساعة العصر عرافة تأبى الا أن تأخذ قرشين « وتبين لنا زين » . امرأة ناحلة داكنة السمرة ، لم يبق بينها وبين أن تضع جنينها الذى ارتفع به بطنها كالكرة الضخمة أكثر من شهرين ، وقد تكون فى الثلاثين وان كانت تبدو بلا عمر ، طلعت علينا فى رداء من نسيج شفاف أسود يظهر من تحته قميصها الاحمر القذر . وفوق رأسها المقطف الذى يضم الرمل والودع ومصائر الاعمار وحجب الغيب . ولمعت فى الشمس و « الغجرية » تنسل الينا من باب الحديقة أساورها الزجاجية الملونة ، وكأن قدمها العارية وهى تبرز مع كل خطوة من تحت ذيل الثوب حيوان صغير زاحف ، ضامر مغضن الجلد ، ملبد بغبرة السنين التى زحفها على الطين والرمل والجوع .

وفى الحال ثار بينها وبين صديقى صاحب البيت حوار عنيف بترته من جانبها غمزة ومن جانبه ضحكة . وقد بدأ الحوار من جانبه بكلمة قاسية ومن جانبها بأن الله الذى يرزق دود الارض قادر على أن ينزل فى قلب « البك » رحمة بها واحسانا اليها . ولم يكن لنا مفر من أن تسمعنا الواحد بعد الآخر محفوظاتها البلهاء . ثم أخذت القرشين وقبلتهما وأخذت ايضا رغيفا طلبته وهى تجمع ودعها وتصر رملها .

وتبعتها نظراتى وهى تمشى الى باب الحديقة داعية لنا أن يعمر الله بيتنا ولا يحــرمنا العــافية . كم هى عجفاء هذه الحبلى المهزولة ضاربة الودع ! .. وصوتها وهى تطلب الرغيف كان لايزال يتذبذب بنبرته العميقة فى نفسى عندما تراكبت صـــــورتها فجأة فى مخيلتى مع صورة عرافة أخرى أخذت يدى فى يدها فى زمان قديم ، وفى عالم بعيد ! وزعمت لى مثل ما زعمت هذه الضائعة الضاوية ..

وانه لشىء عجيب حقا ذلك التراكب الذهنى الذى يحدث فى ذاكرتنا عندما توقظ لحظة حاضرة لحظة قديمة من ماضينا ، وفى ومضة واحدة ، فتشق حجاب الزمن وتلغيه ، واذا بتلك التجربة النفسية القديمة تصحو فى المخيلة فجأة ودفعة واحدة بكل تفصيلاتها الدقيقة وبكل أحاسيسها التى كانت لها فى حينها .. وكم لامتزاج الاحساس الجديد بيقظة الاحساس القديم من لذة حريفة هى التى تخلع على الذكريات كل ذلك الجمال الممتع ..

عرافة المقطف قالت لى : ان اسمها أمينة ، فوجدتنى فى الحال اترنم باسم زميلتها الذى لم تهجس به نفسى منذ كل تلك السنين .. زازا .. كان اسمها زازا ، هو اسم كانت هى نفســـها تغنيه وتتصرف فى انشاده مكررا حتى تجعل منه أغنية ولحنا طريفا ... والمنظر فى شرفة مقهى فى مدينة من مدن الجنوب الاوربية ، صباح أحد أيام خريف مرت عليه السنون .. ما أجمل صحوة زازا فى نفسى وأنا هنا فى هذا الكرسى الخوصى الذى اســـتسلمت بين ذراعيه لشمس هذه الضاحية الهادئة من ضواحى القاهرة .. أراها الآن كما اقبلت فى ذلك الصباح على المقهى فزعمت لمن كان حولى من الناس ما زعمت ، ثم أقبلت تسألنى كما سألت غيرى :

ــ والسيد ؟ .. الا تريد أن تقرأ له زازا كفه ؟ .. ان زازا تكشف الغيب وتعرف الماضى والمستقبل ..

فطويت صحيفتى ومددت كفى مستسلما ونظرت فى عينى العرافة .

بنت فى ربيع شبابها تحمل فى هيئتها وملابسها وزينتها طابع بنات الغجر فى وسط أوربا ، وهى جميلة وأجمل ما فيها شعرها الثائر الغزير ، وعيناها خضراوان ولخضرتهما الزمردية عمق مياه الآبار العميقة .

قالت وقرطها الدائرى الكبير يرتعد بين أذنها وكتفها :

ــ الماضى أو المستقبل ؟ ..

فلم أستطع أن أخفى الضحك وأنا أقول لها :

ــ اسمعى .. أعترف لك أولا أنى لن أصدقك ، ولكنى بعد ذلك سأترك لك كفى ، وسأسمعك فهاتى ما عندك .

ظلت العرافة تحدق فى عينى وقد ترقرق الدم الحى تحت بشرتها الخمرية النضرة التى تغرى باللمس ، ثم سقط بصرها دون أن تتكلم على كفى التى كانت قد استراحت بين يديها البديعتين وفحصت كفى وهى عابسة ، وانى لأرى الآن ــ وما غاب بعد شبح أمينة عن عينى ــ أسنان زازا وهى تعض بها شفتها الحلوة .. وجاء الجرسون الكهل فوقف وراء رأسى ينتظر الغيب ..

ولست أذكر شيئا مما قلته ، وما تكلمت زازا بشىء يفوق ما جاد على به هذيان أختها المسكينة أمينة ، ولكننى على غير ما وقع لى مع عرافة بلدى ــ وانى ليخجلنى أن أذكر هذا ــ تلطفت الى تلك البنت الحلوة كى أظفر من وجهها الجميل بابتسامة .. كنت فى التاسعة عشرة من عمرى ! ..

ــ أنت مدهشة ! حقا ما أغرب هذا ! ..

ـ أتصدقنى الآن ؟ ..

فالتفت فى حركة تمثيلية الى الساقى :

ابتعد يا بيير لحظة ، أرجوك .. هذه أسرار حياتى تنثرها على المائدة دون رحمة هذه الكاشفة الخطرة .. تكلمى يازازا .. ولكن لا .. دعى كفى .. دعيها وان لم تفعلى فانى من بين يديك اسرقها ! ..

ـ أهذا كل ما تود أن تعرف ؟ ..

ـ سؤال واحد .. وفى خطوط كفى لا ريب اجابة ظريفة عنى .. هل يكون من حظى أن أسعد بلقاء لحظك المسكر مرة أخرى ؟ ..

اتسعت العينان العميقتان فضولا وعجبا ، وقالتا مع صاحبتهما :

ـ يعنى ماذا هذا الكلام ؟ كل ما أطلبه هو أن تدفع لى أجر ما كشفت من حاضرك وما سترت من ماضيك ، فأشكرك وأنصرف لأبين لغيرك الاقدار ومصائر الأيام !

قلت لها ، مرة أخرى :

ـ أليس فى علمك الغيب ساعة من تعارف حسن ؟ .. هاك كفى .. ستجدين فيها هذا .. هنا ، فى هذا الخط المائل الطويل ! .. انظرى ! ..

فى هذه المرة تفجر الضحك فى صدر زازا وتساءلت وليس بها شبهة غضب :

ـ ماذا تريد منى ياهذا الرجل ؟ ..

أمينة مواطنتى التعسة ضاقت بوجودها نفسى ، أما هذه فقد ناشدتها موعداً تلقانى فيه اذا كان الليل ، وفرغت من دروسى فى الجامعة وفرغت هى من الكذب على ماضى الناس ومستقبلهم وجمع نقودهم ..

الزمن النائى يعود فى عالم الذاكرة الغامض غضا نابضا بدفئه القديم كله .. مسكنى الصغير فى تلك المدينة ، وراء الجامعة .. والعشاء الذى تناولناه على الارض ، فى جوار المدفأة .. وزازا وهى تعب من الخمر ما يصرع الرجل القوى .. والبئر الزمردية العميقة وهى تبكى فجأة بدموع غزيرة .. آه أمينة يا مجهولة القاهرة الضائعة ، كيف لم أطوق بذراعى عودك الناحل المسكين كما طوقت فى تلك الليلة أختك الاوربية التى ألهبت دموعها حنـــانى .. لقد أحسستك كما أحسستها ، ورأيت وأنا أنظر راغما الى بطنك القبيح البارز كل دموعك المتحجرة ، فأنت كلك دمعة خرســـاء .. وأنا أعطيتــك القــرش وقلت لك اذهبى .. أنا رأيتك تقتلين الرغيف يا أمينة ولم ينفطر لك قلبى .. تركتك وغصت فى ليلتى تلك القديمة .. ثم سافرت زازا الى مدن أخرى ســاعية وراء « قدرها » وانقطعت عنى أخبارها بعد رسالة واحدة مليئة بالاغلاط الاملائية والمشاعر الصادقة .. لم أنس عربدة الدموع فى عينيها وحكاية حياتها العاصفة ، ولا جلجلة الضحك فى صفائها وأنســـها .. ورقصها الوثنى فى ظلال المصباح الأزرق ..

غابت فى الليالى كما ســـتغيبين يا أمينة بعقدك الكهرمانى الاصفر وخلخالك الفضى ..

غابت سنة ، وسنة ثانية ، حتى كانت ليلة شتاء فى كهف من كهوف الرقص فى مونمارتر .. واذا بالعراغة القديمة راقصة محترفة تخرج شبه عارية من وراء ستار ، كالدمعة ، كالحياة التى نحياها .

دق قلبى عندما سيطرت عليها عند ذروة الرقصة غبطة علوية عجيبة .. وفى معصمها وهى ترقص كانت تلتمع أساور من ماس ، كما التمع فى معصمك يا أمينة الزجاج الاخضر والاحمر والاصفر ..

صورة كاملة الخطوط والظلال ، تدفقت دفعة واحدة فى ومضة قصيرة بالغة القصر ، فمزجت اللحظة النفسية الحاضرة بالتجربة القديمة ، فى شعور حريف غريب تذوب لذته المتعة فى مرارة موجعة واذا بى انتفض واقفا واندفع نحو الشارع الذى لم يكد يغيب فيه ذلك الكيان الاعجف حامل الجنين والمقطف ..

ــ امينة ! .. امينة ! ..

ورايتها عند باب البيت المجاور لبيت صديقى تجاهد للصمود تحت وابل من شتائم بواب امبراطورى العظمة يأبى عليها فى غلظة بليغة أن تزعج سادته ، ويتهمها باللصوصية والدعارة وينسب وجودها الى الكلاب ..

ناديتها ، ناديت المقطف والخلخال والجنين ونفسى المزقة ..

ترددت المراة لحظة فى خوف كانها حسبت انى اريد استرداد الهبة الهزيلة التى نالتها منى ، ثم اقبلت على مهل يشيعها صوت العملاق الاسود المتعجرف :

ــ دا حرامى ابن ستين كلب .. انا عارفه كويس ..

نكست راسى وقلت لها فى شىء من الخجل وانا اقذف الى مقطفها بكل ما فى جيبى من نقود :

ــ « اذا خلفتى بنت يا امينة ابقى سميها زينب ، ولما تدلعيها قوليلها زازا .. » .

ولها الحق اذا كانت قد حسبتنى من الحمقى ! ..

الشيء الحقيقـي

لا عجب فيما افعل ، فليس هذا عملا فنيا بقدر ما هو خدمة انسانية ، وانما أقدم معروفا صغيرا لأخى أحمد ! .. ..

وما تعودت كما تعرف أن أرسم شخصا بهذه الطريقة الفجة المجردة من صدق التعبير ولذة الخلق ، لكنى من أجل أحمد أجلس هنا كمن يحمل جبلا على كتفه وأمنح نفسى هذا العمل الذى يكاد يكون فاقدا لكل مقومات العمل الفنى ، والذى سأضع عليه اسمى عند الانتهاء منه وأنا كاره ! ..

أقول لك هذا لانى لمحت عند دخولك ابتسامة الاســـتهانة المدهوشة وهى تشمل اللوحة الضخمة والصورة الفوتوغرافية التى انقلها الى « الحجم الطبيعى » وكأن الابتسامة تقول لى قبل أن تستردها من ملامح وجهك قدرتك على المجاملة : مزق هذا الهراء يا راجل وارسم شيئا حقيقيا .

واعلم قبل أن تجلس أنك فعلا أمام شىء حقيقى وخذ الصورة وتأملها قليلا وحاول أن تتعرف الى الأبعاد الحقيقية للشخصية التى تطالعك بها هذه السيدة الشابة فى وقفتها الكاملة من كعبها الى شعرها .. هل هى ذائعة بحيث لا ينبغى أن تموت أبدا ؟ ..

لا ..

امراة عادية بيضاء البشرة فيما يبدو أكثر من اللازم وليس وراء تعبير وجهها دلالة ابعاد واعماق ؟ ..

اهذا هو رايك النهائى ؟ ..

اعلم اذن أنه رايى أنا أيضا ! ..

نحن فعلا أمام انسانة لها حظها من جمال الشـــــكل لكنها لا تحفزنى ولا تحفزك الى أن نحس أو نقول ان هذه المرأة غير عادية (ونستخسرها) فى الموت ونرشحها لخلود ، لكن رأيك ورأيى يعلوه « الشىء الحقيقى » الذى وراء هذا « الكارت بوستال » الذى يبدأ بأن تطلب الرحمة لهذه السيدة التى ماتت منذ أشهر مقتولة فى حادث سيارة ! ..

سأقول لك كل شىء ، وفى وســـــعى أن أجمع بين الثرثرة والاستمرار فى نقل زخرف الفستان من صورة الكاميرا الى اللوحة بأمانة تكاد تكون سخرة ..

والمشكلة التى تواجهنى الآن هى من أيهما أبدأ ، من ناحية الصورة أم من اخى ؟ ..

لكن ما هذا الظن غير الكريم الذى برق فى عينيك الخبيثتين ؟.

ألا تعرف أن أحمد شقيقى عاشق لزوجته التى لم ينقض على زواجه بها عامان ، وانسان عاقل ومنظم ؟ ..

لا ، لا علاقة على الاطلاق ، وهو لم يرها ولم يعرفها .. رآها مثلنا صورة يعرضها عليه زوجها باكيا شبابها وكل نعمة الحياة التى غاضت من حياته بمصرعها ..

ولعل الظن السيىء ليس خصلة فيك وانما هى طريقتى أنا السيئة كل السوء فى فن الحكاية ..

انتظرنى حتى أفرغ من تلوين حقيبة اليد المنتفخة التى تتدلى من ذراع السيدة وأركز ذهنى فى بداية أوضح وأحسن .. ان كل ذلك فى وسعى ! ..

آه ! يوم أخذنى احمد الى ذلك البيت الجميل فى آخر شارع الهرم .. قال لى فى ذلك اليوم وهو يطوف بنظرته فى فضاء المرسم :

ــ هل يضايقك سؤالى عن تاريخ آخر لوحة بعتها ؟

قلت له ضاحكا من قلقه :

ــ اسألنى عن تاريخ آخر مرة حلقت فيها شعرى وذقنى .. لماذا تريد دائما أن تنسى أنى مجرد « هاو » يتسكع على عتبات الفن وانى أعيش من مرتبى كمدرس للرسم ولست فى حاجة ملحة الى ان يشترى أحد لوحات أرسمها فى انزواء وحياء وأنفس بها عن نفسى ؟

وانت تعرف أحمد معرفة قليلة لكنها كانت كافية لكى تتعرف ، بجانب دماثته وطيبته ، الى نجاحه فى عمـــله القائم على الدقة الحسابية واحترام طلاسم الارقام .. ان أرقاما قليلة من حسابه فى البنك هى التى دفعت ثمن السيارة الصغيرة الجديدة التى كانت فى تلك اللحظة تنتظره أمام باب العمارة ..

قال لى وهو ينظر بغير احتفال الى اللوحة التى كانت بين يدى عند دخوله :

ــ الذى لا أستطيع أن أنساه هو انك لو حلقت ذقنك الآن وخلعت هذه السترة المبقعة بألوان الزيت وأطعتنى ونزلت معى فستعود من المشوار بثلاثين أو أربعين جنيها لابأس بها !

لو ان للمال معبدا وللمعبد كاهنا ما نزلت حكمته على قلوب اتباعه المؤمنين بغير ما نزلت به فى نفسى تلك الكلمات القليلة من هزة شديدة ..

أمسكنى من اليد التى توجعنى ..

ثلاثون أو أربعون جنيها ؟ ماذا سأفعل فى المشوار ؟ أرقص أمام ثرى من ضيوف القاهرة رقصة البطن وتمسك لى حضرتك الطبلة ؟

ــ بل تأخذ مع الفلوس فكرة صورة ترسمها فى شهر أو شهرين على مهلك ، وتقدمها لصديقى الذى يريد أن يكلفك اياها .. قم ابحث عن مكنة الحلاقة ونكمل كلامنا وأنت تتهيأ للخروج .. واستعمل الصابون العادى : فما أظن عندك صابون حلاقة .

ضحكت ، فنظر فى ساعته الوجيهة :

ــ قم ، أكل العيش يحب الخفة والموعد بعد أقل من ساعة ..

كنت مفلسا ، ولحيتى طويلة حقا وما ينبغى لى أن ادخل على صديق أخى الذى يرانى لاول مرة فى هيئة تحط من قدر اخى صاحب السيارة الجديدة ومدير حسابات تلك الشركة الكبيرة ..

تركت اللوحة التى لم تتم ، واستسلمت .

وبعد ساعة وقفت بنا السيارة أمام بيت وجيه قريب من الاهرام وقال لى أحمد وهو ينظر نحوى فى قلق كما لو كان الزمن الظالم قد رماه بشقيق نصف مجنون لا يؤتمن على سلوك حسن :

ــ لا تحدد المبلغ بنفسك واترك لهاشم الكلام ..

ودخلنا الى جو أنيق لا خفاء فى تزاوج القدرة الشرائية عند صاحبه بالذوق الحسن ، وكان احمد وهو يكلمنى خلال الطريق عن حكاية صديقه هاشم قد أيقظ فى نفسى اهتماما غير عادى بشخصية الرجل الذى ينتظرنا ، وبالمأساة التى يعيشها ، وكنت أعلم وانا ادخل أنى ضيف على رجل محطم يعيش فى حزن كبير ..

وقابلتنا فى السلم الداخلى صغيرة سمراء يبرق الذكاء فى عينيها فاندفعت الى حضن « عمها احمد » وأنا أرنو اليها محتدم الوجدان وحانيا على حياتها هى واخويها بعد مقتل أمهم ، وفى ضوء ذلك الاحساس سخطت فجأة على نبرة صوت اخى وهو يهمس لى عند الباب طالبا منى فى بلاهة الا أطلب « المبلغ » بنفسى .. مع هذه الصغيرة واخويها يريد الأب أن تعيش فى البيت صورة زيتية بالحجم الطبيعى لزوجته الراحلة ! وما جدوى مثل هذه السخافة ؟

ومن الصعب أن تقابل شابا فى بداية الحلقة الرابعة قابع الحطام فى كرسى طويل يستند الى ظهره عكازان هما عماد الرجل ان شاء الحركة ، وانه لما يزيد الأمر صعوبة ان تقابلك عند تحية اللقاء عينا انسان حساس ذكى ..

وقال أحمد يقدمنى :

ــ أخى يونس الذى كلمتك عنه ، رشحته لا لأنه أخى بل لانه فى رأيى من احسن من يرسمون الوجوه فى مصر لولا كسله .

وصوت هاشم يكشف ثقافة وتربية :

ــ أنا سعيد يا أستاذ يونس ، وبعد القهوة أعرض عليك مجموعة الصور لتختار منها ما يلزمك فى عملك .. متى تظن أنك مستطيع اتمام الصورة ؟

وعلى الجدار من وراء الكرسى عشرات من صور فوتوغرافية فى أحجام متفاوتة لوجه واحد ، ذلك لا ريب وجهها وتلك هى القتيل التى يراد من الفن أن يقاوم الموت ويبقيها خالدة ..

ــ اريد قبل أن تشرع فى العمل أن يكون ما أريده مفهــوما عندك وواضحا كل الوضوح .. أريد شيئين فى الحقيقة ، الصورة بالحجم الطبيعى ، ومثالا من أصدقائك ، فلابد أن الرسامين والمثالين فى عالمهم الذى لا اعرف منه فى الحقيقة شــــيئا يعرف بعضهم بعضا .

ــ مثال ؟

وفى نظره الرجل العصبى النحيل المنكمش تحت الغطاء توقد ضرام حريق داخلى عظيم :

ــ أريد تمثالا بالحجم الطبيعى أيضا ، ولا تهمنى التكاليف ..

خطفت نظرة الى أحمد أستطلع رأيه فى هذه النقطة الغريبة التى لم يرد ذكرها على لسانه ، فأدركت فى الحال أنها جديدة عليه هو الآخر وأن موقفه منها هو الحياد ، وتحسست موقع كلماتى وأنا أستفسر عن المكان الذى سيقام فيه التمثال .

وهامت نظرات الرجل فى ذلك الوجه الواحد المتكرر على الجدران من كل ناحية قبل أن يمسك بيدى بين يديه وتنصب على مشاعرى من عينيه ومضات مقلقة ..

ــ هنا ! هنا !

ــ فى البيت ؟

ــ اسمع ..ان هذا ما كان يجب أن يحدث قط على النحو الذى وقع .. لقد كنت انا الجالس وراء عجلة القيادة لا هى ..

وكانت الى جانبى تضحك عندما صدمتنا سيارة النقل ونثرت فوتنا حمولتها ، فلماذا هى لا أنا ؟ .. لماذا تموت ولم يكن فى هذه الدنيا انسان أولى منها بالبقاء ؟ .. ان ما اريده ليس كثيرا عليها ابدا .. أبدا .. ليس كمثلها فى الدنيا شىء .. كانت هى الشىء الحقيقى الوحيد فى الدنيا .. هل أخذت بالك وأنت داخل فى البهو من حوض السمك المبنى فى التجويف الكبير فى حائط الصدر المواجه للباب ؟

خيل انى أمام العينين المحمومتين أنى أسمع هذيانا ، لكنى قلت له :

ــ لم تتوقف عنده نظرتى أكثر من اللمحة العابرة ، فان بيتك كله جميل ، وأنا أتلقى الجمال عند النظرة الأولى ككل .. والنظرة الثانية وما بعدها هى التى تسمح بتجزئة « الكل » وتأمل أجزائه منفصلة وقائمة بذاتها ..

انتفض الرجل من هزة سرور :

ــ هذا صحيح .. هكذا أقرأ .. هكذا أسمع الموسيقا .. هذا الاستيعاب الشامل عند اللقاء الاول بالجمال .. ان الفن أو الطبيعة أو الحقيقة هو عندى بداية الرؤية ..

ومد يديه الى العكازين :

ــ نراه الآن معا ، حوض السمك .. هناك أستطيع أن أوضح لك فكرتى على الطبيعة .. تفضل معى ..

تقدم أحمد للمعونة ولزمنا بعض الوقت قبل أن يتحرك فى موكب بطىء تنظمه ايقاعات متفــــاوتة الرنين من مس العكازين للسجاد ولخشب الارضية ولبلاط البهو فى مواضعه العارية ، وما أبشع ما يمكن أن تتمخض عنه الثوانى القليلة التى تتم فيها كارثة التصادم بين سيارتين مسرعتين اذا رأيته ماثلا على عكازين .

وعند حوض السمك الضخم توقفت دقات العكازين وأرتفع أحدهما كما لو كان اصبعا جبارا ليكون فى عون الكلمات :

ــ سننقل السمك الى الحديقة ونهدم كل هذا ونقيم فى مكانه التمثال ، فما رايك ؟

وجاءتنى النجدة بظهور طفلته التى اندفعت مرة اخرى من أحد أبواب البهو الكثيرة نحو ساقى « عمها أحمد » على حين توقفت مربيتها المحرجة على بعد خطوات وهى تختلس من صاحب البيت نظرات واشية بالخوف ، فما أسرع ما دار طرف العكاز فى اتجاه المربية ..

ــ خذيها .. مع دادة ياهدى .. خذيها فى الحال ..

قبل أحمد هدى فى وجنتها اللطيفة وهو يرفعها الى حضن المربية لتختفى بها ، وخرج من صمته المحايد :

ــ يبدو لى يا هاشــم أن من المستحسن أن يكون التمثال نصفيا وعلى قاعدة مرتفعة .. أقصد الرأس وحده فى حجم أكبر من الحجم الطبيعى .. ما رايك يا يونس ؟

لم يكن الكلام سهلا ، لكن دقة واحدة قوية من طرف العكاز الايمن لطمت الارض :

ــ لا ! لا .. لا أريد رأساً ولا نصفا .. أريدها كلها .. كلها .. ويومها البسها ثوب الزفاف ثم أخلعه عنها بيدى والبسها كل يوم أحد فساتينها الكثيرة الجميلة التى كانت تشتريها بالخمسة وبالعشرة .. اسكت أنت يا أحمد .. اسكت .. الأستاذ يونس يستطيع أن يفهم كلامى .. انى اقرأ فى عينيه أنه يفهمنى ..

كنت قد فهمت شيئا أساسيا فى علاقة هذين « الصديقين » لا أكثر ولا أقل ..

فهمت ونظرتى الزائغة معلقة بسمكة حمراء صغيرة تطفو فى مرح مع فقاقيع الهواء المتصاعدة فى رقة من بطن الحوض أن هذه « الصداقة » قائمة على امتناع أحمد عن معارضة هاشم ، كنوع من العلاج لنفسيته المزقة وبدافع الشـــفقة الممتزجة بالحياد المهذب الذى تعرفه عن شقيقى أحمد ..

وقد ذكرت لك منذ البداية أنى كنت أحوج ما أكون الى ثمن اللوحة التى جاء بى أحمد الى ذلك البيت المترف من أجلها ، لكنى اذ تصورت هذه الفكرة الجنونية ــ وقد تمت ولادتها الى عالم الواقع ــ أحسست الخجل من نفسى والثورة على أخى وعلمت أنى لن أشارك أحدا فى تعذيب أطفال هذا الرجل الشاذ الذى زلزلته الصدمة وفى تدمير أعصاب هدى وأخويها الصغيرين بين يدى التمثال الرهيب ..

لا .. واللوحة المطلوبة أيضا لن أرسمها .

هذا الرجل وعطفى عليه وقلبى معه ــ ليس فى حاجة الى « الفن » بقدر ما هو فى حاجة الى مصحة .

وكانت يده تضغط ذراعى فى اصرار :

ــ الفنان أقدر على الفهم ..

ولم تكن هناك جدوى من مناقشة لا نتيجة لها الا أن يدير الرجل وجهه باحثا عن غيرى ، ولن يعدم من يعينه على تحقيق حلمه الفظيع ، فما أكثر من يزيفون وهم الخلود فى براعة الحواة ونشاط القردة ! ..

قلت له لما عدنا الى حجرته واستراحت أعصابى من ايقاع العكازين :

ـ المثال البارع ، الذى يجسد لك فكرتك على ما تحب ، من السهل الوصول اليه ، أما الصورة فلن تأخذ منى أكثر من أسابيع قليلة ، اذا زودتنى ببعض صور المرحومة .

ــ خذ ما تريد ..

واشار الى الجدران وفتح ادراجا وأبرز لى تلالا من ذلك الوجه الواحد المعبود ، فتظاهرت بالتدقيق فى الاختيار وهو يصب فى سمعى بصوته الحار المتدفق من رغبته الحارقة فى أن أفرغ دمى من عروقى اذا دعا الحال وأقدم قطراته الغالية قربانا للعمل الجليل المنشود . وأخذت أربع صور من بينها هذه التى تراها أمامى ، والتى تكاد تقول لنا أن صاحبتها كانت تحب الاكل والثرثرة وتضيق بكتب زوجها واسطواناته واهتماماته وتفضل الجلوس على المشى .

وما أن ضمتنا سيارة أحمد حتى زأر فى وجهى قبل أن تتحرك من أمام البيت :

ــ لماذا رفضت الفلوس التى عرضها عليك هاشم ؟ ..

ــ هل ستظل طول عمرك عبيطا ؟ .. على الأقل كنت أخذت النصف وتركت النصف الآخر الى ما بعد اتمام الصورة ..

أحسست أنه لا بأس بصدام بينى وبين شقيقى :

ــ رفضت الفلوس لانى لا أنوى أن أعين صاحبك المخبول على شطحاته الشاذة .. ثم قل لى يا أخى : كيف يكون كل دورك كصديق لانسان مصدوم أن تأخذ بيده بكل بساطة الى مثل هذا الجنون ؟

ــ مامعنى كلامك هذا ؟ كثيرون غيرك لن يرفضوا الخمسين جنيها التى عادت من يد هاشم الى جيبه .

فى تلك اللحظة انى قادر على هدم معبد الارقام المقدسة فوق راس اخى احمد وأنى أريد أن أعيد بناء نفسه من الداخل :

ــ اسمع ! عد بنا فى اتجاه الهرم .. ان لى معك حديثا طويلا ، وسنشرب القهوة فى حديقة مينا هاوس ونتكلم .. عندى كلام كثير ينبغى أن يقال ..

فى البداية يبدو الهدف بعيدا كل البعد وصعب المنال !

لكن أحمد لم يلبث أن اندمج فى المهمة الشاقة واعتنقها باخلاص كامل وكرس لها الكثير من وقته وجهده ونفسه ، وكذلك فعلت زوجته فاطمة بكل ما فى طاقة المرأة من حنان رحيم .

وما أريد أن أطيل عليك فى تفاصيل المعجزة التى تمت لنا فى أسابيع قليلة ، ولا ريب عندى فى أنك عرفت أنت أيضا فى حياتك ــ ولو مرة واحدة ــ ذلك الهناء الطيب الذى تنعم به النفس عندما يتاح لها أن تنتشل نفسا أخرى من الضياع فى هوة الاوهام المدمرة وترفعها الى جسر الحقيقة المشين .

ان الوجود كله ليبدو عند ذاك أعمق وأرحب وأبهى ، وما كان فى الدنيا انسان أسعد منى يوم ذهبت الى بيت هاشم لأودعه قبل نقلى الى الاقصر ، بعد أشهر من زيارتى الاولى له ، فلم يسألنى عن الصورة ولا جاء ذكرها على لسانه .

لم يعد هاشم يتكلم عن التمثال أو يسأل أحمد وفاطمة عنى ولا عن الصورة ، وأهم من هذا انه لم يعد يحسب حسابا لنظرات الناس الى جسمه المحطم وعكازيه فى ذهابه الى بيت أحمد وعودته منه ، مرتين أو ثلاث مرات فى الاسبوع ..

وفى الاقصر كان يبلغ من سعادتى بهذا التحول الباهر فى حياة صديق أخى ان يستولى على نفسى نوع من القلق الغاضب

اذا تأخرت رسائل احمد ، وكان هذا القلق يدفعنى فى بعض الاحيان الى أن أترك كراسة الرسم من يدى فى أعماق مقبرة فرعونية أو فى ركن معبد وتهفو روحى الى مسكن اخى فى القاهرة لتحوم فى جو السهرة الثلاثية الهانئة ، الى أن تلقيت من أحمد رسالة عصبية بأسلوب مدير حسابات ثائر — لا ازال أحتفظ بها وسآتيك بها لتقرأها وتعلم منها لماذا أخرجت هذه الصورة الفوتوغرافية بمجرد عودتى الى القاهرة من أعماق الدرج الذى كانت هاجعة فيه وبدأت أنقلها الى « الحجم الطبيعى » تمهيدا لنقلها الى بيت هاشم ، بعد أن كانت الفكرة قد نامت فى بطنى نومة الأبد ..

أخى يونس :

هل تستطيع أن تأخذ أجازة ؟

المسألة باختصار هى أن « هاشم » عاشــق لفاطمة التى ساعده حنانها على تحويل شحنته العاطفية الهائلة الى « تمثالها » الحى المتحرك . وهو الآن يناديها أمامى باسم « فطومة » ويطاردها باهتمامه ويثير أعصابها بزياراته اليومية وتليفوناته التى لا تنتهى .. وهكذا ترى أنك تركتنا فى ورطة وذهبت تتسلى بنقل نقوش مقابر الفراعنة ..

ما الحل الآن ؟

هل نقفل فى وجهه بابنا بعد أن وصلت المسألة الى حد : يا فطومة هاتى يا فطومة ؟

الا تقتله هذه الصدمة الجديدة ؟

تعال واجه معنا هذه المشكلة الجديدة ..

أخوك أحمد

والآن ؟ الا يزال من رأيك أن أمزق هذه اللوحة وأرسم شيئا حقيقيا ؟

ذيـل العفـريت

وقفت مذعنة النفس مسلوبة الارادة ، وقفة الجارية الذليلة لا تملك من ارادتها شيئا ، ولم تقو على رفع صوتها ، فلبثت فى مكانها كالآلة المسخرة والصينية بين يديها ، فى خشية ورهبة .. وكان قد طلب اليها وهو فى الفراش أن تأتيه بقهوة العصر . فلما غابت فى المطبخ لحظات قصيرة وعادت تحمل بين يديها الصينية الصغيرة وفوقها كنكة القهوة السادة والفنجان وجدته غائبا فى غفوة .. وظلت لا تكاد تجسر حتى على تأمل ذلك الوجه المغضن المرهوب وقد كساه لساعته امتقاع غير مألوف وشاعت فى قسماته صفرة شاحبة حتى تنبه الشيخ من غفوته وصحا لها ورأى ما بين يديها ، فقال لها فى صوته الصارم المعهود وان خيل لها أن به وهنا :

ــ انتى لسه من ساعتها واقفة بالقهوة يا وهيبة ؟ الله يرضى عنك وعن أصلك ..

شاع البشر فى نفس وهيبة وتقدمت الى السرير بما تحمل ، فرأت فجأة قطرات العرق الكبيرة على جبين زوجها وفى أخـــاديد صدغيه الغائرين ، والتقت عيناها فى نظرة خاطفة بعينيه فرأتهما جاحظتين مخيفتين قد زاغ فيهما البصر ، رأت للوجه المرهوب كله صورة جديدة طارئة مسخت قسماته وملأت نفسها رعبا ، فأمعنت فيه النظر حتى صاح بها سيدها فى صرخة متحشرجة :

ــ انت يا وليه بتبحلقى كده ليه فى وشى ؟

ودفع بقدمه فجأة فى بطنها فألقتها الركلة القاسية على ظهرها وسقطت الصينية وتناثر على بلاط الحجرة العارى ما كان فوقها وصاح السيد فى صوت قاس :

ــ الله يلعنك ويلعن أهلك !

وأحســــت وهيبة ألما حارقا فى بطنها ، فقد كانت حاملا فى شهرها الثالث .

لكن المرأة تحاملت على نفسها من فورها ونهضت على ركبتيها وانحنت تجمع فى صمت باك ما تناثر حولها من أدوات القهوة وهى تختلس نظرة مرتعدة الى الرأس الملقى على الوسادة ، فهالها أن رأت الدموع تتساقط من عينى سيدها الى فمه الذى صار مفتوحا عن آخره فى تشنج فظيع .. وكأنه يتلوى ويصارع ألما شديدا .. ونهضت واقفة وفى أذنيها مثل قرع الطبل من صوت لهاثه بأنفاسه فى حشرجته المفزعة ..

ــ وهيبة ! ..

ــ مالك ؟

ــ أظن يا وهيبة .. أظن لو مت .. حاتمشى يا وهيبة فى الجنازة تتطلعى للشبان وتقولى .. أختار مين فى دول ! ..

والتوى عنقه .

وتقلصت يداه فى الفضاء فوق لحيته .

اتراه يموت ؟

وفى شهقة أخيرة مروعة سكن الشيخ عبد الرسول وهمدت حياته التى شغلت من الزمن سبعين عاما ..

هل مات ؟ وهل مثله يموت ؟

كيف تصدق وهيبة ؟ .. لا يمكن أن يموت سيد عمرها الآمر الناهى .. كيف يموت كما يموت كل انسان ! .. لم تصدق وهيبة أن جثة الشيخ عبد الرسول مسجاة أمامها على السرير من قبل صلاة العصر حتى هبط بعد الغروب الظلام .. زمن رهيب مديد قضته وحدها فى المسكن القابع فى آخر درب أبو لحاف ، أمام الجلاد الهامد ، متسائلة أحى هو أم ميت .. لم تجسر على مناداته ولم تقو يدها على الامتداد الى الجسد المسجى الفظيع بلمسة أو هزة .. وقد شغلت عنه بعض الوقت بما وقع لها من أثر الركلة التى تلقتها فى أحشائها ، وكانت قد أجهضتها ..

كان الاجهاض فى ذاته حادثا صغيرا ، فلم تلبث أن عادت الى السرير وما عليه تطوف به وتسائله .. كانت خائفة خوفا يشوبه فرح غامض .. أتراك مت حقا ياشيخ عبد الرسول ! .. وأذن للعشاء فى الزاوية القريبة عند مدخل الزقاق ووهيبة ماثلة أمام الصنم .. ثم وجدت أنها لم تعد تطيق لموقفها احتمالا وعبر بخاطرها شخص جارتها الست أم احسان التى تسكن أمامها فى البيت المقابل منذ عشرين سنة دون أن تبادلها وهيبة نظرة أو ابتسامة أو كلمة ، فقررت أن تناديها وتستعين بها ..

كانت تعانى وجعا يمزق أحشاءها ويطحن نفسها ، وكانت تحس أنها ستفعل شيئا لم يأذن لها سيدها فى ذلك العهد المديد أن تسمح لنفسها به مرة واحدة .. ستفتح الشباك .. ووهيبة ترتعد أمام الشباك رهبة منها أن تفتحه بغير اذن من السيد .. وهى لن تفتح الشباك فقط بل ترفع صوتها منادية الجارة .. خيل اليها أنها ما أن تفتح شـــــباكها وتنادى حتى ينهض لها السيد من ورائها ليؤاخذها بذنبها ! ..

وجاهدت نفسها حتى وسعها أن تفتح الشباكَ وتنادى الستَ ام احسان ، لاول مرة منذ دخلت هذا البيت .. وطلت الجارة من نافذتها فى شىء من الدهشة يشوب أدبها ، فحيتها وهيبة فى خجل وارتباك وسألتها ان تأتيها ان سمحت فهى مجهضة ومتعبة ووحيدة ..

قالت الجارة : على عينى ياختى ، اجيلكَ حالا انا واحسان .

دخلتا عليها فقالت لهما ان سقطها ليس شيئا ، لكن فى حجرة النوم شيئا تحب أن تأخذ فيه رأى الست ..

وفى الحجرة اشارت الى من فى السرير دون أن تنظر نحوه ، وسألت ضيفتها :

ــ شوفى ياختى الراجل عامل ازاى زى ما يكون ميت ؟

بسملت أم احسان وتقدمت من السرير فنظرت فى الشيخ وتسمعت فوق صدره وشمت أمام فمه المفتوح ثم قالت فى هدوء وامتثال :

ــ ياختى دا مات وشبع موت .. البقية فى حياتكَ ..

تقدمت وهيبة من السرير وهمست وهى تحاول أن تثبت بصرها على وجه الميت :

ــ خايفة ياست أم احسان ليصحى تانى يبهدلنى ! ..

فتأملت المرأة عينى وهيبة بنظرة عطف صريحة وهى تجيبها :

ــ لا .. افرحى ياختى دا ميت ! ..

وفى بساطة الخبير اسبلت على عينى الميت جفنيه وقالت وهى ترفع براحتها فكه الاسفل :

ـ سك بقك جاك وجع بقك ! ..

فضحكت وهيبة .. ضحكت من قلبها لاول مرة منذ عشرين سنة .. مات .. الشيخ عبد الرسول مات .. هذه ساعته وهذه محفظته تنتقلان من يد الست أم احسان الى يد وهيبة .. اول مرة تلمسهما ..

انها تستطيع الآن أن تفتح المحفظة وتنظر فيها .. فيها نصف جنيه وقطعة أفيون ..

ـ كان صاحب مزاج ، اسم الله ..

وهيبة شعلة حياة وهى ترحب من أعماق نفسها الشاكرة باقتراح جارتها أن تؤجلا صراخ اعلان الوفاة الى الصباح ، مادام أن نهارا سيطلع .. وتناولت العشاء مع ضيفتيها فى الحجرة الأخرى ، وهى تمسح على رأس ابنها الصغير رضا وتشبعه تقبيلا .. كانت تقبل على وجنتى الطفل الذى لا يتجاوز عامه الخامس مولد حياة جديدة لها ..

وتعلق رضا بكمها قائلا لها :

ـ دا كان بيصحيكى طول الليل تدعكى له رجليه ، فى ستين داهيه يا أمه ..

قالت أم احسان وهى تلعق آثار الحلاوة الطحينية من على ابهامها وسبابتها :

ـ حقا ياختى .. دا جوزى الحاج حنفى كان دايما يقول لى آدى الستات التمام .. شايفها من ورا شيشهم عمالة تدعك لجوزها رجليه .. وياما حنفى نكد على بسبب الحكاية دى يا أختى ..

صـــــحت كل الذكريات فى نفس وهيبة وتدافعت متداخلة متصارعة فى شريط سريع مضطرب لعمرها كله .. وكانت تشارك جارتيها الضحك شامتة فى سيد حياتها الباغى ، منشد القصائد ومرتل التواشيح وزينة الموالد وفارس ليالى الذكر والختان والوفاة والزواج والتطفل ..

كان زمان .. وكان أبوها المعلم عوض المهيلمى يجلس على القهوة التى كانت ظاهرة فى الشارع العمومى أمام مدخل الزقاق ، والشيخ عبد الرسول كان يجلس أيضا على قهوة فرحات ، يجلس ويقول له الناس انه أحسن الانشاد فى ليلة سيدى أبو شالين فيرفع عقيرته فى طرب مصطنع سمج ويطلق صوته الرنان النابى بمطلع توشيح من تواشيحه .. وكان أبوها فى الستين وكان صــــاحبه الموشحاتى يصغره بأعوام ، أربعة أو خمسة .. اذا جاء البيت زائرا دخلت وهيبة بنت الرابعة عشرة على الشيخين بصينية القهوة وحيت « عمها » وربما قبلت يد الشيخ بأمر أبيها وتلقت على رأسها بركته .. وكثير من المآكل الشهية التى أتيح لها فى صباها أن تطعمها كانت مما يهدى الشيخ الى بيت صديقه من طيبات ما يرزق فى ليالى الشغل .. وكان أبوها دائما مدينا له بقدر من المال .. كانت الحياة دائما قاسية وصعبة .. أبوها كان رجلا فقيرا وكانوا يعيشون على ايراد البيت المتواضع وهو لا يكاد يبلغ جنيهات ثلاثة .. وعلى رقة حاله كان المعلم عوض صاحب مزاج فى القهوة والحشيش ، وفى أعوامه الاخيرة تعلم الافيون أيضا من صهره الشيخ عبد الرسول ..

كان زمان ..كان الشـــيخ يمســـح بكفه على ضـــفيرتيها و « يرقيها » وكانت فى بعض الاحيان تسأل « عمها الشيخ »عن زوجته التى كان دائم الشكوى من عقمها ونقارها ، زوجته الثانية التى لا تنجب ، أما زوجته الأولى فقد ماتت تاركة له ابنته عيشة

الصغيرة وابنه طه المكوجى فى الجيش .. طه ابن الشيخ الذى كانت وهيبة تميل اليه وهى صبية .. هى وهيبة ارملة تلك الجثة الملقاة على سرير ، كانت يوما صبية غضة ، لعبت وغنت ورقصت وعرفت براءة الحب ، وكان طه يحبها وكانت تحب طه ، وكان المفروض أن يتزوجها ، صبية سمراء مليئة ذات شعر أسود قصير ووجه وسيم وعينين كحيلتين ، كان يقال لها من بنات درب أبو لحاف ان لها صوتا رخيما طربا ، وان لها لرقصا ..

كان زمان ...

يوم بعيد جدا يوم سافرت الى الاسكندرية بفستانها الجديد الاحمر لتساعد ابنة خالتها غايات فى اثناء الوضـــــع .. تفرجت بالشاطىء والميناء وحلقة السمك واللسان الداخل فى البحر حيث يصيد الهواة سمكات صغيرة تضطرب مذعورة فى طرف الخيط .. وفى اليوم السابع كانت خارجة من بيت بنت خالتها عندما وجدت أمامها ذلك الذى كانت تسميه عمها .. قال لها وهو متقمط فى أحدث جبه وأزهى قفاطينه ، وقد شكل عمته فى دورين ، أنه وصل من القاهرة بناء على طلب والدها ، وأنه جاء لمسألة هامة سيكلم فيها عبد المؤمن افندى زوج الست غايات نفسها . . وعندما عادت وهيبة من السوق لم تجده فى البيت ، لكن خالتها بسيمة قالت لها وهى تضحك :

ـــ تعالى يا بنتى لما أقول لك خبر يفرحك .. عمك الشيخ عبد الرسول صاحب ابوكى جايب لك عريس ..

ان قلبها يدق الآن وهى تذكر كيف دق فى ذلك الموقف البعيد وغمرته سخونة موجعة لذيذة .. انكسرت عيناها وهى تتوقع بأنوثتها الصغيرة أن تسمع اسم طه وتتحقق الامانى .. لكن ما هذا الأسطى الذى تقول لها خالتها انه العريس المنتظر ؟ .. هل جن

عمها الشيخ عبد الرســـــول ؟ .. انها لم تسال احدا ان يجيئها بعريس .. انها تنتظر الكلمة الحلوة من رجل واحد هو طه .. ليتها تستطيع ان تصارح بذلك « عمها » متى عاد فى صباح اليوم التالى كى يصحبها كما قال الى مصور .. ان اسرة العريس فى مصر تطلب صورة العروسة مادامت غائبة فى الاسكندرية ..

وحضر الشيخ فى الصباح نشيطا متوثبا فلبســـت وهيبة فستانها الاحمر ونزلت معه والدنيا لا تسعه من الفرح .. وعند مصور فى الانفوشى اخذت ست صور لها ، فاحتفظ الشيخ بصورتين منها قائلا لها أن احداهما للعريس والاخرى لوالدتها .. وقد عرفت وهيبة فيما بعد حقيقة حكاية الصور والعريس الاسطى ، فلم تكن الا حيلة اصطنعها الشيخ العاشق لتكون عنده صورة لها « يحطها على قلبه يمكن تبرد ناره » ! ..

وقامت غايات بالسلامة ، وعادت وهيبة الى مصر بعد غيبة شهر فكان اول ما علمت ان طه قد كسرت ساقه ولم يغادر المستشفى الا منذ يومين ، ولعل وهيبة فى حياتها كلها لم تقم بعمل يعبر عن ارادتها الا عندما احتفلت هى وعيشة وصديقاتهما بشـــــفاء طه ، فاجتمعن فى حوش البيت ، وفرشت لهن وهيبة كليما نظيفا وسقتهن الشربات ، وأحضرت لهن الطبلة والحزام وقادتهن فى عاصفة من الغناء والرقص .. وكانت انشراح بنت عم جمعة حانوتى الناحية مشهورة بحسن استخدام اناملها للطبلة ، فدفعت اليها وهيبة — لما حمى الحفل — بطبلتها الضخمة وقامت فشدت الحزام على وسطها، وحبكته فوق ردفيها ، وسوت طرفه الهدبى على خاصرتها ، وراحت تتمايل راقصة ..

— راجل ورا الدربزين فى الضلمة بيبص عليكى يا وهيبة وانتى بترقصى ! ..

واندفعت وهيبة عندما سمعت قول صاحبتها الى ركن الحوش المظلم وراء الدريزين فاذا بالمتلصص « عمها » !

— عم الشيخ ! .. وواقف فى الضلمة ليه ياعمى .. اتفضل فى المندرة ..

كان فى عينى الشيخ بريق أخافها ، وكأنما كانت عيناه تأكلان من جسمها حيث يشد الحزام :

— دانا واقف من الصبح يا وهيبة .. رقصك يجنن .. وغناكى .. ودلعك حلو ..

كان صوته غريبا ، يفتته انفعال عنيف مفزع .

ووصل فى تلك اللحظة طه مع والدها والمعلم مسعود المنجد ، فانسحبت وهيبة الى حلقة الصبايا ، ودخل الرجال الاربعة فجلسوا على الكنب فى مندرة مفتوحة على الحوش ، يستمعون منها الى اغانى البنات دون أن يروا رقصهن ، الا نظرات كان طه يختلسها بين الحين والحين من الباب المفتـــوح ، عندما تكون وهيبة هى الراقصة ..

وفى تلك الليلة جعلت أم وهيبة وهى تتحدث الى الشيخ فى آخر السهرة تلمح الى زواج طه ووهيبة ، لكن عبد الرسول ادار دفة الحديث الى « العزومة » التى يقيمها لهم ظهر اليوم التالى بمناسبة شفاء ابنه ..

كانت ايام .. حتى أوقع الشيخ عبد الرسول والدها فى ورطة سوداء .. طلب منه وهيبة لنفسه ، فهال الرجل الطيب الطلب ، لكنه لم يقو على ابداء رفضه ، وكان كل ما وسعه أن يرد به أن سأل صاحبه مهلة حتى يعرض الأمر على زوجته .. كانت تغل عنقه افضال الشيخ الكثيرة قديمها وحديثها .. وتواعد الشيخان

على فتح الموضوع مرة أخرى بعد يومين ، فى صلاة الجمعة .. لكن الشيخ عبد الرسول لم يتريث وترك صاحبه الحائر فى القهوة مع بقية الاخوان وذهب فاشترى سبت تفاح وحمله الى بيت وهيبة .. فلما بلغ اعلى السلم راى من باب المسكن المفتوح وهيبة وهى راقدة بقميص النوم على الكنبة فى الصالة ، فلم تشعر به الا وهو عند قدميها :

ــ خليكى مستريحة يا بنية .. اللهم صل على جميل النور .

وجاءت أمها بعد أن لفت الطرحة حول راسها فرحبت بالضيف الكريم وطلبت من وهيبة أن تعد له كوبا من الشاى ، لكنها لما عادت به لم تجد الشيخ ووجدت أمها جالسة تبكى الى جانب سبت التفاح ..

ــ مالك يا امه ؟

ــ الشيخ خطبك من ابوكى وحايطلق مراته !

ظلت تبكى حتى جاء أبوها آخر الليل من القهوة فاستقبلته امراته على راس السلم :

ــ الكلام ده ايه اللى بيقوله الشيخ عبد الرسول ياعوض ؟

ــ والله ما انا عارف يا شفيقة .. الراجل جانى فى القهوة وقال لى بعدما طلب لى القرفة صل ع النبى يا معلم .. اللهم صل على الحبيب .. قال بقى أنا جايب عريس لوهيبة .. قلت له ربنا يجعل الخير دايما على ايديك يا فضيلة الشيخ ، والعريس ده مين ان شاء الله ، طه ؟ قال لا .. دا راجل من العارفين بالله مقتدر ومبسوط .. طه لسه عيل .. قلت له يعنى مين .. قال أنت عايز الحق يامعلم العريس دا يبقى أنا .. ومستعد أطلق الولية اللى فى

بيتى وادبها الحق والمستحق واعقد فى الحال على وهيبة .. والمهر والجهاز زى أمرك .. انت راجل معذور والنبى عليه الصـــلاة والسلام قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .. وتحت أمرك من دلوقت العبد وما ملكت يداه .. أعمل ايه يا شفيقة .. أعمل ايه ، الراجل خيره مالى البيت ..

وبكت واسترحمت ، وقضى الأمر ولا رحمة .

طلق الشيخ امرأته وقدر الدكتور لوهيبة سن السادسة عشرة ليضيف الى عمرها الشهور التسعة التى يكمل بها سن الزواج الشرعى ، ومنذ عقد للشيخ على وهيبة بدأت فى ضوء البغضاء العنيفة التى اشتعلت بها نفسها ترى له صلعة وكرشا وسعلة .

وبعد ثمانية عشر يوما من عقد القران أقيمت ليلة الفرح ، وتضحك وهيبة عوض حسنين وهى تقول لضيفتها الست أم احسان قبيل الفجر :

— زوقونى ووضـــبونى .. وعالمة تزفنى .. والمنيل على عينه راسه وألف برطوشة قديمة الا ينزف معايا .. زقته العالمة بكفها فى صدره وقالت له خش أنت يا عجوز اتدارى !.. وقولى ما أطولش عليكى بصيت لقيت نفسى فى البيت ده .. ده .. بيت الراجل اللى عمـــره أد عمرى أربع مرات .. ده .. وعشرين سنة ! ..

وضحكت وهيبة من خلال الدموع وهى تسترجع مرارة كل الدموع التى سكبتها روحها فى ليلة الزفاف .. أبت أن تخلع ثوب الفرح الابيض وتركت « العريس » فى ثورته وذهبت الى عيشـــة وطه فتوسلت اليهما ان يدعاها تنام معهما على حشيتهما المبسوطة فوق حصير على الارض .. هنا .. فى هذه الحجرة .. أما هى فقد « دخلت » فى الحجرة الاخرى .. حجرة الميت .. آه ! طه ! ..

لو انه لم يكن دائما ذلك الرخو المتخاذل أمام جبروت الشيخ .. طه ضعيف .. وفى ليلة زفافها الى ابيه رقدت على فرشته وبينهما عيشة الصغيرة .. وكانت عيشة تبكى لبكائها ، وطه يرتعد ، والشيخ يدخل فى الجبة والعمة وينطلق بعد انتصاف الليل الى بيت صهره القريب ليجىء بأبيها وبأمها ايضا .. وقال لهما وهو ينحى الستارة عن الباب فى صوت يرجف منه الغيظ :

— اتفرجوا بنتكم نايمة فين ومع مين ؟

وابوها يتوسل اليها ويناشدها وهو يشهق بدموعه أن تذعن لقدرها :

— غلطتك فى رقبتى أنا يابنتى ! ..

وامها مزجت دموعها بدموع ابنتها وهى تجهش قائلة لها :

— قسمتك السودة .. احنا عقلنا كان فين ساعة مارميناكى الرميه الشنيعة دى ..

وبعد ساعة قاسية انصرف عوض وزوجته تاركين ابنتهما العاصية لسيدها الذى جرها من شعرها :

— أما أشوف أنا حا أعرف أربيكى والا لأ ؟

وتضحك وهيبة وتدق صدرها بكفيها :

— أكلت منه ياست أم احسان علقة سخنة صحيح ! ..

— والعلقة جابت نتيجة ؟

— قعدته خمســــتاشر يوم زى المجنون .. وكل ليلة علقة وعلقتين .. وماتكلميش طه .. وما تكلميش الرجالة .. ماتكلميش النسوان .. ماتكلميش عيشه .. ماتبصيش من الشباك .. كلمينى

.. اضحكى لى .. وييجى الليل يحبس طه وعيشـــة فى الحمام ويدينى العلقة المعتبرة .. سابت أعصابى ليلة من كتر الضرب .. الراجل كسرنى .. وليلتها قال لى : أنا سمعتك بتقولى لأمك قبل الفرح بكام ليلة أنك كارهانى كارهانى ، ومن يومها عقدتها لك على ديل عفريت .. أن شفتى يوم راحة فى عمرك ياوهيبة يابنت شفيقة أبقى أحلق دقنى دى ! ..

ذيل العفريت ، نعم ، السنوات العشرون ، العمر كله لم يحدث مرة واحدة فى شبابها كله أنها ضحكت من قلبها أو مسها حنان ، لم يحدث مرة واحدة أن أذن لها فى فتح الشباك ، أو خرج فلم يغلق عليها الباب بالمفتاح ، وطه اختفى مطرودا ، بل ان الشيخ كان اذا أرادت أن تنشر على السطح غسيلها يأمرها أن تلبس ملاءتها وتضع برقعها ، وينتظرها عند رأس السلم .. أما واجباتها كزوجة فكانت تتم طبقا لهذه التعليمات : ــ أول ما تسمعى حسى على السلم تقفى ورا الباب .. أفتح الاقيكى متزوقة على سنجة عشرة زواق كامل .. تروحى واخده العمة والعصاية .. تعلقيهم وتخشى ورايا على الأودة تقلعينى الجزمة .. تغسلى لى صوابع رجليا فى طشت مية دافية وتنشفيهم وتطلعينى السرير آخذ لى تعسيلة لحدما تحضرى لى الغدا .. بعد الغدا والراحة تولعى المنقد وتجهزى لى الجوزة وتقعدى ترصى لى وتسقينى .. تقعدي تحت رجليا علشان تدعكيها ..

فى هذه المرة صاحت الشابة بنت الست الجارة :

ــ ياختى دا يغور الجواز واللى بيتجوزوه !! ..

لا سنة ولا سنتين ولا خمس .. عشرين .. عشرين سنة .. اذا سمعت صوته الآمر المرهوب تأتيه كالجارية الذليلة ، مذعنة

واجفة .. عشرون سنة على ذيل العفريت . حتى يوم مات رضيعها احمد ..

ساعتها كنت قاعدة أدعك له رجليه قام الواد عيط فى حجرى شغلنى دقيقة .. زعق الراجل زى الوحش فى وشى .. قلت له « الواد فى حجرى » راح زاعق « بتردى على يا بنت ؟ » ..

وضربنى بالرجل فى صدرى راحت راس الولد ياروحى مخبوطة فى حرف المنقد النحاس ماقدرتش أصرخ ولا أعيط ، والراجل يقول لى : « قومى لقحيه للصبح فى فرشته وتعالى .. بتعصى أوامرى علشان حتة عيل مفعوص » .. وعاوزنى ألاطفه والولد ميت .. والصبح جاب من صاحبه حكيم الصحة تصريح الدفن .. مافضليش من الدنيا غير ابنى ده ، بعد مامات منى أربعة .. ابنى ده .. رضا .. علشان حبه وحنيته حا أشتغل وأكسب وأعيش معاه مبسوطة .. أشتغل غسالة تنشر غسيلها من غير برقع وملاية !! .

وعندما طلع الصبح على درب أبو لحاف كانت وهيبة تقول لعم جمعة التربى فى حوش البيت قبل خروج جنازة الشيخ عبد الرسول :

ــ والنبى ياعم جمعة تبقى تتقل الطوبة شويه على قبره ، ليشاور عقله علشان يبهدلنى ويصحى تانى !!

عمـــــر

- ١ -

فى الجبل الثانى من المقطم ، من قلب وادى المستضعفين ، أرى حبيبتى القاهرة مبسوطة كلها أمامى ، جوانيها وبرانيها . كل ما فيها يتبدل ، كأنها تغير جلدها .

كان مذهبها فاطميا شيعيا وهو الآن أيوبى سنى ، وكان فكرها قانعا بالانماط الجاهزة وهو الآن حر وشاعرى ومشعشع مدينتى ، حبيبتى ..

معى هنا توبتى وغرامى ، وكفى غراما أن أبيت متيما ، شوقى أمامى والقضاء ورائى ..

معى الشىء الوحيد الذى يصارع شهواتى وجذبنى كما جذب أبى من قبلى ، هذه الرغبة الاصيلة فى قرار النفس تشتهى أن أكون فى قلب الحقيقة ..

أريد ألا يكون لى كأس غير كأس الحقيقة ، ولا شهوة الا شهوتها .

أريد غفرانها ومددها واسرارها وأنوارها .

أريد ما أراده محيى الدين بن عربى والجعبرى والسهروردى

وكل الارواح المجاهدة الصـــافية ، أريد ذلك الاتزان بين الذات الجوانية والبرانى كله ، أريد أن أسبح فى البحار العالية التى سبحوا فيها والتى يهواها أبى ويعيش لها .. وأبى منار كبير يعلو نوره فوق كل الاضواء الساطعة من علماء زمانى وصـــوفيته ومفكريه وأدبائه وشعرائه ، أبى يشعل فى القلوب مصابيح ووهجا وعزة !

على صباى كله تمتد عظمة موقفه يوم سأله الحاكم أن يكون قاضيا للقضاة فرفض المنصب الجليل الذى يتطلع اليه كبار أرباب العمائم والاقلام . قائلا لرسول الحاكم ان قلبه مع سياحاته الروحية فى وادى المستضعفين بالمقطم ومع تلاميذه فى الازهر الباحثين عن الحقيقة والعاملين .

هذا صوته فى وجدانى يردد كلمة صديقه عبد الرحيم القنائى كلما قيل له انه يضيع فرص الحياة على نفسه بانكماشه فى مقام الخمول : « الحياة أن يحيا القلب بنور الكشف فيدرك سر الحق الذى برزت به الاكوان فى اختلاف أطوارها » .

علمنى علم القلب ، ورأيته نافعا للناس لانه حر ومتكامل ومتوازن ومتحد بالحقيقة العليا ومخلص لها ، والسلطان الكامل نفسه يقول كلما ظهر اسم أبى فى كلام الادباء ندمائه انه هو أيضا يأخذ حظه من بركته ..

الكامل يحن فى الليل الى كلمات ابى ، لان كلماته مشعشعة بوهج الحقيقة وكاشفة لغد الانسان الجميل ، يوم تنقرض الاقزام البشرية من الكوكب الأرضى وتختفى القماءة الروحية .

ينزل سلطان مصر وارث صلاح الدين الى المدينة مستخفيا مع بعض امرائه وقاصدا بيتنا ليرجو الوالد أن يتسامح فى قبول منصب قاضى القضاة ، لكن الوالد يحس بهم فيخرج من باب بيتنا الخلفى ولا يتوقف حتى يبلغ الاسكندرية .

أنه لا يريد المنصب بل الكلمة الحرة !

وفى الاسكندرية سكن منارها العالى مائة وخمسين ذراعا وغاب عنا زمنا فى قمة ذلك المرقب المشرف فى وحدته على الامواج والسحب والنجوم ، فى ذلك المسجد العلوى الصغير المبارك الذى تبدو السماء منه قريبة .. ومفهومة ..

انه لا يريد من الاشياء قشورها بل جوهرها ..

– ٢ –

والجميل ان أبى ليس فريد الاوان فى الصفاء وان الجمال فى زمانى يمشى متحسسا الكوكب الارضى وضاربا خيامه المتفائلة فى كل تربة صالحة ..

هناك رحلة العصر الى جامع مصر والاستماع الى عظة الثائر الصوفى الجعبرى ، وقبس الانوار من ذلك السراج المتوقد فى كيان بشرى ملتحم بالحقيقة ، والارتواء من مكاشفاته وومضاته .. والجعبرى يطلق عصر كل يوم حمم براكينه على الظالمين والمظالم فى شجاعة يلهث الناس لصراحتها الصارمة ، وهو على غير عادة وعاظ المساجد يمشى بين أهل مجلسه وتترك نظراته فى كل قلب كلمة روحية باقية الأثر ، ودمغة روحانية .

وروح آخر متوقدة بعزة الروح الالهى فى الانسان الحقيقى ! الصديق شهاب الدين السهروردى الذى يسمع الوجدان الصاحى من خلال تفصيلات أشعاره السهروردية نبض الوجود كله وهو يتنفس منسجما :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى

انى أشح بها على جلاسى

انت الـــكريم ولا يليق تكرمـــا

أن يعـــبر النــدماء دور الكاسى !

آه ! .. الشعر .. حمدا لك يا حبيبى ياجميل يا الله . لم تجعل حياتى فى زمن بلا شعر !

معنا أنفاس ابن مطروح والبهاء زهير وابن ســـناء الملك السهروردى والجعبرى وشعراء آخرون لا يحصى عددهم ، وسيد الشعراء أخى الروحانى ونديمى على كأس الصفاء وصاحب سرى، ابن الخيمى ..

عصبة من الارواح الشاعرة !

ومن وادى المستضعفين فى الجبل الثانى من المقطم تشـــع أشواقى الى أهل الصفاء وتمد روحى موجاتها الى مجلسهم فأراهم فى نزاع وخلاف ، وكأنى أرى اثنين منهم يتنازعان قصيدة يدعى كل منهما أنه صاحبها !

تجلت هذه الصورة لاشواقى ورأيت كما لو كنت فى مجلسهم نفسه شهاب الدين بن الخيمى ونجم الدين بن اسرائيل فى حال الغضب وسمعت مطلع القصيدة :

يا مطلبـــا ليس لى فى غيره ارب

اليــك آل التقصى وأنتهى الطلب !

روحى معهم ، شيء ســـهل لو علم الجهال الذين يحترفون الزراية بالروح الانسانى .

وعندنا بحمد الله كثيرون غيرهما يمكن أن يكون هذا الشعر من فيضهم ومن ايمانهم بأن كل جمال فى الانسان هو نفحة من الجمال المطلق ، لكنى أحفظ هذه القصيدة وأعرف يقينا أنها لابن الخيمى

وعجيب أن يدعيها ابن اسرائيل لنفسه وهو صاحب نفس فى الشعر وما به حاجة الى السرقة ! .

هفت نفسى كلها الى مجلسهم والى اعلان بنوة القصيدة لابن الخيمى واقتراح السفر الى بيتى فى البهنسا لتصفو هناك الأنفس ويتوب ابن اسرائيل بين يدى الجمال الكونى عن سقطته البلهاء ونسهر تحت النجوم باحثين عن الحقيقة ..

تحت النجوم ..

مع النجوم ..

فى قلب النجوم ..

اليس واجب الانسان الاول أن يكون فى قلب الحقيقة ، أن يملك القدرة على التركيز على قواه المطمورة حتى يضىء له التعمق الجوانى طريق النمو الروحى الذى لا ينكشف بغيره للانسان جوهر الحقيقة ؟

الى بيت البهنسا ..

الى النجوم والشموس ..

– ٣ –

ان كان وادى المستضعفين فى الجبل يتطلب العزلة فان بيت البهنسا يتوقد بالجماعة المنسجمة ..

فى بيت البهنسا نرقص ، وأحيانا نتجلى .

وجوارى البيت خفيفات كالظلال ، يغنين لنا على الرقص ، من أشعارى ..

وقـــالوا شربت الاثم كلا وانمـــــا
شربت التى فى تركهـــــا عندى الاثم

وعندى منها نشـــــوة قبل نشـــاتى
معى ابـــدا تبقى وان بلى العظـــــم

وفى ســــــكرة منها ولو عمر ساعة
ترى الدهر عبدا طائعـــا ولك الحكم

فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحيا
ومن لم يمت ســــكرا بها فاته الحزم

على نفســـه فليبك من ضـــاع عمره
وليس له فيها نصــــــيب ولا ســــهم

والارواح تنجذب الى أعلى على ايقاع موزون ، وان يكن شىء سفلى فى النفس ينجذب بعناد الى أسفل .

ووفقا لقانون الحياة ذاته تولد الحركة من هذا الشد والجذب، والرقص هو آية الآيات فى الحركة ، لأنه الحركة الموزونة المتناسقة فى أحسن حالاتها مع حركة الكون الكلية ، فهو المعبر الى الصفاء والترقى ومعراج صفاء الشعور وجلاء الضمير ، فارقص يا قلبى !

والرقصة حامية متسامية لا زهد فيها ، فالله هو الذى يترع لنا كئوسنا لتتوهج أكواننا الصغيرة كالمصابيح الكبيرة ويصير فى وسع كل مصباح منها أن يضىء ألف مصباح ..

وأنا أرقص يخطر فى سريرتى محيى الدين بن عربى فى عباءة أندلسية وطلعة صادقة ، وكأنه يعدو عبر الزمان نحونا ، خفيفا مثل الضحكة ! ..

ويجيش الكون فى عروقى حتى أسمع لهاثه ، وفى دمى تتلألأ النجوم ويرقص فرح ربانى ..

والدفوف بأيدى الجوارى ، وأمينة بيت الرقص نجمة متلألئة فى سمائنا ..

فلاحة من بنات البهنسا تزيد نفسها كل يوم كمالا ، وصوتها فى الانشاد يعرف طريقه الى عمق الوجدان الجوانى ، وسبحان من صور حسنها ..

ترقص ، ترقص ، تطير عن الارض وتقع عليها فى خفـــة الريشة ، وتعود فتطير .. وأبياتى على لسانها تكتسى أجنحة ! .

– ٤ –

ترجل الأمير وصافحنى ، وعندما أراد أن يقبل يدى جذبتها من بين يديه ..

فى طريق الأزهر التقى موكبه – الأمراء والحرس – بجماعتى الصغيرة ، وتوقفت الخيول بهم كما توقفت حميرنا أنا و من معى من الشعراء والمتصوفة ، وتقدم الأمير عثمان الكامل بتحيته ونطق الحب فى عينيه وهو يسألنى :

– ياسيدى عمر بن الفارض لماذا أنت جميل ؟ !

ضحكنا ، والأمراء والحالمون والعارفون وقلت للأديب الذى اصابته صفة الامارة :

– انما أحاول أن أكون جميلا ، فلا أسكر بغير خمر الحقيقة ولا تكون لي شهوة الاها ..

قالَ الأمير :

ــ لو أننا ، كلنا ، البشر جميعا ، أمكن لنا أن ننجح فى هذه الرياضـــــة ..

ــ عندها يا أمير يسكن الارض انســـانها الحقيقى الكامل الانسانية الذى لم يسكنها بعد ، وتنور الارض بانســــانية راقية الوجدان ومالكة لزمام الوجود بالمعرفة والضمير ..

كلماتك دائما مقنعة للعقل ومدفئة للقلب ..

ولم يكد يركب وينصرف حتى لحق بنا فارس من حاشـــيته قال لى :

ــ هذه مائة دينار يقبلها الشيخ من الأمير على الفتوح .

فى الحال تذكرت المكارى صاحب الحمير الذى يجرى وراء رهطنا . . ألم يقل لنا فى أول الطريق عندما سألناه كم يأخذ من جامع مصر الى الجامع الأزهر انه لن يحدد رزقه من هذا المشوار واننا سنركب معه على الفتوح ..

قلت لصاحبى ابن الخيمى ، والفارس يسمع :

ــ نحن ركبنا مع المكارى على الفتوح .. وهذه فتوح .. فهى له ! ..

جحظت من الدهشة عينا الفارس قبل أن يعود الى أميره .. لكننا ما أن طالعتنا المآذن الأزهرية حتى لحق بنا الفارس نفسه :

ــ سمع منى الامير حكاية المكارى فأرسلنى بهذه المائة الاخرى مع طلب الدعوات ..

نزلنا عن الحمير وتقدم المـــكارى بهيئته العبيطة وغمزنى غمزة ضاحكة متواطئة :

ــ أصلى عندى جهاز بنت ياسيدنا ..

وضعت فى يديه الكيسين .

ــ هذه فتوحك ، ونسألك دعوة ..

وتجســدت فى أعماقى كل المعاصى فى عمرى ، ونفضتنى حمى .

اين انا على الطريق وماذا أكون غير قطرة فى بحور من مثل هذا البحر الذى لقيته فى صورة مكارى عبيط ؟

انى برغم شفافية بعض لحظاتى لاتزال الحقيقة بعيدة عنى ، أنا الذى أنضح صبابة الى نورها وشوقا جاذبا بزمامى ، انا الذى يحاول الأمراء تقبيل يدى ويقال لى انى قدوة ائمة ..

هل أعود فأبكى على الزمن الضائع ؟

لا ! .. لم يضع شىء قط ، ولاتزال توباتى متضرعة على عتبات الجمال ولاتزال كفاى ممدودتين للعطاء ولا أزال مؤمنا بالعطايا الجميلة ..

وما أزال أهذب فى التجـــريد عزمى وأنفق من يسر القناعة راضيا بالقليل ، ولا ازال عطشان الى أن يتكامل وجدانى نقيا مثل هذا النقاء وأكون حقا انسانا ..

ــ ٥ ــ

طينتى اليوم خفيفة ..

الصباح مشرق ، ومشكاة ذاتى مشرقة ..

سيال خفى يربط ما بين مسرى الحياة فى عروقى ومسراها الكلى فى عروق الكون ، ووجدانى متهلل فوق العادة ومشدود الوتر على ايقاع أوتار الوجود الكبيرة ..

فى هذا اليوم الشتوى اللطيف من سنة ٦١٢ هجرية الذى أتممت فيه سنتى السادسة والثلاثين أجد طينتى الخفيفة محكومة لغير سبب ظاهر بوهج روحانى ..

عند عتبات جامع المدرسة السيوفية نفضت عن وجودى ما كان طوال الطريق شاغلا بعض وعيى الظاهر ، من رذاذ عتاب لامنى فيه أهل بيتى على اهمالى فى حقوق أولادى ، وقصورى فى كسب رضاء الكبراء الباحثين عن صداقتى ، وأخليت وجدانى لذلك الشعور البديع المبشر بأن كل ذرة فى كيانى تنتظر عطية مباركة ..

وعلى باب المدرسة السيوفية رأيته ولحظت وضوءه السيىء المنافى للقواعد الشرعية التى يفنى بعض زملائى فى الأزهر أعمارهم وأعمار تلاميذهم فى الكلام عنها .. شيخ يبدو من هيئته أنه بقال ، ضامر كأن دنيويته لم تعد تحتمل الكثير من اللحم ..

تقدمت من مكانه وسمحت لكلماتى أن توجهه الى صـــــحة الوضوء ، فرفع رأسه ومن خلال عينيه المطمئنتين نظرت الى قوة هائلة :

ــ ياعمر ! .. أنت ما يفتح عليك فى مصر وانما يفتح عليك فى مكة ، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح ..

شهقت روحى شهقة سكرى وكدت أنزل على ركبتى أمام مرشدى الى طريق الكمال الروحى ، وأدركت أن تعمده الخطأ فى الوضوء ستر مقصود لروحه الكاشف ، ونطق لسانى بالاحساس الدفين فى نفسى فى لحظة الاذن بالسفر الى الكشف والفتح :

ــ لكن الأمد بينى وبين مكة بعيد !

فأشارت يده ، عجفاء ومضيئة :

ـ هذه مكة أمامك ! ..

ونظرت فرايت مكة أمامى ، رايت حقيقتى ، رايت انسان الغد المنور فى الارض وفى الكون ، كما تريده حقيقته الملموسة ..

رأيت الكمال حقيقة أرضية ممكنة ، وها هو ذا اليقين وهاهو ذا الزمان غلامى ..

الانسان عظيم وجميل وكونى ، وهذا الشيخ البقال هو حامل الاذن والبشـــارة بلقاء ذاتى الـكاملة ، ومن قلب الحقيقة تبدأ انسانيتى ..

فى قلب الحقيقة يتكامل وجدانى فيبدأ نفعى ، وهنيئـــا لى السباحة فى البحر الأعظم مع الأصـفياء صـناع انسـانية الغد الحقيقية ..

الى الواجب ..

الى الحياة ..

الى الانسان ..

ـ ٦ ـ

آه يازمن حياتى الذى ترامت آفاقه على خمس عشرة سنة ، قبل ان تجىء ليلة فى ربيع سنة ٦٢٨ هجرية اتانى فيها الأمر بالعودة الى مصر ، وحان الرحيل ووجبت الطاعة ..

آه ياربيعى الطويل الجميل ، ياصحتى وارتياحى وياشبابى وعقلى ..

خمس عشرة سنة بالتقدير الأرضى اســتضاء فيها الوجود لناظرى وأتحدت ذاتى بالحقيقة فى ادراك ووهج وفرح ، وسمعت

فى دمى دبيب الحياة الهائل فى عروق الكون الجبارة وأنفاسها النابضة الابدية ، وتلألأت فى عروقى الشموس ، وعلمت يقينا ان البشر يصنعون المستقبل الفردوسى الموعود بعزة الروح الكونى فى الانسان المنعتق ، ويدقون أبواب الجنة المشتاقة الى الانفتاح الهنىء أمام انسان حقيقى منور فى الارض ..

رضيت عنى الحقيقة واسكنتنى قلبها وصار كل جوهر فى كيانى ينهل من رحيقها ، حتى جاء أمر العودة فى المنام ورأيت الشيخ البقال نفسه فى فراش الموت وسمعت بجلاء يقينى صوته وهو يكلمنى : كن هنا فى الحال واحضر موتى وتجهيزى للافراح الأبدية ودفنى فى نقاء تراب الارض الشريفة ..

حملت أسرارى وسافرت فى قلق الاستعجال وان كنت مشوقا الى حبيبتى القاهرة ..

وكان ما أراد الشيخ البقال ، سمعت وصيته ثم جهزته وصليت عليه مع الأحبة الذين استدفأ قلبى باقبالهم ، وأفاضوا على شخصى من الحب قائلين انهم هم الباحثون عن الحب عندى ..

ولست ملوما أن ابث مواهبى
وأمنح أتباعى جزيل عطيتى

فمن نوره مشكاة ذاتى اشرقت
على ، فنارت بى عشائى كضحوتى

وروحى للارواح روح ، وكل ما
ترى حسنا فى الكون من فيض طينتى!

ولم تبتعد بى خطواتى عن بيت الشيخ الصالح حتى كان راسب من غرور النفس قد ظهر لى وجوده فى مكمن خفى من غور قلبى ، يريد أن يندلع فى الناس ..

وكان المد الزاخر بالنعم والانوار ينحسر بعض الانحسار ، ثم لم يلبث الفتح الذى نورنى خمس عشرة سنة أن انقطع فى الطريق من بيت الشيخ البقال الى بيت البهنسا ، كان جلاله يأبى أن يشهد دمامة ذلك الراسب الدفين وهو يطفح على مسطح حقيقتى .

لم آخذ معى غير رعبى ، وطرت وحدى الى البهنسا وركعت بدموعى وارتعاشى على عتباته ، وطال انكســـارى قبل أن تلحظ وجودى أمينة بيت الرقص ..

لمست يدها كتفى فى اشفاق وادراك :

ـــ ادخل ياعمر ! ادخل بيتك !

نهضت ، وقلت لها على العتبات :

ـــ حتى هذا البلاء شرف ومنة ..

ولباس البؤس فى حب الحقيقة أسبغ نعمة ..

تبسم لى الصفاء فى أعماق عينيها الجميلتين :

ـــ أنا أفهم رعبك ياعمر من السفوح بعدما نهلت من عطور القمم ! وسأغنى لك صوتا يهدىء قلبك !

جذبت يدى خصلة من شعرها ! وقبلتها :

ـــ أعيدى عند سمعى نغمنا القديم ، فمن هنا نبدأ !

ـــ يا بنات البيت ! عمر هنا ! ..
وعطشان ! .. تعالين بدفوفكن ، الرقص الرقص !
ان لم أمت فى الحب عشت بغصة !

وليتأدب قاع قلبى حيث البقايا الدفينة من مبالغات النفس الضيقة ، ولتكن رقصتى متناسقة مع كل الرقص ، فكم يكون سهلا

عند الاتحاد بالحقيقة عبور حاجز الفردية الضيقة والسير المرة بعد المرة الى الكمال الواجب المحتوم ..

الرقص الرقص ..

وغفرانك أيتها الحقيقة ، والرحمة والمدد !

لأنت منى قلبى وغـــــاية بغيتى
واقصى مرادى واختيــارى وخيرتى

وخلع عذارى فيكفرض وان ابى اقـ
ـترابى قومى والخلاعة ســـنتى

وليسوا بقومى ما اســتعابوا تهتكى
فابدوا قلى،واستحسنوا فيك جفوتى

فمن شاء فليغضب سواك ، ولا أذى
اذا رضـــيت عنى كرام عشــيرتى

وكل أذى فى الحب منى اذا بـــدا
جعلت له شـــكرى مكان شـــكيتى

وعن مذهبى فى الحب مـــالى مذهب
وأن ملت يومـــا عنـــه فارقت ملتى

وتحرر مرة أخرى يا قلبى فى عناق الروح ..

وشاهد الحقيقة مرة أخرى فى كل ما ترى ..

عد انسانا حرا ..

الى الرقص ..

الى العمل ..

الى الانسان ..

***

الفجـر يزور الحديقـة

اهـــــداء

الى زوجتى ..

سعد مكاوى

غول الزمان أحمق الهيلمان ، مخلوق له من القرد جسمه المشعر ووجهه الفظ ، بين أسنانه سكين ، وحول رقبته كرافتة ، وفى يده مدفع رشاش ، لئيم النظرة كالأفاعى التى تتلوى حوله بين الثمار ، وفى صدره بقعة أزيل منها الشعر ليملأها رسم بالوشم لنواة الذرة ، ماثل أمامى ليل نهار فى لوحة « آدم » الكبيرة المعلقة بعرض الجدار فى مواجهة مكتبى ..

تمددت على الكنبة العريضة وأنا أدعك عينى المتعبتين من قراءة طويلة ، واسترخيت للنوم ..

وأنا نائم ارتطم بزجاج النافذة المغلق جسم غريب أحدثت صدمته بالزجاج صوتا قويا ، وان هى الا اللمحة الخاطفة حتى كنت قد اعتدلت وأنا غير مصدق لما أرى . مستحيل أن يكون خارج النافذة أو فى مكان من العالم طائر له هذا الوجه .

أول ما رأيته جناحين يضربان الزجاج ، ثم جسم طائر أبيض خفيف الريش متين التركيب رغم رشاقته المذهلة .. ثم ظهر لى الوجه نفسه فاذا هو وجه انسانى عجيب الجمال .

سعيت الى النافذة أعالج فتحها ، وهى فى العادة سهلة الفتح، ما أن أدير الاكرة الصغيرة الى اليمين حتى تنفتح على خضرة ونسمات لكنها الآن لا تريد أن تدور لا الى اليمين ولا الى اليسار ، والجناحان الابيضان يضربان بالحاح مستغيث ، واللهفة فى الوجه الجميل المتضرع تنادى طالبة المأوى ..

رفضت النافذة أن تنفتح حتى ظهرت لى فى العينين نظرة يأس جرحت قلبى ، وفرد الطائر العجيب جناحيه وطار .

كابوس منهك استيقظ منه معى سحر الوجه المستنجد ممتزجا بمذلة الاحســـــاس بأن تلك النافذة المســــتعصية قد ضـــنت بالضيافة على أعجب كائن من كائنات الأحلام .. وجلست وأنا أتحسس فى صدرى العرق البارد الذى ينفضه جسمى ، ولا شيء فى النافذة .. وأشعلت ســيجارة وتحولت نظرتى عن النافذة الصامتة الى كتب التاريخ التى كانت ــ بحكم العمل والمزاج ــ مسرح اهتمامى وأنس سهرتى .. ثم الى آدم ، الى حد السكين وفوهة المدفع ونواة الذرة ..

أخذ النهار يطلع وبدأ جرس الباب يمارس غلظته .. بدأ ورود العالم الخارجى بكل حتميته البلهاء .. سيجارة أخرى وتدق كل الاجراس حتى التالفة .. بل التالفة أعلاها صوتا .. أعلى الاصوات هى الجوفاء والبعيدة عن الحقيقة ، الى أن يعلو عليها جميعا ذلك الصوت الذى يشد الخيوط ويرفع الستائر ويلوى عنق الاسترخاء ، الحاح جرس التليفون ..

انه فى هذه المرة ليس لى ، بل لزوجتى .

وباشمئزاز المدمن المستسلم للعادة سألت عن صحيفة الصباح ، التى لن تلبث بعد دقائق أن تسقط من يدى ميتة تماما ، كما تسقط فى حلقى رشفات الشاى بلا طعم .

وجرس التليفون يطلبنى أنا فى هذه المرة :

ــ صباح الخير ..

ــ أهلا وسهلا ..

ــ كيف حالك اليوم ؟

ـــ مندهش ..

ـــ ما وجه الدهشة ؟

ـــ مندهش من أننى لا أزال أعيش ..

ـــ وهل هذا شىء عجيب ؟

ـــ عجيب أن تكون فى أرض عصرى كل هذه الفخاخ وأظل بوسائلى القاصرة حيا على نحو ما ، وفى حدود السلامة ..

ـــ أنا لا أرى تناقضــــا الى هذا الحد بين أى زمان وأى انسان .

ـــ أنت من فرسان العصر ولك منطق آخر ، هذا شىء غير جديد على ..

ـــ لماذا لا ترفض الدهشة والتفلسف وتعيش وتنبسط ؟ .. مشكلتك فى تقديرى هى أنك عاجز ..

ـــ ربما !..

ـــ أنت عاجز عن الانسجام والالتحام والاندماج والابتهاج .

ـــ ما أشد رضاك عن نفسك ؟

ـــ بادر الى عيادة طبيب الاعصاب وعالج نفسك حتى تنفض عنك هذا الاحساس بأنك أفضل من عصرك !

ـــ يا عبد الألفاظ ! .. ان المسألة ليست مسألة « أفضلية » أبدا .. انها مسألة « رؤية » !

تكرر الكابوس وعصتنى النافذة رغم اخلاصى الكامل وجهدى المضنى ، واختفى الطائر الفذ مرة أخرى وفى عينيه عتاب ، وما بينى وبينه الا لوح زجاج ما أيسر أن يكسر ، ولو بقبضــــة اليد الدامية ..

نهضت موجع القلب ومشيت الى النافذة حافى القدمين وتأملت حديقتى وهى عائمة فى ضوء القمر وعليها غلالة سحرية ، ساكنة ذلك السكون الجميل الذى تنفثه ساعة ما قبل الفجر ، وعلى عشبها التماعات متناثرة من عناق الاشعة الخفية بقطرات الندى البلورية وعلى أزهارها نفحات من النور .. لحظة عميقة لا هى من الحقيقة ولا هى من الحلم انداحت منها فى عمق نفسى موجات منعشة ، ثم ظهر لى فجأة رجل طاعن فى السن يمشى مطمئنا ومستمتعا بجلال الفجر ، كأنه خارج لساعته من رسم فى ذلك الكتاب عن العصر الايوبى ، يلبس شيئا كالعباءة وعلى رأسه عمامة وشـــعره الى شحمتى أذنيه . .

زائر الفجر العجيب يقبل كالطيف الرقيق فى اتجاه نافذتى ، بل هاهو معى فى الحجرة ، بلا دهشة منى :

هو : عندك بستان صغير كأنه روضة مختصرة .

انا : يسرنى أن بستانى المتواضع يعجب أهل اللطافة .

هو : تملك هذه الروضة ؟

انا : أملكها ..

هو : لماذا ابتسمت ؟

انا : لأنى قلت انى أملكها .

هو : أليس هذا صحيحا ؟

انا : رضيت بك حكما فيما أظن من أنى المالك الحقيقى لها .

هو : (جلس على الكنبة وابتسم) : اشرح دعواك وهبنى فرصة تأمل أفكارك .

أنا : صاحب هذه المساحة العبقة من الارض ، هو صاحب البيت بمساكنه العديدة المؤجرة ، لكنى أنا أملك من الروضة جمالها وأرجها ومعانيها ، فأينا مالكها ؟

هو : صدقت : أنت المالك ! . . ويملك معك الروضة ــ قبل صاحبها ــ كل قلب مدرك . .

أنا : وكثرة المـــالكين فى هذه الحالة أدعى الى سرور كل منهم . .

هو : (ابتسم وهو يشير الى صدره) : أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أين رحت فهى معى لا تفارقنى .

ولست أدرى لماذا خطر لى فى تلك اللحظة أن أسأله عن ذلك الطائر ما هى حقيقته وماذا يكون ، لكن السؤال جاء على هذه الصورة :

أنا : لعلى بعد هذه البشارة الجميلة أتشرف بمعرفة ضيفى الذى باحت مهابته بعظيم شأنه ؟

هو : عبد من عباد الجمال والحقيقة .. يزورك فى الفجر ومن نافذة بيتك مع أنه مات منذ أكثر من سبعة قرون .

أنا : التاريخ هو مادة عملى وقوام عيشى ومزاج الحـــلم والواقع فى حياتى ، وقد قضيت ليلتى مع سلاطين العهد الايوبى . .

هو : لقد ولدت بعد ميلاد دولتهم بست سنوات ومت بعد سقوطها بثلاث عشرة سنة . .

أنا : أنت الشيخ عز الدين بن عبد السلام !!

هو : (أشار بيده فى اتجاه النافذة) : انظر !

نظرت فوجدت فى الحديقة وزيرا من وزراء العصر الايوبى جالسا على طرف اريكة شرقية بسيطة فى بيت خطيب المسجد الاموى ومفتى دمشق الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذى ظل جالسا معى داخل الحجرة يتأمل المشهد وهو ماثل فيه .

رجل الكلمة : مولاك السلطان غضبان !

الوزير : شدة وتزول ياسيدنا المفتى .. مولانا السلطان معذور . من الصعب أن يحكم انسان واحد كل هذه الخلطة من السنيين والشيعيين والمعتزلة والأشعرية والحنابلة والوثنيين واليهود والنصارى والدروز والباطنية والحشيشية والنزارية والاسماعيلية والصوفية والحواة والسحرة وأولاد الحرام وأولاد الحلال ..

رجل الكلمة : سلطانك غضبان لانه يجد فى ملكه انسانا يرجعه الى الصواب عندما يجانبه الصواب ويقول كلمة الحق عندما يكون قولها هو الواجب . . لكنك وزير السلطان ولن ترى فى كلمتى هذه غير فرصة أخرى للاطراق والسكوت .. أنتم الوزراء تجيدون الاطراق فى حضرته والصمت .

الوزير : عملنا نحن الوزراء صعب !

رجل الكلمة : هل حضرت وليمة الافطار السلطانى التى تكلم فيها بعض الفقهاء والعلماء فى حقى حتى حصلوا من السلطان على هذا الحكم بعزلى من منصب الافتاء ومنعى من الخروج من بيتى أو الاجتماع فيه بأحد ؟

الوزير : كنت خارج دمشق فى سر سلطانى .

رجل الكلمة : أنظر . . . وانظر . .

قالها الشيخ مرتين ، مرة للوزير فى الحـــديقة ومرة لى فى الحجرة .. ونظر الوزير ونظرت معه فاذا فى أحد أركان حديقتى عمائم كثيرة حول قطع ضأن مشوية ، وهم يفتون بأن الشيخ عز الدين الذى لا يسمع كلام السلطان من الفجار والكفار لكن مولانا أولى بالعفو والصفح ، لاسيما فى مثل هذا الشهر الفضيل ! .. واستقبل السلطان الاشرف الذى يتصدر الوليمة فى دار الامارة هذا الاستغفار الخبيث بصيحة غضب أوقفت اللحم المشوى فى حلوق أولئك الذين يملكون القرب من أذنه ويصـــوغون له أحكامه على الناس ويتسلقون هيبته ويلفون له عمامته ..

ـــ لابد أن ألزمه حدود الأدب ..

فى الحجرة وضع الشيخ فوق يدى يده اللطيفة :

ـــ حدث هذا ودمشق فى الخارج لا تعرف كم يبعد أهل الكلمة وأصحاب الرأى فى تلك اللحظة الغروبية عن قول الله : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ..

وفى الحديقة غطت أكوام اللحم على ركن الوليمة حتى طمست وجود المتكمين ، على حين كان الشيخ عز الدين هناك فى بيته البسيط يقول لوزير السلطان :

ـــ أما أنت يا وزير فقد حملت الى بهذا الحكم السلطانى بشرى تسر القلب ، ولو كانت عندى خلعة تصـــلح لك لخلعت عليك .. اسمع .. نحن على الفتوح .. خذ هذه السجادة وصل عليها ..

وبينما كان الوزير ينحنى بقبلات خاشعة على السجادة قال لى ضيفى الجليل :

ـــ انظر !

وجدتنى فى الفنـــــاء الداخلى الرطب فى دار الامارة قبيل الغروب ، والسلطان الاشرف يستقبل حمارا يحمل شـــيخا وقورا لا يلبث أن يترجل وهو يقول فى سكينة نفس عجيبة :

ـــ السلام عليكم عباد الله !

وفى حديقتى ـــ قلب قلعة الحكم ـــ جلس الشيخ فى عمق الفناء الظليل مع السلطان على متكأ واحد ، وقال له من فوره :

ـــ ايش بينك وبين ابن عبد السلام ؟

وهمس ضيفى بذلك الشيخ الواثق من نفسه :

ـــ هذا أخى فى الحق جمال الدين الحصيرى .

السلطان : لنا فى كل خطوة يخطوها الشيخ بركة .

الحق : ايش بينك وبين ابن عبد السلام ؟

السلطان : هل لسيدنا الشيخ رغبة فى صنف من المأكل يحبه فى الافطار فيجده بعد قليل على المائدة ؟

الحق : ما جئت الى طعامك وشرابك !!

السلطان : ابن عبد السلام كل يوم يطلع لنا بفكرة !

الحق : هل الشياطين الخرس يعجبونك أكثر ؟ .. ان آراءه وفتاويه فى شئون الدين والدنيا فيها كمال وشباب ، ومن خالف هذا فهو حمار فى الركاب !

وفى الحجرة قال لى ضيفى وهو يضحك :

ـــ هكذا ينبغى أن يتكلم الحق .

سألته فى لهفة :

ــ زدنى من حديثك .. حدثنى عن الســـيوف والمواقع والكلمات والرايات الخفاقة والمنكسة .. وعن أدباء وعلماء اكثرهم ندماء ومنافقون يحتفلون بالراتب المعلوم ، وآخـــرين منهم غنوا للحقيقة بكلمات منورة ..

ــ هل تذكر شيئا مما قرأته عن سنة ٥٩٨ ؟ .

ــ ذلك عام المجاعة الفاتكة ..

ــ فى قلب المجاعة الطاحنة ، وأشباح الجياع زاحفة مدمدمة ، أهدى الملك « الظاهر » عروســـه حنيفة خاتون ابنة عمه الملك « العادل » عصابة للرأس مجوهرة قيمتها مائة ألف وخمسون ألف درهم ، مع عشر قلائد من العنبر المذهب ، وعشرين تختا من الثياب النفيسة المنمنمة بالذهب والفضة ، وعشرات من الجوارى ، وجهازا حمله خمسون بغلا وثلاثمائة جمل ..

ومرة أخرى لوح بيده نحو الخميلة :

ــ وانظر !

فى الحال ضمنا مجلس السلطان الصالح اسماعيل الايوبى وقد جلس اليه ضيفى تحت خيمة :

السلطان : عزلتك فلم تلتمس عفوى !

رجل الكلمة : عزلتك قبلها فلم تلتمس نصحى !

السلطان : أهكذا تكلم السلطان وأنت فى قبضته ؟!

رجل الكلمة : لماذا انتزعتنى من بيتى فى دمشق الى هذه الخيمة فى بيت المقدس ؟

السلطان : لأسألك أن تطلب الكثير منى وتقبل أن أطلب منك القليل !

رجل الكلمة : فى ملكك هنا وفى ملك ابن اخيك نجم الدين فى القاهرة مالا اقوى على المصالحة فيه .. انقياد للشهوات ، وانهماك فى اللذات ، واشتغال بالترهات ، وتصديق بالمحالات ، وضـــعف المرائر والعزمات .

السلطان : مماليك نجم الدين يقولون له أن ســــــلطنتى فى الشام هى فى حقيقتها ملك لوالده الملك الكامل اغتصبته أنا .. هل تريد منى أن أسكت على هذا الكلام ؟

رجل الكلمة : ردك عليه أسوأ ؟

السلطان : ماذا تقول ؟ !

رجل الكلمة : هأنت تسارع الى الفرنج الصليبيين تحالفهم ضد مصر وتعطيهم الاذن فى دخول دمشق وشراء السلاح منها .

السلطان : وأنت وقفت على المنبر وعزلتنى ، وما كان شىء من هذا ليصح .

رجل الكلمة : ان منبر المسجد ، مثله مثل صفحة الورق ، لا يتسع لشىء آخر مع كلمة الحق .. من هذا المنبر — وأنت تعلم — تكلمنا من قبل سلطنتك عن الله والناس والتاريخ ، وفضحنا كل اهدار للحقيقة وللعدل وللمصير .. فما وجه العجب ؟

السلطان : أسمع .. لماذا لا نتفق ؟

رجل الكلمة : نتفق ؟!

السلطان : أنا لا أطلب منك غير شىء واحد .

رجل الكلمة : بغيتك حاضرة بين يديك ان كانت للحق ..

السلطان : تكون لك الفتيا والخطابة والمعاش وما تريد من نعم وتسكت عنى وتبقى سلطان العلماء فى سلطنتى ..

رجل الكلمة : التى تفعل فيها أيش ؟ تبيع السلاح لاعداء أمتنا ؟

السلطان : ماذا تفهم أنت فى التجارة ؟

رجل الكلمة : هل التجارة هى التى جاءت بخيمتك لصيق خيام غزاة أرضنا أم هى المفاوضة ؟

السلطان : هذا عملى ..

رجل الكلمة : وهو عملى أنا أيضا .

السلطان : هل أنا أحشر نفسى فى الفتاوى ؟

رجل الكلمة : هو عملى أنا أيضا لأن من عملى أن أصون أمانة الحق ولا أخون الارض .. هذه جزية العلم ..

السلطان : أنت فقيه .. أعكف على نصـوصك وشروحك وأحفظها وذاكرها ..

رجل الكلمة : أنا « فقيه النفس » لا فقيه الحفظ !!

السلطان : فأنت أسيرى هنا فى ظل خيمتى الى أن تعقل كلامى .

رجل الكلمة : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .

الى داخل الحجرة جذبنى صوت ضيفى :

هو : مع الشرفاء والمجاهدين فى سبيل الحق والحقيقة وجدت فى مصر عندما دخلتها قصر النظر وأهل المطامع ورقعاء النفس وعلماء السوء ..

أنا : اعرف قصة حضورك الى مصر بعد أن هزم نجم الدين أيوب

الفرنج المتحالفين مع عمه الصالح وبلغت جيوشـــه القدس وفكت أسرك ، لينصبك قاضيا للقضاة وصاحب منبر جامع عمرو بن العاص ..

هو : فى مصر وجدت المماليك قابضين بالمخالب على اللحم الحى ، فسرعان ما كانت الفتوى وكان الصدام ..

أنا : كانت « كلمتك » الاولى فى مصر صدمة حقيقية لنجم الدين أيوب ومماليكه اذ تفتى بأن هؤلاء « الأمراء » أسياد البلد أن هم الا « أرقاء » دفع بيت المال ثمنهم وهم صغار فهم ملك له .. جئتهم من موقعك الصحيح ، وجئتهم فى المقتل !

هو : بعتهم فى المزاد وهم صاغرون ..

أنا : انه لمنظر فريد فى التاريخ ، ولكن لماذا بعد ان كسرت أنوف الحاكمين وبعتهم فى المزاد ليعيد الســـلطان شراءهم ويدفع لبيت المال أثمانهم أعفيت نفسك بنفسك من القضاء والخطابة قبل أن يعفيك السلطان ، وعشت آخر سنوات عمرك بعيدا عن المناصـــــب الظاهرة ومكتفيا بمحادثة الناس والتأليف والتصوف ؟

هو : لم الزم صومعة ولم البس خرقة التصوف ، وانما هو تطهير النفس .. انظر عمق الروضة ! ..

وفى قلب بستانى حيث أشارت اليد اللطيفة رأيت فجأة آدم جديدا بغير سكين ولا مدفع .. ما أجمله وأعظمه .. هو ذا سيد المستقبل ..

هو : طوبى للأرض يوم يجيؤها بعد مخاض أليم انسانها النورانى .. ابن السلام والحب .. ذلك الموعود بوراثة الاطلال .

أنا : انه يرقص ..

هو : الانسان الكامل يحب الرقص .

أنا : هل صحيح أنك كنت تحب الرقص ؟

هو : ان حبى للنغم كان كسبا لعقلى وغنى لروحى وشفاءا لنفسى من كدر العهد وظلمانيته ..

دندن الضيف اللطيف متغنيا :

ما استماعى من ضاربات المغانى

ما استماعى من ضاربات المغانى

ثم أهاب بى فى خفة روحانية جاذبة :

— تعال نغن معا .. ان الاصوات تحمل النغمات من الاغانى الى الاوانى .. لولا صفو الاوانى ما راقت المعانى .. ولولا صحة المعانى ما طابت الاوانى ..

وبدأ يغنى فتبعته لنندمج معا فى رقصة هادئة :

ان السماع صفاء نور صفوته

يخفى ويحجب عمن قلبه قاسى

نور لمن قلبه بالنور منشرح

نار لمن صدره ناووس وسواس

راح وكاساتها الارواح ، فهى على

قدر الكئوس تريك الصفو فى الكأس :

هو : آن أن أودعك .

أنا : الى لقاء ؟

هو : ما أكثرما ستدق نافذتك أجنحة الطيور البيضاء !

أنا : ماذا أكون فى زمانى ياسيدى ؟

هو : كن فى زمانك كما ينبغى لمثلك ، كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ..

أنا : واذا تفكك المعنى واحتاج الى مسامير ؟

هو : دق فيه المسامير ولا تبالى .. تخيل ثوبا انفتق ، من أين للابرة أن تسلك فيه بالخيط اذا لم تخزه وتوجعه ؟

وكنا قد اقتربنا من النافذة المفتوحة على مصراعيها فاذا ملء الروضـــــة جناحا الطائر الابيض الذى يجوس خلالها فى حركات كالأنغام الرقيقة ..

فاذا صرنا — ضيفى وأنا — فى الروضة صار هو فى الحجرة بمحياه الجميل يملؤها هى الاخرى برقصاته المفعمة بالفرح .

وبلمسة من جناحه مر على أديم اللوحة الكبيرة المعلقة فى وجه المكتب فمحا صورتها حتى صارت مجرد خيش بارز الخشونة والتفاهة ، ثم بلمسة أخرى سحرية الرشاقة ترك فى مكانها صورة آدم صافى العقل والضمير والفعل ، الجميل العظيم سيد المستقبل ، وهنا تكلم ضيفى ويده على كتفى :

— ان الواح الخشب اذا سقط عليها النور لم يظهر غير حقيقتها الخشبية ، فطوبى لمن كان بلورة يظهر النور نفسه فيها كما يظهر حقيقتها البلورية .. طوبى للصـــــادقين فى قلوبهم وفى

كلماتهم .. أنه لكى تكون هناك كلمات عظيمة لابد أولا من نفوس عظيمة .. ان الكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها .. وهى تكتسب اكتمال صدقها عندما تنبع من ايمان صاحبها وتتجسد فى سلوك ذاتى .. انها عند ذاك قادرة على أن تنهض بصدقها فى وجه الكلمة الزائفة .. هذا هو ميلاد الكلمات العظيمة .

وانصرف الى عودة ، تاركا الفجر مشرقا والأجنحة خفاقة والنافذة مضيافة ..

المشـــــوار

طفل الكون المدلل تهدهده أيدى العالم ، ووجودى العجيب المبهم ملتذ كله بتلك الحركة اللطيفة المطردة التى تملأ نفسى العائدة الى الوعى بشعور بالغ العذوبة ، كأن وعاءا دفينا رطبا بالحنان يحتوينى ويفعمنى بالغبطة الكاملة .

ماذا تكون تلك الحركة وماذا أكون أنا ؟

ما أطيبها وهى تحملنى فى طوفان من الاحساس بالطوبى ، وما أقساها وهى تبلغ بهنائى الشاذ فى غير مهل حافة اكتشـــاف أعجب من وجودى ..

أنا فى رحم !!

جنين « يعرف » أنه فى رحم أمه .. لاكونن معجزة العالم !

على ايقاع الحركة المطردة بدأ احساسى بوجود ذاتى غامض « يبحث » عن حدود هذا الوجود وعن « معنى » الحركة التى تحملنى كما لو كنت أنا نواة لها وهدفا لحنانها العذب .

أشياء غريبة تلامسنى بطريقة عدائية ، وكأن بعضها مغروس فى لحمى .. لعلها قماش أو قطع من القطن ..

وأربطة أيضا ؟ ما هذا العبث ؟

وقاعدة صلبة تحمل جسمى النشوان وتتقدم به ..

ما هذا ؟ ما أنا بالجنين اذن بل أنا طفل فى أرجوحة .

حركت يدى فى دهشـــــة .. مخى يعود على مهل من خدر عجيب .. طفل فى أرجوحته ؟ فاين طلعة الصباح ، وأين رحمة الأم ؟

هل قيدت أمى يدى ورجلى وختمت على سمعى وبصرى قبل أن تضعنى فى عربتى الصغيرة ، أنا طفل الكون العجيب ووديعة أيدى العالم ؟

حاولت أن أفك « قيودى » وانهض .. ولا أدرى كيف تمكنت عند ذاك من الســيطرة على انبعاثتى الاولى نحو الاســتغاثة . أنتفض قلبى عند ادراك الحقيقة .. وماتت الارجوحة .. ونفست الرهبة .. فان ما كان منذ قليل رحمة الرحم ثم أمن الأرجوحة ليس الا النعش !!

متى ؟

ومن الذى مات ؟

أنا من ؟

اهكذا يموت الطفل الذى لم يكد يولد ؟

اهكذا يموت الطفل الذى لم يكد يولد ؟

والحركة مطردة ، ولابد أن قوامها عشرات قليلة من الناس ونعشى فى مقدمة جمعهم الصغير ملفوف فى القماش محمول على الاعناق .. من يكون الميت ؟

أنا الميت ..

وصلاة الجنازة لا ريب كانت فى مسجد عمر مكرم ، والمشيعون يقتربون الآن بخطوات بطيئة نحو موضع العزاء .. ولن هى الا لحظات وتنتهى آخر مصافحة ويدخل نعشى فى سيارة الموتى السوداء التى يزمجر محركها فى انتظار لحظة الاسراع بى الى القبر المفتوح المنتظر ..

فى هذا الموضع التقليدى غير بعيد من مســـجد عمر مكرم سيصطف مع طارق ابنى الاكبر واخوته بعض الاقارب ليصافحوا المشيعين واحدا واحدا قبل أن يتحرك رتل السيارات بسرعة نحو المدافن .. البقية فى حياتكم ، هذا صادق عبد الغفار قد ترك ادارة التوريدات فى مؤسسة الاستصلاح ومات بالسكتة القلبية عن تسع وأربعين سنة وترك معها غثيانه وثلاثة أولاد وبنتين وأمهم والديون .

البقية فى حياتكم ..

حياتكم الباقية ..

الآن تتوافد الذكريات على المسافر المتعب الذى آن له أن يستريح ، منطلقة من بداية رحلتى كمريض ينشد الشفاء ، عندما دخلت مع عبد الله ابن عمى عيادة الطبيب الباطنى .. المنفســـتو يتوسط صدر الحائط .. كشف عادى ٢ جنيه وكشف خصوصى مستعجل ٣ جنيهات .. وثلاث ساعات وثلث الساعة انتظرناها قبل أن تكتحل عينى برؤياه ويقول لى المشهور بعد فحص سريع انه يستحسن قبل أن يحدد تشخصيه أخذ رسم للقلب .. بمعرفته طبعا .. والجهاز الكهربائى حاضر .. ثلاثة جنيهات أخرى ثم عال العال .. القلب سليم .. ونصف الأدوية ستتعب فى الحصول عليها لندرتها لكن لكل مجتهد نصيب ..

لكن القلب فى الحقيقة لم يكن سليما ، وهكذا بدأت رحلة

العذاب بين أطباء القلب والاشعة ومعامل التحاليل التى تناقضت نتائجها الى حد يكفى لجنون أعقل الناس .. ورقدت ومنعت زيارتى .. وأولاد المدارس العائدون مع البنات من فترة الصباح الدراسية تحت نافذتى يتبادلون على ذكر الأمهات والآباء والحياة شـــتائم يقشعر لها الجلد .. وعناوين الصحف الكبيرة لا تتوقف . وتمزقات اليقظة تكشف الاستار وتنعى الحلم وتعرى فداحة المصيبة .. والى جوار الوسادة كتب قليلة من أحسن رفاق العمر تأخذ من الأدوية على استحياء مكانا صغيرا .. وتمتد اليها فى بعض أويقات العافية يدى فيطمئن بما أطالعه فى بعض صحائفها ضميرى .. ومن المؤلم حقا أن يعلم الانسان انه بعد أيام أو دقائق لن يعود قارئا .

مخى صـــحا تماما من خدره .. أنا « ميت » هؤلاء الذين يتحركون بى نحو النهاية .. ولابد أنه واحد من تلك المجموعة من الاطبـــاء ذلك الذى جاء وقال لهم أننى مت .. ترى ماذا فعلت ساعتها طفلتى منار آخر العنقود وريحانة القلب ؟ هل صرخت وهي ترانى نعشا يغادر البيت محمولا بلا عودة ؟

هل أنهض لعناق منار ؟

هل أفعلها ؟

هل أقوم فجأة وارفع هذا الغطاء واقول لهم اننى حى .

هل أريد ذلك حقا ؟

أنا الآن فى السيارة الســـوداء المسرعة بى نحو المدافن ، ولاتزال أمامى فرصة لاحداث ما يشبه المعجزة عند القبر المفتوح .. ما أن يخرجونى من الخشبة حتى أقعد بكفنى لأولادى وأهلى وأهل زوجتى وعصابة ادارة التوريدات والمدير العام والحـــانوتية .. وأكلمهم وأدهشهم وأعود معهم حيا ..

هل اريد ذلك حقا ؟

هل اردت ذلك حقا وانا اتابع الشريط العجيب الذى مشت به عصارة عمرى فى سرعة هائلة على لوحة خاطرى ، من اول الوعى الى سنتى التاسعة والاربعين ، ومن عرض الأفق على مدى الشوف حتى عقر دارى ؟

والفكرة الواحدة التى ظلت تعيننى على احتمال المسخ الكريه الذى تحول اليه على أيدى أبناء القرن العشرين بناء الحياة كله .. فكرة أن الميكروب لم يصل الى ما تحت سقفى .. وكيف تكونت عندى فى ساعة العودة اليومية من المؤسسة عادة التوقف لحظة أمام باب مسكنى قبل أن أدخل على زوجتى وأولادى .

فى تلك الوقفة القصيرة كنت انفض ما استطعت كل شحنة اليوم من انفعالات الارصفة والمواصلات والمكاتب ، وكأنى فى تلك اللحظة افرد رايتى المطوية لادخل بها على أهلى مرفوعة فنرشقها سويا فى مساحتنا الصغيرة ونأنس الى ظلها ..

لكن مع السنين الصعبة اخذت الحظ فى العيون التى تظللها الراية الصغيرة الشريفة سخرية منها وتمردا عليها ..

الصبيان اخذوا يتطلعون الى الوجود الرخيص الذى تنغمس فيه الحياة وينهشه ميكروب بشــع .. ويتكلمون فى غيظ وأسى عن زملائهم فى المدارس الذين يغير أهلهم السيارات كل ســـــنة أو سنتين ..

وبناتى يتكلمن فى حسرة عن حياة زميلاتهن وسهراتهن البديعة وملابسهن المستوردة ..

والزوجة أيضـــا تحولت الى أرغن حى يردد عليه الاولاد والبنات زفرات الســـخط واناشيد التطلع وتنهدات الحسرة .. لكأنها امرأة أخرى غير التى كانت اذا رأت تعبى الشريف المتوارى فى الظل تتناول منى الراية وترفعها عالية فى سماء الأسرة كمصباح لا ينطفىء .. تحولت هى الاخرى الى شكاوى وتطلعات .. عند ذاك انزوت كل حقيقة تحت سقفنا هو الآخر ، تاركة الميدان لسوء الفهم الذى يدعى دائما أنه هو الفهم الكامل ..

لقد دخل الميكروب تحت جلد حياتى نفسها ولم تعد المصيبة قاصرة على ما وراء الباب .. على بلاوى ادارة التوريدات والزملاء الذين ضربهم الميكروب فى الوريد .. وكل البشرية التى تتجمـــد آدميتها .. كل ذلك الماضى المخجل والحاضر المعذب .. كل أولئك الخصيان والخصايا .. كل ذلك المسخ الجعجاع الذى يفترس الحياة كأخطبوط له سبعون ألف عنق فى كل عنق سبعون ألف رأس فى كل رأس سبعون ألف فم فى كل فم سبعون الف ناب يشلب بدم الحياة وعرض الانســـان .. كل الضـــياع والتعفن والاكاذيب المخدرة ..

المحرك وقف فجأة .. ونحن اذن بباب المدفن ..

فى الحال دبت من حولى حـــركة سريعة انتزعت وعائى الخشبى من جوف السيارة وحملته حملا غير مترفق الى ساحة المدفن الداخلية التى كم دخلتها لأدفن أمواتنا ميتين بحق ..

هناك أخرجتنى الأيدى الكثيرة بكفنى .. ولم يبق من الزمن يا أولاد غير دقيقة ..

يامنار ، من المسئول عن فساد العالم ؟

يامنار ، سيأتى زمان أنقياء القلب وتدق ساعتهم كما اسمعها الآن فى قلبى .. وطوبى للأرض يوم يأتى زمانهم ، صناع انسانية الغد وورثة الوحوش التى كانت تلبس اقنعة بشرية .. سيأتى زمان الانسان .. صافى العقل والضمير والفعل .. صانع الحياة بلا سلاح غير الحقيقة وحدها ، شمس الوجود القدسية ..

هل أرفض الى النهاية أنياب العالم الناشبة فى مخى أم يمس قلبى من هذا النواح ضعف يدفعنى الى ان افاجئهم بقعودى مرة أخرى مقعد الحياة ، وأريهم اعجوبة نهاية المشوار ؟

الصباح رباح

فوق الزمان والمكان حالته النفسية فى تلك الليلة التى غاب فيها القمر ..

كان حسن الطالب بكلية الهندسة فى زيارة لقرية كفر علوان التحم خلالها بحياة أهلها بعد غيبة طويلة وخرج من هذه التجربة بنفور دفعه الى التماس الخلوة عند الجسر البعيد عن المساكن فى موقع جميل اختار له اسم الصومعة ، هناك حيث السكون يجعل النجوم قريبة والصفاء يجعل السماء صديقة .

وظهر الغبار فى الصومعة عندما سمع عن قرب نباح الكلب جاسر الذى أقبل فى ركاب صاحبه العمدة والشيخ علوان والد حسن ، ورآهما مقبلين والكلب يغيب عن صحبتهما ثم يعود الى الظهور أمامهما ..

ومن كلماتهما الاولى بعد أن جلسا معه تحت شجرة التوت أدرك حسن أنهما يستشعران بعض القلق عليه ، لكنه استطاع بعد قليل أن يجرهما الى كلام عام عن الكون والانسان .. وبينما كان يحاول أن يشرح بتبسيط شديد لأهم رجلين فى قريته معنى كلمة الديناميكية التى وردت فى كلامه ارتفعت فجأة نبحة غريبة خافتة كالأنين من كلب العمدة الذى تعلق بصره بالسماء وذيله منكمش بين ساقيه ، فنهره العمدة بكلمته المأثورة :

ـــ اخرس يا ولد !

لكن الشـــيخ علوان بعد خطفة بصر الى السماء اخذ يتوثب فى غير وقار وهو يشوح بذراعه :

ـــ لطفك يالطيف .. انظر ياعمدة ! ..

ظل العمدة منشغلا بتهذيب كلبه الغالى الذى عاوده الأنين .

ـــ يا ولد قلت لك اخرس يعنى تخرس ..

والشيخ علوان يهز ذراع ابنه فى شبه لوثة :

ـــ شوف يا حسن يا ابنى .. شوف .. ما هذا ؟

هناك جرم متوقد صغير يتحرك بسرعة مذهلة فى اتجاههم وهو يشق ظلمة الليل بوميض برتقالى ساطع كسف كل النجوم ، وهنا اختفى جاسر فى الحقل وانحبس صـــوته ، وجمد الرجال الثلاثة كأنهم تماثيل منصوبة على جسر القرية ، وما أسرع ما كان ذلك المركب المعدنى العجيب التكوين قد هبط فى زراعة بهنساوى أبو طاقية تحت بطن الجسر ..

ومن باب فى الجزء السفلى من المركب خرج شىء حى ينظر بعينين واسعتين ويمشى على ساقين وله ذراعان ورأس ولكنه لا يكاد يبلغ ربع حجم انسان الارض ، وان كانت المهابة تشع من جماله ..

فى سكون تام تأملهم وتأملوه قبل أن يشـــير بيده الدقيقة المضيئة نحو حسن يدعوه الى التقدم نحوه .. وكان فى الاشارة من لطف الحركة البليغة وسطوع المعنى الودى ما يشيع الطمأنينة فى القلب رغم رهبة الموقف وهيبة الزائر .

ـــ أما الشيخ فماتت يده على كم ابنه :

ـ اياكَ ان ترمى بنفسكَ الى التهلكة ..

ـ لكنه يبدو كائنا لطيفا ..

ـ هذه الاعيب الجن ..

على حين كان العمدة قد سقط فعلا فى حالة هلوسة .. أين جاسر .. يا ولد يا جاسر .. لكن صوته انحبس هو الآخر عندما راى حسن يتقدم نحو « الشىء » ويدخل معه فى كلام .

دامت خلوتهما الودية نحو عشر دقائقَ على مســـافة غير بعيدة من الشيخ علوان الذى أجهد ذاكرته فى استحضار كل الاوراد المتعلقة بطرد الجن ، والعمدة الذى انكمش ذيله هو الآخر . وسائر من ظهر وراءهما من الاهالى الذين قـــدر لهم فى تلك الليلة أن يتأخروا فى النوم فيروا المركب العجيب ويســــارعوا فى اتجاهه متسائلين .. ثم انتهت المقابلة بتحية من « الشىء » ردها ابن الارض بأحسن منها ودخل « الشىء » مركبه فارتفع به فى سرعة خاطفة ولمع فى خط مستقيم شق السماء المظلمة الى أن اختفى فى المجهول .

ضاقت الحلقة حول حسن ، حتى جاسر عاد الى الظهور بين السيقان فى خلفية الجمع المضطرب .

ـ ماذا كان يقول لكَ ؟

ـ كان يبلغنى رسالة ..

ـ رســـــالة ؟!

ـ نعم ..

ـ اليكَ انت بالذات ؟! .. وممن الرسالة ؟

ـ من وطنه ..

ـ وطنه ؟ هل لهذا الشيء وطن ؟

ـ لا يمكن ان يكون قد جاء من فراغ .

ـ وأين وطنه هذا ؟

ارتفع صوت من بين الناس :

ـ فى العالم السفلى .. اللهم احفظنا ..

ارتسمت على وجه حسن الشاحب ابتسامة ، وراعتهم منه تلك النظرة فى عينيه ، كأنما مست حيويتها المألوفة ريح من رياح اليأس :

ـ قد رايته بعينيكَ مقبلا من عالم علوى .

وتصدى العمدة لاستجواب قريبه الشاب :

ـ قل لى أنا ياحسن يا ابن حبيبى .. أين وطنه هذا ؟

ـ وطنه كوكبه ..

ـ هذا الشيء جاء من كوكب آخر ؟

ـ برسالة هو موكل بابلاغها . ويالها من رسالة !

ـ جاء خصيصا برسالة الى كفر علوان ؟

ـ لا ياعمدة .. بل الى اهل الارض .

واذا بصيحة مستنكرة من الشيخ علوان :

ـ ما أرى الا اننا داخلون على كفر والعياذ بالله !

تحولت نظرة حسن المشفقة نحو أبيه :

ـ لا يا أبى .. لا تقحم فيما نحن فيه ما ليس منه .. ان

ألرسالة ليست كما تحسب .. هى مجرد رسالة من كوكب هذا الضيف .. معلومة هامة جدا .. معلومة سبقونا الى الوصول اليها ورأوا من واجبهم أن يطلعونا على الحقيقة مهما كانت قسوتها .. وليتهم ما رأوا ذلك الرأى ولا وصلوا الى هذا العلم !

ـ أى كوكب هذا ؟

ـ اسمه الكوكب الدرى ..

من عمق الزحام ارتفع صوت مستنكر ، اذ احتج طالب علم آخر من أبناء الكفر العائدين لزيارة أهله فى عطلة العيد :

ـ ليس فى مجموعتنا الشمسية كوكب يحمل هذا الاسم .

ـ قال ان الكوكب الدرى يقع خارج مجموعتنا فى قلب بحار الصفاء السرمدية فى مركز الكون ..

ـ وأنت صدقته ؟

ـ صدقته .

ـ هل أثبت لك صدقه ؟

ـ انه لصادق .

ـ وما هى الرسالة ؟

ـ ليس من السهل أن أقول لكم ..

ـ وماهو وجه الصعوبة ؟

ـ الصدمة ..

ـ صدمة لنا ؟

ـ نعم ..

ـ لا نحتملها ؟ فلماذا احتملتها أنت ؟

ـ لا أدرى .. ألم تره وهو يشير الى أن أقترب منه ؟.. ربما كان عنده هو الوسيلة ليعرف أينا أقوى على احتمال الصدمة الاولى ، ولذلك اختارنى من بينكم .

جهر بشعوره أمام هذا المعنى صوت جديد يقال ان لصاحبه اتصالا سريا بهيلمان غامض هو الذى مكنه من اضـــاعة أبرياء كثيرين وابتزاز أموال :

ـ قد بدأت تلعب لعبة خطرة ..

ـ أنت معذور يا هارون اذا خيل اليك بحكم المهنة انى أخفى سر الرسالة عن قومى أو انى أزعم لنفسى امتيازا عليكم .

قال أحد المدرسين وهو يتقدم نحو حسن خطوتين حذرتين :

ـ فلماذا لا تتكلم ؟

ـ طلب منى ألا أتكلم الا فى حدود احتمالكم واستحقاقكم .

ـ بل تقول لنا كل الذى قاله لك وتريحنا ..

ـ أنا لا أخفى المعلومة التى جاءنا بها رغبة فى احتكارها ولا فى حملها وحدى .. وما أنا بقادر على أن أحملها وحدى .. انما هو الاشفاق يا أهلى ..

قال المدرس الذى يجهل تلاميذه القراءة والكتابة حتى سن البلوغ رغم قدرته على ادارة شبكة الدروس الخصوصية :

ـ أعفيناك من الشفقة ..

تأمل حسن هذا الوجه الكريه الآخر كما تأمل من قبله جاسوس القرية ، ثم خاطب الجميع :

ــ أسمعوا .. كفانا الليلة هذه الرجة العظيمة التى زلزلتنا جميعا .. وفى الصباح أقول لكم .. دعوا لكل يوم زلزاله .

ــ ومن يضمن لنا أننا سنفتح أبوابنا مع الصباح فنجدك فينا ؟

ــ والى أين أهرب ؟! .. وما الفائدة ؟ ان ما سأقوله لكم فى الصباح لن يكون سركم وحدكم بل لن يكون سرا على الاطلاق .. فلن يأتى غروب غد حتى تكون رسالة الكوكب الدرى حديث العالم من القرى الى المدائن ومن القطب الى القطب ..

وقع سكون شمل حتى حفيف أوراق الاشجار الى ان ارتفع صوت يعرفه كفر علوان كله ، فهذا بهنساوى أبو طاقية الذى يعيش بذكاء ثعلبى على النزاع القديم بين عائلتى علوان ورشوان :

ــ يا باشمهندس .. ما الذى يوجب علينا أن نكشف للآخرين ما يمكن أن ننتفع به وحدنا ؟

وصمد لنظرة حسن المتقززة واستطرد :

ــ أليس هو رزقنا الذى ساقه الله الينا .. أليس لحكمة أن حامل الرسالة اختار أرض كفر علوان لينزل فيها واختار من أرض كفر علوان قراريط بهنساوى أبو طاقية ؟

أحدثت الجرثومة أثرها وارتفعت من أركان الجمع أصوات نافدة الصبر ينذر بعضها بالشراسة :

ــ اذا لم تتكلم من نفسك فسوف نضربك !

ــ هل هذا هو رأى الكثيرين منكم ؟

ـ سنظل نضربك الى أن تقول لنا كل شيء !

ـ تضربوننى لتعرفوا الحقيقة ؟!!

ـ ونعذبك أيضا ونظل نعذبك حتى تتكلم !

هنا واجه الشيخ علوان قومه :

عندى فكرة أحسن .

ـ ماذا ؟ أن تقتسم مع ابنك السر ؟!

تجاوز الشيخ عن الاهانة حرصا على نجاح مقصده :

ـ نطاوع حسن على قد عقله ونحبسه عند حضرة العمدة فى حجرة التليفون .. والصباح رباح !

قال حسن فى هدوء :

ـ ليكن ـ وانى لاشدكم احتياجا الى الخلوة بنفسى .

ـ اذن نعين حراسا حول التليفون ممن لا يأخذهم نوم !

قال طالب العلم الذى حيره اسم الكوكب الدرى :

ـ وهل سيجد أحد فى هذا البلد سبيلا الى النوم فى ليلته !

ـ اذن نسهر كلنا حول حجرة التليفون !

وقبل أن يفعلوها ارتفع صوت فلاح عجوز :

ـ لكن يا حسن يا ابنى هل أنت متأكد أنك لست نبيا ؟

ـ ليسترح بالك ياعم بسيونى فلن تؤخذ بجريرة الاساءة الى نبى .. ان هى الا محادثة بين مخلوقين من كوكبين بينهما بعد السموات ..

ـ أحبسوه !

حبسوه وسهروا حوله وظنوا أن قلقهم سيتركهم الى الصباح ، لكنهم بعد أقل من ساعتين أخرجوه من محبسه وكادوا يقبلون يديه وقدميه .. وعندما تولى الكلام الشيخ مبروك الطيب سالت بعض الدموع .. يابخت من نفع أهله .. تكلم يا فتى الفتيان .. قلها .. نحن أهلك يابو على .. نريد أن نرتب أمورنا قبل أن تقع واقعة .. ولنفرض على سبيل المثال أن عند أحد الناس مالا مدفونا .. ماذا يفعل به بسرعة حتى يكون عند معرفة الحقيقة فى الصباح أقرب الى .. أقرب الى الموقف الأحسن ؟!

ـ لا تضحكنى ياعم الشيخ مبروك !

ـ طمئن قلوب قوم مؤمنين !

ـ الصباح رباح !

ـ طيب .. من له فلوس عند أحد ، هل يطلبها أم المسامح كريم ؟

ـ الصباح رباح !

دخل فى الاستجواب بهنساوى أبو طاقية :

ـ يا باشمهندس .. نتعاون والخير يعم .. لعل فى الامكان الخروج من الموضوع بفائدة .

ـ أنت تريد من كل شىء فائدة .. لكن هنا لا فائدة .. لا فائدة .. لن يقوم نزاع بين الكوكب الدرى والكوكب الأرضى يستفاد منه مثل النزاع بين العلوانية والرشوانية !

ـ طيب على الأقل لا تقل السر للناس كلهم بغير مقابل .. نستفيد بأى شكل .. ويابخت من نفع واستنفع !

لكن صوت امراة طيبة جاء من أقصى الزحام :

ـ يا حسن يا ابن حبيبتى فاطمة ، هل هو طوفان آخر كطوفان نوح ؟

ـ الصباح رباح !

فاندفع صوت رجل فى قلب الجمع مشحون بالرعب :

ـ أنا فى جاه جميع أولياء الله ياحسن يابن شيخنا .. طمئن قلبى .. هل هو يوم القيامة اقترب ؟

فارتفعت صيحات عديدة بعضها يعوى بالبكاء :

ـ اذا كان يلزم صلاة نصلى !

هنا اندلع غضب أمين الجمعية التعاونية المتسلط عليها :

ـ ان كانت القيامة ستقوم قل لنا حتى يرتب كل حى أموره !

وبالابتسامة الحزينة التى سكنت وجهه تكلم حسن :

ـ ترتب أمورك يا فتحى أفندى ؟ .. كيف ؟ .. تقرأ كشف اختلاساتك على الله فى استغفار طويل ؟

ـ اختلاساته ؟ .. اخرس يا ابن علوان يا قليل الأدب !

كانت هذه الست محفوظة زوجة فتحى أفندى ، لكن حسن ترك الرد عليها لفلاح كهل رفع رأسه فى قلب الجمع :

ـ طيب قولى لنا أنت يا ســـت محفوظة من أين لكما المال الذى اشترى به زوجك معظم ارضى ؟

لكن صوتا آخر ارتفع بالدفاع عن سلطان التعاونية ..

ـ يأسيد حسن لا تدعَ غرورك بما حصل الليلة يزين لكَ التعرض لشرف الناس !

ـ شرف يا رجل ؟ الانك أنت الآخر لم تضبط بالرشوة حتى الآن تعتبر نفسك شريفا ؟

وطافت نظرته بالرجال والنساء على حين كان شيخ الخفر يفض الاشتباك الذى كاد ينتهى اليه الموقف بعد صراحته المفاجئة .. وكان الرجل يفعل ذلك فى حماس استعراضى ذليل أمام حسن ، لعل ابن علوان لا يتكلم عنه ولا عن أفاعيله وملاعيبه هو والعمدة . وأسعده ارتفاع صوت هارون مرة أخرى :

ـ يا أستاذ حسن نريد كلاما فيه هندسة .. هل تتصور أن من حقك وحدك أن تتصرف فى مسألة خطيرة كهذه قد تكون لها نتائج مصيرية ؟

وخزه حسن بلا رحمة :

ـ الا تزال هنا يا هارون ؟ لماذا لم تطر فى الحال للقيام بدور المخبر وقبض مكافأة التجسس ؟

تقدم المدرس خطوة ثالثة وتكلم بلهجة خطابية :

ـ يا ناس الاحتمال وارد علميا .. والمهم فى هذا الموقف العصيب هو أن نعرف هل سيقع غزو من ذلك الكوكب للأرض ؟

قال حسن فى رفق :

ـ ما جاء غازيا بل كاشفا .

ـ ماذا يكشف ؟

ـ الحقيقة .

وانتفض من الغيظ عندما مال العمدة فى تلك اللحظة على أذنه وهمس محاذرا أن تتسرب الهمسة الى الآذان القريبة :

ــ الحقيقة أنك حيرتنى .. أنا ياعم داخل استريح .. اسمع .. لن اسألك غير هذا السؤال .. هل مجامعة النساء الليلة حرام ؟!

أتعبوه وأتعبهم حتى يئسوا منه فأعادوه الى المحبس متعاهدين على ألا يخرجوه منه الا عند بزوغ الشمس الذى لم يعد بعيدا ، لكنهم عادوا قبيل الفجر فأخرجوه وأجلسوه على كرسى قطيفة من بيت العمدة ، وجاءوه بفطير وعسل :

ــ طيب قل لنا بأى لغة تكلمتما ؟

ــ من عجائب هذا اللقاء أن هذه لم تكن مشكلة !

ــ كلمته باللسان العربى أم باللسان الدرى ؟

ــ ياقوم .. أقسم لكم أنى من فرط اشفاقى عليكم من صدمة الحقيقة أفكر فى الانتحار كى أحمل معى السر الى القبر وأترككم فى عماكم ..

ــ لعلك لا تهيننا عامدا ؟ .. هل تريد أن تزعم اننا لسنا أهلا نتلقى الرسالة التى بلغتك لا بالانتخاب بل بالصدفة ؟

لكنه صار أغلى من أن يتركوه لنفسه !

الانتحار ؟! .. هل هذا كلام يا أبا على ؟

احيطوا به .. حاصروه .. واياكم أن تغفل عنه عيونكم !

ولابد أن يتكلم ولو بشىء من التعذيب لا يضر !

ها هو الفجر طلع ولم يعد هناك صبر .. تكلم .. تكلم .. وهاهو العمدة يعود الى الظهور مع تباشير النور فى الأفق الشرقى وبعد أن استراح فى أهله بعض الوقت واستحم وغير ملابسه .. وباسم الجماعة قال العمدة :

ـ أظن ياشيخ علوان انه آن الأوان لتضرب الولد كفين أو تترك لى مهمة استنطاقه ..

انحنى الشيخ على كتف ولده فقبله ، وناجاه :

ـ يا حسن يا ابنى .. أزح عن الأمة هذه الغمة !

ـ الآن ؟

ـ الآن !

كان حسـن قد حزم أمره على الصـمت لكنه سألهم فى سخرية :

ـ ألا تنتظرون الصحافة والتليفزيون والاذاعة ؟!

جاءت الصيحة جماعية :

ـ بل الآن .. الضيف نزل عندنا ، وأول الكلام لابد أن يكون لنا !

اعتلى الكرسى فسـكن كل حى ، وامتحن صبرهم بوخزة شاملة مقصودة :

ـ ماذا انتم قائلون اذا قلت لكم مثلا ان سـكان الكوكب الدرى اكتشفوا ان كوكب الأرض ليس فى نهاية الأمر الا فقاعة غازات محبوسة فى مصارين حيوان هائل الحجم طويل العمر يعانى من غازات امساك أبدى ؟!

شهق كفر علوان شهقة واحدة .. وضرب الشيخ علوان كفا بكف :

ـ والله العظيم اشد تليفون للمركز بنفسى واطلب قميص المجانين !

أشار حسن بيديه فصاروا كلهم أذنا واحدة كبيرة :

ـ فماذا أنتم فاعلون بى اذا قلت لكم اننى الآن صححت عزيمتى على أن أموت حاملا معى سر الكلمة التى القيت الى ؟ .. هلموا افعلوا ما بدا لكم ، ولن يكون أسوأ ما عندكم قميص المجانين ! ..

فى بطـن الحـوت

كم من هذه العمارات يملكها دكاترة ؟

ومض السـؤال فى مخه وهو قابع فى ركن المقعد الخلفى للسيارة القديمة التى يقودها الاسطى بهاء الدين وسط كثافة زحام الشوارع وفجاجة الملصقات الضخمة ..

فى ظاهر الأمر يمشى الناس فى بلادة الخيل المجهدة ، لكن مجموع الصورة تحتويه حالة قلق عصبى ..

لكى يعيش الانسان فى العالم المعاصر تلزمه أعصاب أقوى ومخ أكثر مقاومة ، والا فان الانسان المثقل بايقاع الحياة المتزايد السرعة سوف يتعود الدمامة شيئا فشيئا ويألف موت الجمال فى الدنيا ويبلغ لا محالة آخر مدى لحالة عدم التوازن المؤسفة التى تسحقه .

كيف الوصول الى جعل المخ الانسانى أكثر قدرة على احتمال هذه الحياة ؟

من وراء زجاج نافذة السيارة يحلو للدكتور يونس وهو فى طريقه من بيته الى المستشفى أن يتحسس نبض الحياة فى الشوارع ..

فعل ذلك فى كل المدن الكبيرة التى زارها خلال الثلاثين سنة التى زاول فيها مهنة الطبيب الباحث المعروف ، كما يفعلها هنا فى القاهرة كل يوم ملخصا رايه فى كلمات محددة قاطعة ، فالانسان أطلق من العقال قوى لم تعد ملكاته الروحية قادرة على السيطرة عليها بل هى التى تجره وراءها متقطع الأنفاس ومنقبض الصدر . ومن هنا كل الوان التعاسة والانهيارات والجنونيات والجرائم والفساد ..

وزوجته المثقفة تناقشه فى رايه وتنسبه الى انقطاع زوجها للبحث فى المعامل منذ أول اشتغاله بالعلم ، بينما كان كل هم زملائه الشبان متجها الى جمع المال ودعم المستقبل .

وفى عينيها المحبتين بعد عشرة العمر الطويل يقرأ اعتقادها المكتوم بأنه لم يكد يحقق شيئا من أحلامه الكبيرة .. كل ما وصل اليه هو استخراج مصل افاد فى علاج بعض حالات القصور البدنى وتخلف الذكاء عند الحيوانات ، وهو كشف خلع عليه بعض الصيت ويستخدمه بعض زملائه الآن فى مصر وفى الخارج بنجاح نسبى .. وعاد الشارع يجتذبه بحركته الهلامية الواشية بفقدان السعادة وملصقاته التى تنعى تهافت الفنون وسيادة التفاهة .

بشر هذا العصر والعصور المقبلة تلزمهم لكى لا يقعوا فى كارثة محققة أمخاخ أقوى ، وينبغى أن تكون هناك وسيلة للوصول الى داخل المخ وتجديد شباب الجهاز العصبى ..

فى المعمل مر بين اقفاص الارانب والكلاب التى يجرى عليها تجارب بطيئة هو ومجموعة من مساعديه الشبان المؤمنين بعبقريته فى هذا المكان الهادىء الملحق بفناء المستشفى ولد مصله واستطاع أن يعيد الى بعض الضعاف والشواذ والمرضى من هذه الحيوانات

حيوية وذكاءا يكاد يكون مذهلا فى بعض الحالات .. لكن هذا لا يكفى ويجب أن يكون التقدم فى هذه الناحية أكثر سرعة ، لأن الداء على مستوى المخ الانسانى مستفحل ومتفاقم .

لماذا لا تصل ابحاثه هو وغيره الى جعل مادة المخ اكثر فعالية واشراقا ؟

لماذا لا يدخل العلم الى المخ نفسه ويبدله تبديلا يختصر قرنا أو قرونا من نمو الذكاء البشرى ؟

لماذا يعجز العلم عن خلق انسان المستقبل المنشود الذى يثمر مخه فى الومضـــة الواحدة مالا تكفى اجيال من علماء هذا الزمان لانجازه ؟

عند قفص ارنب يحتضر استقبله مســــاعده الاول الدكتور حسان بابتسامة حزينة .. وعندما تبلور حوارهما مرة اخرى حول فكرة ذلك الانسان الجديد الجبار الذى يعجز العلم حتى الآن عن جذبه من المستقبل الى متناول أيدى أهل هذا العصر ، قال الدكتور حسان لاستاذه :

ــ ابنك الدكتور محمد ، زميلنا الجـديد ، واثق من نجاح نظريتك الى درجة الاستعداد المطمئن لأن تجرى أول تجربة على الانسان فى مخه هو ..

ــ غرور الشباب !

ــ أنا أحيانا أعذر لهفته على أن يثبت نجاح والده العظيم من جهة ويصير هو نفسه من جهة أخرى أذكى الناس ، كما لو كان ماردا اجتذبه القرن العشرون من صلب القرن الخامس والعشرين !

ابتسم الدكتور يونس بدوره وهو يمشى مع مساعده نحو القسم الذى يشرف عليه فى المستشفى الكبير ..

ـ لنترك هذا الهم لأجيال تأتى !

ـ هذا هو رأيى ايضا .

ـ أما فى الحالة الحاضرة لمعارفنا فان التجربة مستحيلة .

ـ هذا هو رأى كل علماء العصر الذين نحاول ان نتـــابع بارشادك ابحاثهم المنشورة ..

فى قسم الدكتور يونس بالمستشفى وجدا مريضا جديدا كان أول ما سمعاه عنه أنه طالب فى السنة الثانية بكلية الطب سقط فى الامتحان وحاول شنق نفسه لولا ان الحبل انقطع .. وتقرير الفحص المبدئى الذى قدمته المرضة موقعا بامضاء المساعد الشاب الدكتور طارق والدكتور محمد يونس يرجح حدوث كسر فى قاعدة الجمجمة .

رفع الدكتور يونس الكمادات التى تغطى الرأس فانكشف وجه ممتقع ضامر ومتعب كأنه فقد آخر شبابه .

وكنبات جفت منه العصـــارة كانت شفتاه الذابلتان تلفظان بخفوت تنفسا متقطعا ، فعالجت الاصابع الرقيقة الحساسة حركة الرأس بين اليدين الحانيتين ، وفحص الدكتور يونس الجرح الدامى وسط الشعر الذى أزالت المرضة جزءا منه وهو يسأل :

ـ من أين جئتم به ؟

ـ من حجرة خاوية ابرز ما فيها حبل متدل من خطاف فى السقف .

ـ هل اخطرتم اهله ؟

ـ لاأهل له ، وفقره ظاهر ..

ـ أعتقد انه لن يعيش الى المساء . . ما اسمه ؟

ـ باهر عبد اللطيف .

بدقته المعتادة أكمل الدكتور يونس زيارة القسم كله كالمعتاد كل يوم وحوله بعض مساعديه .. يداعب شعر صغار السن من المرضى ويترك مروره وسطهم نسمة منعشة ، لكن فى عمق تفكيره فى هذا اليوم فكرة عنيدة تفرض نفسها بالحاح .. ان باهر هذا هدية .. هذه هى الحالة التى تلزمنى تمـــــاما .. ولعلها نفحة مقصــــودة ..

وعاد يمر بين الاقفاص التى يتوثب بعض سكانها ويحتضر البعض الآخر ويتلقى نظراتها اليائسة المنكسرة وهو يفكر فى باهر عبد اللطيف .. كل ما يلزم هو أن يحزم أمره ويسكت ذلك الصوت الداخلى المناوىء ويأخذ باهر الذى يحوم الموت فوق رأسه الى حجرة العمليات ويثقب جمجمته ويتناول بالجفت مضغة محسوبة من المصل ويودعها ذلك المكان الذى يعرفه من المخ ، واذا بباهر لو صحت النظرية ينهض بعد الشفاء بمخ مجدد ساطع الذكاء قد يأتى بالأعاجيب .. يفتح للانسانية فتحا .. مخ بالغ المقدرة ســابق للأجيال ، يغير وجه العالم ويجعل أحلام القرون واقعا .. !

وهم خارجون من زيارة باهر الثالثة قال الدكتور محمد لوالده أمام حســـــان وطارق :

ـ ماذا تنتظر يا والدى وفى يدك الآن أن يطلع النهار فاذا بك واحد من عظماء التاريخ ؟

رفض الدكتور يونس بحركة عصبية تجسد بعض افكاره أمامه على لسان ابنه :

ـ لا لا يا محمد .. ان نظريتى ليست بعد أكثر من مجرد نظرية .. كثير من حيوانات التجارب لا يزال يموت أمام عينى وفى

نظراته الحزن العاتب الذى يتركنى موجع القلب .. نظريتى غير كاملة ولا اكيدة ..

— لكن باهرا هذا محكوم عليه بالموت فى كل حال !

قال الدكتور حسان بهدوء :

— من يدرينا !

— لماذا لا يكون هو نقطة الانطلاق ؟

تردد الدكتور يونس لحظة ، ثم جاء صوته أكثر لينا ، كما لو كانت حماسة ابنه تزلزله :

— لننتظر يوما آخر .. أو يومين ..

— انه قد يموت خلال هذين اليومين وتفلت الفرصة !

— طيب ننتظر حالته هذا المساء ! ..

بعد أيام جاء صباح ، زادت حالة باهر فيه سوءا وارتفعت حرارته ثم دهمته تقلصات فى عضلاته ، وقال الدكتور حسان بعد فحصه انه ميت خلال ساعة ..

وبعد قليل وصل الدكتور يونس الى المستشفى وكان أول ما فعله أن أعاد فحص باهر وحوله صمت كامل من المساعدين والممرضات ، ثم قال لهم فجأة دون أن يرفع بصره عن رأس باهر :

— ينقل فورا الى حجرة العمليات .

ظهر الفرح فى عينى الدكتور محمد ، على حين همس الدكتور حسان لاستاذه بأدب :

— هل هناك فائدة حقا ؟

لكن باهرا عبد اللطيف عاش بعد العملية ، فقال محمد لأبيه فى زهو :

ــ دعنى أصارحك بأنى وزميلى طارق متفاهمان على أن يقدم كل منا مخه لتجربة ثانية تكون أكثر اثباتا لصحة النظرية ..

نظر الأب الى ابنه فى قلق :

ــ اسمع يا محمد .. ان ما فعلته كان خطأ ، ولن اكرره .. على الانسانية أن تنتظر الى أن يهيىء التطور الفرص لعلماء زمان مقبل ..

ــ بل الواجب أن نحاول فى التو التدخل فى مخ انسان سليم الصحة .. ولأكن أنا هذا الانسان الذى يثبت عبقريتك ويرفع صيت البلد فى الدوائر العلمية فى الخـــــارج .. أريد أن أكون أنا ذلك العقل الجبار المنتزع من المستقبل الى الحاضر ..

ــ كلامك يدل على أن اسرافك فى السهر مع طارق أرهقك فاذهب وابحث لك عن بعض الراحة ودعنى أنام قليلا فما أشـــــد حاجتى الى عمق النوم ! .

ابتلعه حوت النوم داخل معدته الكابوســــية .. وفى بهو المستشفى سمع صوت الدكتور طارق وهو يتردد طالبا منه فى جزع ملهوف أن يقصد معه فى الحال الى حجرته فى الطابق الثالث .

وهنلك وجدا ابنه ممددا على سرير طارق فى غيبوبة ..

ــ اذكر الوقائع باختصار دقيق .. ماذا حدث ؟

كانت يدا طارق ترتعدان وهو يتكلم :

ــ كنا قد اتفقنا على أن نكون موضـــوع التجربتين الثانية والثالثة وأجرينا القرعة بيننا بقطعة نقود فكانت النتيجة فى صالحه .. لكن دورى سيأتى ..

ــ أجريت له العملية ؟

ــ ولا يعرف الحقيقة هنا غير الممرضتين اللتين عاونتانى بعذ قسم بالكتمان ..

ــ نتحاسب فيما بعد يا حمقى .. انزل فقم نيابة عنى بالزيارة اليومية وأصعد الى بعد ذلك بتقريرك ..

وعند رأس ابنه جلس وحده .. غيبوبته ميئسة .. سيموت هو الآخر .. ماذا هو قائل لأمه .. وحاول ان يعيد اليه بعض الوعى ففشل .. ونسى عنده وجود باهر عبد اللطيف فى الدنيا ، الى أن ذكره به طارق عند عودته الملهوفة على صديقه :

ــ باهر حالته اليوم أحسن ..

ــ آه .. باهر .. كنت نسيته هذا .. ابق هنا حتى اذهب فأغير له على جرحه .

عند رأس باهر وجد الممرضـــة فى الانتظار فتقـدم ورفع الضمادات ليفحص الجرح ، لكن قبل أن يتم مهمته ظهر فى الباب وجه مضطرب ونادى صوت :

ــ دكتور .. دكتور .. الدكتور طارق يرجوك أن تصعد الى حجرته فى الحال ..

لحظة تردد قاسية ثم أشار الى الممرضة أن تضع الشاش على الجرح حتى يعود ، وغادر الحجرة فى وثبة أذهلتها .

ولم ينتظر المصعد بل صعد الدرجات وثبا ..

استقبله نشيج طارق :

ــ القلب يتوقف !

انحنى يونس على الفم المفتوح يتحسس ذبالة الحشرجة ، لكن التنفس انقطع وانسدل على وجه ابنه قناع الموت ..

لحظات فظيعة مرت فى محاولات يائسة لاعادة نبض الحياة الى الجسد الهامد ، ثم أغمض الأب عينى الابن وغطى وجهه ، بينما انهار طارق على الأرض ورأسه فوق ملاءة السرير وهو يندب صديق العمر وتخيل يونس وجه الأم وهى تتلقى الصدمة .. لكن وجها آخر ظهر ليونس فغطى على كل شىء .. الشاب الممدد بين الحياة والموت فى الدور الأرضى بجرحه مفتوحا ..

ترك الصديقين الميت والموجع القلب وهبط الى الواجب .. ورآته الممرضة يعود فيتناول الجفت ويتم المهمة ، وعاونته وهى خائفة من ذلك الحزن الخارق فى وجه الاستاذ الطبيب .

وبنفس الخطى الآلية خرج ساعيا نحو جثة ابنه ، لكن ضجة غريبة استقبلته هابطة من فوق .. وسمع من يقول له ان الدكتور طارق انتحر فى حجرته ..

كم كانت رجلاه ثقيلتين وهو يصعد الدرج ليرى بعينه جثة طارق على الأرض أمام سرير محمد الميت ! .

تقدم الدكتور حسان وأمسك بذراعه مترفقا :

ــ زوجتك قلقة ..

ــ هل جاءت ؟

ــ تنتظر على التليفون .. تقول انكما لم تتعودا البقاء فى المستشفى طول النهار دون أن تطمئناها ..

ــ ماذا أقول لك يا كريمة ان سألتنى عن محمد ؟

فى عمق أحزان الدكتور يونس كان باهر يبزغ من اللاوعى حتى عاد خلال أيام قليلة الى الحياة من قيعان الغيبوبة ، وهو الآن يبتسم للدكتور يونس بحب :

ـــ دكتور يونس .. أنا الآن فى تمام الذاكرة .. أذكر لحظة ظهور نتيجة الامتحان ولحظة اليأس فى حجرتى الخاوية .. والحبل الذى اشتريته من بسيونى البقال بثمن كتاب الهيكل العظمى .. لماذا فشلت فى الانتحار ؟

ـــ لأنك اشتريت بمتن الكتاب القيم حبلا من صنف ردىء !

ـــ حتى أسئلة الامتحان التى عجزت عن الاجابة عنها أجد الآن الاجابات الصحيحة عنها ساطعة فى ذهنى وكاملة !

ـــ هل انت واثق مما تقول ؟

ـــ فى الماضى كانت ذاكرتى كسولة .. اما الآن فهى تستيقظ بعنفوان عجيب .. كل شىء الآن ساطع الوضوح .. كل النظريات .. كل الكتب .. الآن أقارن وأفسر وأستنبط العلاقات والاسباب والعلل .. الآن أنجح .. الآن أفهم كل شىء .. زال حتى الصداع الذى كان يعذبنى بعد المذاكرة ويجعل مخى يغيم الى حد الانطفاء . الآن لا شىء صعب .. لا شىء صعب ..

ـــ كم عمرك ؟

ـــ ٢٣ سنة ..

ـــ لماذا كنت تريد الموت ؟

ـــ الوحدة مع الفقر لا تحتمل .

ـــ والآن ماذا تنوى ؟

ـــ أنوى ان أحب بنتا حلوة واتزوجها واقضى معها والباب مقفول علينا ساعات جميلة !

ضحك الدكتور يونس من قلبه ، فسأله باهر :

ـــ قل لي يادكتور يونس ولا تخفَ عنى .. لعلكَ وضعت لى راسا جديدا ؟!

خاف يونس واختصر الحديث :

ـــ بعد شفائك سأعينك على اتمام دراستك ثم الحقك بعد التخرج بأولادى فى قسمى .

ـــ لعلك وضعت لى فى مكان رأسى القديم راسا جديدا ؟!

ويقول يونس لحسان بعد قليل فى المكتب :

ـــ أعتقد أن باهرا يعرف ما فعلنا به ، وأتوقع له أن يدوى فى العالم صيته .

ويطول صمت حسان قبل أن يرد :

وصلتنى الدعوة من الجامعة الكندية التى كنت على اتصال بها ، وأتوقع ان يكون سفرى خلال الاسبوع المقبل ..

ـــ اشعر انك لا تقرنى على ما فعلت وأنك تنتهز أول فرصة لتهجرنى ، أنا الذى لا اعتمد على أحد هنا فى الحقيقة غيرك .

ـــ ان هى الا ستة اشهر ..

ـــ انت لست متفقا معى .

ـــ أنا لا أناقش ضمير أستاذى الجليل ، لكنى راحل ..

ـــ ما منطقك فى كلمات محددة ؟

ـــ خائف .. الخوف هو منطقى .. لأنكَ شددت الى الحاضر مخلوقا من المستقبل .

ـــ وما الضرر وانت اول من يعرف حسن نواياى ؟

ـ هذا المخلوق كان يجب انتظاره بضعة اجيال من تطور بطىء يتيح له تطورا روحيا معادلا لقوة مخه .

ــ ها أنت بدون قصد تأخذ صف التحجر وتقاوم التقدم .

ــ سوف يعرضك مخلوقك ان عاش لما لا تحب !

ــ انت عالم فلا تطلق نبوءات !

سوف نرى ! ..

* * *

ــ لست من أبناء هذا القرن .

فجأة تخرج باهر عبد اللطيف بنجاح مذهل وجــاء ترتيبه الاول .. وكان الدكتور يونس أول من هنأه ثم ألحقه بقسمه فخورا به .. لكن المرضات وأطباء الامتياز لم يستقبلوا ظهوره بينهم بحفاوة ، وعلق هو على الجفوة بابتسامة :

ــ التفسير العلمى لجفوتهم دليل على استشعارهم المبهم أن قد ظهر بينهم رجل من القرون المقبلة ..

وان هى الا لمحة زمن حتى أعلن باهر لاستاذه فى المعمل بتواضع كتوم أنه على وشـــك اكتشاف غذاء جديد للمخ يصنع المعجزات ..

وما أن عاد الدكتور يونس من مؤتمر طبى عقد فى السويد حتى لحظ كثرة الوفيات فى قسمه وحالة المرضى العصبية والمرضـــات المعاديات لباهر ، فاستجوبه :

ــ ماذا حدث فى غيبتى ؟

ـ كل شيء على ما يرام ، أما أنا فعلى ابواب معجزة .

ــ اريد الحقيقة ..

ــ الحقيقة ؟ .. من ذا الذى يتكلم عن الحقيقة ؟ .. انا من استهلك أيامه ولياليه وصفاء ذهنه المتجلى كى ينتزع من المجهول بعض اسراره . انا ذا رجل الحقيقة الذى سيمد فى يوم قريب الى كل هؤلاء الجهال يديه المليئتين بالحقائق ..

ــ معنى هذا أن تجاربك هى السبب فى كل هؤلاء الموتى والذين تتفاقم حالتهم ..

ــ حذار من أن نحصر أنفسنا فى الحدود الضيقة للساعة الراهنة .. أرجوك يا أستاذى أن تدخل المستقبل فى اعتبارك .. ما قيمة بضعة أفراد ميئوس منهم أمام هناء الملايين الذين سيجدد دوائى شبابهم ويضيء أمخاخهم .. انى على وشك أن اخلد معملك بدواء يختصر للذكاء الانســـــانى قرونا كاملة من التطور البطيء الطبيعى ..

ــ أنت قاتل ..

ــ هل لمتك على أنك جعلت منى ما أنا ؟

ــ قاتل بلا ضمير !

ــ انك اذن لست الا رجلا من زمانك مثل الآخرين ..

ــ هذه جرائم لن أسمح لك بالاستمرار فيها هنا .. أبدا .. هل انت فاهم ؟

ــ اذن عبقريتك التى ظهرت فى حالتى لم تكن غير مجرد صدفة .. !

ـ لماذا كل هذه العجلة ؟ .. أنت شـــاب والحياة أمامك طويلة ..

ـ لا أعيش الآن .. أنا أعيش فى القرون المقبلة ، فماذا انت فاعل بى ؟ هل تشكونى الى النقابة ؟!

ـ حالتك تفلت من أى تحقيق جنائى .. وهذا هو خطرها الذى لن أسمح بوجوده .. كما أنى لا أستطيع أن أكتفى بطردك من المستشفى ، لانك فى هذه الحالة ســــتذهب لتواصل أبحاثك فى مكان آخر ..

ـ استنتاج صحيح كعادة أستاذى دائما .

ـ وضحايا آخرون .. لا .. اختر لك عملا آخر غير الطب .. هذا هو الحل الوحيد الممكن ..

ـ ماذا تقول ؟!

ـ زاول قوتك الهائلة فى فرع آخر من فروع المعرفة .. أى فرع تختاره سيهديك فيه ذكاؤك الخارق المخيف .. العلوم الفلكية والكونية وكشف الفضاء مثلا .. وسأدفع أنا نفقات أبحاثك ، لأنى أشعر أنى مسئول معك ..

ـ ألا تمهلنى بضعة أسابيع أخرى أوفر بها الجهد المضنى البطىء على أجيال وأجيال من العلماء ؟ .. هؤلاء المرضى الذين تدافع عنهم وأنت أحد الرواد حفنة من ناقصى التكوين والبلهاء .. ما قيمة هذا الزائد البشرى أمام فجر القوة الخارقة لساكنى الارض وبدء استحواذهم على العالم الكونى بذكائهم المتجلى .. ؟

ـ ان لم تقبل فى الحال ما اعرضه عليك سأرفع سماعة التليفون وأكلم نقابة الاطباء ومن أعرف من الصحفيين .

ـــ ليكن .. لكن أعلم أنني بهذه الطاعة اســـدد دينى لك كاملا ، فأنا منذ اليوم حر ..

قالها واختفى مثل المهر الفتى يعز على أبرع الفرسان أن يلقمه اللجام .

بدأت أخبار باهر عبد اللطيف بعد زمن لم يطل تترامى الى بيئته القديمة . . فتح عيادة شعبية فى ضاحية المرج وعكف على أبحاث غامضة يجريها فى معمل بدائى صغير فى بدروم مسكنه .. ولم تأخذ هذه الأنباء فى اثارة القلق فى نفس الدكتور يونس الا عندما قرأ فى الصحف تحقيقات متتابعة عن شكوى ســــكان المرج من عفاريت ظهرت عندهم فى الايام الاخيرة وحــلا لها خطف الناس وخاصة صغار السن .. ومع أحد التحقيقات وجد صورة طبيب الضاحية الدكتور باهر عبد اللطيف بخبث ابتسامته الخفيفة مع رأيه العلمى فى حكاية عفاريت المرج ..

ويوما فتح باهر باب مسكنه فوجد أمامه أستاذه القديم :

ـــ باهر .. ما هذه الوفيات المتكاثرة فى المرج منذ سكنته ؟

ـــ حاسب عزرائيل .

ـــ أنت عزرائيل الجديد ولهذا أسألك !

ـــ الم أقل لك أن حقك على سقط وانى حر ؟ .. لســـت مخلوق أحد فأنا نفسى خالق ..

ـــ وأنا المسئول عن هذه المصيبة .

ـــ أطلقتنى وبذلك انتهت مهمتك .. أطلقتنى خارج زمنى فشكرا لك واذهب الى زمنك فأنت تعطلنى ..

ـــ هكذا تكلمنى الآن !

ـــ أنت متأخر عني مئات السنين . .ادخل وأنظر بنفسك ..

فى الطابق السفلى وجد الدكتور يونس جثث أطفال وجماجم مفتوحة وسمع أنين بشر يتعذبون ، ثم ضحكة ابليسية من باهر أمام ذهول أستاذه :

ــ لن تفهم عملى فأنا متقدم عنكَ قرونا !

كيف وجد هذه القوة الفظيعة التى أحكم بها وثاق باهر حتى قذف به فى السيارة ومن السيارة الى حجرة مغلقة عند صـــــديقه الدكتور فريد فى مصحة الأمراض العقلية ؟

لكن يونس لا يكاد يدخل بيته حتى يرن جرس التليفون ليقول صوت الدكتور فريد المضطرب :

ــ زبونك هرب من المصحة وابلغنا الشرطة !

ومن داخل معدة حوت النوم سمع مرة أخرى رنين جرس التليفون .. فتح عينيه فوجد نور الصباح يغمر حجرة نومه وكريمة تتقلب متأففة من الصوت الرذل .. ورفع السماعة وسأل فى ضجر لا يتلطف :

ــ نعم ؟

ــ بابا ..

عندما سمع صوت محمد ابنه هتف فى لهفة :

ــ محمد .. هل انت بخير ؟ من أين تتكلم يا حبيبى ؟

ــ من المستشفى طبعا يا بابا .. هل تستطيع أن تسرع بالحضور ؟

.. باهر عبد اللطيف لم يعش بعد اجراء العملية الا مسافة ما وصلت أنت الى البيت ودخلت سريرك !

وقلبه ينزاح عنه هم ثقيل ، وضع يده على بوق السماعة حتى لا يسمع ابنه زفرته المرتاحة :

ــ الحمد لله !

البوابــة

يضحكون كلما تكلمت ، ويصفنى بالجنون كل من رويت له هذا المنام ، ويستفزنى للكلام عنه ليسخر منى فى النهاية ويتهمنى بالغيبية البلهاء ، وفى ادارة الصحيفة التى أعمل بها صارت نكتة الموسم هى تلك البوابة العجيبة التى رأيتها فى المنام تتوسط سورا هائل الارتفاع ، مثلها ، لا ترى العين له نهاية من الشرق أو من الغرب ، مصـــــبوبا كالبوابة ذاتها من معدن غير معروف عجيب الرواء .

وما كنت وحدى فى ذلك الحلم الذى لا يريد أحد أن يصدق روايتى عنه ، بل فردا فى بعثة متكاملة من الصحفيين والمغامرين والاتباع تحركها روح الكشف عن المجهول ويتزعمها سيد من أصحاب الفراغ يتعاطى رواية الأشعار دواءا من السأم . وقد بدأ الحلم بطابع كابوسى عندما انقطع كل اتصال لنا بالعالم الذى جئنا منه ووجدنا أنفسنا تائهين فى الصحراء ، ولم يكن ما بنا العطش أو الجوع ، اذ كانت لدينا من الماء والزاد فضلة مطمئنة ، لكن أهوال الضياع الطويل فى لامتناهيات الرمال تكفلت بسحقنا ، فلم نكن بحاجة الى مهابة البوابة الهائلة التى ظهرت لنا فجأة لكى نشعر بضآلتنا أمام قمتها المتشامخة التى كانت بشكل مشط جبار أسنانه

المتساوية الطول متجهة الى أعلى . وعندها قال السيد الوقور لدليل الرحلة الذى قادنا الى الضياع :

ــ على السائقين والحمالين أن يجعلوا من رتل السيارات وقاءا لنا من لذعة الريح حتى نتبين حقيقة هذا السور العجيب .

وقالت بنت غريبة الملامح عربية اللســـــان فى يدها كاميرا لا تكف عن التقاط الصور :

ــ وراء السور بلا شك قوم هم بناته .

ومع أن من يسمعنى لا يصدق أن تسجل ذاكرة الحالم دقائق الحوار أو معظم تحولات الحلم العجيبة ، الا أننى كنت صاحب هذه الكلمة :

ــ يالها من خبطة صحفية ! ..

أصدر الدليل الأمر للأتباع المنهكين بتنفيذ أمر السيد ممول الرحلة ، ثم قال لسيده وفى صوته نبرة خوف :

ــ الا أن يكون بناة هذا الصرح من الجن ..

توضحت همهمة خوف فى الركن الذى تجمع فيه الأتباع ، لكن المصورة عادت تقول للسيد :

ــ أكاد أصدق الدليل .. لا يمكن أن يكون بناة هذا السور الهائل ببوابته الرهيبة من البشر ! ..

رد السيد وهو يعنى بأن لا تصـــل كلماته الى كتلة الأتباع المتكومة فى حمى السيارات الصحراوية الضخمة :

ــ تراثى لا ينفى ان لم يؤكد ان هذا الربع الخالى لم تطأه حتى الآن قدم بشرية لان سكانه من الجن يدافعون عن أسراره بشراسة عبقرية ..

قال واحد من زملائى الصحفيين :

ـ بل نحن بلا ريب أمام جماعة انسانية مجهولة وخائفة من العالم المحيط بها كل الخوف ، ومعنى هذا الكشف اذن هو أن اسم سيادتكم سيدخل التاريخ بوصفكم واحدا من كبار المستكشفين ..

فرد صحفى آخر :

ـ ومعناه ايضا لو كتبت لنا النجاة أن صحيفتنا ستغدو أوسع الصحف انتشارا فى الشرق الأوسط ..

سألت الممثلة السينمائية رفيقة السيد صاحب المال والكلمة :

ـ وكيف نجعلهم يعرفون اننا لن نؤذيهم ؟

فأجبتها انا فى نبرة متهكمة :

ـ قولى حضرتك كيف نجعلهم أولا يشعرون بوجودنا عند بوابتهم ؟

وارتفع صوت من كتلة الأتباع :

ـ ولعلهم ان توسلنا اليهم يرشدوننا الى طريق العودة الى عالم الناس المتحضرين .

قال دليل الرحلة بصوت يتلمس موافقة السيد :

ـ اقترح ياسيدى أن نطلق كلاكسات السيارات كلها فى وقت واحد وتظل هكذا حتى يفتحوا ، ونستعد طبعا بالسلاح !

وافق السيد بعد تردد فارتفع رعد طويل من عويل السيارات كان جزاؤه بعد دقائق ان انزلقت مساحة من المعدن البراق فى تجويف أحد مصراعى الباب الهائلين ، فانفتحت فى المصراع فتحة صغيرة تتسع لمرور شخص واحد ، وظهرت امرأة .

وكما لو كنا نرى فى فتحة الباب تمثالا حيا للصحة والسعادة والجمال ، لم نبرأ من جمودنا أمامها الا بعد أن خرجت لنا بشبابها البهى وثوبها البسيط وابتسم لنا وجهها الناطق بالعافية والثقة ، وبقوة جذب ساطعة :

ـ قبل أن أسألكم من تكونون أقدم لكم نفسى ، فأنا صفية ، مديرة ادارة جنس الجنين .

ـ عجبا ! .. انها تتكلم لغة فصحى !

ولم تضيع امرأة الوادى المجهول وقتا بل أشارت الى الممثلة الخائفة تدعوها الى الاقتراب منها :

ـ ماذا يخيفكِ منى ؟

سبقت الممثلة الى امرأة الوادى وانحنيت أمامها :

ـ سيدتى .. هذا شرف عظيم لنا ، ويوم تاريخى ..

ـ وسعادة كبيرة لى أن أتأمل هذه النسناسة الظريفة .. ضحكت الممثلة بحرية عندما التقط سمعها الهمسة :

ـ دمها خفيف والنبى !

فحصتها صفية بعين مدققة ذكية :

ـ ما اسمك ؟

ـ شمس .

ـ لكأن لضحكتك ذيولا واجنحة !

قالت الممثلة بميوعة وهى تقترب من ذلك البهاء الرزين :

ـ أعجبتك ؟

ـــ عندما علمت من مدير ادارة السور أن قوما من وراء الرمال ظهروا عند بوابتنا وفيهم عدد قليل من النساء ثار فضولى لرؤية نساء ما وراء السور . وطلبت أن أكون أول من يظهر لكم فأجابنى مدير ادارة السور الى طلبى متهكما على بقية من الفضول النسوى باقية فى نفسى .. أما عن طريقة ضحكك فهى تقول بأعلى صوت يا ناس أنا أنثى ومن لا يشترى يتفرج !

سألتها وأنا أخرج الورق والقلم بعد أن أشرت الى المصورة أن تلتقط لى معها بعض الصور :

ـــ مديرة ادارة جنس الجنين ؟ .. ما هذا ؟

ـــ اضاعة الوقت عندنا هنا احدى الخطايا .. ولعلى اضيع منه شيئا ولو قليلا اذا حاولت أن أحدد لك عمل هذه الادارة .. نحن باختصار نتحكم فى غذاء المرأة الحامل فتحصل على جنين أنثى أو ذكر حسب رغبة الأسرة ومصلحة الجماعة .

أصـــــلحت الممثلة من وضع الحزام الجلدى العريض على خصرها :

ـــ يا حلاوة يا ختى !

تأملتها صفية بسخرية :

ـــ اذا أردت أن تجربى بنفسك أعطيك الفرصة !

ـــ لا يا ختى .. بعد الشر .. الحمل بالنسبة لى غير مسموح به .. يفسد رأسمالى ..

ـــ رأسمالك ؟

ـــ قوامى !

وسألت أنا الحسناء الجليلة التى سحرتنى بهاؤها :

ـــ لكن .. هل أنتم ناجحون فى ذلك ؟

ــ نجاحنا كامل ..

ــ وكيف عرفتم الوصفة ؟

ــ بالتطبيق العلمى ، وعلى أســـاس أن الطعام الغنى بالبوتاسيوم يعطى ذكرا والطعام الغنى بالكالسيوم يعطى أنثى ، مع شيء طفيف من المساعدة المعملية .

والممثلة انسحبت من لسانها مرة أخرى :

ــ عندكم اذن مثلنا تســبوم وكبســيوم .. نحن نأخذه فى الحقن .. يوجع ، لكن نأخذه على كل لون ..

ضاقت نفسي بثرثرتها فتوجهت الى مديرة ادارة جنس الجنين برجاء :

ــ سيدتى .. هل يمكن أن نتعرف أيضا الى مدير ادارة السور ونجرى معه حديثا مع بعض الصور التذكارية ؟

أخرجت صـــفية وهى مبتسمة علبة معدنية دقيقة فى حجم علبة الكبريت الصغيرة وهمست فيها كلمات لم يسمعها أحد ، فيما لبث الباب الصغير فى مصراع البوابة العملاق أن أظهر رجلا كأنه الترجمة المذكرة لها .. وشهقت شمس لمرآه البهى شهقة أزعجت وقار رفيقها السيد الذى تقدم نحو رجل الوادى حتى حجبه عن بصرها وسأله بشيء من الحدة :

ــ من أنتم ؟

ــ نحن بناة حضارة أسنان المشط .

ــ نعم ؟!

ــ نحن سلالة رجل مات سنة ٣٢ من هجرة محمد بن عبد الله وأصحابه الى المدينة ، وكان في حياته تلميذا لمحمد وصديقا لأبى

بكر وعمر وقطبا فكرياً من أقطاب عهدهما الذى سادته العدالة والشورى والمساواة .

ـــ من هذا ؟

ـــ رجل رأت جماعتنا منذ قرون أن تتبع هداه فى تنظيم أمتنا بوصفه جدنا الأعلى وأمامنا الفكرى ، فوجدنا الهدى .

ـــ كيف ؟

ـــ سبقنا سائر سكان الأرض بما لا تستطيعون حصره ولا فهمه ..

قال السيد بصوت تمزقه الدهشة :

ـــ فى هذه المفازة المهلكة ؟

ـــ المفازة المهلكة تقع خارج السور ، أما داخل السور فهو البقعة المختارة وسط جبال المعادن وعباب الرمال التى أقمنا فيها حضارة أسنان المشط .

ـــ والنبى صوته ينفع فى السينما ..

أخرس السيد رفيقته بنظرة صاعقة ، واستأنف حواره العصبى :

ـــ اذا كنتم بهذا العلم وهذه القوة التى تدعيها فلماذا أقمتم حول حياتكم كل هذا التحصين المذهل ؟

ـــ بعد عهد عمر ضاق جدنا الأعلى بالتحول الخطير الذى انحرف اليه المجتمع الاسلامى ، فخرج الى الشام ليواجه هناك مجتمعا من الجياع والمترفين ، وهناك اعلن أنه ضد معاوية وفى صف المستضعفين ، وصرخ فى الأمة : « أيها الناس ! .. اجمعوا

مع صلاتكم وصومكم غضباً لله اذا عصى فى الأرض ، ولا ترضوا أئمتكم بسخط الله ! » .

وعند هذه الكلمات جاءت مدوية صرختى فى المنام :

ـ هذه كلمات أبى ذر ، فهل أنتم سلالته ؟

ـ نعم نحن الذين قهرنا العالم المادى وذللناه وسخرناه بالمعرفة المقترنة بحكمة الروح واشراق الباطن .

ـ ابو ذر .. ألم تطرده جماعة عثمان الى ربوع الصحراء الخاوية ؟

ـ نعم ، خافوه على دنياهم وخافهم على مبدئه الذى تلقى اسسه عن أستاذه العظيم ، كما قال له على بن أبى طالب وهو يودعه فى خروجه الى العراء بامرأته وابنه وغنيماته الهزيلة وتعاليمه العظيمة ..

قال احد زملائى وهو يأخذ صورة مع رجل الوادى العجيب :

ـ ألا تلخص لنا قوتكم الحقيقية فى كلمات ؟

تبادل الرجل الجميل و المرأة الجميلة ابتسامة قبل أن يتكلم :

ـ عكس الموجود عندكم تماما . نحن نملك نموا روحيا معادلا للنمو المادى ، وهذا سر حضارتنا .

ـ اضرب لنا مثالا نفهمه ونصدقه !

ـ الارادة العامة عندنا هى ارادة بشر يتدفق الاشراق الباطنى من أعماقهم الى عقولهم ، متساوين فى الحقوق والواجبات كأسنان المشط .. ولنفرض أن هذه الارادة العامة طالبت بمشروع حيوى كبير .. فى هذه الحالة يكفى أن تتحلق المجموعة المختارة من

علمائنا لأحداث الفعل المطلوب وتركز تفكيرها فيه ، مع شيء من المساعدة المعملية فيتولد سيال كونى منضبط فى اتجاه المزاد ، ويتم حدوثه ..

ــ كلام غير مفهوم !

ــ هذا هو ما تنبأنا لكم به منذ البداية .. لن تفهمونا ! ..

ــ فلماذا اذن السور وهو علامة خوف ؟

ــ خوف ؟ كيف يخاف من يملكون سر البداية والنهاية وتسبق معارفهم علوم سائر أهل الأرض بأزمان يصعب عليكم قياسها ؟ .. انما السور بالنسبة لنا ضرورة حيوية .

ــ دعنا اذن نرى بأنفسنا ما وراء السور .

ــ هذا هو المستحيل الآن ..

ــ لماذا ؟

ــ هذا السور ستهدمه ارادتنا العامة عندما تنضج جاهليتكم وتصير صالحة للتعامل معها والأخذ بيدها لاقامة جنة تشمل كل الأرض .

ــ جنـــــة ؟!

ــ جنة الانسان الكامل ..

ــ ولماذا لا تساعدون فى هذا الاتجاه ان كنتم صادقين ؟

ــ ستأتى الساعة .. أما الآن فلن تدخلوا ولو عدتم بكل جيوش العالم ..

ــ لمـــــاذا ؟

ـ أننا نخشى عليكم قومنا أن يضعوكم فى أقفاص فى حديقة عامة .

عندها بكت شمس وهى تتوسل :

ـ على الأقل دلونا على طريق العودة .. أنا عندى تصوير فى فيلم مشترك ..

ويرموننى بالجنون ويضحكون كلما قلت لهم ان منامى لم ينته قبل أن يخرج مدير ادارة السور علبة مثل علبة زميلته ويتكلم فيها فتظهر فى السماء سفينة هوائية ضخمة تتسع لبعثتنا بكل مهماتها بما فى ذلك السيارات ، ثم يقول لنا فى لحظة الوداع :

ـ سيكذبكم قومكم متى حدثتموهم عنا ، وقد يرمونكم بالجنون ، لكن هذا الطبق الطائر سينزلكم على مشارف دنياهم ، وقد يلمحه منهم من ينسبه الى تهاويل الجن ، والشىء الوحيد المؤكد هو أن الحقيقة ستظل تائهة عندكم بين المكذبين والمصدقين الى أن يحسمها المستقبل ..

أوهــام المــلاح العجــوز

بحار العزلة الباردة عبرها بزورقه المستوحد خلال أكثر من خمسين سنة ، ومن طول ما عاش مع الأوهام الخائبة لم يعد يصدق أن شيئا منها يمكن أن يتحقق ، حتى ان الفهم الكامل لمشـــاعره الذى وافقت به صديقته على اقتراحه كان رد فعله عنده أن احتوته حالة من الدهشة المضطربة ، وكأن لسان حاله الذى لم يألف نعمة الانعطاف الصادق يقول فى فرحة متوجسة : اللهم اجعله خيرا !

— تأتين معى حقا ؟ ويتاح لى ولو مرة فى العمر أن أنهل عطرك على مهل ؟

— نعم ، وأستطيع أن أرتب هذا بالنسبة لأسرتى وعملى ..

— حلم هذا أم علم ؟

قالت برقة ناضجة :

— من يرعى سرورك لابد أن يرى كل شىء ممكنا ..

تأمل فى نشوة هذه الشخصية المتكونة ، تامة الصقل كأنها الماسة النادرة بعد آخر لمسة من يد الفن .

لها من دون جميع النساء عبيرها المتميز بالأنوثة الحرة الذكية، ونضجها المتكامل بالجسد والنفس والمعرفة .. حتى ابتســامتها

مثقفة .. ابتسامة من تستوعب كل المعنى فى كل كلمة تقال لها وتزنها بتعقل هادىء ، ثم تصوغ فهمها لها ورأيها فيها فى أدق وألطف ود ممكن .. كل ما فيها مصقول غاية الصقل ، وجميع ما فيها حسن .

ـ تسافرين معى يوما أو يومين الى ركن بعيد هادىء ؟ وأشرب وجودك عسى أن يرتوى عطشى ؟ .. لا أكاد أصدق نفسى .. لقد خفت أن تغضبى وتعودى الى التنائى فأفقدك مرة أخرى .. وربما فى هذه المرة الى آخر عمرى وما هو بالموعد البعيد !

ـ أعرف أن خلفية أفكارك لا تتضمن أى فخ رخيص ، لأنى أعرف قدرى عندك واحترامك منذ صغرى لارادتى الحرة .

ارادتها الحرة .. رنت الكلمة رنينها ..

كان بيت أسرته القديم ملاصـــقا لبيت جدتها فى حلوان ، يفصلهما سور معمر من الحجر الأبيض يرسم حدا متهرئا بين شبه حديقتين مهملتين لا ترتفع فى أرضهما غير شجيرات عليلة عجفاء مجهولة الأصل ، ونخلات متناثرة حول ذكرى فســـقيتين عتيقتين تحولتا بالاهمال الى ركام مؤسف من الحجارة المتفتتة والاعشاب الطفيلية والطين المتشقق .. والصداقة بين أمه وجدتها هى التى جعلت نموها من الطفولة الى الشباب مشهدا مكشوفا مع السنين أمام جارها المهندس البحرى الذى كانت أسفاره المتعاقبة تبدو لها رحلات سحرية فى عوالم المجهول ، تنتظر أوبته فى كل رحلة منها لكى يحكى لها أخبار مغامراته العجيبة فى البلاد البعيدة والموانى النائية .. وحتى من قبل أن تنأى عنه فجأة لتفرد شراعها هى الأخرى فى بحار الحياة ، كان عشقه لها محســوسا عند أنوثتها النامية الى التفتح والنضج .. ورغم ما بينهما من فارق السن ، فهو عند منحدر الكهولة وهى فى قمة الشباب ، كم تبسمت راضية

وهو يتغزل بعينيها وجمال ساقيها ، ولكن اللمسة الوحيدة التى كان ينالها منها فى ذلك الزمان الخالى كانت المصـــــافحة الحارة والجلسات اللطيفة ولقاء العيون والأحاديث الشهية ..

كان قانونه الذى وضعه لنفسه هو آلا يأخذ منها الا عطاءا بملء الارادة ، فترك مجاديفه مدلاة فى المياه الباردة ..

ويلك لماذا عشت دائما عبد قانونك ، ومتى تطوى مجاديفك لتنشر شراعك ؟

وضعت يدها فى يده بحركة لطيفة ودودة وهى تسأله :

ـــ ما تريده من قضاء وقت طويل معى هو اذن أقرب الى انتشاء الصوفى منه الى استمتاع الأبيقورى ..

ـــ مع هذه الموجة الدافئة أريد أن أعيش .. ولو مرة فى العمر .. نتكلم بحرية .. ونأكل معا .. ونستريح معا .. ونتمشى وأيدينا مشتبكة .. ونرجع وكل منا الصديق الكامل لبقية العمر .. وأرجع أنا انسانا حيا ..

تفكرت لحظة قبل أن تتكلم :

ـــ لكن هناك مشكلة واحدة .. مادمنا سنذهب بعيدا فلا مفر من الفندق ..

ـــ فى حالة انسانين ناضجين مثلنا ، وفى حالتنا نحن بالذات ، لا توجد مشكلة .. أكاد أتصور ما سنفعله لو بتنا فى حجرة واحدة أو حتى فى فراش واحد .. سيظل يفهم أحدنا الآخر حتى تأخذى سر نفسى كله وتعطيننى سر نفسك كله .. وستكونين أرق من نفثة العطر ، وسأكون روح العشق لا لحمه ودمه .. لكن ليس معنى هذا أنى لم أكنز لك فى سنوات هجرك القاسية ألف قبلة وألف موضع قبلة ..

قالت دون أن تغيب الابتسامة من عينيها :

ـــ اذا أوغلت فى هذا الاتجاه فقد تجد نفسك فجأة مخالفا للقانون الخاص بنا ..

قبل قلب يدها كأنه يودعه كلمة مهموسة :

ـــ حدودى معك هى حدود رضاك .. ما عندك من عطاء فهاتيه .. وهو عندى فوق الكفاية .

لمست يده لمسة لطيفة ، وتبسمت العيون الذكية فنورت الدنيا فى قلب الملاح العجوز ، ورفع المجاديف فطواها فى بطن زورقه .

كان لقاؤهما بعد فراق طويل لم يكن هو فيه المتنائى الناسى ، سنوات من زهرة عمرها لا يعرف عنها أكثر من الاستنتاج والتخمين .. كانت جدتها قد ماتت وبيع البيت القديم لأسرة تاجر جلود جاء معه بقبيلة من الأولاد والخدم وبأفكار غريبة عن ترميم البيت وجعله أكثر ملاءمة للوجاهة العصرية .. وانتقلت هى الى الاقامة مع أقارب لها فى الزمالك بعد أن تخـــرجت فى كلية التجارة وظفـــرت بعمل موفق فى احدى المؤسسات .. ثم دخل ذات صباح مكانا لم يدخله منذ سنين ، وكانت المصادفة هى التى شاءت أن يلتقيا هناك بعد ذلك الهجر الطويل ، وفى مكان ليس فيه ســـــواهما .. وفجأة وجدت نفسها فى حضنه وتلقت بشفتيها أول قبلة منه فى هذا العمر الطويل ، نابضة بكل العشق المكبوت ، بليغة فى تعبيرها القصير النهم عن النشوة المسكرة التى سكبها ظهورها بعد اختفاء فى روح ملاحها القديم الذى رآها أمامه فتدفقت من عمق وجده المعتق موجة من فرح صاف وهو يهتف باسمها فى همسة عميقة ..

ولا عتاب ولا ملام ، بل الانفجار الذى لا يلقى بالا الى ارادة صـــــاحبه !

عتابه كان أن تناول يدها الدقيقة ولثمها المرة بعد المرة .. وملامه انه قبل شفتيها بشفاه جمعت عذابات حرمان طويل وضنى عشق قديم لم يجد فى الماضى كل الفهم ولا بعض الرحمة .. وفاض بالملاح العجوز الوجد فتناول بين يديه وجهها اللطيف ، وومضت عيناها عن قرب قبل أن يقبلها .. وبرفق احتضنها فدخلت فى حضنه .. ولعل كل هذا كان فى دقيقة واحدة .

واخذها الى كنبة فى ركن المكان ، واستطلع كل منهما رءوس العناوين فى حياة الآخر أثناء غيبتها .. وجاءت لحظة ركزت فيها عينيها فى عينيه بكل عمقهما الفريد وهى تسائله :

ــ أنت رأيت العالم ، ورأيت أنا بعضه ، فقل لى ما الذى يعطيه لنا عصرنا بكل ضجيجه السمج ، فى عمرنا المحدود الذى لا يتكرر ، فى مقابل مصادرته لحقنا فى مواقعة الحياة وتذوق شىء من هناءتها ، فى مقابل حريتنا فى الاختيار ؟ .. العرف المتهرىء والقيود التى لم تعد تصلح لغير المتاحف ، أم القلق والتعاسة والتغرب ، وبشائر التناقض والفوضى ؟

تأملها وهو يستشرف منها عمقا لم يكن يعرفه ، وأجابها :

ــ فى مقابل حريتنا فى الاختيار لا يكاد عصرنا يعطينا شيئا له قيمة حقيقية .

ــ لقد نجحت حتى الآن فى مقاومة الضغوط ، لكنى داخل نفسى دفعت ثمن نجاحى فى هذا الصراع .

أمامها تزيد شفافيته .. يخترق حجبها وكاد يراها وهى ترفض بعناد كل مشروعات الزواج التقليدية التى يعرضها الرجال عليها مباشرة أو على أسرتها التى زوجت كل بناتها بذكاء اجتماعى .

ومن كلامها القليل المدروس عن سنوات التنائى وجد نفسه يحتويها بفهم وحنان .. لقد مرت بشراعها عاصفة ..

هى فى تأزم نفسى كبير .. فى نهايات تجربة .. ولعلها بغير وعى منها أرادت أن تؤكد لنفسها حريتها فاختارت تجربة صعبة ..

فى تلك اللحظة ود لو كانا فى خلوة حقيقية ليحتويها فى حضنه فى صمت طويل حتى تلين نفسها وتسترخى .. وبحث لها عن كلمة من كلمات الزمان الخالى التى يعرف أنها تضىء بابتسامة حلوة عيونها المتوقدة :

ــ وساقاك الجميلتان ، كيف حالهما ؟

أضاءت الابتسامة وهى تنظر نحوهما :

ــ ها هما .. هما اللتان جاءتا بى اليك اليوم .

انحنى فقبل ابداع التكوين فى ركبتيها ، ثم قال لها وهو ينظر فى عينيها :

ــ وهذا شكرى لهما !

فوضعت طرف أصبعها الدقيق على شفتيه :

ــ امسح الأحمر .. قد يدخل أحد غيراه فى شفتيك .

كل هذا العمر لم يشغل غير برهة هى بعض ساعة ، لكن كم فى العمر كله من مثل هذه الدقائق المترعة بلطائف الشعور واشراقات الوجدان ، وكم فى عمرك أنت ياملاح المياه الباردة !

كان أسعد السعداء وهىتنصرف عنه الى عملها بعد هذا الوعد الجميل ، لكنه فى عزلة بيته طالت سهرته مع اجترار دقائق اللقاء ولطائفه ، فلم يصدق ما حدث بل كاد يراه حلم يقظة لا يليق بشيئين كبيرين فيه ، سنه وعقله ..

لا .. لا يمكن لكل هذا الهناء أن يتحقق ، ولابد أنهـــا فى الصباح ستكلمه من مكتبها لتقول له : « آسفة فالشغل عندنا كثير فى هذه الأيام ، وعلينا أن نؤجل كل كلامنا ! » .

وســتقولها باللهجة التى يعرفها ، تلك التى تريد أن تقول له بأكبر قدر من الرقة الحريصة على شعوره : « تفهم من بين الكلمات أنها كانت غلطة منى أنى قبلت .. وتنساها .. وتعقل يا عم !! » ..

ويطوى الملاح العجوز مجاديفه فى بطن زورق الأوهام ، ويأخذ القرص المنوم المعتاد وهو يصغى الى ذلك الصوت الداخلى الذى يقول له فى همسات مطمئنة ان ما رآه من اقبالها ليس وهما آخر من أوهام حياته ينتظره الكفن .. ثم ينام ليحلم بشراع يسرى سعيدا على زبد الموج .

المصحـــــة

لم تكن أول مرة أصعد فيها الادوار التسعة على قدمى .

فى كل ثلاثة أدوار أجلس على حـــافة نافذة المنـــور والتقط أنفاسى قبل أن أستأنف الجهاد ، وعندما أدير المفتاح فى بابى بعد ذلك العناء المنهك يتراءى لى فى كل مرة الكرسى المريح الكبير الذى ينتظرنى فى المدخل وأكاد أرى مديحة واقفة أمامى بضحكاتها المرفهة وهى تداعبنى بقولها ان تلك هى ضريبة طلب المعالى .

فى الدور الثالث جلست على حافة النافذة الضيقة بانقباض مبهم ..

شريط تسجيل ؟

لمديحة ؟

ما هذه الحكاية الجديدة ؟

عند عودتى من الجريدة كان عبد الصبور بواب العمارة قد استقبلنى أمام المصعد المعطل باعتذار آسف :

ـــ شركة بايظة !

وأضاف وهو يتقبل سيجارة :

ــ منذ ساعة جاءت سيدة بنظارة ســوداء كبيرة وبنطلون مســخرة واعطتنى علبة من علب اشرطة التسجيل وطلبت منى أن اسلمها للمدام يدا بيد ، وقد فعلت .

ــ سيدة تعرفها ؟

ــ لم أرها قبل اليوم .

ــ لم تذكر لك اسمها ؟

ــ لم تعطنى فرصة .. ركبت سيارتها الفولكس وطارت .

ولم يكن قد مر زمن طويل على ذلك اليوم الكئيب من أيام الخريف الذى دخلت فيه مصحة الامراض العصبية دخولا غير هين، فلقد كنت أصحب أغلى الناس وهى تولول وتعض وتهذى ، زوجتى مديحة ..

وأنا التقط أنفاسى تراءى لى مكتب الاستقبال فى المصحة حيث تقدم الينا طبيب شاب ما لبثت اشارته الرزينة الى بعض الممرضات أن فصلت بينى وبين مديحتى ، ثم قادنى وحدى بكلمات مطمئنة الى حجرة المكتب الواسعة فى صدر الطابق الاول واشار الى كرسى قريب من المكتب وقال لى بصوت تترك نبرته الهادئة فى النفس اثرا مريحا :

ــ الدكتور اسماعيل يحضر فى الحال .

وكنت أعرف أن الدكتور اســـماعيل عبد الغنى هو المدير الجديد للمصحة ، وقد تسلم مهام كبير أطبائها منذ عهد قريب بعد موت مديرها السابق الدكتور عبد الله الذى كان شيخا قليل الكلام تعرفت اليه بحكم اقامة الاستاذ توفيق والد زوجتى فى المصحة منذ اكثر من سنة ..

عشت مرة أخرى مرارة تلك الدقائق القليلة التى قضيتها مع نفسى الرازحة تحت ثقل المصيبة قبل أن يدفعنى القلق الى النهوض والوقوف بباب حجرة المكتب فى انتظار من أسأله عن سبب تأخر كبير الاطباء ، وبعد قليل ظهر فى أقصى الطرقة موكب من المعاطف البيضاء مقبل فى اتجاهى ، واقتربت مجموعة الاطباء المساعدين والمرضات محيطة بكهل ظاهر المهابة يتضاءل كل من حوله وهم يجيبون على ملاحظاته .. وعندما لحنى بباب مكتبه اختصر جولته وأشار اشارة صغيرة فضت ذلك الجمع فانتشر فى عدة اتجاهات وفى طاعة صامتة ..

ودخلت وراءه الى المكتب فطالعنى بعينين يومض فيهما الذكاء والاعتداد بالنفس ..

لكنه بكلمات منتقاة وصادقة الرنين استطاع أن يعيد الى نفسى بعض التوازن الذى فقدته فى ساعتين ما بين انهيار أعصاب زوجتى فى البيت ووصـــول موكبنا المحزن الى المصـــحة .. وفى دقائق اســـــتهوانى خلالها حديثه عن العقل والجنون زرع فى قلبى بذرة الايمان بأن حبيبتى ستخرج من هذا المكان بعد أسابيع ســـــليمة كعهدى بها وصـــــافية العقل .. لن تعمر مديحة هنا كما عمر أبوها ..

ــ كلمنى الآن عن الحكاية من أولها بصراحة كاملة .

ــ الحكاية بدأت صباح اليوم بحوار عصبى حول الطريقة التى أقضى بها أوقاتى خارج البيت ، ثم عند عودتى بعد الظهر الى بيتنا المكون من حجرتين لا تزيد مساحتهما عن حجرة مكتبك تطلان من الدور التاسع على البانوراما القاهرية ، وجدتها ترقص بخلاعة شـــاذة وهى تترنم بكلمات أغنية مبتذلة .. وجاء بعد ذلك دور العويل والصراخ والرغبة فى ضربى .

وكشفت له عن صدرى :

ــ هذه آثار أظافرها فى لحمى !

ــ لا لا .. هذه هى النهاية يا أستاذ ابراهيم لا البداية .. لكنك مضطرب ولا أتوقع منك كل التركيز اللازم .. فهل تمانع فى أن يكون كلامنا بطريقة السؤال والرد ؟

ــ تفضــــــل ..

ــ من أنت ؟

وابتداء من هذا السؤال أخذ الكلام شكل حوار سريع مركز ظللت بعد ذلك اليوم القاسى أجتره حتى كدت أحفظه ..

ــ صحفى ؟ وتسهر الليل فى الجريدة ؟

ــ وأقضى بعض الأيام فى الأسفار ..

ــ وزوجتك ، هل لها عمل ؟

ــ لا ..

ــ لمــــاذا ؟

ــ لأن أعصابها بحكم ظروف نشأتها لا تتحمل مسئولية .

ــ نشأتها كانت صعبة ؟

ــ فى صباها تهدم على رأسها بيت الأسرة عندما وقع على والدها ظلم كبير . كان موظفا شريفا وسط عصابة من زملاء لا ضمير لهم ، دبروا له ما لوث سمعته عندما رفض أن يسهم معهم فى حصيلة سرقاتهم ، وخرجوا من التحقيق يطالبون برد شرف وخرج هو مطعونا وعاجزا عن الدفاع عن شرفه .. وبلغ من عظم وقع

الظلم فى نفسه انه صار منذ السنة الماضية نزيل الحجرة رقم ٧ فى هذه المصحة .

ـ الحجرة رقم ٧ ؟ هل تعنى الأستاذ توفيق ؟ .. آه .. لا أذيع سرا اذا قلت انه بحالة صعبة فعلا .. وما عمر زواجكما انت وهذه الشابة الرقيقة الهشة ؟

ـ أربع سنوات ..

ـ بينكما حب وعمار ؟

ـ تحبنى .. وهى عندى كل حلاوة الدنيا ومعناها .

ـ والأطفال ؟

ـ حتى الآن ليس عندنا أطفال .. وليست هى السبب .. ولا أنا .. الله لم يأذن بعد ..

ـ هل ينغص هذا الحرمان صفوها ؟

ـ ليس الى الحد الذى يشقيها أو يسكن التعاسة تحت سقفنا ..

ـ متاعب مالية ؟

ـ نفلس أحيانا لكننا نضحك بفلسين أكثر مما نضحك فى الرخاء ..

ـ أهلها وأهلك ؟

ـ لا دخل لهم فى حياتنا ..

ـ هل أساء اليها أحد غيرك ؟

ـ احدى زميلاتى فى الجريدة .

ـــ لعبت معها بذيلك ؟

ـــ بل هى التى كانت تتعمد اطالة محادثاتها التليفونية معى الى حد مثير لضجرى .. ولريبة مديحة .. وقيل لى فى وقت من الاوقات انها تسجل كل هذه المحادثات مع خلوها فى الواقع من كل ما يستحق التسجيل .. وفى الوقت نفسه ظلت تلاحق مديحة بمكالمات مدروســـــة وخبيثة تدخل فى روعها أنى سأتزوج تلك المستهلكة على مكاتب انهار وموائد الليل ، آسف للكلمات ، لكنها حقيقية .. وان كنت لم أعرف كل هذا الا فى وقت متأخر .

تفكر الدكتور اسماعيل لحظة فى لعبة الشر التى أوجزتها له قبل أن يضع يده على كتفى :

ـــ على أية حال ليطمئن قلبك فان حالة زوجتك ســــــهلة وبسيطة ، رغم أننا نذعر عندما نشهد فاجعة انهيار العقل .

ونهضت من جلســـتى المتوترة على حافة نافذة منور الدور الثالث وبدأت أصعد بنفسى المنقبضة الى الادوار العليا .. ان زميلتى عندها سيارة نصر (١١٠٠) حصلت عليها بطريقة فاحت لها رائحة .. لعلها اســـتعارت السيارة الاخرى من أحد أفراد قبيلة أصحابها لهذا المشوار وحده امعانا فى اخفاء شخصيتها .. لكن ماذا تراها أرادت بشريط التسجيل الذى تركته لمديحة ؟

بين الدورين السابع والثامن خايلتنى صورة الاهتزاز الفنى لردفى زميلتى فى طرقات الجريدة مقترنة بحركات مماثلة شهدتها من احدى المرضات فى المصحة ، ثم صورة وجه الدكتور اسماعيل الضاحك وهو يسمع منى حكاية ردفى المرضة عنايات .. ففى احدى زياراتى اليومية للمصـــحة عبرت ممر الطابق الثانى نحو حجرة مديحة فوجدت نفسى فجأة وبغير قصد فى قلب حالة غزل

جنسى بين عنايات والدكتور رأفت صاحب سلسلة المفاتيح الذهبية والمرسيدس .. وبنوع من الارغام أدخلانى الحجرة وأجلسانى ثم اختفت هى لتجيئنى بشراب ، بينما تلطف هو وأشعل لى سيجارة طويلة من علبته الذهبية بولاعة بوتاجاز فريدة الطراز :

ــ أحب أن تعرف أننى وعنايات سنتزوج بعد أن تتنازل ماما عن عنادها .

ــ مبروك مقدما ..

ــ اذن اعتمد عليك فى أن يكون ما رأيت سرا بيننا الى أن تتلقى فى أول الشتاء دعوتنا لحفل الزفاف ؟

والدكتور اسماعيل يضحك من قلبه عندما وصفت له عودة الردفين والشراب المثلج وقول عنايات لى :

ــ لو عرف الدكتور اسماعيل حكايتنا لعكر دم رأفت وربما طردنى ..

وفجأة عاد الجد الى وجهه وسألنى :

ــ كيف حال زميلتك حاملة جهاز التسجيل ؟

ــ ما زالت تحمله بجدارة !

ــ أين تحمله ؟!

ــ لا أدرى !

ــ هل كان هدفها حقا أن تأخذك من زوجتك ؟

ــ ربما كان هدفها ــ ان كان الهدف شخصيا ــ أن تحطم حبا جميلا تشعر أمامه بعجزها عن مثله ، أو أن تحطمنى أنا ..

تنبهت من هذا الاجترار الاليم على حركتى المتباطئة وأنا أجر ساقى الى بابى وفى نفسى نبوءة متوجسة أساسها زيارة الشكر التى قمت بها للدكتور اســـماعيل بعد فترة من خروج مديحة من المصحة ، يوم أردت أن أدعوه الى العشاء احتفالا بسعادتنا بعد أن أكد لنا طبيب النساء أن مديحة حامل ، فما أن دخلت مكتبه حتى وجدت صهرى توفيق جالسا وحده .. نظر الى بعين غائمة ولم يبد عليه أنه يعرفنى .. وفى السكون القلق الذى وقع فيه هذا اللقاء المحزن تبينت صوتا غريبا صادرا من ناحيته كأنه ايقاع ساعة كبيرة قوية الصوت ..

ــ ما هذا الصوت يا أستاذ توفيق ؟

ــ اى صوت ؟

ــ لكأنى أسمع دقات ساعة كبيرة ؟

ومضة غير مريحة فى العينين الزائغتين :

ــ هذه دقات قلبى أنا ..

ــ لكن الصوت آلى .. معدنى ..

تلفت حوله وثبت نظرته لحظة على ظلال معطفين أبيضين ظهرا من خلال زجاج الباب ، ثم أشار الى أن أدنو منه اشارة من يريد أن يقول ان العالم كله يتجسس عليه :

ــ انه سر رهيب !

فى ذهول وشىء من الحـــذر اقتربت منه وانحنيت قليـــلا فى اتجاهه حتى التقطت همسته :

ــ أنا ميت حى ..

صـــار الموقف اكبر من أن احتمله .. نظراته المخبولة ..

والدقات المعدنية الصادرة من صدره .. والرقابة على الباب .. ثم يده المحمومة التى قبضت فجأة على يدى :

ــ كان المفروض أن أموت ، لكنى لم أمت ..

ــ لا أفهم ..

ــ ولا أحد يريد أن يفهم أن عندى الآن فى مكان القلب مكنة من اختراعى هى التى تحفظ الحياة على .. !

ــ مكنة ؟!

أعظم اختراع فى تاريخ العلم كله .. ضد الموت وضــــد اللصوص .. لكننى ذات يوم سأضيق بكل هذه الآذان التى تتسمع دقات قلبى فأمد يدى .. هكذا ..

وادخل يده من فتحة قميصه وأخذ يدلك صدره بقسوة :

ــ هكذا .. وأنزع المكنة من صدرى .. فيتوقف كل شىء .. وأستريح !

لم أعد أحتمل ..

اندفعت نحو الباب ، وفى نفس اللحظة فتح الباب واندفع الى داخل الحجرة مساعدان قال لى احدهما فى ايجاز باتر :

ــ تفضل بمغادرة الحجرة بسرعة ..

وكان آخر ما لمحت فى الحجرة ابرة حقنة تقترب من ذراع والد زوجتى الذى كان قد جمد فى جلسته وهو يحدق فى الفراغ .. وفسر لى الدكتور اسماعيل فيما بعد أن الصوت الذى سمعته ليس أكثر من صـــــوت ساعة جيب قديمة من نوع بدائى ربطها فوق جلده مقتنعا بأنها هى التى تجعـــــل قلبه يدق وبأنها عندما تتوقف يتوقف قلبه وينتهى عمره المسكين ..

وأنا أدير المفتاح فى بابى كنت واثقا أنى سأجد الكرسى الكبير فى انتظارى أشد لهفة الى رؤية وجه حبيبتى ..

والذى استقبلنى هذه المرة كان شيئا غير الملاطفة والراحة ، فأنا أعرف من تجربة قديمة موجعة ومضـــة الجنون فى عينى مديحتى .

وأخافنى الجمود العنيد الذى احتفظت به المســكينة وأنا أسائلها ، فركعت أمامها وحاولت أن ألمسها فانكمشت كما لو كانت يدى ثعبانا .. واتجهت عيناها المتضرمتان نحو جهاز التســجيل الصــغير الذى قدمته لها هدية فى عيد ميلادها ، فتبينت فى تلك اللحظة قربه منها .. وكان على أن أسمع الشريط الجاهز عليه أكثر من مرة وأنا بين الذهول والاشــمئزاز قبل أن أتبين الدناءة الحقيرة التى حطمت مرة أخرى أعصابها ..

هذا صوتى حقا ، أنا معترف ..

ولعلها عبارات من جلسات ومحادثات متفرقة هنا وهناك لا أدرى متى وأين قلتها ، لكن صوت المرأة المتهتك الذى يدير الحوار معى فى الشريط غير معروف لى ..

هناك عملية « مونتاج » بارعة .. توليف شيطانى استطاع أن يجعل من الشريط كله دليل اثبات ناطق بانحلالى وخيانتى يمكن أن يأخذ به أى محقق مدقق ، فضلا عن زوجة لم تكد تتماثل للشفاء مرهقة بحملها .. دهشة العصب .. مسكينة وابنة مسكين ..

هذا صوتى وهذه مديحتى جامدة ، رافضــة ومضروبة فى صميمها ، وصوت المغنية فى تليفزيون الجيران يردد أن الطشت قال لها .. ومن خــلال نافذتنا المفتوحة تومض وتتهامس أنوار المدينة ..

التيار هادىء دائما أمام نادى اليخت

صباح ذلك الأحد كان أول من وصـــل الى نادى اليخت بالمعادى مراهق غزير السوالف والشعر وبنت متوثبة الشـباب تصغره قليلا ، فلما وجدا الارض المعشبة مبتلة تحت أقدامهما اتجها الى الركن الأيسر وأختارا مائدة على النيل وجلسا متواجهين وأشعلا السـجائر ..

ومر نصــف ســاعة قبل أن تظهر امرأتان احداهما فى حدود الخامسة والخمسين وأناقتها واشية بشىء من التصابى ، من حبكة البنطلون الى تصفيفة الشعر ، والاخرى تصـــغرها بنحو عشر سنين ، هزيلة دميمة وبسيطة الملبس وأقل ثرثرة من صاحبتها .

تأملهما المراهق وهما تتخيران مائدة لا يفصلها عن مكانه غير مائدة واحدة ، وسأل صاحبته :

ــ هل تعرفينها ؟

ــ لا .. من تكون ؟

ــ من مهبولات المعادى .. عندها المراهقة الثانية ياعزيزتى .. والتى معها قريبة لها تعيش معها بعد موت زوجها .

ــ ومن أين لك معرفتها ؟

ـ بيتها قريب من بيت صديقى صاحب الشقة التى أكلمك عنها .. ولها أبنة تجاوزت الثلاثين ولم تتزوج ومعروفة فى النادى بأنها صاحبة أجمل هانش فى المعادى ..

ـ تعرفها ؟

ـ هى من اللامعـــات فى الســـــهرات ، كما كانت أمها فى الماضى ..

ـ عيب فى سنها وعلى الصبح أن تخرج بكل هذا المكياج والاكسسوار ..

ـ عندها شقة فاخرة وتليفون أحمر ومعارف كثيرون لا يزال بعضهم يدفع لها اشتراك التليفون أو ايجار الشقة المتأخر تفاديا لالحاحها الرذل طبعا .. نصابة كبيرة ..

ـ مالناش دعوة بالناس ..

مال برأسه نحوها وداعب بطرف سبابته قصتها :

ـ فعلا .. الأحسن أن نتكلم عن شقة صاحبى ..

اضطربت نظرتها وحولتها الى الزوارق الراسية بطول حديقة النادى وهى لا تكف عن حركتها الراقصة البطيئة مع حركة الامواج التى يحدثها عبور سفن الشحن والمراكب الشراعية المتهادية فى اتجاه التيار وضد اتجاهه ، على حين كانت المرأة البسيطة المظهر تقول لصاحبتها على المائدة غير البعيدة :

ـ هذا الولد كل يوم مع بنت شكل .

ـ مالناش دعوة بالناس .

ـ وأنا واثقة أنه يكلمها عنك !

ـ وماذا يقول عنى ولست أقل من أمه !

ــ جيل طويل اللسان ..

قالت العجفاء ذلك وهى تنظر فى ساعة يدها :

ــ صاحبنا تأخر !

ــ بعد قليل يصل وننهى الموضوع على خير .

ــ كل ما أرجوه هو أن لا يفسر كلامك معه على أننا نرمى بنتنا ..

ــ لا تتكلمى على عادتك لمجرد المعارضة !

ــ لعله كان من الواجب أن يكون عندها هى فكرة قبل أن تكلميه فى زواجه منها وتتفقى معه ..

ــ قلت لك طريقتى أفضل .

ــ على كيفك ..

ــ أمحصه وأعصره وأعرف قراره قبل أن أقدمه لابنتى جاهزا على طبق ومقشرا ..

ــ البنت ليست صغيرة .. قاربت الثلاثين وتعمل مع الرجال فى المؤسسة ومفتحة .. قد لا تقر هذه الطريقة فى الزواج .

ــ عندما تعرف غناه ستقتنع وتفرح .

ــ وقد يكون قلبها مشغولا !

ــ أنا أدرى ببنتى منك .. وكفى مكايدة لى فى كل كلمة .. .. ألم ترى سيارته .. وطريقة انفاقه .. وأسـفاره ؟ .. ان وجاهته ظاهرة للأعمى لكنك تحبين تنغيصى والسلام ..

ــ كيف أنغص من تأوينى وتطعمنى وتذلنى صباح مساء !

ـ أنا ؟ أنا اذلك ؟ أم أنك أنت المولعة بتعذيبى ؟

عادت الأخرى تتشاغل بالنظر الى الساعة :

ـ أكثر من ساعة تأخير .. اسمحى لى .. هذه قلة ذوق .

ـ أشغاله كثيرة .. الساعة من وقته بالشىء الفلانى ..

ـ أعتقد أنه لن يأتى !

ـ دائما تنعقين كالبومة !

ـ ربما استعلم عن أسرة العروس فعلم شيئا .. عن ماضيك ..

ـ فال الله ولا فالك ياشيخة !

لمعت بارقة شر فى عينى العجفاء المناوئة :

ـ أو .. عن « حاضر » اسم الله عليها !

كان سمع المراهق قد التقط بعض الكلمات الاخيرة من حوار المرأتين ، فقال لصاحبته :

ـ يبدو من ظاهر كلامهما أن عندهما اليوم فريسة .. ما علينا .. قولى لى أنت .. ماذا يخيف فى مصاحبتى الى شقة أصحابى ؟

ـ أنا لا أريد هذا ..

ـ لا تكونى مضحكة .. ان عاجلا أو آجلا لابد لك أن تعيشى وتعرفى الحياة ، فلماذا لا يكون ذلك الآن ؟

ـ أنا لا أفعل الا ما أقتنع به وأريده .

ـ لا أفهم لماذا تخسرين فى التردد سنة أو سنتين من شبابك ؟

ـ فى الحقيقة أنا لا أعرف حدودك .. ولا حدود ثقتى بك .. لماذا لا نعطى بعضنا فرصة لكي نفهم بعض أكثر ؟

ـ ما أقترحه عليك هو جزء من ثقافة الفهم التى حصلتها كل بنات العالم .. السكس لم يعد مشكلة الا فى العقول المتخلفة !

ـ طيب فيما بعد ، عندما أريد أنا ..

ـ بل الآن لو أن لك عقلا متفتحا وارادة حقيقية .

ـ أعطنى فرصة للتفكير .. هات سيجارة .

وتشاغلت بالنظر الى صبية لم تتجاوز عامها الرابع عشر دخلت مع امرأة فى حدود الأربعين دقيقة الجسم حازمة اللفتة والاشارة ، رأت أنهم كالعادة فى كل صباح يرشون العشب بالخرطوم ويتركون الارض مبتلة فأهابت بالصبية :

ـ تعالى فى هذا الركن الجاف حتى لا يفسد الطين حذاءك الجديد ..

الآن صارت الموائد الثلاث المشغولة فى النادى متقاربة لا يفصل الواحدة عن الاخرى أكثر من مائدة خالية ، ومالت العجفاء قليلا الى الامام لتصل بهمستها الى رفيقتها المتعاظمة :

ـ بنت سناء الممثلة .. تلميذة فى اعدادية كلية النصر مع ابن جارنا المهندس .. هل لاحظت القلق فى وجهها الوسيم ؟

ـ والتى معها ؟

ـ خالتها العانس ..

ـ آه .. سمعت عنها .. دودة عالقة بقفا أختها الممثلة تمص دمها بحجة اشرافها على البنت أثناء انشغال الأم بالفن والرحلات والجرى وراء الفلوس .. طفيلية مثل غيرها من الطفيليات .

ابتلعت مرافقتها الوخزة ، فعاجلتها الأخرى بهجوم جديد :

ـ لكن ماذا كنت تقصدين بالضبط عندما قلت منذ قليل انه ربما عرف شيئا عن حاضر ابنتى ؟ .. الست أول من يعرف أنها محافظة على نفسها ؟ أم هل تعرفين عنها ما لا أعرف أنا أمها ؟

تملصت الأخرى من الموقف :

ـ اسمعى صوتها .. اسمعى .. يشبه تماما صوت أمها فى الافلام ..

كانت الصبية تتكلم بقلق عصبى :

ـ ماما قالت الساعة العاشرة .. لماذا تأخرت ؟

ـ الطائرات مواعيدها فى هذه الايام كما تعرفين ..

ـ ولماذا لم تسمح لى باستقبالها مثل كل مرة فى المطار ؟

ـ لانها لا تضمن أن تتأخر هى أو الطائرة عن الموعد فتكون قد ضيعت وقتك بلا فائدة .. ماما ليســـــت حرة فى بيروت كما تتصورين .. ان تصوير فيلم مشترك يجعلها تحت رحمة المنتج والمخرج .. ماما تتعب لكى تهيىء لكما الحياة المستريحة والمستقبل المضمون .. يجب أن تعذريها ...

ـ قالت لى فى التليفون أنها ستصور المشهد الأخير أمس وأنها حجزت فعلا تذكرة الطائرة واشترت لى كل شىء ..

ـ ربما دعاها بعض الاكابر الى نزهة تكريم ..

ـ ولم تنس طلباتك .. حتى حزام الفتق الامريكانى .. وأنا واثقة أنها ستحضر .. بعد قليل سنراها داخلة وكل الناس هنا يهمسون باسمها .. سناء .. سناء .. ياحبيبتى ياماما .. تهل على الناس فتكهربهم !

فجأة انتعش وجه المرأة المتصابية ، وتهيأت للمجاملة :

ــ هاهو .. ألم أقل لك انه لن يخلف الميعاد .. !

أقبل أنيقا مشرقا ، وتلقى الاستقبال الحار برزانة متلطفة ..

وقبل أن تنقضى ساعة نثر خلالها على المائدة باقة فواحة من قصص أسفاره وصفقاته وأرباحه كان قد ملك الزمام وحقق الأحلام وتم الاتفاق على موعد قريب فى بيتها لمقابلة العروس وتحديد ميعاد الخطبة ، ثم تركهما باعتذار ذكى :

ــ كنت أحب أن تطول جلستنا الجميلة لولا ميعاد الوزير !

وظل الانتعاش مترقرقا فى وجه المرأة حتى قالت مرافقتها :

ــ تجاهل كل أسئلتك عن أسرته وضرورة حضور أهله معه يوم الخطبة !

ــ أتوسل اليك .. حكاية أسرة العريس صارت موضة قديمة .. انما يهمنى الرجل نفسه ..

ــ الرجل نفسه ؟ .. انه لغز .. حتى مكتبه المزعوم لم يشأ أن يحدد لك مكانه أو يدعوك الى زيارته !

ــ لنترك للعروس مهمة اكتشاف حقائقه .

ــ احساسى لا يكذبنى أبدا .. هذا الرجل بالرغم من الحذاء المستورد والكرافتة الغالية والمرسيدس تفوح منه رائحة النصب !

ــ أدخلى لسانك فى حلقك واكسبى فى ثوابا ..

ــ طول عمرك تفزعين من الحقيقة !

ــ دائما تكرهين لى أن أكون سعيدة ولو بعض ساعة ..

الا تدركين اننى بهذه المصاهرة أحقق حلم حياتى فى شخص ابنتى الوحيدة ؟

ــ تكتسبين ما لم يكن لك أبدا .. الشرف !

ــ اخرسى ..

ــ كلمة الحق دائما تغضبك .

ــ كم تكرهيننى ؟

ــ ولماذا أكره ولية نعمتى ؟

ــ اتق شر من أحسنت اليه !

تكهرب الموقف وتحول الصدام المهموس الى طلقات مسموعة :

ــ هل لابد لك فى مقابل ايوائى واطعامى من اذلالى فى كل موقف وكل كلمة ؟

ــ وهل لابد لك من أن تكونى كالثعبان اذا استدفأ لدغ ؟

قالت المراهقة لصاحبها ، وهى تكتم الضحك :

ــ هل سمعت ؟

ــ دخلتا معا .. سمن على عسل .. والآن تكادان تستعملان فى المناقشة أظافرهما ..

ــ كانتا هادئتين حتى ظهر رجل !

نظر فى ساعته ، وركز نظرته فى عينيها :

نقوم ؟

ــ لماذا نختصر الجلسة ونحن نتفرج بالمجان على هذا الفيلم المسلى ؟

ـــ أريد أن آخذ المفتاح من صديقي في النادى الكبير قبل أن يغادر ملعب التنس ..

ـــ المفتاح ؟

ـــ مفتاح الشقة .

ـــ آه .. ليكن هذا في يوم آخر .

ـــ بل اليوم .. الآن .. أم هل تغيرين رأيك كل ربع ساعة ؟

أطرقت البنت ، فسألها :

ـــ هيه .. نقوم ؟

ـــ مسافة ما أشرب سيجارة أخرى وأقوم معك .

نطق في وجهه زهو الانتصار وهو يمد لها يده بعلبة الكنت المفتوحة ، وفي تلك اللحظة سمعا من المائدة القريبة بكاءا عاليا وصوتا محرجا ينهر الباكية :

ـــ هل تريدين أن يتفرج الناس عليك ؟

بكاء طفلة .. نشيج عال لم تعد بنت المثلة تقوى على كتمانه .. وعندما حاول رئيس الخدم الأصلع الاقتراب لملاطفة الصبية ردته المرافقة باشارة حازمة من يدها ، وقالت لها :

ـــ أخطأنا أنا وأمك عندما حسبنا أنك جاوزت طور الطفولة .. هيا .. فرجي الناس عليك كما تشائين .. وعندما تحضر أمك سأصف لها هذه الفضيحة !

لكن بكاء الصبية لم تزده محاولات مرافقتها لقمعه الا تأججا واندلاعا ، وساد الوجوم المائدتين القريبتين لحظة قبل أن يقع حدث آخر لم يتوقعه أحد حتي سقاة النادي الذين كانوا قد

تجمعوا حول رئيسهم يتبادلون همسات العطف على الباكية الصغيرة اذ اندلع من مائدة المراتين تجاوب فجائى عالى النبرة ، فأتسعت عينا المراهقة وهى تسمع لأول مرة فى حياتها قلبا بشريا يتمزق فى بكاء حارق ، وتأملت بدهشة غريرة انسيال الدموع على وجه المرأة الضامرة التى كانت منذ قليل تجادل صاحبتها المتأنقة ... الى أن التحم نشيجها الأليم بنشيج الصبية فى كورال موجع للتاب ، كادت تسكن له حتى حركة الزوارق الرشيقة على الموج .

ومع التيار الهادىء كان هناك شراع كبير أبيض يتهـــادى تأملته المراهقة بعين ساهمة النظرة ، قبل أن يضرب رئيس الخدم كفا بكف وهو يراها هى الاخرى تدفن وجهها فى كفيها مجهشـــة بالبكاء ..

طيـــور الليـــل

ما أكثر اللصوص فى هذه الايام .. لابد أن هذا الذى يعالج الشباك من الخارج واحد منهم يجهل أنها بالألم المبرح فى المعدة ادمنت منذ سنوات طويلة عادة الأرق والتفكير والجميع نيام .. زوجها عطوة وابنهـــا مأمون وزوجته ينعمون بحقهم فى الراحة العميقة بعد يوم العمل المجهد .. ابنها ووهيبة الحامل ينامان فى القاعة الداخلية ، أما عطوة الذى اشتغل كعشرة رجال فى القراريط القبلية من بعد صلاة الفجر الى الغروب فها هو مستلق على ظهره الى جوار كتفها مثل شوال التبن وفمه مفتوح وسط أشواك لحيته وشاربه الذى امتزج فيهما البياض بالسواد .. شخيره الخشـــن الأبدى منتظم ، فهو فى النوم والأكل والشاى يأخذ دائما الحظ الأوفى ، والنوم دائما يطيعه بمجرد أن تمس رأسه الوسادة .. والكلب عنتر فى مكمنه عند المصـــطبة المجاورة لباب الدار توقف فجأة عن نباحه الغاضب العدائى .. كيف أسـكته اللص ؟ .. أرهفت سمعها وهى تعتدل فى مرقدها .. لقد كثر عددهم فى هذه الايام ومعهم سم يرمونه لكلاب الحراسة وسكاكين يغرسونها فى لحم المسروقين اذا هموا بمقاومة .. ماذا جرى لعنتر ؟ .. هل توقظ عطوة ؟

حركة اليد فى درفة الشباك لم تلبث أن بدت لها ذات معنى

غير الاقتحام .. أحست ذلك بقلبها قبل أن يعيه عقلها .. هذه الدقات الحذرة الخفيفة ليست سلوك لص .. هذا المجهول لا يريد أن يقتحم بل أن يفتح له أهل الدار فى خفية .. وتكرر الصوت فى الحاح مكتوم فنهضت وقطعت الدهليز الى الباب فألصقت وجهها بفجوة الخشب التى تعرفها عند المفصل الأوسط وسألت وهى تغالب خوفها فأجابها فى الحال صوت مثل صوتها ، مكتوم :

ــ أنا عمر !

نبض قلبها الجياش هز كيانها الضئيل ، وتمشت فيه رعشة عندما جاءها الصوت الخافت مرة أخرى :

ــ عمر .. عمر يا أمى .. أنا عمر ابنك !

ويلاه يا ولدى .. ميت من شهر .. قتيل كما قالوا .. فماذا يكون هذا الصوت بسم الله الرحمن الرحيم !

ــ من يتكلم ؟

ــ أنا عمر يا أمه خديجة .. افتحى لى الباب .. أريد أن أكلمك فى ستر الليل كلمتين ثم أعود الى الاختباء قبل أن يفضحنى النهار ..

هو صوت ابنها الميت ، صوت الولد البكرى الذى لا تنساه أم .. وهو اذن عفريت عمر .. استندت الى الباب حتى لا تتداعى .. واستحثها الصوت من خارج الباب ، فى حزم هذه المرة :

ــ أمه خديجة .. لا تخافى .. أنا حى لم أمت ..

ــ حى يا عمر ؟

ــ من شهر وأنا هارب ..

ـــ وأين كنت ؟

ـــ جئت من مخبئى لأراك وأشم ريحك ثم أذهب .. لماذا لا تفتحين لى يا أمه ؟

لم تجد لها صوتا ، فعاد الصوت أعلى قليلا ، لكنه فى هذه المرة مفعم بالحزن والانكسار :

ـــ اذا كنت لا تريدين عناق عمر فقوليها !

هم اذن لم يقتلوه بعد أن قتل هو وصاحبه عبد الشافى تاجر الاقمشـــــة المتجول وسرقا كيس نقوده .. عمر حى .. ولدى البكر !

ـــ انتظر لحظة حتى أتأكد من أن أحدا لم يستيقظ .

عطوة لم يتغير تعبيره بالشخير المنتظم عن عمق أخذه لحقه من الراحة ، وباب القاعة الاخرى مقفول على الزوجـــــين ، والنوم ســـــــلطان ..

وكان جسمها كله يرتعد وهى ترفع المزلاج الخشبى الضخم داعية الله الذى طافت بكعبته ألا يند عن الباب صريره المألوف ..

هو ذا الحبيب وان تكن حوله هالة من روع وحول وجهه لحية صغيرة وعيناه غائرتان فى وجهه المصوص .. هو عمر .. احتواها بين ذراعيه بلا كلمة وظلا فى شبه غيبوبة لحظات فى ركن الباب المظلم قبل أن تجد الأم صوتها :

ـــ لو رآك أبوك لفضح الدنيا !

ـــ لن أطيل وقوفى هنا .. ســـأنتظرك بعد قليل فى مخبئى ومعك ما آكله ..

ـــ جوعان يا ولدى ؟

ـــ أى شىء عندك لا يلحظ أبى اختفاءه فى الصباح ليقيم الدنيا ويقعدها .. أعرفه وجه نكد !

ـــ أين ؟

ـــ انزلى فى المدق الذى ينسرب من الزراعية وراء جميزة فرماوى .. وعند حديدة فدان الواد عبد النبى سأناديك من بين أعواد الذرة .. هل عندك بيض مشوى فى الفرن ؟

ـــ سآتيك بخبز قمح وجبنة قديمة ..

ـــ وأسرقى لى من علبة دخان أبى ملء كفك وبضـــــعا من أوراق اللف اذا أمكن .

ـــ كل ما تطوله يدى سيكون عندك بعد نصـــف ســـــاعة يا ولدى .

وهى التى أخذته الآن فى حضــــــنها قبل أن يذهب .. ليلة ولدته جاء عطوة فجلس بالقرب منها ومال فقبل شعرها وهو يهتف فى حماســــــة :

ـــ جئتنى يا خديجة بالولد !

فى الظلام بين أعواد الذرة جلست الى جانبه تتأمله وهو يلتهم طعامه .. ما الذى فعله بنفســـــه هذا الذى كان ريحانة القلب !

ـــ أمر الله ونفذ يا امه .

ـــ لا أستطيع أن أخبئك فى البيت ..

ـــ أعـــــرف ..

ـــ ماذا أنت فاعل يا ولدى ؟ هل ستسلم نفسك ؟

ـــ لن يشنقنى أحد .. أبدا لن يشنقونى ..

ــ وكيف تعيش ؟ .. الى متى تظن أنى قادرة على الخروج كل ليلة ومعى أكل ودخان قبل أن يلحظ ذلك عطوة والجميع وأجيئك ذات ليلة فماذا ورائى العسكر ؟

وتحطمت فجأة قشرتها الصلبة المتماسكة وتفجرت دموعها :

ــ يا ولدى كيف استطعت أن تجلب علينا كل هذا الشقاء ؟

ــ أمر الله ونفذ يا امه خديجة .

ــ تسرق وتقتل ؟

ــ وفرى هذا الكلام على وكفانى ما بى .

ــ قالوا لنا يوما ان اولاد الليل الذين اختلفوا معكما على الغنيمة قتلوك مع عبد الشافى ابن مبروكة عند الساقية المهجورة فى البر الثانى ؟

ــ وماذا فعلوا اذن بجثة عبد الشـــافى وجثتى ؟ أما كانت الحكومة فى هذه الحالة تسلمكم جيفنا ؟ كيف صدقتم هذا الهراء ؟ .

وأنهضها كما لو كانت طفلة يدللها وأخذها فى حضنه قبل أن يصل بها الى المدق :

ــ اذهبى بالسلامة ، ولا تنسى الدخان .

فى الصباح والاربعة يفطرون تساءلت وهيبة المثقلة بحملها :

ــ لا أدرى هل كان حلما ، لكنى الليلة خيل الى أنى سمعت خطوات وأصواتا ..

لم يهتم الرجلان بما قالت ، لكن الحاجة خديجة ردت وهى تتشاغل باذكاء نار الكانون :

ـــ أنا من سمعت وليس اللصوص .

ـــ أردت أن أنهض لكن التعب أمسكنى ..

ـــ لم أنم طول الليل .. بسبب فم المعدة .. ومع ذلك سولت لى النفس الدنيئة ففتحت خزنة الأكل وسددت جوعى بلقمتين ..

وصبت وهيبة الشاى لزوجها وأبيه ، فقال عطوة :

ـــ خذى يا خديجة رشفة من هذا الدور الثانى ، فالشاى يقتل وجع المعدة ..

مواجعها أكبر من أن يعيها الرجل ..

ولدها على مرمى بندقية !

ينتظر يدها لتطعمه .. وما أصعب المهمة ! .. أى طعـــام تحمله اليه دون أن يلحظوا هنا نقصانه ؟ .. والى متى يظل عطوة المدقق غافلا عما ينقص فى علبته من الدخان ، وأنه لجدير بأن يعد حتى ورق البفرة الذى يلف فيه الدخان ؟ .. وأى أعذار سيكون عليها أن تنتحلها لتخرج فى الليل ، ليلة بعد ليلة ؟

وضعت الكوب الصغير بعد أن أفرغت فى جوفها ثمالة الشاى وتأملت فى الصمت وجهى الرجلين .. لو أنها صارحتهما بالحقيقة .. وجه مأمون صورة من وجه عمر بدون العينين الغائرتين والوجه المصوص المشعر .. يقضم اللقمة الناشفة بأسنان كحديد الكماشة فى هدوء لا يخرجه منه الا أن تأتى سيرة شقيقه اللص القاتل أو يقول أحد أمامه ان اشاعة موته غير صحيحه وانه يعيش فى البر الثانى متخفيا عند أولاد الليل .. وفحصت خديجة فى وجه رجلها هو الآخر ما فعله به العمر ، وتذكرت صيحته المنكرة فى ذلك اليوم الأسود وهو يســـــمع أهل القرية كلهم ورجال الحكومة فى دوار

العمدة : « لا هو ابنى ولا أنا أبوه .. ومن يعثر عليه ويحب لى أن أكفى الحكومة عناء كسر رقبته فليسلمه لى أقتله بيدى هاتين ! » .

لا .. لن تتكلم فلا فائدة من هذين ..

هى وحدها ، حتى لو ذهبت ليالى الظلام الساترة وهل القمر ، كاتمة السر مطعمة الطفل الشقى .

وقال عطوة فجأة :

ـــ بيعى ما عندنا من بيض وهـــاتى لى بثمنه دخانا من الدكان .

قالت وهيبة وهى تجمع فى فتور بقايا الافطار :

ـــ لابد أنها كانت فى المنام ، تلك الخطوات والأصوات .

عمر بعد أن أكل ما حملته الامومة لف سيجارة وأشعلها وهى تتأمله ، ثم قالت فجأة :

ـــ أبوك لم يعترض الليلة عندما قلت له بعد أن صلى العشاء هو وأخوك ان زوجة شيخ البلد تشترى البيض لتوصله الى ابنتها العروس فى البندر ، وعندنا عشرون بيضة سأحملها اليها وأسأل بالمرة على عافية ابنها الذى عاودته الحمى .. لكن ماذا أنا قائلة الليلة القادمة ؟ .. الا يحسن بك أن تعبر الى البر الثانى قبـــل الفجر وتلبد عند أصحابك أولاد الليل هناك ؟

ضحك عمر لاول مرة منذ عاد الى الظهور :

ـــ يا امه خديجة ! .. أصحابى أولاد الليل ؟! .. لم يكن لى فى الدنيا غير عبد الشـــافى ولا أدرى أين يكمن فى هذا البحر الكبير من حقول الذرة .. أحيانا فى وحشة الوحدة يخطر لى أن

أناديه بأعلى صوتى وليكن ما يكون : يا عبد الشافى أنا عمر فهلم الى ! .. ليس لى أى صـــديق فى هذه الدنيا .. أنا وحيد مثل هذه العرسة التى قفزت منذ قليل من ورائنا ، بل هى أحسن منى حالا ..

واخذ يلف سيجارة أخرى :

ـ قولى لى .. عم مأمون الطيب كيف حاله ؟!

ـ اذا جاءت سيرتك خرج عن طوره وضرب بالقلة مثل الجمل الهائج !

ـ وأبويا ؟

ـ يؤمن بأنك ميت ..

ـ أحسن لى وله !

والتقت عيون الأم والولد فى صمت ، قبل أن تقول :

ـ والآن ماذا أنت فاعل يا ولدى ؟

لو أن معه بعض المال لهاجر الى أى مدينة بعيدة يختفى فى زحامها حتى يأتى فرج الله .

ـ كم يلزمك ؟

ـ كم معك ؟

ـ جنيهات قليلة جمعتها قرشا على قرش مع السنين .. أبوك يكاد يعد حبات الغلة فى الصومعة !

ـ تعلمين مثلى انه يدفن فى مكان ما خميرة لا بأس بها !

ـ لا .. لا يا ولدى .. لا تعرضنى لنقمة عطوة المنياوى !

ضحك عمر مرة أخرى :

ــ هل لايزال يضرب مأمونا فاذا وقعت البلغة من يده أثناء الضرب انحنى مأمون المؤدب فناولها له ليكمل ؟

وقع بينهما صمت جديد قبل أن تهمس الحاجة :

ــ شيخ الخفر رسلان تكلم عندنا وهو يشرب الشاى عن لصوص خطرين يختبئون فى الحقول ويعثر الفلاحون فى الصباح على آثار طعامهم .. ورد مأمون على رسلان لم يطمئن قلبى .. قال انه لن يحزن على رصاصة ثمنها قرشان يقضى بها على العار !

ــ هاتى لى معك غدا كل ما تطوله يدك من نقود .. فان زدت عليها فرخة بحمرة كان ذلك قبل رحيلى أحسن وداع !

ضمته الى صدرها وشمت رائحة عرقه القوية :

ــ أنت قبل كل شىء فى حاجة الى حمام طيب !

جاء مغرب اليوم التالى بزيارة ثانية من رسلان ، وما أن انصرف حتى بدأت مداولة خطيرة فى الركن بين مأمون وعطوة انتهت بأن ناداها زوجها فوقفت بينهما مطرقة وجلة :

ــ يا خديجة ! .. بيت شـــيخ البلد لم يأخذ منك بيضا ولم ير بيضة وجهك نفسها منذ عشرة أيام !

لم ترد ، فوكزها فى جنبها :

ــ هل يكذب الذين لمسوا بأيديهم شباك النبى ؟

أخذت ترتعد ، فلم يرحمها مأمون :

ــ أين كنت الليلة البارحة ؟

ــ أخذ منى البيض من وجدتهم أحوج اليه !

ــ من ؟

لم ترد ، فزنقها عطوة فى جدار الفرن :

ــ الحاجة أم عمر تكذب !

ــ ولماذا أكذب يا عطوة ؟

نبش مأمون فى كومة التبن الملاصقة للفرن حتى خرجت فى يده بندقيته المقروطة التى لم تر نور الشمس من سنين :

ــ سأقتله بيدى .. أين تركته ؟

نظرت الى وجهه فى كبرياء صامتة ، ثم حولت نظرتها الى وجه عطوة وأدركت أنها طوال عمرها تكره هذا الرجل .

لم تعد تخافهما ، وكان صوتها فى هذه المرة متماسكا :

ــ عمر ميت .. أنت تعلم والكل يعلمون أنه مات .. فلمن تخرج بسلاحك الصدىء يا أحمق من ولدت الأمهات ؟

وظل الجو تحت سقف عطوة مشحونا بالتوتر الى ما بعد صلاة العشاء ، وانزوت أم عمر فى ركن ورفضت أن تشاركهم العشاء رغم الحاح وهيبة .. وبعد أن قضم عطوة آخر لقمة ، تجشأ قبل أن يعود الى التحرش بها :

ــ مالى لا أرى الشاى يغلى يا امرأة ؟

وما أن نهضت فى تثاقل وهى تضغط معدتها الموجعة تحت يدها حتى تناهت الى أسماعهم ضجة ولغط متزايد فى الدرب ، ووثب مأمون الى الباب فى تحفز يسأل الناس .

جناية شنيعة لم ينتظر فاعلها حتى يدخل الليل فى عزه ، وزاد فى شناعتها أن الفاعل لم يكتف بقتل الخفير عبد النبى بل سرق بندقية الحكومة !

التفت مأمون وهو لا يزال فى فتحة الباب وصرخ :

ــ مبسوطة يا أم عمر .. مبسوطة يا حاجة ؟

من أين واتتها كل هذه القوة حتى مشـــــت اليه لتقبض بأصابعها النحيلة على طوق جلبابه :

ــ أراك منذ اليوم تتوقح على أمك !

والناس يجرون فى الدرب فى اتجاه الزراعية ، رد عطوة الباب حتى واربه ، ثم أقبـــل فانتزع أصــــابعها من عنق ابنه فى شراســـــة :

ــ لست أم مأمون ، بل انت أم العار !

وحتى وهيبة المتمســــكنة منذ جاءت زأرت هى الأخرى فى وجهها :

ــ أين عقلك من رأسه يا أمه .. أتطعمين وحشا له فى كل يوم قتيل ؟

وقبل أن ترد على زوجة ابنها عاجلها عطوة بلطمة هائلة على وجهها القتها جاثية على الارض لصق الفرن .. وقبل أن تصدق أن هذا قد وقع لها تلقت ركلته الموجعة فى معدتها ..

ــ تكلمى يا أسفل النساء فلن يسكتنى أنينك ولا صراخك عن ضربك حتى تقولى لنا اين هو :

وناولها فى بطنها ركلة أخرى ، وحشية ، حتى ظللت وعيها وطمست على بصيرتها غيمة من العذاب .. ولكأن صــــوت المرأة

الاخرى يهيب بها فى عطف خبيث أن تعترف ، على حين تخرج بين اصابع عطوة الهائجة خصلات من شعرها الاشيب القليل . ولكان عينها تلمح فى لفتة منها عين مأمون وهى تفحص زناد بندقيته فى ثقة من ينتظر الاعتراف بقلب بارد .. وما تدرى كيف واتتها القوة على أن تفلت من حصـــــارهم وتندفع من باب الدار زاعقة ملء وجودها المعذب :

— لن ينالوا ولدى .. لن ينالونا أنا وولدى ..

الظلمات مطبقة على الحقل ومع ذلك استطاعت عندما بزغ لها أن ترى فى يده بندقية الحكومة .

— انهم قادمون فى أثرى يا عمر فانج بنفسك ..

بدا لها فى وقفته الصامدة عملاقا أبيا :

— من القادمون ؟

— الكل يا ولدى .. الكل .. عجل بالفرار فدتك نفسى .

— جئتنى بالنقود ؟

— خرجت من دار عطوة مضروبة ومخبولة من الوجع ..

لكن صوتا جهيرا من ناحية جميزة فرماوى قطع تهامسهما القلق :

— سلم نفسك يا عمر يا ابن عطوة !

همست الأم وهى تسقط على ركبتيها :

— أبو عوف خفير الزراعية !

وجاءت من المدق أصوات أخرى ، لغط جمهرة من الناس ، فناحت الأم وهى جاثية :

ــ ليس وحده .. انهم كثيرون .. ماذا تفعل ؟

أعد سلاحه للعمل ، ثم قال لها بثبات وهو يشير بذراعه نحو الجنوب :

ــ اذا ظللت تجرين داخل الذرة فى هذا الاتجاه فستجدين نفسك فى النهاية قرب بيوت الناحية القبلية .

ومال فوضع شفتيه من فوق الطرحة على رأسها ، واستحثها بدفعة رقيقة من أطراف أصابعه فى كتفها :

ــ اذهبى يا أمه فى سلامة الله .

ــ وأنت يا عمر ؟

ــ أنا خارج لهم ..

ــ يقتلوك يا ولدى !

ــ ليس قبل آخر رصاصة معى ..

ومن المدق جاءهما صوت مأمون ، أقرب الى التحدى منه الى الرجاء :

ــ ياعمر .. سلم سلاحك للخفير .. لا فائدة من المكابرة !

ثم صوت الأبوة نفسه ، ملء الوجود المظلم :

ــ يا ابن خديجة .. لو تركتك الحكومة لما تركتك أنا تذهب حيا .. تعقل واعلم أنها النهاية !

وفى وثبة كبرياء خرج الى الاشـــباح المتناثرة فى المدق عن قرب وعن بعد وسلاحه أمامه .. ووقعت لحظة صمت خطيرة .. هذا القريب المتردد هو أبو عوف .. وهذان عطوة ومأمون .. وتبين صوت أبيه وهو يخطف البندقية من يد أخيه :

ـــ دع هذا لى يا مأمون وعش أنت للبيت والغيط والشباب والولد !

وسدد عطوة فوهة البندقية نحو ابنه الآخر :

ـــ أين أمك يا ولد لترى مصرعك ؟

هأنذا يا نتن الابط !

كانت قد وثبت من قلب الحقل على غير انتظار من أحد حتى عمر نفسه ، فتراجع أبو عوف خطوتين وتراخت أصبعه على الزناد واختفت سائر الاشباح فى الظلمة ..

وعند اكتمال وثبة خديجة أمام ولدها كان عطوة قد أطلق رصاصته ، فوقع سكون رهيب وهى تسقط بين قدمى عمر ، وظهر رسلان شيخ الخفراء مندفعا وسلاحه أمامه نحو عمر الجامد فى ذهوله ، على حين طار من بين أغصان الجميزة القريبة طائر غامض من طيور الليل وهو يطلق صرخة قصيرة حادة فى السماء .

الوحش خـارج القفص

مخيفة هى قبضة الرعب على مخ معتكر !

صارت الحياة كلها خوفا .. وتوالدت الهواجس .. ممدوح عبد الجواد فى قبضة الرعب ، اذ تتردد فى مدينة المهندسين همسات تقول ان برعى الذى هرب مخبولا من مستشفى الامراض العقلية شوهد وهو يحوم فى الليل حول المدينة .. وبمن يمكن أن يتربص برعى ان لم يكن به هو ؟ .. صارت المدينة قفصا ، وصارت المخاوف تموت كل ليلة .. انما يريد برعى أن يقتله هو .. أليس ممدوح هو الذى « أرسل » برعى ليقتل له عدوه ؟ .. أليس هو السبب فى أن برعى قاتل ؟

سأجده ذات ليلة كامنا لى فى ظلمة مدخل حديقتى .. وسيخنقنى بأصابعه العشرة !

وحده فى البيت .. حتى نرجس هجرته وذهبت للأستاذ حسام السينمائى لعمل « التست » فلم تظهر بعدها .. وحده مع الرعب .. مع الاحساس بأنه سيجن فى النهاية ويذهبون به الى المصحة ليحتل الحجرة رقم ٨ التى خلت بانتحار زميله عمر .. ذكر آخر مرة رأى فيها عمر منذ أسابيع قليلة ، عندما دخل الحجرة رقم ٨ مع مشيرة زوجة عمر ، واستقبلهما معطف أبيض هز رأسه

تحية لهما دون كلمة ، ثم استقرت نظرتهما على زوجها الجالس فى الركن كتمثال بلا حراك ، لم يبد عليه أى رد فعل لظهورها مع صديقه ..

بعد لحظة الحرج الاولى تقدمت مشيرة من زوجها الذاهل ولاطفته بيدها المترفقة فى لمسة :

ـ كيف حالك ياعمر ؟

ظل عمر جامد النظرة تماما ، فوضع ممدوح يده برفق على كتفه :

ـ الحمد لله . حالتك أحسن .

تحركت شفتا المريض برعشة خفيفة قبل أن يبين صـــوته الناحل :

ـ السقف .. السقف ..

تبادل ممدوح ومشيرة نظرة معنوية ، وزادت الرعشـــة فى شفتى عمر :

ـ الدكتور لا يريد أن يرفع السقف من فوق رأسى .. وأنا لا أريد أن أنام تحت سقف ..

تكلم الدكتور مسعود بصوت آلى :

ـ كلنا نحبك ، ولو كنت أرى أن رفع السقف يفيدك لرفعته طبعـــا ..

وفجأة وثب عمر بقبضـــتيه الخائرتين الى كتفى ممـــدوح المضطرب :

ـ الست أنت يا ممدوح عبد الجواد المختص بالانشاءات ؟

.. الست المهندس المسئول ؟ .. ها قد وقع السـقف .. السقف وقع يا ممدوح .. هل أنا سبب وقوع السقف ؟

اقترب الطبيب من المريض ولمسه برفق :

ـ ياباشمهندس .. ألم نتفق على أن نحافظ على هدوئنا ؟

لكن عمر غرس نظرته المخبولة فى عينى ممدوح :

ـ ألم تكن أنت وعباس اللذين قلتما لى ان من السهل أن نغش فى المواصفات ونقتسم الغنيمة ؟ .. ها قد وقع السـقف .. كما سيقع أيضا هذا السقف ..

وبلفتة سريعة غرس نظرته المضطرمة فى عينى زوجته :

ـ كما ستقع كل السقوف ..

ثم تحول الى الامساك بكم الطبيب :

ـ لا أريد سقفا .. ولا مانع عندى من النوم فى الجنينة ..

أشار الدكتور الى الزائرين بالخروج وسبقهما الى الخارج ، فربت ممدوح كتف عمر قبل أن يتبع الدكتور ، وانحنت مشيرة على كتف زوجهـا مكان يد ممدوح وقبلت الكتف الهزيلة وهى تغالب دموعها .. وسمعت الدكتور مسـعود فى الطرقة يقول لممدوح بصوته الآلى :

ـ أمامنا الكثير قبل أن نستطيع أن نقول انه عاد انسـانا طبيعيا .

وفى سيارته اثناء عودتهما الى مدينة المهندسين قالت مشيرة :

ـ عمر لن يشفى ، وسيظل فى المصحة بقية عمره .

لم يرد .. لحظ بركن عينه جانب وجهها الايسر ، رفيقة الطفولة والصبا فى حلوان .. كانت تسكن فى البيت المجاور .. أمه و أمها ابنتا خالة .. لم يرض أن يتزوجها لأنه هو وأمه كانا يبحثان له عن زوجة غنية .. ويئست منه أمها الحاجة عواطف فزوجتها لعمر زميله فى كلية الهندسة .. وعادت نظرته الركنية تشملها وعى تحاول أن ترد خصلة الشعر المتهدلة على وجهها .. كأنها فى نضارتها لاتزال فى حديقة بيت حلوان لم تتزوج .. لم تعرف الولادة والأمومة ..

قال لها فجأة وهما يقتربان من بيتها :

ـ المهندس توفيق كاد يلقى بنا جميعا الى السجن .. الله يلعنه عباس !

وتنبه على صوتها يسائله عما يشغل باله الى هذا الحد .. ماذا يقول لها .

وكأن كل داخليته ابتســـــمت فى الباطن لهذا الخاطر : « مستحيل أن أقول لها انى أعيش بغير علاقات نسائية استعدادا لليوم الذى أرثها فيه هى وميراثها عن عمر ! » .

تركها أمام بيتها وهو يلمح وراء النافذة فى الدور الأرضى للفيلا خيال أمها ، وقصد بغير ابطاء بيته القريب .

لا ينسى ذلك اليوم الذى بدأت به محنته .. عندما دخل البيت وجد خادمته نرجس فى حالة خوف غـــير طبيعية ، ولكنها ما أن حاولت أن تحكى له حتى نهرها دون أن يسألها عن معنى كلامها المضطرب .. وعندما صار وحده أراح جسمه المتعب فى الكرسى الكبير المجاور لجهاز التسجيل وترك الموســيقى الخفيفة تخترقه

وتحتويه .. لن يذهب الى سهرة عباس .. سيدخل بعد لحظات فى الجلباب ويستلقى وينام ..

لكن فجأة داهمته تلك الحالة الشاذة . استولى عليه احساس قاهر بأن معه فى الحجرة وجودا خفيا !

وتذكر كلمة نرجس التى نهرها بسببها :

ــ البيت فيه عفاريت !

قاوم ذلك الاحساس الشاذ ساخرا من نفسه .. لكن ذلك « الوجود الخفى » تمادى فى طغيانه الى حد أنه بدأ يملى عليه وعلى غير ارادة منه رغبة متسلطة فى الخروج !

لم يطل الصراع . أوقف الجهاز فماتت الموسيقى .

انتفض واقفا ونادى بصوت عصبى :

ــ نرجس !

وتحاشى نظرة البنت الجميلة وهو يسألها :

ــ هل تعرفين مكانا اسمه كافيتريا شهرزاد ؟

ــ قابلت فيه الأستاذ حسام مرة أو مرتين ..

واختصر الموقف بعد أن سمع منها وصف المكان :

ــ انا خارج !

ــ وأنا خائفة .. سأخرج أيضا ..

صعقها بنظرة تأنيب صارمة ، وتناول مفاتيح السيارة من جوار جهاز التسجيل وسار الى الخارج مسلوب الارادة .

الكافيتريا .. خالية الا من شابين بسوالف طويلة يسكران على البار ورجل وحيد فى الركن لم يكد يراه داخلا حتى استقبله بابتسامة غريبة .. وجه لم يره من سنين .. كان سليم هاشم من زملائه فى المدرسة الثانوية ثم فى كلية الهندسة سنتين انقطع بعدهما عن الدراسة واختفى .. أما الآن فهو يلقاه بحفاوة سعيدة وكأنه يكاد يرقص من فرح جنونى :

ـ كنت « أعرف » انك قادم !!

على أيام الدراسة كان سليم هاشم فتى رقيق الحال متواضع الأصل نابغة فى الرياضيات الى حد مذهل ، وكان يخترع أجهزة صغيرة معقدة ويبهر بها المدرسين .. تأمل ممدوح ملابسه الرثة وضآلة حظه من الصحة و الوسـامة وقلة احتفائه بمظهره وهو يسـأله :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ خلال السـاعة الاخيرة كلها لمأتوقف عن تركيز فكرى فيك !!

ـ هل تريد أن تقول انك « أردت » لى أن أجىء الآن الى هذا المكان الذى لا أعرفه ؟

ـ وها قد جئت !!

اعترف ممدوح وهو مذهول بأنه قبـل نزوله من بيتـه كان يحس حوله فعلا بوجود « خفى » وأن اسم هذه الكافيتريا بزغ فجاة من حيث لا يدرى فى ذهنه وعلى لسانه .. وتكلم وهو يذكر نرجس التى استشعرت ذلك الجو الغامض ونسـبته الى ظهور العفاريت . . واحتوته حيوية سليم هاشم وهو يشرح له نظريته

فى اشعاع المخ الانسانى .. فالفكر يشع مثل كل الجواهر الكريمة .. لكن قوة اشعاعه الى الآن مجهولة ..

ــ بعد عمل سنوات وفى ظروف معملية غير معقولة استطعت أن اثبت أن الفكر ينتشر فى موجات مثل موجات الضوء وأن فى الوسع التقاط هذه الموجات وتسجيلها واعادة ارسالها عند اللزوم ..

ــ هل هو شىء من هذا القبيل ما حدث لى الآن ؟

ــ لا .. هذا مجرد استدعاء فكرى وليس الا خطوة أولى على طريق طويل .. أننى الآن أملك الآلة القادرة على نقل الموجات الفكرية ونشرها .. عندى صندوق سحرى سأفرجك عليه .. يقيس أطوال اشعاعات المخ ويسجلها ويعيد عند الحاجة ارسالها .

الى هذا الحد كان سليم هاشم قد أخذه بتمامه فى مجاله الحيوى ..

هل هو مجنون أم أن سليم هاشم هذا الذى تقتحمه العين يستطيع فعلا لو أراد أن يحتل بفكره أمخاخ الآخرين ويقودهم الى حيث يريد لهم ؟

فى نقابة المهندسين استقبل عباس بسخرياته الشرسة نبأ عودة سليم هاشم الى الظهور :

ــ مخترعاته كلها مستحيلة .. غير معقول ما يدعيه هذا المخبول .. ان افتراض أن اشعاع المخ الانسانى ينتشر فى موجات شىء غير مؤكد حتى الآن من الوجهة العلمية .. عقدة سليم هاشم أنا أعرفها .. ليس عنده شهادة .. فما هذه الخزعبلات التى يدعيها فى عصر العلم ؟

ـــ لكن بفرض أن ما يقوله صحيح .. الا يكون هذا شيئا مثيرا وحاســـــما ؟ أن يتمكن فرد واحد من أن يحتل بفكره أمخاخ الكل ؟

باشارة ماحقة من يده الغليظة نفى عباس كل امكانية لتحقق مثل هذا الفرض الأحمق ، فلم يلبث الحديث أن انتقل الى الأحوال فى مؤسسة الانشاءات الهندسية .. لابد أن هناك وسيلة لاجلاء المهندس توفيق عن المؤسسة .. ولو بترقية الى أى مؤســـسة أخرى .. ان استمرار وجوده معناه توقف كل العمليات المجزية .. الدنيا صارت هراسة .. من يتلفت ستدوسه العجلة وتطحنه ..

ـــ ماذا يفعل الواحد فينا يا ممدوح .. ان لم نلغوص مع الذين يلغوصون لا نعرف نعيش .. تهرسنا الهراسة ..

تذكر ممدوح وجه ضـــحيتهما عمر فى الحجرة رقم ٨ وكأنه يسمع صوته الناحل وهو يشكو من ضغط الســقف على وجوده المهتز .. وتنبه على صوت عباس وهو يستأذن فى الانصراف لموعد عشيقته ضاحكا :

ـــ عن نفسى .. أنا أحب أن أكون الرحى التى تطحـــن لا الدقيق الذى ينطحن !

هل يذهب هو الى بيت الحاجة عواطف ليؤنس وحدة مشيرة ؟ .. كان الوقت بعد العصر .. فتردد وهو يدفع الحساب لساقى النقابة .. وبرز لخياله فجأة سليم هاشم وهو يصف له ما يشبه الدوار الريفى المنعزل وراء بوابة حديقة .. ولم يجد جرســـا فصفق أكثر من مرة حتى ظهر له شـــاب نحيل بقميص وبنطلون وساله :

ـــ تحت أمرك ؟

ــ بيت المهندس سليم هاشم ؟

ــ سليم يقيم عندى هنا فعلا وهو موجود ، تفضل .

هذا اذن هو الشاعر حسن الذى كلمه عنه سليم هاشم فى الكافيتريا .. تمشيا جنبا الى جنب خلال الحديقة المهملة .. لكأن الغروب يسقط فى هذه الحديقة البدائية قبل أن تحين ساعته فى أى مكان آخر من القاهرة .. ونفذت الى حواس ممدوح رائحة فاغمة لنبات تمرحنة لم تلبث أن تلاشت أمام طغيان رائحة أخرى دافقة من الباب الداخلى المفتوح على مصراعيه . عجيب أن يكون سليم هاشم من رواد هذه القعدة !

نهض متهللا من بين رجلين كان مجلسه الارضى بينهما وأخذ ممدوحا فى حضنه وأفسح له الى جانبه مكانا .. وتبين ممدوح وهو يتخذ مجلسه أن فى الصالة أيضا امرأة ظاهرة الأنوثة تنفث دخانا كثيفا من أنفها وهى ترمقه بنظرة استيعاب .. فى أنوثتها شىء شد انتباهه لحظة عن الرجلين ، فابتسم سليم هاشم وهو يعرفه بها :

ــ ست زينة .. جارتنا .. من أهل الفن .

لم يجد ممدوح فرصة للرد ، اذ تعالت رنة صاجات فى يد أحد الرجلين وهو يترنم بصوت خشن :

ــ من أهل واحدة ونص !

كان شابا من تجار خط المطرية بالغ النحول يلبس جلبابا بلديا ويعتم بشال على طاقية مغزولة .. وصار له اسم عندما تكلم سليم هاشم :

ــ جارنا المعلم مخيمر .

رنات قصيرة أخرى من الصاجات ، ثم ضحكة خشنة أخرى من المعلم مخيمر :

ـــ وهذا الطن من العضلات هو جارنا عبد الصمد بطل مصر فى وزن خفيف الثقيل .. الفاتحة له !

لم يكن ممدوح فى حاجة الى هذا التقديم ليعرف أن الرجل الآخر ملاكم أو مصـــــارع .. ولم يفته الغلظ حتى فى أدق ملامح عبد الصمد .. واقتربت الراقصـــــة بفم النرجيلة من وجه ممدوح فردها بشكر مضطرب ..

فى وسط هذه المجموعة تساءل ممدوح هل هذا هو سليم هاشم العملاق الذى رآه فى الكافيتريا منذ أيام .. واذا بهمســـــة من سليم هاشم فى أذنه كأنها ترد على الخاطرة الدفينة :

ـــ هذه هى العينات التى وجدتها بحكم الجيرة والألفة فى متناول يدى .. سجلت لهم أطوال موجاتهم الفكرية لاستخدامها فى تجاربى المقبلة ..

بعد رقصة جنسية من زينة وبعض القفشات الغليظة من مخيمر صفصفت القعدة على ممدوح وحسن وسليم هاشم الذى نهض وجاء بصندوق متوسط الحجم غريب الشكل مفعم حتى الحافة بأحشاء دقيقة متشابكة لا تعرف العين أين أزرارها من أشرطتها وأسلاكها :

ـــ هذه هى المعجزة التى يخاف منها صديقنا الشاعر كأنها عفريت !

ولا ينسى ممدوح وجه الشاعر فى تلك اللحظة وهو يغمض عينيه ويطول صمته قبل أن تنفرج شفتاه عن ذلك الصوت الرقيق الهادىء وكأنه يرتل أنشودة حزينة :

ــ نصر علمى كبير .. أنا معكما فى هذا .. كما أن حسن النية من جانب صديقى سليم هاشم فوق مستوى الشبهات .. لكننى خائف .. خائف حتى الارتعاد أمام هذا النصر المبين ... أخاف أن تتحول هذه الآلة الى ركوبة لفكر واحد !

برعى له عنق ثور وقلب طفل ، لم يكد يبدأ طوافه على بيوت مدينة المهندسين بشنطة البضائع المهربة حتى اشترت منه نرجس بعض الثياب والحلى الشبيهة بما تلبسه ممثلات السينما ، ووقفت تفرجها لسليم هاشم الذى وصل الى بيت ممدوح حاملا معه صندوقه السحرى ..

ــ شىء بسيط وسهل .. كل ما هو مطلوب منك أن تسترخى لتكون محطة استقبال .

وعبر ممدوح عن سعادته بالتجربة بضحكة متفائلة :

ــ لن أقاوم .. لكنى سأظل محايدا ومحتفظا بروح النقد ..

ــ هذا ما أريده أنا أيضا .. حاول ألا تزيف على نفسك أى ايحاء ..

ضغط سليم هاشم زرا فى الجهاز ، وساد الصمت .

كيف ينسى تلك الليلة .. كيف ينسى شعوره المخيف بأنه ينطفىء .. ينطفىء .. كأن جوانيته تتحول الى فراغ .. فراغ مخيف .. فراغ غير هندسى .. كيف ينسى لحظة الرعب هذه .. لولا أن الفراغ يبدأ بعد قليل فى الامتلاء .. يملؤه ضيف غريب رائع الحسن عبقرى الومضات .. هو الآن سعيد .. توضحت تصميماتها فى مخه .. وهذه الكبارى العجيبة طولا وعرضا وفخامة .. وهذه المنشآت التى كأنها أحلام الشعراء ..

لكن سليم هاشم المتوقد العينين بنشوة النجاح ضغط زرا آخر فى الجهاز فأخذ ممدوح يشعر بأنه عاد « ينطفىء » .. وفى جزع صادق انبعث واقفا ليلقى هذه المرثية :

ــ أنا ممدوح مرة أخرى ! .. عدت ممدوح ! ..

ــ هل آمنت ؟

ــ ذقت هناءا ما كنت لأتصور وجوده .. أى اشعاع فكرى هذا الذى أطلقته على من شريط الجهاز ؟!

ــ ذلك فكر الشاعر حسن .

ــ ما أسعد الشاعر !

ــ لم أكن مغرورا اذن عندما قلت لك اننى أعظم مكتشف فى القرن العشرين ؟

ــ بل هو شىء أهم من مشى الانسان على القمر !

لم يعد سليم هاشم فى نظره انسانا اذ هو متأبط صندوقه السحرى فى طريقه نحو الباب ، بل كائنا فوق الانسان .

لكن عند الباب صدمتهما نرجس المندفعة الى الداخل بفرحة غـــــامرة :

ــ هل يعرف أحدكما عنوان الست أم كلثوم ؟

ــ عنوان من ؟!

ــ الست أم كلثوم .. أريد أن أرسل اليها شيئا ما ..

ــ نرجس .. هل جننت ؟

ــ أصلى الفت لها غنوة .. اجمل من كل ما تغنى ..

— أنت ؟!

— والآ .. فى الحال .. كنت جالسة فى حالى فاذا بالكلام يطلع منى مثل النافورة !

نهرها ممدوح حتى انصرفت عنهما ، والتفت الى صاحبه الضاحك :

— لابد أن عقلها حصل له عطب فجائى !

— أبدا .. ما حدث للبنت شبه الأمية ليس اكثر من دليل آخر على أن الاشعاع الفكرى الخلاق الذى جعل منك منبع أحلام هندسية خارقة العظمة قد صاغ من خادمتك هى الاخرى شاعرة !

— البنت نرجس ؟ هذه التى ليس فى مخها غير التست ؟!

— والتفسير بسيط .. طول موجتها هو نفس طول موجتك !

* * *

يذكر ممدوح أنه ظل بعد خروج سليم هاشم جامدا فى مكانه حتى وقعت نظراته على جهاز التسجيل .. أصغى مطرقا شاحب النفس الى الموسيقى الهادئة .. وأطلت نرجس براسها من الباب الموارب وفحصت رضاه من غضبه قبل أن تظهر له لتسأله ان كان فى حاجة الى قهوة .. هز راسه رافضا دون أن ينظر نحوها ..

— هل هذا الرجل مجنون ؟

سدد الى عينيها نظرة اخافتها منه قليلا :

— لا .. سليم هاشم ليس مجنونا .. اسمعى يا نرجس .. هل تعجبك الكبارى التى تمشين عليها ؟!

تأملته بخوف متزايد :

ــ الكبارى .. الكبارى ياسيدى ؟!

ــ مقبضـــة .. اليس كذلك ؟ .. كئيبة .. لا طول لهـا ولا عرض ولا منظر .. الا تحبين أن تمشى على كبارى تبرق فى ضوء الشمس كالفضة ؟

ظلت ساكتة قبل أن يغلبها السؤال مرة أخرى على حذرها :

ــ سيدى .. هل الجنون معد ؟!

ابتسم للمعنى فى هدوء أراحها :

ــ لو كان ما حدث لى اليوم هو الجنون فانى أقول ياليت !

ــ وما هذا الذى حدث اليوم ؟!

ــ مشيت فى مدائن جميلة !

ــ متى حصل هذا ؟!

ــ منذ قليل .. عندما كان « هو » هنا !

ــ أنا نفسى وحياتك ياسيدى أحس أن العدوى حصلتنى .

لم يعبأ بخواطرها المعلنة فى وجهه ، بل تكلم فى هدوء :

ــ الدنيا فى حاجة الى هندســـة .. هندســـة جديدة .. ولسوف أبنى مدينة ليس فيها باب يقفل ولا سقف يقع !

ــ أنا أيضا أريد أن أهندس حياتى هندسة جديدة .. الأستاذ حسام سيعمل لى تست !

ودق جرس الباب فذهبت متأففة لتفتح لربطة الدواء التى يحملها مأمون مناول الصيدلية مع غزله السريع المتسول :

ـــ مساء الخير يا حلو !

ـــ هات الدواء ورح فى داهية !

ـــ أتعرفين ماذا سيفعل بك وحوش السينما اذا استسلمت لهم ؟

ـــ تست !!

ـــ نعم ؟!

ـــ تست يا جاهل .. تست ..

ـــ وترضين هذا لنفسك ؟ يعملون لكَ تست وانت ساكتة لهم ؟

ـــ على مزاجهم !

ـــ يقشرونك ويمضغونك !

ـــ بمزاجى .. هيا .. روح فى داهية .. انت فيلين !

ـــ أنا ايه يا أختى ؟!

وقبل أن تصفق نرجس الباب فى وجهه :

ـــ لن تفهم .. اذهب يا جاهل ! ..

* * *

تحول بيت الشاعر حسن فى عين شمس الى كعبة !

وتحول المهندس عباس من زعيم للمكذبين الى أول المريدين !

اصطنع الحوارية لسليم هاشم وهو فى حقيقته ـــ التى لم تخف على ممدوح وحسن ـــ يريد الجهاز لنفسه وحده .. يريد أن يكون وحده البطل .. يريد أن يكون هو الذى يدهش الكل !

الوغد .. لعب به لعبة قذرة .. تهيأت له ذات يوم فرصة الاختلاء بالآلة المعبودة ، واذا بممدوح فى بيته تستولى عليه رغبة فجائية متسلطة فى ان يخرج الى الشارع وينادى سيارة أجرة ويركبها .. والارادة التى تقوده هى التى أملت عليه العنوان الذى ذكره للسائق ، واذا به عنوان المصحة التى يعالج فيها زوج مشيرة .

يعرفونه فى المصحة ، لكن موظفة الاستقبال لفتت نظره فى حزم الى نظام مواعيد الزيارة المرتب حسب جدول الصدمات الكهربائية ، وفى الحال لحظت سلوكه غير المتزن .. كاد يستعمل يديه فى المناقشة معها ثم تشنج .. وسقط على الأرض فاقد الوعى .

وعندما استرد وعيه وجد نفسه ممددا فى فراشه وهو مرهق وخاوى الذهن ، ووجد قرب وسادته سليم هاشم .. وهنا علم مغزى الارادة الشريرة التى تبينها ملء وجوده وهو واقف يناقش الموظفة الحازمة .. فى تلك اللحظة تبين فى كيانه رغبة غلابة فى أن يتمكن من رقبة عمر فى الحجرة رقم ٨ ويخنقه بأصابعه العشر .. لقد سلط عليه عباس موجة عبد الصمد ملاكم عين شمس .. وكان من حظ ممدوح أن سليم هاشم عاد الى البيت فى اللحظة المناسبة وأبطل مفعول الشريط وأسرع الى المصحة ليتلقى ممدوح من بين أيدى الممرضين .. وكان الوحى المشحون بالكراهية والعدوان هو أن يخنق بأصابعه العشر « من يقف حائلا دون هنائه » !

ـ لم يذكر لك اى اسم .. كل ما أوحى به اليك هو أن تخنق بأصابعك العشرة « من يقف حائلا دون هنائك » !

ـ ان جهازك يمكن اذن أن يتحول الى نكبة !

ـــ تأكد انى اذا وجدت فى اى وقت انى غير قادر على حماية الجهاز من امثال عباس فسوف أحطمه ونستريح أنت وحسن وانا !

ـــ فى الامكان اذن يا سليم هاشم أن اتحول انا بفعل جهازك الى مجرم لا يعرف الرحمة ! .. اســـمع .. اننى لن أكرر هذه التجارب بعد اليوم .. ابعد عنى يا سليم هاشم أنت وجهازك ..

كاد انفعاله يسلمه من جديد الى الغيبوبة فنادى سليم هاشم على نرجس لكى تعد لهما شرابا منعشا ، لكن نرجس لم تكن فى البيت .. وبعد قليل رن جرس التليفون فسبقت يد سليم هاشم الى الســـماعة :

ـــ نعم ؟ .. أجل .. هذا هو اســـمها فعلا .. نرجس عبد الوارث .. أجل تشـــتغل هنا .. عند المهندس ممدوح عبد الجواد .. نعم ؟ .. وكيل ادارة التنفيذ بمؤسسة الانشاءات الهندسية .. فعلا .. فعلا يا حضرة الضابط .. هذا هو الحل الأمثل .. أشكرك ..

ـــ ضابط ؟

وهو يضع السماعة ابتسم سليم هاشم ليطمئن ممدوح :

ـــ اطمئن .. بســـيطة .. الضـــابط يقول انها هدات وسبصالحها على مأمون .. قبض عليها احد المخبرين لمحاولتها خنق مناول الصيدلية مأمون عبد ربه وهى الآن فى مركز الشرطة على ذمة الصلح ..

ـــ نرجس أرادت .. بأصابعها العشرة .. أن تخنق ..

امتقع وجه سليم هاشم وهو يتذكر فجأة طول موجة نرجس المماثل لطول موجة ممدوح .. لقد مســـها هى الأخرى قبس من الوحى دفعها وراء « من يقف حائلا دون هنائها » لتخنقه !

وكان صوته عندما تكلم شاحبا :

ــ نرجس نجت من جريمة قتل !

أما ممدوح فكيف ينسى وثبته من الفراش فى فزع :

ــ نرجس فقط ؟!

وراء ستارة النافذة وقف ممدوح يطل على العتمة فى مدخل حديقته .. شيء هناك يهتز .. فرع الياسمينة الكبيرة ، أم انسان كامن يتأهب للانقضاض والفتك ؟

شد نفسه بصعوبة الى داخل الصالة وضغط زر الموسيقى الهادئة .. نفس الموسيقى التى جاءها لائذا ومستجديا راحة النفس يوم ضرب عباس فى المكتب .. فى ذلك الظهر دخل عليه عباس وقال له ان سليم هاشم توصل الى « الموجة المتوسطة » التى تصل الى أكبر عدد من الأمخاخ وتحكمها بارادة واحدة ..

ويذكر ممدوح أنه قال لعباس :

قابلت حسن أمس وأسمعنى قصائده الأخيرة .. انه يرتعد أمام احتمالات استخدام هذه « الموجة المتوسطة »فى المستقبل .. أشعاره الجديدة كلها مناشدات يتوجه بها الى سليم هاشم داعيا اياه الى تحطيم الجهاز منذ الآن وتناسى أى ذكر له بعد اليوم .. ألست مثلنا خائفا منه ؟

ــ أيكون خائفا من لا حلم له الآن الا أن يركب الموجة المتوسطة وينتفع الى آخر الشوط بكل مفعولها ؟

يومها سكت ممدوح .. لم يعد يرى غير يد عباس المشعرة الشبيهة بحشرة مقززة وهى تلهو ببعض تصميماته الهندسية

المتراكمة على المكتب حتى تخرج من بينها بمسقط افقى لمشروع فيلا المدير العام الجديدة :

ــ ما هذا الذى كتبته على هامش المشروع ؟

حاول ممدوح وهو مضطرب ان يأخذ الرسم من زميله المتطفل ، لكن عباس أصر على أن يقرأ المكتوب بخط ممدوح :

ــ ماشاء الله .. عدوى أصابت مؤسسة الانشاءات الهندسية من معايشة الشاعر حسن .. هذا المشروع قصيدة عاطفية .. يا جماعة يا مهندسون .. المهندس ممدوح عبد الجواد شاعر وعاشق ..

عانى ممدوح وسط زملائه من خجل شديد كما لو قد ضبط فى مسلك فاضح .. لكن قهقهة عباس قلبت خجله فجأة الى غضب .. « لابد أن سليم هاشم يجرى الآن احدى تجاربه على .. لابد أنه بدأ بموجة حسن ! » .. وفى الحال تغير سلوكه من الخجل الغاضب الى المواجهة الرزينة .. لكن عباس لم يشأ أن يدع فرصة الابهار تمر دون أن يعتصرها :

ــ انا لست ضد الحب .. فقط قل لنا اسم حبيبتك .. هل هى ابنة الجار أم زوجة الزميل ؟

وخزت الغمزة الحقيرة قلبه وهزت اتزانه المصنوع .. وفجأة هاجت دمويته بنزوع وحشى ولم يعد يرى أمامه غير حشرة نفثت السم فى دمه وعليه أن يسحقها .. وفى خاطره ومض معنى ثان : « سليم هاشم يسحب الآن موجة حسن ويسلط على موجة عمد الصمد ! » .

وثار فى المؤسسة فزع وضجيج وتحطم زجاج وسال دم ..

***

وهو يدخل بيته فى ذلك اليوم ومض فى خاطره معنى ثالث من المعانى الكثيرة التدفق عنده فى العهد الأخير : « سليم هاشم لم يسحب حتى الآن موجة عبد الصمد ! » .

فى الصالة استقبلته من جهاز التسجيل ايقاعات رقصة شرقية ، ولمح فى دخوله خيالا يتأود قبالته فى المرآة .. نرجس فى بدلة رقص .. واحتوتها نظرته وهى تجمد فى مكانها عارية الفخذين :

ــ ماذا تفعلين ؟

ــ أنا مرشحة فى دور راقصة فى فيلم الاستاذ حسام الجديد !

توهج المعنى الرابع فى ضمير ممدوح : « سليم هاشم الآن يحكم نرجس أيضا بموجة زينة !! » .

ارتمى على الكنبة وهو يتأملها بحيوانية محمومة .. وتهتكت نرجس فى رقصتها أمامه وهاجته الى الشهوة باقتدار عاهر .. وتهيأ له وجه مشيرة بالأمس وصوتها : لماذا لا تتزوج وتستقر ؟

ولم يرن جرس التليفون الا بعد أن كان الملاكم والراقصة قد افترس أحدهما الآخر .. وامتدت يد ممدوح المتراخية الى السماعة ، ليسمع صوت حسن :

ــ سليم هاشم صدمه لورى وتركه مكسورا على أسفلت الشارع .. احضر الى مستشفى الدمرداش .

لحظة مسكرة يتدفأ ممدوح على ذكراها وسط هواجس الخوف .. هو الذى أراد أن يدخل عليها دخيلة نفسها الجوانية .. لم يشترك مع عباس بعد صلحهما المشين فى سرقة الجهاز من بيت

عين شمس لكنه رحب بالصندوق السحرى ليمزق له قناع مشيرة .. ودون أن تدرى هى أنها خاضعة لتأثير خارجى بدأ التجربة .. وعندما طابقت موجتهـــا موجته وتركت يدها بين بديه لأول مرة ناداها فى حنان باسمها ، ففتحت عينين عائدتين من عالم آخر وقالت له أنه هو حبيبها .. وفجأة ولدت بين ذراعيه امرأة جديدة نهمة الى الاستمتاع ومتفتحة الشهية الى الهناء ..

من تلك اللحظة قلما ذكرت مشيرة ساكن الحجرة رقم ٨ فى مصحة الدكتور مسعود ..

ربيع قصير العمر مر كحلم شاعر .. الى أن رفعت نرجس يوما سماعة التليفون واســـتمعت وهى ممتقعة الوجه دون أن تتكلم ، ثم وضعت السماعة وهى تقول لمدوح :

ــ المهندس عمر صلاح الدين شنق نفسه ..

تدفقت الأحداث وتشـــابكت عند ممدوح خيوطها .. هوت مشيرة من لذات الاستمتاع القصيرة الأجل الى عقدة احســـاس بالذنب حتى كادت هى نفسها تنضج للمصحة .. ونشرت احدى المجلات للشاعر حسن قصيدة « أشهد أنى نذير » التى لم يفهمها من القراء أحد .. حتى تلك اللحظة لم يكن أحد فى المدينة يدرى بما يدور فى مخ المهندس عباس بعد أن صارت الآلة فى حوزته .. وجاءت الأخبار من المؤسسة بأن المهندس توفيق عاد الى مناقشة موضوع السقف الذى وقع وتزعم اتجاها يعلق على انتحار المهندس عمر تعليقا يجرح مشيرة وممدوح ..

واستطاع عباس بهذه الوخزة الاخيرة أن يهيج دموية ممدوح :

ــ هل ستتركه ينهش فى سيرة مشيرة ؟

ــ وماذا تريد أن أفعل بلسانه القذر ؟

ـــ اقطعه .. انه لا يكتفى بذلك بل يتوعدنا بايقاظ التحقيق فى حادث سقوط السقف من نومه .. يريد أن يقضى علينا ..

ولمعت عينا عباس الذى تنهشه رغبة عفريتية فى استخدام الطاقة القصوى للجهاز :

ـــ أما يقضى علينا أو نقضى عليه ..

وماذا عندنا ضده لنضربه به ؟

ـــ هو عنده ما يضربنا به ان لم نعجل بالعمل .. يستطيع أن يجمع وثائق ومعلومات وشهادات تثبت أننا أنت وأنا وعمر فعلنا ما فعلنا .. يعنى فيها نيابة ادارية !

ـــ وما العمل ؟

ربت عباس على غطاء الصندوق السحرى :

ـــ لن نقوم نحن بأى فعل تكون ادانته ممكنة .. سنجلس هنا مستربحين « نسلط » عليه أى انسان لينفذ الفعل الذى ليس فى وسع أحدنا أن يقوم به بنفسه ..

ـــ نقتل توفيق ؟ وأى انسان يقبل أن يفعل هذا لنا ؟ قاتل محترف من الأرياف ؟

ـــ لا بل أى انسان من بين الناس نختاره .. رجل بسيط يؤدى المهمة دون أن يكون لقبوله أو استئذانه أى لزوم .. سيفعلها كما لو أن شخصا آخر يتصرف فى داخله !

وبعد أيام طلب برعى الشرطة بنفسه من بيت المهندس توفيق فى مدينة المهندسين وأبلغها أنه خنق صاحب البيت ..

وفى التحقيق وفى المحكمة كرر برعى انه لا يعرف لماذا خنق المهندس توفيق الذى قصد بيته بشنطة البضائع المهربة بعد بيت

ممدوح مباشرة .. وأكد أنه لم تكن بينه وبين القتيل أية «حزازات» بل ان القتيل كان من أكثر المهندسين اكراما له وسؤالا سخيا عن عياله الكثيرين ومشاكله العائلية التى لا تنتهى .. كل ما يعرفه هو أنه فجأة وبغير سابق تدبير أو تفكير أطبق على عنق المهندس وظل يضغط بأصابعه العشرة حتى مات .. كما لو أن شخصا آخر كان يتصرف فى داخله ..

فى بيت عين شمس قال سليم هاشم بعد خروجه من المستشفى بساقه المجبسة :

ــ عباس الآن سفاح فى دور التكوين .. انه يعرف كيف يستخدم الموجة المتوسطة ليتحكم فى أكبر عدد من الأمخاخ فى وقت واحد .. وسيحاول أن يجرى تجارب أكثر خطورة على مجاميع بشرية ..

ودق بقبضتيه سجن الجبس الملتف حول عظمته المكسورة :

ــ يتكلم عن السيطرة على العالم .. سيجتاح الشوارع والمكاتب والفنادق والبيوت .. ويجب فعلا أن تكون هناك وسيلة لمنعه ..

قال الشاعر فى اطراقة حزينة :

ــ لابد من الحصول على الجهاز وتحطيمه ..

ــ عندى من يصلح لهذه المهمة .. عبد الصمد ..

طالت اطراقة الشاعر قبل أن يرفع رأسه :

ــ اسمع يا سليم هاشم .. انا لا أفكر مثلك فى عضلات عبد الصمد .. واذا تصورت معركة مع عباس فانى لا أتصور عبد الصمد طرفا ثانيا فيها .. أرانى أنا نفسى داخلا فى هذه المعركة ولا أنفر من الصورة ..

وممدوح يعلم أنه لم تحدث معركة .. بأعصاب هادئة تحول الشاعر الى لص شريف وانتهز لحظة دخول عباس الى حمام بيته وحمل الصندوق ببساطة الى تاكسى نقلهما الى عين شمس ، وقال لسليم هاشم :

ـــ ما كنت لأفعلها لو لم أشعر فى أعماقى أنى أشرف من سرق !

لم يتكلم سليم هاشم بل اخذت قبضتاه تنتزعان من أحشاء الجهاز كتلا من الاسلاك والوصلات والشرائط وتحطمها على جبس ساقه حتى صار السر المكنون فى الصندوق حطاما حول السرير .. وعندها فقط تنهد مرتاحا :

ـــ وقد مزقت الأوراق أيضا .. وما أن يكسر الدكتور الجبس حتى أختفى أنا الآخر ..

ممدوح عبد الجواد وحده فى البيت .. وحده مع هواجس الرعب .. هناك شىء ما يهتز فى العتمة .. انسان كامن يتأهب للانقضاض .. برعى .. الذى جعل المدينة من حوله قفصا .. صاحب عنق الثور وعفوية المجانين واليدين القويتين و الاصابع المتينة .. الوحش المخبول .. سيخنقنى بأصابعه العشرة .. سيخنقنى بأصابعه العشرة ..

* * *

الشـــــعاع

ما غنى البشر فى تاريخهم الطويل كله لأجمل من الحرية ، ولا عرف العشق من لم يمتلىء فؤاده بحبها .. ان السجن ليس الجدران والقضبان بل نوع النسمات التى يستنشقها المرء ويقيم عليها بنيان وجوده .. ولقد كنت أتنقل بين بغداد ونيسابور والرى وشيراز وغيرها من بلاد العرب والفرس وأنا فى حلى وترحالى أسمع فى كل خطوة رنين الأصفاد !

وسكت الشيخ الممدد على فراش المرض فى مسقط شعاع القمر الهابط الى الحجرة الناطقة بالعرى والفاقة ، بين خزانة الكتب شبه الفارغة والكرسى المهشـــــم المغطى بكومة من الملابس العتيقة ، فقال تلميذه الجديد قاسم ، الوراق الشاب :

— يا أبا حيان ، اذكر الله !

وهمس فارس بن بكران الشيرازى ، أقدم تلاميذ الشيخ الأحياء :

— أن هذا مقام ضراعة ، وكل يسعى لهذه الساعة !

رفع الشيخ رأسه اليهما ، وكل ما فى كيانه الذابل من حياة ذكية توقد فى عينيه ، وتبســـــم لهما وجهه الذى حفر عليه عمر تجاوز المائة سنة بصمات صراع طويل مع الحياة :

ـ من يسمع مواعظكما يتخيل أنى أموت هذه الليلة ، وانى مقدم على شرطى .. انما أقدم على رب غفور ..

وثبتت نظرته على القلق فى وجه صديقه فارس ، وداعبه بما يعلم أنه يسرى عن نفسه :

ـ كيف حمارك الذى لم يعرف فى حياته حماقة الرعونة ، رزين الحركات ثابت الخطوات ، وسيم القسمات مهيب الطلعة ؟

ـ ان شـيخنا ، حتى فى هذا المقام ، لا يفلت منه روح الفكاهة ..

وصوت الشيخ يأتى على وهن ، لكنه هادىء ومنتظم :

ـ روح الفكاهة فى حياتى كان الدرع والرمح .. كيف لا وقد صـحبت الناس قرنا من الزمان فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ، ولا ستروا لى عيبا ، ولا حفظوا لى عهدا ، ولا جبروا منى كسرا ، ورأيت الشغل بهم تجرعا للغيظ مع الساعات ..

مال قاسم على أستاذه فى حنو رقيق :

ـ قد تتعبك كثرة الكلام .. الآن !

ـ يا قاسم ! انى الليلة منتعش النفس ، فلا تحبس الكلمات فى حلقى !

ووقع الصـمت فى الحجرة العارية حتى لكأن مدينة شيراز كلها قد لفها فجأة سكون عميق ، قبل أن يتكلم فارس :

ـ حقا ما كان أشـد غربتك فى دنيانا .. ولقد قلتها أنت يا أبا حيان .. أغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه .. لكنك لن تكون بعد اليوم فى غربة ..

أدرك أبو حيان أن صديقه يشير مرة أخرى الى دنو أجله ، فتبسم :

ــ الموت ؟.. انى أعرفه .. طالما التقينا وجها لوجه .. شاهدت يوما عند طرف الجسر فى بغداد رجلا كان يساق الى السجن بين حراس غلاظ عندما لمح فى دكان مزين موسى يلمع بريقها ، فاختطفها ، وذبح بها نفسه وهو يخور كثور المجزر ... من خلال موت الانسان المسكين أطللت على الحقيقة الوحيدة المؤكدة ... الموت .. ومن خلال اللحظة صارت للحياة فى نظرى قيمة أقل .. سكنت نفسى الى وحشة كبيرة .. وعرفت أيضا قيمة الفكاهة .. فأمام سخف الحياة وتفاهة الانسان لابد من متنفس لكل منسحق ومكدود ..

قال شباب قاسم فى شىء من الأسى :

ــ من الصعب على النفس أن تفقد ايمانها بالانسان !

قالت حكمة فارس بن بكران :

ــ فى قلب الظلام الذى لم يعدم بعض الأفكار والفنون والعلوم ، كانت البصيرة وحدها هى سلاح أستاذنا الجليل .. وعن طريقها استطاع أن ينفذ من متون البلاغة والتفسير والحديث وعلوم الكلام و المنطق وحواشى الشراح ، ومن الفوضى والفساد العام ، الى حكمة زمانه ومعناه ..

تبسم الشيخ عن رضا وقناعة :

ــ حاولت أن أبلغ عقول البسطاء وقلوبهم بكلام مفهوم عن العلم والفن والحياة والموت والاخلاق والفلسفة والله والانسان ، فكان جزائى اجترار العلقم ومغالبة الجهالة والفسولة والخسة .

قال فارس :

ـــ وهل كان يمسك علينا رمق الرجاء نحن احبابك غير فكاهة منك مسددة كالسهم أو حكمة لك ناصعة بالحق !

مسح فيلسوف القرن الرابع الهجرى على جبينه بأصابع ناحلة :

ـــ مأزق لئيم .. ان أمراء زمانى ووزراءه قد وضعوا المفكرين والأدباء فى مأزق لئيم .. لم يعد أمام كثرتهم الا أن تطرق الأبواب الذهبية بغير شرف ولا عزة .. ان طلب الرزق فى مثل هذا الزمان ،صيبة .. ولقد حاولت أن أصنع لنفسى بالقناعة الزاهدة والكبرياء المحاصرة حياة منعزلة .. وكم كان ذلك عسيرا .. وابيت حتى أن يكون لى زوجة وولد .. ومع هذا قادتنى الى الأبواب الذهبية فى بعض الأحيان حاجتى الى مادة العيش .. حريتى كانت مشوبة تقيدها الضرورات .. ولم يكن فى وسعى أن ألجأ أنا الآخر الى مثل ما فعل المسكين بموسى المزين عند طرف الجسر فى ذلك اليوم الذى لا أنساه .. كنا فى ظل حكم بنى بويه عبيدا للحاجة وأسرى لناموس الحياة القاسى ..

مسح قاسم جبين أستاذه الذى تفصد عرقا من جهد الكلام :

ـــ لا عليك يا شيخنا .. قد استعليت على مطالب المعاش كما لم يفعل أحد فى زمانك .. لم تكن أسيرا ، لأنك رميت بالحقيقة فى وجوه الناس كبارهم قبل صغارهم ، ولم تسكت على فساد الحياة ..

أضحكت الشيخ صور ابتعثتها كلمات تلميذه فى مرآته الداخلية :

ـــ بل يعلم الله كما يعلم صـــديقنا فارس أننى قصدت انا ايضا أبواب بعض الكبراء .. باب المهلبى وزير معز الدولة الذى لم يكد يتكشف لى جمود جهله وتتكشف له حركة علمى حتى نفرت فى وجهه عروق الغيظ ونفانى من بغداد كى يســـــتريح من علمى فيستريح الى جهله ! .. وباب أبى الفضل بن العميد الذى كان سوقا للشعراء والكتاب ، وكان خازن كتبه صديقى مسكويه .. ابن العميد هو الآخر لم تعجبه لغتى الصارمة فى المحاورة ولا هيئتى عند الكلام .. حتى الصاحب بن عباد عندما قصدته أراد لى أن أشتغل عنده نساخا ، وكأنه يقول لى : انسحق يا هذا أمامى أو فلن تجد ما تأكل ! .. انهم هناك عند قمة السلطة لا يقبلون منك أن تكون عارفا بقدر نفسك أو صاحب أنفة !

قال فارس :

ـــ أعتقد أنه ما كان ليرميك بكل هذه البغضاء لو أنك كتمت عنه رأيك فى بعض ما كتب ولم تقل له أن فيه الردىء مع الجيد !

ـــ وما ذنبى اذا لم أستطع نسخ مجلداته ؟ .. ومن هذا الذى يستحسن هذا التكلف حتى أعذره فى لومى على الامتناع ؟ .. أى انسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتعه الله ببصره أن ينفعه بيده ؟ .. وما ذنبى اذا كان هذا الوزير أيضا شديد الحسد لمن يحسن القول ويكون الصواب غالبا على كتابته ؟ .. لم يجد منى الصاحب بن عباد ما توقعه من رياء وتصاغر .. وظل يعاملنى كنساخ نافيا عنى صفة الفكر والعلم .. ابتليت به وكذلك هو ابتلى بى ، لانى فى النهاية افرغت ما كان عندى على رأسه ! ..

ـــ من يكون الطارق فى هذه الساعة من الليل ؟

كان قاسم أول من تنبه الى الدقات المترددة ، فنهض الى الباب ، وعاد بوجه تنطق فيه دهشة خفيفة :

ـــ عجوز تقول أن اسمها حسن !

تبـــادل أبو حيـــان وفارس نظرة فاهمة ، وقال العمـــلاق الراقد :

ـــ أدخلها يا قاسم باكرام ، انها من أهل الوفاء .

وتلقاها عند دخولها متهللا ، وعيناه لامعتان :

ـــ أهلا ياحسن !

تأمل شـــباب قاسم شيخوخة المرأة قارئا فى تجاعيد الوجه الذى هضمه الزمن أطلال جمال ، وأشار اليها الأســـتاذ فتكومت بالقرب من وسادته وغمرته من عينيها موجة حنان دافئة :

ـــ ألا تعيش قرنا آخر يازين الفلاسفة ..

أمسك بيدها فتعانقت فى مسقط شعاع القمر عظام وعروق مكسوة بجلد يابس ، عناق محبة ووداد ..

ومال فارس على قاسم المشدوه :

ـــ فى شـــبابها كانت أجمل غوانى شيراز ، الى أن جمعتها بشيخك ليلة كان فيها جائعا فأطعمته وروته ..

ـــ بغى ؟!

ـــ الى تلك الليلة كانت تبيع جســـــدها لطواغيت المال فى فارس ، لكن فجر تلك الليلة لم ينبلج حتى كانت قد تابت .. ملأت معدته وملأ نفسها .. ومن صباحها أكلت كما أكل فى بعض الأحيان كلأ الأرض وفتات القوت بعد أن كان سراة شيراز يسقونها خمر أصفهان المعتقة فى كاســـات مطعمة بكرائم الجوهر ، ويطعمونها الطواويس محشوة بالفستق ..

وقالت العجوز فجأة وهى تضحك فى وجه قاسم :

— فيم همسك مع صاحبك ؟ .. شيخك صنع منى فى يوم قديم انسانة بعد أن كنت حيوان متعة .. جعل لى هامة مرفوعة ونفسا قنوعة وحياة فردوسية الروح .. هو أمامى كما هو أمامك ..

تردد قاسم لكن السؤال الذى ملأ عليه نفسه نطق فى قسمات وجهه ، فقال له أستاذه وهو يمر بلمسات رقيقة من يده على شعر المرأة الابيض :

— تسأل نفسك : أين كانت شدته فى الحق وقسوته فى حكمه على الناس وهو يرعى من كانت لها تلك التجارة قبل أن يستضىء قلبها .. ان رحمتى بها لم تكن غير دفاع عن نفسى .. الناس كما تعلم عقارب لداغة ، وأفاع نهاشة ، وسباع ضارية ، وكلاب عاوية .. والحياة معهم وبينهم قاسية يا قاسم .. وحياتهم نفسها متهرئة وان كانوا فى عمى البصيرة لا يشعرون .. ونحن المدركين نعرف هذه الحقيقة ونتعذب بها ..

— نعم يا شيخى .. لقد عمرت فأطللت من خلال الوقائع والعجائب على بيداء النفس البشرية وما فيها من رمال خاتلة وواحات كاذبة ومثالب قاصمة .. اننى فى رحابك اشعر بجلاء بما فى صميم هذه الحياة من نقائص وقصور وما فى صميم الانسان من ظلمانية وتصدع ..

— ما هو الانسان ؟ عادة طالبة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح ، وعقل طفيف ، ورأى ضعيف .. ولهذا كان حب السلامة عندى غالبا ، والقناعة بالطفيف محبوبة ، فالفضل فى دنيا الناس قليل ، والكمال مستحيل .

قالت زائرة الليل وهى تحتضن يده بين يديها :

ـــ قد جئت عليك صراحتك فى الحق وقلة حظك من النفاق ياسيد الأدباء ! .. اننى لا أنسى واقعة حضرتها فى يوم بعيد من وراء ستار ، اذ جاءك صديقك مسكويه غاضبا لأن الوزير ابن العميد اخطأ عندما أعطى ألف دينار لأديب تعرفانه لا يستحق فى رأيه مائة دينار .. واذا بك تجبه صديقك بالحقيقة المكنونة فى نفسه ، قائلا له : لو أن الوزير غلط فيك بهذا العطاء واضعافه ، اكنت تقول انه مخطىء أو مبذر ، أو كنت تقول : ما احسن ما فعل ! .. لماذا تتكلم فى الاخلاق وتدعى الحكمة ولا تفطن لدخيلة نفسك أو تطلع على شراهة سرك ؟! ..

قال فارس :

ـــ أستاذنا كان دائما الحكيم الذى يخرج زكاة الحكمة وليكن بعد ذلك ما يكون .. أليس هو القائل مخاطبا نفسه قبل أن يقرع الناس :

« ظاهرك أعبث من باطنك ،
وباطنك اخبث من ظاهرك ،
واشارتك أنكد من عبارتك ،
وعبارتك افسد من اشارتك ،
وكلك مستغيث من بعضك ،
وبعضك هارب من كلك ،
وليلك يضج من نهارك ،
ونهارك يبرأ الى الله من ليلك !! »

وما أن سمعت « حسن » هذه الكلمات حتى أنحنت على يد الشيخ وغمرتها بقبلاتها ودموعها قبل أن تقوى على الكلام :

ــ فى وحدتى أستعيد بعض أخبارك مع ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى .. أتذكر ؟ .. قادك الى بابه صديقك أبو الوفاء ، ثم كان ما كان ..

الآن يضحك العملاق الراقد ضحكا قويا من القلب كما لو كان سيعيش قرنا آخر :

ــ أتذكرين تلك الوقائع حقا يا حسن الزمان ؟

وكيف أنسى نصيحة أبى الوفاء لك على باب الوزير : كن ناعما يا أبا حيان واجتهد ألا تنسى الكياسة التى تلزم من يجالس الكبراء .. لا تكن كالعهد بك غرا لا هيئة له فى لقاء الوزراء ومحاورتهم .. لكن كان ما كان .. لم تكد تنعم بما وجدت عند ابن سعدان من عرفان بقدرك واحترام لرأيك ومن بعض الجزاء الحسن حتى طار ابن سعدان من كرسى الوزارة ! .. قتله من وثب على الكرسى ، وأصدر أمره بسجن أعوانه .. وأنت لا تحب السجون .. هربت الى عنا .. ولم تجد الحضن الدافىء فى شيراز الا عند المتصوفة .. عشت معهم غريب الحال واللفظ والنحلة ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، محتملا للأذى ، يائسا من الخلق .. وعندما وجدت أن ماء الحياة الى نضوب ، ونجم العيش الى أفول ، أحرقت بيدك كتبك الغالية ..

نطقت فى عينى الشيخ ضبابة الم لم يلبث أن كبتها :

ــ جاءت لحظة لم أعد أجد عندها أى معنى لترك مصنفاتى لمن اضطررت بينهم فى أوقات كثيرة ، بعد العشرة والمعرفة ، الى

اكل ما فى الصحراء من كلأ يابس .. والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة .. والى تعاطى الرياء .. الى كل ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، وما يطرح فى قلب صاحبه الألم .. كانت لحظة مفجعة ، المضجع فيها مقض ، والمقام ممض ! ..

وانتظر حتى هدأت أنفاسه بعض الشىء وسكنت نفسه ، ثم سأل الاحباب الثلاثة فجأة :

ـــ الى متى يقول الناس بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والى متى يدعون الصدق والكذب شعارهم ودثارهم ؟

قال شباب قاسم وهو يتحسس الكلمات على استحياء :

ـــ لعلك تأذن لنا أن نكتب هذه الكلمة على مثواك الطاهر بعد عمر طويل ؟

انسحب من المكان شعاع القمر ، وقال أبو حيان التوحيدى :

ـــ القبر ؟ .. لا .. ما قيمة القبر يا أحباب حتى يكتب عليه شىء .. ولو أنى مختار من كلمات حياتى لكانت هذه الكلمة هى ما أختار : « كانت الكلمة الحسناء عنده أشرف من الجارية العذراء والمعنى المقوم أحب اليه من المال المكوم ! » .

الطبـــلة

النعوش متفاوته الاحجـــام مســـندة الى جدران الحانوت القاتمة ، ومبسم الشيشة ينتقل بين الحاج شاكر الحانوتى وصديقه عمران الأخ الأصغر لأرملة الطبال الذى دفن منذ نصف ساعة .

دعك الحاج شاكر زبيبة الصلاة وقال فى شىء من العجب :

ـ والله وسكتت طبلتك يا مدبولى !

بعصبيته المعتادة رد عمران :

ـ سكت حسه وانخفى اسمه !

ـ اذكروا محاسن موتاكم ..

ـ ان كان لهم محاسن يا حاج !

ـ قل فيه ما شئت انما مدبولى كان ابن فن ..

ـ فن وغش لا يتفقان ..

ـ انا معك .. المرحوم كان من اكذب اهل زمانه .. لكن هل تنكر ياعمران يا اخويا انه بلا شىء غير أصـــابعه على الطبلة المشروخة جعل الناس يعيشون ليالى جميلة ؟

ـ النفس الحاقدة لا يمكن أن تكون نفس ابن فن .. ومن يزرع الحقد لا يحصد غير الكراهية .

ـ أخطاؤه كلها كانت بحسن نية ..

ــ قلبه كان أسود .. لم يكن يهمه الا نفسه ولا يعنيه شيء من عذاب الآخرين ..

ــ أشقى الناس بالحقد هو الحاقد نفسه .. مدبولى كان يعذب نفسه قبل أن يعذب الغير ، فاطلب له الرحمة .

ــ وأختى ؟ .. هل شافت معه ساعة واحدة حلوة ؟ .. الى جانب طولها وعرضها ، كان يبدو بضآلة جسمه كما لو كان فى وسعها أن تشيله وتهبده فيتكسر مائة قطعة .. لكنه هو الذى شغل لها مخه وسقاها الحنظل . مسكينة عطيات الغلبانة !

كانوا قد دفنوا مدبولى فى هرولة متواطئة بين اللحادين والمشيعين ، وما أن انصرفت حفنة الرجال الذين شيعوا الجنازة مع عمران وانزاحت عن المقابر كتلة النساء السوداء حتى عادت أرملته وابنه الصغير الى البيت ليجدا الطبلة فى انتظارهما والشرخ الطويل فى رقبتها ظاهر ، كما كانت تبدو لهما فى الأوقات التى تستريح فيها من دقات أصابعه القوية .. وزفرت عطيات وهى تطوح بالطرحة السوداء محدقة بغيظ فى الطبلة المستقرة على قاعدة الشباك المطل على حارة الظاهر :

ــ نسينا أن ندفنها معه !

ــ رحمة ونور عليك يا بابا .. كان أحسن طبال !

وتفادى الولد أن تلتقى نظرته بعينى أمه التى زعقت فى وجهه :

ــ نور ؟! .. ياشيخ اطلب الشيء المعقول ! .. اطلب مثلا الا تطول اقامته فى جهنم أكثر من مليون سنة !

جمع الغلام أطراف شجاعته أمام سطوة أمه:

ـ لن يمسها أحد فهى منذ اليوم طبلتى .

بوجه مكفهر تقدمت عطيات نحو وحيدها :

ـ شوف .. حتى أجد لها داهية تغور فيها هى الأخرى ، سأحطمها على رأسك ان لمستها !

ـ لماذا ؟ .. هذا ميراثى !

ـ دقة واحدة أخرى عليها ويركبنى الجنون !

وجلست على كنبة ونفثت زفرة حارقة فى اتجاه الجلد المدبوغ بعرق مدبولى ورقبة الطبلة الداكنة الفخار ، وذلك الشرخ الطويل الذى كان سببه رأسـها ! .. يومها أرادت ولو مرة فى العمر أن تناقشه فى أمر أصدره ، فما كان منه الا أن أسكتها بضربة من الطبلة ساحقة للكرامة وقاصمة للارادة .. وبهدوء أشعل سيجارة ، بل انه فى نفس المساء كان « خالى شغل » فجاءها وهى منزوية فى ركن المطبخ وطلب منها أن تعشى الولد وتنيمه وتقوم فتتزين وتدع النكد ..

لم يكن يقوى عليه غير الموت !

بقيت الطبلة بعد موت الطبال .

وتموت الحياة فى حارة الظاهر بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين ويعمق السكون ، لكن عطيات فى بعض الليالى تنتزعها من النوم يقظة قاسية وتظل جالسة فى فراشها ودقات قلبها موجعة متلاحمة .. لقد سمعت فى جنبات البيت ملء سكون الليل ضربات على الطبلة !

يركبها جنون الخوف .. ألم يكفه ما فعله بها فى حياته حتى يعود الى تنغيص عيشها بعد موته ، مدبولى الطبال ؟

تصغى فى السكون فلا تسمع شيئا ، فتنهض باستخذاء كما لو كان عفريت مدبولى يرمقها من فراغ البيت .. وبركن العين تلمح الطبلة فى مكانها من الشباك .. الصوت الوحيد الذى تسمعه هو أنفاس الولد الهانىء بنوم الصـــــبيان الثقيل .. تشرب من القلة جرعة باردة وتصب بعض الماء فى كفها وتطس به وجهها وهى تستعيذ من كل شيطان ..

وفى احدى المرات بلغ منها الخوف أن أيقظت وحيدها ..

ــ بشير .. هل تسمع ما أسمع ؟

ــ لماذا تحرمينني من لذيذ النوم ؟

ــ الطبلة تدق وحدها !!

أخرجته من حلم جميل كان فيه يستخرج من طبلة أبيه أبرع الايقاعات والناس من حوله يتصايحون الله يا ابن مدبولى ..

ــ مستحيل يا ماما .. قلت لك لا تنامى على طول بعد أكلة الطعمية والشطة والشمام فلم تسمعى الكلام .. هذا كابوس .. الطبلة لا تدق وحدها أبدا .. تلزمها الأصابع المتمكنة .

ويسكن الليل لكن الدقات لا تلبث أن تشد الأرملة من نومها .. مدبولى عقد عزمه على أن يجننها .. صنع لها الشقاء وهو حى وهاهو يريد لها الجنون وهو ميت .. ستظل تدفع ثمن زواجها منه الى آخر الايام ..

وكادت مع طلوع النهار تقبل يد أخيها وهى تستعطفه :

ــ ياعمران .. لابد أن يخلو بيتى من هذه الطبلة .. كان يقول دائما ان بعض الطبالين يعرض عليه مبالغ محترمة لكى يتنازل عنها ، وأنا فى عرض من يأخذ من بيتى هذا العفريت الذى يريد أن يغتصب ما أبقى لى صاحبه من عقل ..

وقبل أربعين مدبولى بأيام جاءها أخوها بطبال يعرفه من أتباع أحد متعهدى الحفلات وقال لها انه راغب فى شراء طبلة مدبولى ذائعة الصيت . .

أدخل عمران الزائر الى حجرة الكتب وعاد الى الصالة ليهمس فى أذنها :

ــ اخلص منها ولو من غير فلوس !

وأخرج نصف ريال لبشير الذى كان قد سمع الهمسة فانزوى ساهما لصق الجدار وغمز به يده :

ــ هات ثلاث زجاجات ليمون مثلجة ، والباقى لك .

قال الولد فى غيظ لم يحسن كبته :

ــ ألا يستطيع العفريت اذا أراد الامعان فى محاورتك أن يأتى معه بطبلته فى عبه ؟!

ناولته أمه صفعة مكتومة :

ــ تحرك يا ابن مدبولى بدلا من أن تنسحب من لسانك !

واحكمت الطرحة السوداء حول شعرها ودخلت وراء أخيها على رجل ممتلىء أصغر من مدبولى فى السن وان لم يكن أنضر شبابا ، يلعب مع الكلام خصره وخفقات رموشه وحواجبه المنتوفة ، وعينة زائغة .

كلمة من هنا وكلمة من هناك ، وقبل أن يظهر بشير بالكازوزة ظهر أحد صبية عمران :

ــ المعلم جاد الله المقاول وصل الدكان ومعه اللورى والانفار وأراد أن يشـــيل المونة والبوية ، قلت له أجيء بالمعلم ليحضر المشـــال .

وضع عمران يده على كتف الضيف فى صداقة وعشم :

ــ المعلم جاد الله هذا يأكل مال النبى .. لو تركته يشيل وحده لغالطنى فى كل شيء من عدد الشكاير الى أوزان البويات .. وأنت لست غريبا ياسى عبده .. عندما تأخذ طبلتك مر على فى المحل ، حتى نضحك معا على خيبتك لو أنك دفعت فيها أكثر من ريال !

شيء من الحرج حدث فى الحجرة بعد خروج عمران ، وتهيأت عطيات للنهوض ، بجسمها المليان التى أحست من أول دقيقة أن نظرات « سى عبده » هذا تحسس عليه من كل ناحية .

ــ الولد تأخر بالكازوزة .. شقاوة عيال ..

لعب سى عبده منطقة حواجبه التى لحظت عطيات أن بعض حركاتها تشد الى اللعب أيضا سوالفه العجيبة الطول والغزارة :

ــ كلما تأخر كان ذلك أدعى الى سرور سى عبده وحياتك !

ــ طيب أحضر الطبلة لتعاينها ؟

أضاف الى مناطق اللعب وسطه الذى يحدده حزام جلدى أسود عريض يفصل ما بين البنطلون الفيروزى والقميص المشجر بالاسود على أرضية بيضاء :

ــ ماخلاص .. سى عبده وحياتك عاين وانتهى !

تأملت الخلبوص الجرىء واستشعرت كم هو ناعم ومعسول اللسان ووقح واملس .. انه يريد الارملة قبل الطبلة .. وهاهو بغير مقدمات يدندن فجأة فى بيت رجل لم ينقض على موته أربعون يوما، وهو يتمايل على الكنبة : « أنا هويت وانتهيت .. وليه بقى لوم العزول .. » ..

وقفت فى شىء من الحزم وان يكن صوتها لينا :

ــ أحضر لك الطبلة ياسى عبده !

ــ ياست عطيات .. أولا ، ولا مؤاخذة .. طبلتك مقدمها كم ومؤخرها كم ؟

تظــــاهرت بالارتباك وهى تنأى ببصرها عن البنطلــون الفيروزى :

والحمار الصغير الذى راح يلعب مع العيال ونسى الطلب ..

أما سى عبده فكله الآن يلعب :

ــ الكازوزة ليست طلب سى عبده .. سى عبده لا يريد الا أن ينقر على طبلة مدبولى التى وصله صيتها ! ..

توضحت بشائر ضحكة ناعمة فى وجه عطيات وحنجرتها ، وعندما كادت تفلت الضحكة جمدت فجأة القسمات المتهيئة للانشراح على شعور بالرعب .

ولم تجب عطيات على استفسار الزائر الذى أنهضه رعبها مندهشا خائفا ، بل اشارت بيدها فى اتجاه الصالة اشارة تقول : « الا تسمع ما أسمع ؟ » .

تبين عند ذاك نقرا خفيفا فى الصالة فهدأت نفسه ، واستعمل خفقات رموشه مع الطبطبة باليد على الكتف اللحيمة ، فى مداعبة الانثى التى أوشك من بدء الجولة أن يطويها :

ـ ركبى سابت ياست عطيات ولا شىء يخيف .. هذه أصابع غير خبيرة تعالج الطبلة فى الصالة .. لعله المحروس عاد من عند البقال وأراد أن يودع الطبلة .

اشارت بيدها نافية الفكرة ولا يزال الرعب ناطقا فى وجهها السمين :

ـ لا لا .. باسم الله الحفيظ .. فقط هذه هى أول مرة يعملها فى النهار .

ـ يعملها ؟

ـ لم يكن يعملها الا فى الليل .

ـ يعمل ماذا ؟

ـ ينقر على الطبلة .

ـ من ؟

ـ عفريت المرحوم ..

ـ عفريت مدبولى ؟!

فى نفس اللحظة التى قالت فيها « عفريت المرحوم » كانت قد بدأت تتبين فعلا فيما تسمع جهل ابنها بالدق على الطبلة .. وعودتها التدريجية الى الهدوء هى التى مكنتها من الاستمتاع الخبيث بوقع الكلمة على الزائر الغازى .. كلماته المتقطعة وحركاته المضطربة جعلت منه أمامها شبه أراجوز نصفه الاعلى أسود وأبيض ونصفه الاسفل فيروزى .. ولم يسرها أن العرض المسلى انتهى بسرعة عندما اندفع طبال العوالم فى اتجاه باب المسكن لينجو بجلده ..

سمحت لضحكاتها الخافتة أن تزفها وهى تهرول خلفه حتى لا تفوتها اهتزازة ولا رجرجة من منظر ردفيه فى حال الخوف ، واذا به فى الصالة جامد من الغيظ أمام بشير الجالس فى الركن ينقر على الطبلة القابعة فى حجره كالمحبوبة .

مات الضحك ورفعت عطيات كفها السمينة وأهوت على وجه ابنها بصفعة أراحت نفسها :

ــ يا كلب .. هل هذه هى الكازوزة التى جئت بها ؟

ترك بشير الطبلة تنتقل بيد الزائر البغيض الى قاعدتها بالشباك ووقف فى بلادة من لم يعد فى عناده يبالى بشىء :

ــ الثلج لم يكن وصل ..

ــ كذاب مثل أبيك !

وهجمت عليه فاعترضها قناص الفرص هانئا بهذه الهجمة التى تلقاها هو بحضنه زاعما أنه يمنع الأم من ضرب ولدها مرة أخرى .. واستشعرت هى أنه يتحسس جسمها ويفحصه فكادت توقف اللعبة فى الحال .. حتى الولد نفسه توقع ذلك لكن اللعبة لم تتوقف .. ظلت تتظاهر بأنها لم تشف غليلها من الولد واستمر يتظاهر باعتراضها وتهدئتها .. ولم تتوقف اللعبة التى تركته خلالها يتعرف الى كل ما يطمئن قلبه ويشعل حماسته الا عندما مثلت هى دور من هدأت بعد احتدام ، فأخرج الزائر المنتشى ربع جنيه جديدا ووضعه فى يد الولد العنيد وهو يفشخ له حنكه عن ابتسامة صداقة مكشوفة الزيف ..

ــ هات لى علبة سجاير وخذ الباقى لنفسك يا بطل !

وأدركت هى بالغريزة أن البنطلون الفيروزى فى حاجة الى دقائق للاتفاق النهائى ، فعاجلت تهدد الولد بانذار حازم :

ـــ وأن غبت يا ابن الحرام سأكمل العلقة .. تحركَ !

مرة أخرى صارا وحيدين ، واقفين وجها لوجه أمام الطبلة الجاثمة على قاعدتها كالصنم .

لعبت الحواجب النشيطة بإيماءة تشير الى حجرة الكنب ، لكن اللحم السمين تلكأ بدلال مدروس :

ـــ الطبلة أمامكَ ..

ـــ صلاة النبى أحسن !

ـــ افصل !

ـــ المقدم عمرى والمؤخر عمر الذين خلفونى !

ضحكت خلاعتها فأطبق بيده على ذراع أسخن من الرغيف الطالع من الفرن وعاد بها دون أن تقاومه الى الكنبة ..

وفى الحال امتزجت حسابات الزواج الذى لا مفر من تأجيله الى أن تمر على الوفاة سنة ببعض المناوشات الجريئة والضحكات المكتومة ..

ولا جاءت كازوزة ولا جاءت سجائر ، بل اتضح بعد قليل أن القروش الخمسة والثلاثين التى دخلت فى ذلك اليوم جيب بشير كانت ثوابا على تحية أخرى مختلفة تماما .. ولقد كان البنطلون الفيروزى مشتبكا مع الطرحة السوداء فى حوار ساخن عندما دهم الولد الحجرة بالطبلة مرفوعة بين يديه وأهوى بها على دماغ سى عبده فتساقطت من حوله على الارض شظايا فخار ، وخرقة جلدية مدبوغة بعرق السنين .

ولم تكن الصرخة التى سمعتها حارة الظاهر من المرأة أو من الرجل ، بل جاءت من بشير :

ـــ الحقنى يا خال عمران !..

اللحــم والعظــم

جاءت بالتليفون وجهاز التسجيل واشرطة الموسيقى وجعلتها فى متناول يده ، وفى كل لمسة من لمساتها حنان واهتمام .

أراد أن يزيل من نفسها الحرج لخروجها وحدها الى السهرة قبل مرور يومين على حادث السيارة :

— البسى يا ميرفت ، فلم يبق على حضور نجوى أكثر من نصف ساعة .

— المسرحية لن تطير يا عاصم .. مسرحيات القطاع الخاص يســـــتمر عرضها سنة وأكثر .. وتذاكر الدعوة فى الصف الاول تأتينا بغير ثمن ..

ولمست الجبس المحيط بساقه المكسورة ، حيث كانت قد كتبت فى الصباح بقلم أحمر الشفاه : « أحبك — ميرفت » .

— وعندما تفك الجبس نتفرج على المسرحية معا .

— ونجوى التى اتفقت معها على أن تكون تذكرتى لها ورتبت نفسها على الخروج الليلة ؟

— نجوى تستطيع فى دقائق أن تدبر لنفسها سهرة اخرى . وسأعتذر لها بالتليفون وابقى معك ..

ـــ لا يا حبيبتى .. هيا .. اسمعى الكلام ..

انحنت عليه ومرت بأصابعها على أحد حاجبيه :

ـــ قد تحتاج الى شىء ، والبنت عزيزة يكبس عليها النوم من أول الليل ، وخاصة اذا كانت هوايتها الكبرى معطلة .

ضحك وهو يداعب خصلة شعرها المتهدلة :

ـــ التليفزيون ؟ كان المفروض أن يحضر صديقنا أحمد فى النهار لاصلاحه ، ولابد أن ظروف عمله فى الشركة هى التى أخرته .. لعله يحضر بين لحظة وأخرى فلا تحرم عزيزة الليلة من مشاهدة معبودتها زوزو ..

أشارت الى الجهاز القابع فى ركن حجرة النوم تحت الزهرية الكريستال :

ـــ اذا جاء وتمكن من اصلاح الجهاز فما معنى ذهابى أنا الى المسرح والمسرحية مذاعة الليلة بالتليفزيون ؟

ـــ قد لا يوفق الى اصـــــلاحه الليلة ويحتاج الأمر الى نقل الجهاز الى ورش الشركة .. وسيكون أحمد معى .. لم ير أحدنا الآخر من فترة طويلة وسوف نقضى الوقت فى الدردشة .. هيا ياميرفت .. والبسى الفستان الخطير الذى اشتريناه من لندن حتى يقول الكل ان أجمل واحدة فى السهرة هى زوجة الصحفى عاصم .

وهى تتزين للخروج طفا على ســـطح خواطره حادث قديم وقع فى فترة خطوبتهما وكاد يحطم مشروع زواجهما .. كان ذلك اليوم موعد زيارته لخطيبته ، فحمل معه « التورتة » الكبيرة التى نقش عليها محل الحلوى المشهور الحرفين الأولين من اســـميهما متعانقين بشكل لطيف .. وكان تجهيز الشاى وملحقاته فى بيت

أسرتها يتم دائما وسط جو من الحيوية المرحة تخلقه لنفسها هذه الأسرة الصغيرة المكونة من حماته الأرملة وولديها اشرف وشامل

.. ويومها كان الأول لايزال طالبا فى كلية الطب والثانى فى نهاية دراسته الثانوية .. وأثناء التحضير للجلسة العائلية السعيدة بدأ يسمع عن حكاية كشط اللحم عن العظم التى اخذت تتكشف له مدعمة بنكتة من هنا وضحكة من هناك .. كان أشرف أثناء تلك المرحلة من دراسة الطب فى حاجة الى هيكل عظمى .. ولم يكن تحت يد الحانوتى سوى جثة حديثة العهد بالدفن ، ولاتزال عظامها فى بعض أجزائها مكسوة ببقايا اللحم .. أخذ الجنيهات العشرة وسلم الجثة لأشرف وشامل فى جوف الليل فحملاها الى البيت فى زكيبة وأدخلاها الى المطبخ تحت نظرات الأم الظافرة .. وكانوا يجيئون بأطباق الحلوى من المطبخ ويضعونها أمامه على المائدة وهم يصفون له كيف اشتركت الأسرة كلها ، باستثناء ميرفت التى كانت مسافرة عند عمتها فى المنصورة ، فى تقطيع الجثة الى اجزاء يمكن أن تحتويها الصفائح المليئة بالماء ثم تركوها تغلى على النار ، حتى يسهل عليهم بعد ذلك كشط بقايا اللحم عن العظم بسكاكين المطبخ .. وفجأة رأوا خطيب ابنتهم وهو يندفع بغير انذار ولا تحية من الباب الى السلم .. ورأى بواب العمارة باستنكار وتقزز منظر خطيب بنت سكان الشقة رقم ٩ وهو يفرغ على الرصيف كل ما فى معدته حتى عصارتها ..

أفاق عاصم من طغيان الذكرى القديمة على صوت سيارة نجوى وهى تتوقف أمام باب البيت .. وتأمل زوجته وهى تضبط الباروكة على رأسها أمام المرآة .. ما اجملها .. هى الشىء الجميل الوحيد فى أسرتها .. اخواها الآن طبيبان يبحثان عن زوجتين غنيتين .. أما حماته فهى الآن جثة ، اما فى قبرها أو مقطعة الأوصال فى بيوت بعض طلبة الطب .

ووصل اليهما صوت عزيزة وهى تستقبل نجوى فى مدخل البيت بشكواها من المهندس الذى لم يحضر فى موعده لاصلاح التليفزيون . وضحكات نجوى المرحة وهى تعبث بقلق الخادم الصغيرة التى ذاع بين أصدقاء الأسرة ولعها الجنونى بالممثلة زوزو بطلة المسرح الكوميدى ومعشوقة الجماهير العربية ..

وعندما تهيأت ميرفت للخروج دخلت بنجوى على عاصم .. بينهما دائما نوع من المشاكسة المرحة والاستلطاف والثقة .. ووقعت نظرة نجوى على عبارة الحب المسجلة على الجبس باللون الأحمر فأطلقت احدى ضحكاتها الطروب :

ــ بعد تسع سنين من الزواج ياناس ! .. والله ان الدنيا لاتزال بخير ! ..

ضغط عاصم يد زوجته :

ــ لاتزال بخير لكنها تحسدنى على ميرفت ..

وأخرجت نجوى من شنطتها الدقيقة المطرزة بالخرز البراق قلم أحمر الشفاه ، وكتبت على الجبس تحت كلمة صديقتها :
« يحيا الحب ــ نجوى » .

وتركتا عطرهما فى الحجرة التى سادها بعد خروجهما هدوء لم تلبث أن اقتحمته فرحة عزيزة العصبية :

ــ الحمد لله ، المهندس وصل .

تعانق الصديقان قبل أن يتلطفا فى صرف عزيزة تخلصا من الحاحها على أحمد لكى يتم الاصلاح قبل موعد اذاعة مسرحية « جوزنى مراتك » .. لكنها لم تبرح الحجرة لاعداد الشاى الا بعد أن رأت بعينيها الجهاز مفتوح البطن للفحص .. وتأمل عاصم

صديق الشباب وما فعلت به اشهر قليلة من الوحدة الحزينة منذ اكتشف أن زوجته خائنة .. الشيء الجديد فى الشخصية كلها هو تلك الغمامة المبهمة فى أعماق النظرة .. عايدة خانته لا لشيء الا لكى يكون فى شنطتها وفى دولاب ملابسها مثل ما عند غيرها أو اكثر .. لا حبا فى رجل آخر ، بل مجروفة بأكزيما السعار التى طفحت بالبثور على جلد مجتمع النساء .. ومع أن مسدسه كان فى جيبه عندما ضبطها متلبسة الا أن الطلاق ، حرصا على مستقبل الاولاد ، تم بهدوء ..

نجاة سأل احمد وهو يفحص أعماق الجهاز :

ــ عاصم .. ما رأيك فى فكرة الاختبار قبل الاختيار ؟

لكنه أدرك من صمت صديقه أنه لم يفهم السؤال ، فاستطرد مستسلما لمجرى خواطره :

ــ هل تذكر أنى اشتركت فى السنة الماضية فى مؤتمر هندسى عقد فى احدى عواصم دول الشمال الاوربى ؟ .. انهم هنـــاك يناقشون الفكرة ببساطة مذهلة ، لا كاحتمال بل كحقيقة واقعة ..

ــ فكرة فترة الاختبـــــار بين الرجـــــل والمرأة قبل توثيق الزواج ؟

ــ موضـــــوع الزواج كله مطروح على مشرحة البحث بكل حرية .. وتعلو أصوات تعلن أن مؤسسة الزواج بشكلها التاريخى الذى عمر حتى نهايات القرن العشرين قد ثبت فشلها فى ارساء أساس معقول لهناء الانسان المشروع فى الحياة .. الانسان بمعنى الرجل وبمعنى المرأة .. وعلى أساس الندية الكاملة .. وهناك من يرى أن الوصول الى طريقة لتجريد العلاقة الموثقة رسميا من المصالح المادية ومن الخوف على مستقبل الاولاد فى حالة الانفصال يجعل الرباط الوحيد بين الرجل والمرأة قائما على الارادة الحـــرة

الكاملة والعاطفة الحقيقية المشبعة ، ويقضى تماما على كل احتمالات الخيانة .. الا يمكن أن تكون دراسة مثل هذه الافكار دراسة موضوعية هى طريق السعادة للانسان الرجل وللانسان المرأة فى المستقبل ؟

وقع فى الحجرة صمت عميق دخلت أثناءه صينية الشاى بين يدى عزيزة التى غام وجهها فى الحال عندما رأت أحشاء الجهاز لاتزال بارزة بين يدى المهندس ، واستحثته بغير كلفة :

ــ لم يبق على رفع الستار أكثر من نصف ساعة ..

أشار اليها عاصم أن تضع الصينية وطردها باشارة أخرى حازمة بترت كل قدرتها على الالحاح ، فخرجت فاقدة لكل أمل .. حزينة الوجه والمشية ..

واستمر الصمت لحظة أخرى قبل أن يتكلم عاصم :

ــ ربما كانت هذه هى مهمة القرن الحادى والعشرين .

قال احمد ويداه منشغلتان فى دقائق أحشاء الجهاز المعقدة :

ــ آخر أخبار عايدة أنها فى بيروت ..

ــ لابد أن سفرها الى هناك كان من وقت قريب ، فقد لمحتها فى فندق الهيلتون فى الشهر الماضى ..

ــ وحدها ؟

ــ مع شلة كبيرة ..

تردد احمد مرة أخرى قبل أن يتكلم :

ــ مسكينة .. أحيانا أتساءل فيما بينى وبين نفسى لماذا لم أفرغ فى جسمها العارى رصاص مسدسى فأريحها هى نفسها

من كل هذا التردى الذى كان ينتظرها .. هل كان معها عندما رأيتها نجم الليل البارز وواسطة العقد فى النوادى والسهرات ؟

سكت عاصم عند الاشارة الى زهير .. كلاهما يعرف ذلك المشبوه اللامع الذى يتخذ من كافيتريا الفندق مكتبا لتوريد النساء لكبار هواة اللحم الحى من المحيط الى الخليج .. وما جدوى تقليب السكين فى الجرح .. وطال الصمت فى هذه المرة الى أن ظهرت الصورة آخر الأمر فى شاشة التليفزيون .. قال عاصم جاهدا أن يطرد شبح القواد الفخم من الحجرة :

ــ أخيرا سترضى عنك عزيزة !

شـــاهد الصديقان على الشاشة الصغيرة هيئة محلفين ومتهما فى قفص ومحاميا يلهج برطانة أمريكية ، فقال أحمد :

ــ هذا هو البرنامج الثانى .. والصورة الآن واضـــحة تماما ..

ــ هات لنا القناة رقم ٥ لنتفرج نحن أيضا على لحم زوزو الفاخر وهى تستعرضه مقابل جنيهين للتذكرة ..

أدار أحمد مفتاح القـــنوات فظهرت قاعة المسرح فى انتظار رفع ستار الفصل الثانى والكاميرا تواجه صفوف جمهور الرجال والنساء الذى يتقاطر للضحك على النكات الفاحشة وللفرجة على آخر صيحات قمصان النوم ، وقال وهو يغادر الحجرة :

ــ اغسل يدى فى الحمام وأنادى عزيزة لتتفرج على معبودتها وترضى عنى ..

على الشاشة الصغيرة رأى عاصم نجوى وهى تخلى كرسيها فى الصف الأول لزهير الذى رحبت به ميرفت بحرارة وتبادلا اتفاقا

سريعا فى همسات ضاحكة اختلط فيها شـــعر باروكتها بشـــعر باروكته ..

وعندما كانت الكاميرا تنتقل من جمهور الصالة الى المسرح بعد رفع ستار الفصل الثانى عاد أحمد من داخل البيت :

ـــ عزيزة يئست فنامت !

ـــ خيرا فعلت !

قالها عاصم وكأن فى سمعه دوى محرك سيارة نجوى وهى تنزل ميرفت بعد منتصف الليل أمام البيت ، ونظرته منكسة الى الكلمات الحمراء الغليظة المنقوشة على ساقه المكسورة .

الفهـــرس



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٣٠٠ قرش